

تاريخ الفرق الإسلامية السياسية والدينية

الكتاب الثاني

الشيعية العربية والزيدية

علاء الحظري

الدكتور

محمد إبراهيم الفيومي

دار الفكر العربي

تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني الكتاب الثاني

الشيعيَّة والحريَّة والزيديَّة

الدكتور
محمد إبراهيم الفيومي

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٢٠٠٢ / ٤٨١٣	رقم الإيداع
977 - 10 - 1629 - 6	I. S. B. N التقييم الدولي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذه موسوعة تقدم دراسة متواضعة عن:

«تاريخ الفرق الإسلامية السياسية والدينية»

* الخوارج والمرجئة.

* الشيعة العريية.

* الشيعة الشيعوية والاثني عشرية.

* المعتزلة - تكوين العقل العريي.

* الإمام أبو الحسن الأشعري فحص نقدي لعلم الكلام.

* الإمام أبو منصور الماتريدي وحدة أصول علم الكلام.

وهي دراسة تعالج موضوع الفرق الإسلامية والبحث عن أسبابها السياسية والدينية والاجتماعية، والبحث عن علاقتها بما أصاب المجتمع الإسلامي من علل وانحلال سياسي واجتماعي.

وبالرغم من أن موضوع الافتراق قد أشار إليه النبي ﷺ في حديثه: «ستفترق أمتي...» واحترار العلماء في شرحه وتكلفوا تصنيف الفرق حتى بلغت اثنين وسبعين أو ثلاثة وسبعين. وكان تكلفهم شديدا يحمل عسر التأويل بل ومخالفا لقانون النشوء والارتقاء والسنن الطبيعية لتطور الأشياء، إذ من الصعب أن نحمل عصرا واحدا مخاض ولادة جميع الفرق الإسلامية التي تضمنها الحديث، وكأن قانون التطور وقف عند القرون الأولى. بينما الحديث ورد في ذم التفريق ومدح الوحدة الواحدة وجعل مثواها الجنة. والتفرق مثواه النار.

فالدراسة تقويم وتقييم وتحليل ومقارنة وتحليلية رؤية نرصد من خلالها مستقبل نهضة المجتمع الإسلامي من خلال أحداث التاريخ الإسلامي. فهي دراسة للتاريخ الإسلامي قبل أن تكون دراسة عقائد الفرق، على ضوء ما أراه أن كل تغيير يلم بالمجتمع وراءه فكرة وعلى هذا أقدم الموسوعة.

د. محمد إبراهيم الفيومي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

[الأحزاب: ٣٣]

قال الإمام على في بعض خطبه:

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق:

حق الوالى على الرعية، وحق الرعية على الوالى فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية، ولا تصلح الولاية إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالى حقه وأدى الوالى إليها حقه عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن. فصلح بذلك الزمان فى بناء الدولة، ويشتت مطامع الأعداء، فإذا غلبت الرعية واليهى، وأجحف الوالى برعيته اختلفت هناك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال فى الدن، وتركت محاج السنن فعمل الهوى، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس... (١).

(١) نهج البلاغة للإمام على.

تقديم

بقلم: سيد هادي خسرو شاهي

خطوة على الطريق

إن هناك الكثير من الشواهد والوثائق التي تؤكد أن الوجود الشيعي قديم، قدم الدعوة الإسلامية، فهو يواكب بعثة الرسول ﷺ من بدايتها، هذا ما تؤكد النصوص^(١) الواردة على لسان النبي ﷺ والتي تكتظ بها كتب السنن والمتعلقة بالإمام علي وآل البيت عليهم السلام، هذه النصوص جعلت للإمام ولآل البيت خصوصية. ومن جانب آخر دفعت الكثير من الصحابة إلى التشيع لهم والالتفاف حولهم والاستئصال بظلمهم^(٢).

(١) من هذه النصوص حديث: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي». انظر مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب.

وحديث: عهد إلى النبي الأمر: اذهب يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يسخرك إلا منافق. انظر مسلم، باب حب الأنصار.

وحديث جابر بن عبد الله: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ بأمرين: بغض علي وترك صلاة العتمة. انظر مستد أحمد. وغير هذه النصوص كثير يمكن مراجعتها في كتاب خصائص الإمام علي للنسائي والكتب المتعلقة بآل البيت.

(٢) منهم: أبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك النهرازي الحضرمي، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت فاكهة بني ثعلبة الأنصاري، والحباب الخزاعي، وأبو سعيد الخدري، وابن التيهان أبو الهيثم بن مالك بن عتيك الأنصاري الأوسي، وقيس بن سعد بن عبادة، وأنس بن الحرب بن نيه، وأبو أيوب الأنصاري، وجابر بن عبد الله بن عمرو بن كعب بن غنم ابن سلمة الأنصاري، وهاشم بن أبي وقاص، ومحمد بن أبي بكر بن أبي قحافة، ومالك بن الحارث النخعي، ومالك بن نويرة، والبراء بن عازب بن حارث بن عدي بن جشم الأوسي الأنصاري، وأبي بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصاري، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أكرم بن فهر بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، وعبد الله بن غافل بن حبيب الهللي، وظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل، وخالد بن سعيد بن أبي عامر بن أمية بن عبد شمس، وأسيد بن ثعلبة الأنصاري، وأسود بن عيسى بن أسماء بن وهب.

ونميز الإمام علي - عليه السلام - بقدرته العلمية والجهادية من بين صحابة الرسول ﷺ هو ما يؤكد استمرار تشيع الصحابة له في عهد الرسول ﷺ وبعد وفاته . . وتولد من جيل الصحابة جيل آخر من التابعين المتشيعين للإمام وآل البيت عليهم السلام .

ويشهد التاريخ على أن الشيعة من صدر الإسلام لم ينقطعوا أبداً، ولا برهة، عن صف الأكثرية (الصف الإسلامي العام) في ممارسة النشاط الاجتماعي، بل مضوا بجذ ومثابرة إلى كل ما يخدم تقدم المسيرة الإسلامية بفاعلية، وكان لهم حضورهم في حروب الفتوحات، وشاركوا في الثورة على الأنظمة الطاغوتية في عصورهم، وبذلوا في هذا السبيل الأرواح والأموال، ولم يتوانوا عن شيء من التضحيات.

لم يكن قد ظهر في مجتمعات ذلك الزمان التضاد بين الباطن والظاهر، والاردواج بين الفكر والعمل، بالشكل الذي يتجلى فيه اليوم، ونراه رأى العين في مجتمعاتنا - وذلك إثر جهل بعضهم عن يؤثر التضحية بالمبدأ لحساب المصالح الشخصية - وبالتالي لم يأخذ أتباع الأئمة وأوليائهم المخلصين، التشيع مغنما ووسيلة للارتزاق، بحيث يدفعهم ذلك للتخلف عن تعاليم الإمام!

فحينما يدعو الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - الشيعة إلى الاندماج مع بقية المسلمين، والمساهمة في النشاط العام، وعدم التخلف عن المسار الكلي الذي يتنظم المسلمين، ألا يكون التخلف عن ذلك، والتعلل بالأهواء والفهم المنحرف، سوى مخالفة لحكم الله ورسوله؟

جاءنا في الأثر أن أحدهم سأل الإمام - عليه السلام - بما نصه: كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وبين خلطائنا من الناس، ممن ليسوا على أمرنا؟ قال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم، فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، وقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الأمانة إليهم...» (١).

هناك إذن فرق بين الشيعة - بمعنى أتباع الإمام - وبين الشيعة المحترفين الذين تشيعوا للتكسب!

الشيعة الحقيقي لا يضحى أبداً بالمبدأ لحساب مصلحته الخاصة، ولا يركب الوسيلة غير المشروعة، لبلوغ ما يريد بعد أن يسبغ عليها لونا من الشرعية!

(١) أصول الكافي، ج ٢ ص ٦٣٦، كتاب العشرة.

الشيعة المخلص هو الذى يحافظ أبدا على أصول ثقافته . . . وهو الذى يعكس سلوكه الذكر الحسن لأئمته، ويجعل القلوب تنبض بهذه الذكرى وتحافظ عليها حية . . وهو الذى يسعى لكى يبقى علم التشيع يهتز عاليا خفاقا حتى ظهور الإمام المهدي - الذى سيملا الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا^(١)

أجل، إن الشيعة الذى يوالى الإمام عليا - عليه السلام - حقا، لا يضحي بالحقيقة، وإذا قدر له أن يصبح ضد التيار، فهو يفعل ذلك دون أن يخشى الغرق . إذ لا شرف أسمى من الموت فى طريق نهج الإمام علي ومدرسته .

وشيعة مثل هذا، لا يسمح لنفسه أبدا، أن يهوى أخلاقيا إلى منحدر سحيق، فيلجأ إلى لغة الشتيمة ويحتذى بالافتراء والكلمات الفاحشة، يرمى بها من يتبع نهج علي ويسير على دربه، يكيل إليه الافتراء ويهته بالتهمة . . ويرفع حراب التشهير والتسقيط دون مروءة ضد الذين يستمدون فى عصرنا هذا، من أبى ذر نهجه وصدقته، فيستبقون غيرهم من الناس فى تشخيص الأمور وإدراكها، حتى لتكون هذه الحرب التى يواجه بها هؤلاء المستمدون من علي وأبى ذر نهجهما، أشد مما تكون - فى حدتها وقسوتها وبشاعتها - على النواصب والخوارج!

هذه واقعة صفين أمامنا، وهذا أمير المؤمنين يرى أهل الشام يبادرونه بالشتم والسباب، فما يكون منه (سلام الله عليه) إلا أن يمنع أصحابه من التعرض لهم بالمثل، إذ يقول: إنى أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب فى القول، وأبلغ فى العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به^(٢).

والآن هل يليق بالإنسان وهو يعلن انتسابه إلى الشيعة أن يمر على هذا النهج بما ينطوى عليه من تعاليم - فى التعامل مع الآخرين - فيبادر إلى تحطيم من يختلف معه بالرأى، وينزل عليه بأقذع التهم والباءات؟

ثم لنا أن نجد السؤال، ونقول: ما العمل؟ وما هى الوظيفة التى يجب أن ينهض بها المشايخون الصادقون لعلي.

(١) انظر المهدي المنتظر، للشيخ عبد المحسن العباد، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) نهج البلاغة للإمام علي، ص ٣٢٣ طبعة القاهرة.

وآل علي عليهم السلام، في عصر لا يملك فيه الأعداء - أو المخالفون الجهلة - إلا لغة الشتيمة والسباب يسدون بها صفحات كتبهم ومجلاتهم، وهم يملأون الجو ضجيجاً، ويسوقون ضروب التهم الواهية إلى الشيعة من قبيل نسبتهم إلى الإسرائيليات، وإلى أسطورة عبد الله بن سبأ!

لا ريب أن الشتيمة والسباب لا يليقان لغة بمقام هذه الفئة التي أراد لها مولاها أن تنزه أفواهها عن هذا المنحدر الهابط، كما أراد لها الإمام الصادق - عليه السلام - أن يكون من شأنها أنها تعكس في أعمالها وسلوكها القدوة المثلى، حتى تشهد الدنيا، أي أناس هم أولئك الذين تربوا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

يقول الإمام الصادق - عليه السلام - في حديث آخر يوصي به شيعته بعد أن يقرئهم السلام: صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفرى، فيسرنى ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك، دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر^(١).

ولكن يطرح، بإزاء هذا النهج، السؤال التالي:

في ظل هذا النهج الذى يطفح بالسلام والإنسانية، ما هو واجبنا، وكيف ينبغي لنا أن نتصرف إزاء أشخاص من قماش ابن تيمية وإبراهيم الجبهان وإبراهيم على شعوط وإحسان إلهي ظهير ودكتور عبد الله الغريب ومن يقع على شاكلتهم؟

لا ريب أن سمو هؤلاء وأمثالهم - في الماضي والحاضر - وأغراضهم الملوثة والمنشورة في كتبهم، هي الباعث الذى جعل بعض عوام أهل السنة ينسبون إلى الشيعة أبشع الصفات وأفظعها مما يخرج بهم عن صفة الإنسانية^(٢) في حين ذهبت مجموعة أخرى منهم لرمى الشيعة بالشرك أو الغلو، حتى راح الشق يتسع في المجتمع الإسلامى الشيعى - السننى، وتزداد الفاصلة بين الاثنين أكثر فأكثر، بحيث باتت تواجهنا أحيانا أسئلة من قبيل: وهل قرآن الشيعة هو مثل قرآن السنة؟ هل الشيعة يسبّون أصحاب الرسول؟ ...

(١) أصول الكافي، ص ٢، باب العشرة، ص ٦٣٦.

(٢) تراجع مقدمة: أصل الشيعة وأصولها، طبعة القاهرة، للمرحوم كاشف الغطاء، للملاحظة بعض ما يقال عن الشيعة وينسب إليها.

وفى النتيجة آل الأمر إلى أن يستغل الاستعمار وأيديه هذه الفقرة، ويسعر نارها أكثر فأكثر كي تكون له السيطرة دائما.

أجل، ليس ثمة من يشك بوجود مثل هذه الأوضاع، بيد أن السؤال الذى يبقى يفرض نفسه، هو: ما العمل؟

الذى نعتقد نحن، أنه - بدلا من أن نسلك نهج الرد بالمثل - علينا أن نفكر بعمل جدرى أساسى يتيح لنا فرصة نشر تاريخ الشيعة وعقائدها وبيانها بلغات مختلفة، وعلى مستوى عالمى، وذلك بالاعتماد على رؤية علمية كاملة للشيعة، تتوسل التحقيق العلمى والتأريخى الذى يعكس التشيع على حقيقته وكما هو، لا كما هو عليه عند بعض العوام، وكما يفهمونه، أو الجهلة أو بعض العملاء من المستشرقين!

نحن نعتقد أن هذا الأسلوب يمكننا إلى حد بعيد من وضع حد للسفسطة المغرضة التى تهدف إلى دق إسفين الفرق بين الصف الإسلامى الذى يعتقد بأصول واحدة.

حقا، لماذا يلجأ الإنسان إلى لغة الشتيمة والسباب، إذا كان يعتقد بصحة منطق، ويؤمن بأحقية ما يقول؟ ولماذا يتوسل بممارسات صيبانية تافهة، لا تليق بمقام الإنسان الشيعى، ليعطى بذلك اللريعة إلى أعدائه، فيقلبون الحقائق وينسبون الشيعة جميعهم إلى عبد الله بن سبأ الشخصية اليهودية الموهومة؟^(١).

لا نشك فى أن مشاركتنا فى الملتقيات الإسلامية والمبادرة إلى تشكيل المؤتمرات على مستوى كبار علماء المذاهب الإسلامية، وإصدار الكتب النافعة والمجلات المفيدة بلغات مختلفة، وهى مما يساعد على بلوغ الهدف الذى نشده بشكل أفضل، فى حين تلعب الجهود المبذولة فى طريق تنشيط دور مؤسسة التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة، دورا مؤثرا فى هذا المضمار.

وعلى هذا الصعيد تعد عملية تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى الأربعينيات، التى بادر إليها فى القاهرة أحد علماء ومفكرى الشيعة الكبار الشيخ محمد تقى القمى بمساعدة كبار مشايخ الأزهر الشريف، واحدة من أبرز المشاريع الأساسية التى يمكن أن يكون لها دور مهم فى التعريف بالشيعة على مستوى عالمى، وخصوصا أن ما

(١) انظر الدراسة المعمقة للعلامة السيد مرتضى العسكرى فى كتابه «عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى» طبعة بغداد وبيروت. وكتابنا: عبد الله بن سبأ، بين الواقع والخيال، طبعة مركز البحوث الإسلامية - قم: إيران.

يساعد في ذلك أن هذه الدار أنشئت إلى جوار الأزهر، المؤسسة الأساسية الإسلامية في العالم.

لقد كنا منذ خمسين سنة تقريبا، وحتى قبل أن تصدر الفتوى التاريخية للشيخ محمود شلتوت في جواز التعبد بالمذهب الجعفري، ثابتين على نهجنا هذا وفي الدفاع المنطقي المتين عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، ولازلنا نتمسك بهذه الدعوة، تشهد على ذلك أعمالنا في مختلف المطبوعات والنشرات الدينية التي أصدرناها أو ساهمنا بها وقتئذ في الحوزة العلمية الدينية بقم - إيران^(١).

بديهي أن التقريب بنظرنا يعني المعرفة الصحيحة لأصول التشيع، وللعقائد الواقعية لأهل السنة، ولا يعني الميل إلى مذهب آخر بعبارة أوضح: لا يعني التقريب والحرص على الوحدة والأخوة الإسلامية، التخلي عن عقائدنا، كلا وأبدا، فمثل هذا الفهم هو ضرب من السفسطة والمغالطة، وإنما يعني التقريب الثبات على عقائدنا والحفاظ عليها، والسعى من أجل بيانها والدعوة إليها وبأسلوب صحيح، بعيدا عن تحريك العواطف وإثارة ردود الفعل السلبية، وخاصة أننا جميعا متفقون في أصول العقائد.

فإذا كان الباحث سليما معافا من الضعف والعجز العلمي، ملتزما بما وجهه البحث نحو المعرفة المنطقية، لا يحترق أبدا ولا يسعى وراء «الشذوذات» ويتشبث بالإسرائيليات التي تطفح بها كتب المذهب الذي يختلف معه، وخصوصا أن مثل هذه الإسرائيليات يمكن العثور عليها في كل مذهب من المذاهب الإسلامية، وإنما يختار أن يعود إلى كتب الفريق الذي يختلف معه، ويتوفر على دراسة المسائل المعنى بها، برؤية علمية تحليلية كاملة، تسوقه إلى الحكم الصحيح.

هذا هو المفهوم الواقعي للتقريب. بيد أن الذي يؤسف له حقا، هو أن البعض يستند إلى روحية إثارة العوام من الناس وتحريضهم، كما حصل في زمان المرحوم آية الله البروجردى (المرجع الديني الأعلى في إيران)، حيث راح هذا البعض يصف مراسلات المرحوم البروجردى مع الشيخ محمود شلتوت، على أنها ضرب من التراجع! دون أن ينتبه أن هذه المراسلات والتعارف، هي التي أثمرت في نهاية المطاف الفتوى التاريخية لشيخ الأزهر حول الشيعة.

(١) من قبيل نشرات: ندادى حق، نور دانش، مكتب إسلام، مكتب تشيع، وظيفة، آستا نقلدس ومعارف جعفرى (بالفارسية).

لقد حاول المتلبسون بروح التحريض من السطحين الذين يفترقون للاستقلال الفكرى، أن يصوروا المدافعين عن التقريب بالنهج المنطقي، إنهم يعكسون ضربا من التسنن! فى مركز التشيع! إلا أن وجود رجال كبار من الشخصيات الشيعية فى طليعة الركب، حال دون نجاح هذا المسعى، وأسقط بيد أهله.

فمن بين الشخصيات الشيعية الكبيرة التى اشتهرت بمسعى الدفاع عن فكرة التقريب، تبرز أسماء من قبيل: آية الله البروجردى وآية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والعلامة محمد رضا المظفر، والعلامة السيد شرف الدين، والعلامة السيد محسن الأمين العاملى والشيخ محمد جواد مغنية وغيرهم.

ويمكن أن نسجل فى هذا المضممار، أن قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية، تألفت فى الأفق الإسلامى عامة، بعد النهضة الإصلاحية التوحيدية التى تضافرت عليها جهود المجاهد العالم المثابر السيد جمال الدين الحسينى الأسدى (المشهور بالأفغانى) والعالم الأزهرى المتنور الشيخ محمد عبده، حيث استطاعت أن تحقق بدعم كبار مراجع الشيعة والشخصيات السنية المتفتحة انعطافة حاسمة فى تأريخ العلاقات بين المسلمين، وأن تصيب موجات التعصب الجاهلى بضربات فى الصميم، وتحقق مكاسب فى هذا السبيل.

يكتب العلامة السيد محمد حسين الطباطبائى (استاذنا فى التفسير وصاحب التأليف القيم: الميزان فى تفسير القرآن) فى هذا المضممار:

«ليس ثمة شك فى رجحان الاتحاد أو التقريب الإسلامى، من وجهة نظر العقل والمنطق. طبيعى أن عوامل التفرقة عملت ما استطاعت فى فصل هاتين الطائفتين الإسلاميتين الكبيرتين عن بعضهما البعض، ولكن علينا أن نتذكر دائما أن اختلافهما هو فى الفروع، وليس ثمة اختلاف بينهما فى الأصول، بل هما فى فروع الدين الضرورية من قبيل الصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك، والجميع يجتمعون على إله واحد، ونبى واحد، وقرآن واحد، وقبله واحدة.

تأسيسا على هذا الأصل، نجد أن شيعة الصدر الأول لم يعتزلوا أبدا صف الأكثرية، ولم ييخلوا بمساهمتهم مع عامة المسلمين فى تقويم المسار الإسلامى العام، بل بذلوا الجهد والنصيحة فى هذا السبيل.

والآن على المسلمين أيضا، أن يعودوا إلى أنفسهم، آخذين بنظر الاعتبار اتفاقهم على أصول الإسلام، وما تجرعه من ضغوط في هذه الفترة من قبل العناصر الخارجية. عليهم أن يكونوا في صف واحد، وأن يتخلوا عن التفرقة العملية. وينبغي للمسلمين في الوقت نفسه، أن يثبتوا هذه الحقيقة في العمل، قبل أن يكتشفها الآخرون ويسجلوها في كتبهم بعنوان كونها حقيقة تاريخية.

من حسن الحظ، أن العالم الإسلامي بدأ يتجه إلى هذه الحقيقة رويدا رويدا. ولم يأت تأكيد مراجع الشيعة لفكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية إلا ناظرا لهذه الجهة بالذات، كما حصل الأمر نفسه لشيخ الأزهر، الشيخ الجليل محمود شلتوت، الذي عبر عن هذه الحقيقة بمنتهى الصراحة، وأعلن للعالم أجمع الاتفاق الديني الكامل بين الشيعة والسنة. وليس للشيعة إلا أن يلتزموا جانب التقدير والثناء لهذا الرجل الكبير، ويقدرُوا له مبادرته النزهاء.

نسأل الله - سبحانه - أن يهدي المغرضين ويصلح المفسدين، وأن يوفق المسلمين للاتحاد العلمي، كي يعود عليهم مجدهم السالف وعظمتهم الآفلة^(١).

ونحن لا نملك إلا أن نؤمن على دعاء أستاذنا المرحوم، السيد طباطبائي متمنين من صميم قلوبنا، أن يفتح قصار النظر وذوو المصالح، على الساحة من حولهم ليتجهوا إلى المؤامرات الواسعة التي يحيكها أعداء الإسلام، ويتلمسوا، بإحساس عميق المخاطر الكبيرة، فيبدلوا جهودهم في طريق الوحدة وسبيل التقريب.

لقد ساند العلامة المرحوم الشيخ عبد الحسين الأميني أيضا، الوحدة الإسلامية كأصل، وأعلن في كتابه القيم صراحة، أن البحث العلمي والكلامى لا يمكن أن يكون - ولا يجب أن يكون - عائقا يبعث على الخلل في مسار الوحدة.

لذلك تراه يكتب في مقدمة كتابه القيم: «الغدير» ما نصه:

«وإن الآراء والمعتقدات في المبادئ والمذاهب حرة، لا تفصم عرى الإخوة القومية التي جاء بها الكتاب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ (١٠) [الحجرات]، ولو بلغ الحوار فيها بين أولئك الإخوان أشده، وقام الحجاج والجدال على ساقيهما، جريا على سيرة السلف، وفي مقدمتهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

(١) كتاب الشيعة والتشيع، للعلامة الطباطبائي، طبعة «قم» - إيران.

نحن المؤلفون فى أقطار الدنيا وأرجاء العالم الإسلامى على اختلاف آرائنا فى المبادئ وتشبثنا فى الفروع، يجمعنا أصل قويم، وإيمان بالله ورسوله. تجمعنا روح واحدة، ونزعة دينية منزهة عن الأهواء الباطلة، تجمعنا كلمة الإخلاص والتوحيد. نحن المؤلفون نعيش تحت راية الحق، وتحت لواء الإسلام، وتحت قيادة الكتاب ورسالة النبي العربى الأقدس. نداؤنا ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ (١٩) [آل عمران]، وشعارنا «لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ألا نحن حزب الله وحماة دينه»^(١).

خطوة على الطريق

بعد المقدمات المشار إليها آنفاً، نصل إلى الكتاب الذى بين أيدينا، إذ نعتقد أنه جهد صادق فى هذا السبيل. والذى نراه أن نشره لا يساهم فى بيان تاريخ التشيع إلى العالم السنى وحسب، وإنما يغذى أيضاً تطلعات الإنسان المعاصر ولهفته إلى هذا الدرب إلى المعرفة. وهو بذلك يتيح الفرصة لدوى الإنصاف لأن يميزوا بيننا وبين من يشير الضجيج، ويحكموا على بينة وبوضوح.

وبذلك يعد هذا الكتاب: «تاريخ الفرق الإسلامية» للدكتور محمد إبراهيم الفيومى وهو من العلماء الأفاضل ومن أساتذة الأزهر الشريف، خطوة كبيرة فى تعريف التشيع والتعرف على تاريخ الشيعة، يستند إلى المصادر الأصيلة التى لا مجال لإنكارها، وخصوصاً أن أغلبها هو من كتب الإخوة أهل السنة أنفسهم.

إذا شئنا أن نمد جسور التفاهم ونقتلع الأهواء والظنون التى لا داعى لها، ونطفيء أمواج الدعاية المضادة المتلفعة بالمقاصد الفاسدة، علينا أن نفتح، باب البحث والتحقيق العلمى. فبذل الجهد فى هذا المجال يفسد على الآخرين التربصين، فرصتهم فى بث الأباطيل، والنيل من الوحدة الإسلامية، ولا يسمح فى الوقت نفسه للبعض، بوضع الأحاديث، ليرمى الشيعة فى قرن العلم والتكنولوجيا بالانتساب إلى ابن سبأ اليهودى الموهوم، أو أن يزعم أن التشيع صنعة الصفوية! أو آل بويه، أو يرمى الشيعة بالشرك؟ لسجودهم على التراب النظيف، وينعتهم بالغلو المساوى للكفر، لحبهم أهل البيت عليهم السلام.

إن التشيع الصادق للإمام على - عليه السلام - يدعونا إلى أن نلج هذا الطريق الذى يتسم بالجلدية، ويعد أكثر الطرق نجاعة ومنطقية. بل الواجب أن نحوله إلى مسار

(١) انظر: الغدير، مقدمة المجلد الخامس، طبعة بيروت.

كلى ومنهج عام، نخطط فى ضوءه نشاطنا المستقبلى، ونسعى بصدق لبذل الجهود فى سبيله من دون أن نهاب تهم العدو وافتراءاته أو نخشى الأصدقاء الجهلة.

وهنا، من الضرورى أن نشير إلى أن الساحة الثقافية فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى، فى حاجة ماسة إلى مثل هذه الدراسات المعتدلة والموضوعية التى تلقى الضوء على تاريخ الشيعة والتشيع، وإن كنا قد نتفق وقد نختلف مع المؤلف فى بعض القضايا المتعلقة بنشأة الشيعة والتشيع إلا أن الخلاف فى بعض الآراء لا يفسد للود قضية. ولا يعنى التقليل من شأن الكتاب وأهميته كما لا يعنى التقليل من شأن الأستاذ الدكتور الفيومى وقيمته العلمية الكبيرة التى أهلته للخوض فى مثل هذه القضية الهامة التى تسهم فى التعرف على تاريخ الشيعة والتشيع وتسهم بالتالى فى التقريب بين السنة والشيعة، فإن التقريب فى أساسه، إنما يعتمد على المعرفة التى تنفى الجهل والشك، الذى هو أساس الفرقة بين المسلمين.

فى الواقع إن هذا الكتاب الذى بين أيدينا، إنما يمثل دعوة إلى إعادة قراءة التاريخ عامة وتاريخ الشيعة خاصة، وإننى على ثقة أن هذا الجهد العلمى المشكور الذى بذله المؤلف الأستاذ العالم، هو فاتحة خير للإسلام والمسلمين. . . فجزاه الله خير الجزاء. . .

القاهرة - ربيع الثانى ١٤٢٢هـ سيد هادى خسرو شاهى

مقدمة

يقول أبو الفرج ترجمته الأصفهاني في مقدمة كتابه: «مقاتل الطالبين» ونحن ذاكرون في كتابنا . . . جملا من أخبار من قتل من ولد أبي طالب منذ عهد رسول الله ﷺ ومن احتيل في قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات في تواريه، ومن ظفر به فحبس حتى هلك في محبسه، على السياق لتواريخ مقاتل من قتل منهم، ووفاة من توفى بهذه الأحوال لاعلى قدر مراتبهم في الفضل والتقدم:

ذلك هو تاريخ «الشيعة والتشييع» تاريخ مأسى وغدر وتآمر وتجسيد آلام. وهو تاريخ عقدي سياسي ولا يقوم تحت مظلة فكرية واحدة ولا يجمع بينها سوى الثار للإمام على وبنيه، وهي دعوى باطلة تلبس مسوح الرهبان وتحمل في أحشائها طعنا في الإسلام. ولقد اندرج تحت مصطلح الشيعة والتشييع ألوان من طوائف لا ينسحب عليها مفهوم الشيعة والتشييع الذي قرره أهل السنة والشيعة الاثنى عشرية المعتدلة. فمنهم من ألّه عليا، ومنهم من جعل فيه جزءا إلهيا . . . إلى آخر أباطيل كثيرة حتى بات مصطلح الشيعة متهما ومن يحمله متهما وتاريخه متهما في حد ذاته من حيث هو تاريخ.

لذلك رأينا تحريره وإنصاف الفرق العادلة وتمييزها عن الظالمة. فهناك العربية الزيدية وهناك الغالية الشيعية والرافضة وهناك الإمامية الاثنى عشرية المعتدلة. وتلك قصة هذه الدراسة.

فكان من الإنصاف حتى يتحرر مفهوم الشيعة من ركام المقالات الظالمة التي أظلمت تاريخ الشيعة بإلحادها وزندقتها أن لا تحمل الفرق الغالية، وهي ليست من الإسلام في شيء، وصف شيعة. إنما حسبها أن توصف بالطوائف الغالية أو فرق رافضة . . . أما المعتدلة منها فيقال عنها شيعة الزيدية وشيعة الإمامية الاثنى عشرية تنزيها لها عن الأفكار الضالة المتنازعة.

ولا ريب في أن هذا التخاصم بين أفكارها الغالية لا يمثل مشكلة نظرية خطيرة فحسب، بل هو أيضا خطر كبير على حياة المجتمعات الأخلاقية والحضارية على مدى

اتساعها. وإذا لم ننجح في الاهتداء إلى بصيص نور يخرجنا من شعاب التيه لم يكن لدينا بصر حقيقى نافذ يمكننا من أن نتعرف على الصيغة العامة فى التاريخ الإنسانى. وسنبقى نائهين بين أكوام متفرقة مشعثة من المعلومات التى تفتقر فيما يبدو إلى وحدة فكرية.

وإذا كان التاريخ قد وجد مبررا لوجود صراع عقدى بين الغالية الشعبية إبان حكم الأمويين ثم بينها وبين العباسيين الذين نكلوا بالبیت العلوى صاحب الشرعية الذى كافح الأموية مع الشعبية، ثم غدر بهما معا البيت العباسى. فلإنها رأت فى التفكير العقدى أيا كان نوعه ومشربه، تحديا مباشرا وواضحا للحكم السياسى. وكانوا يرون أن مهمة التفكير العقدى الدينى أيا كان مصدره - هندى فارسى، إسلامى - هو إعادة بناء للمجتمع كلية طبقا لأهداف العقيدة الذين كانوا ينادون بها. ولا ريب فى أن هذه المشكلة - التناقض بين السياسة القائمة ومبادئ عقائد الفرق هى: فى نظرهم - نواة العدل السياسى وأساس الحرية ومناهضة قضية القضاء والقدر والقدرة الإنسانية وتقدمت عليها نظرية الحق الإلهى.

ومن وراء ستار حملت عقائدهم نقدا للمجتمع القائم. وقدمت تكهناتها على أساس وجود «مفتاح واحد للتاريخ» دلائل عن قيام المهدي المنتظر فى مرحلة مستعطشة لمبادئ العدل السياسى وقيم الحق.

وتعدى صراع الفرق الغالية، العدو السياسى، بسبب سياساته إلى صراعات أهلية. وكانت النتيجة أن تسويات الصلح لم تكن تسويات سلمية، وإنما كانت أدوات للثأر القومى بدلا من كونها أدوات للترضية السياسية وكانت سياسة الثأر التى أوقعت تلك الفرق الغالية بشعوبها ليست سياسية وإنما هى نوع من الانتحار القومى، فالثأر تجاهل للغد فى محاولة فاشلة لحمل الحاضر على أن يعيش شقاء بات فى عداد الماضى.

ثم يحدثنا التاريخ كيف أن خلفاء بنى أمية - بعد أن حطموا الشيعة والخوارج - بدأوا يهاجمون القدرة التى أسسها جهم بن صفوان ثم وصل بعد ذلك إلى المعتزلة الفتية. فيحدثنا التاريخ أنها نشأت فى أواخر حكم بنى أمية وأن مؤسسها هو واصل بن عطاء وأنها كانت فى أول أمرها مذهبية محضة قبل أن تختلط بالسياسة وتظفر بالأهمية العظمى وتتأرجح بين عواصف أهواء الخلفاء فى العصر العباسى، ولم تكن المعتزلة وحدها التى قاومت أهوال الخضوع للخلفاء بل إن الشيعة أيضا قد كان لها معهم مواقف

عنيفة لم يكد الخلفاء الأولون من العباسيين يتتهون من القضاء على الأمويين حتى تفرغوا للعلويين فصبوا جام غضبهم واضطهادهم على الشيعة بعامة والزيدية بخاصة. وليس هذا فحسب، بل إن الفروع الشيعية التي نشأت بعد جعفر الصادق كالناوسية والموسوية والخطّائية وغيرها من المذاهب والفرق التي نشأت فى ذلك العهد والتي كان تعددها وتعارضها سببا فى تكون المذهب السنّى وتسميته بهذا الاسم أم لا فى العثور على الصراط المستقيم الذى يقتاد أتباعه إلى أهداف الرسالة التى لم تشوهها البدع ولم تتل منها الأغراض، وكان من بين المؤسسين الأولين لهذه الجماعة تحت اسم «السنة» عدد من تلاميذ الحسن البصرى، وابن سيرين، وأبى قلابة، وأبى حنيفة، ومالك بن أنس.

ولما ولى المأمون الخلافة أراد محو الشقاق بين العباسيين والعلويين بحجة أنهم جميعا هاشميون فدعاه ذلك إلى رعاية الشيعيين وحمايتهم؛ لأنهم أنصار أهل البيت الهاشميين وقد سند الاعتزال، وأيد المعتزلة بكل ما لديه من قوة بل صار هو نفسه معتزليا مقتنعا برأيه، قوى الشكيمة على من خالفهم، ولكن هذه المناصرة للمعتزلة جعلتها تطغى وتضطهد زعماء أهل السنة وعلى الأخص الإمام أحمد بن حنبل الذى يحدثنا ابن الجوزى أن الخليفة المعتصم قد أمر بجلده وسجنه فجلد وسجن ولم يظفر بحريته إلا بعد ثمانية وعشرين شهرا. وتلك بادرة تحتاج إلى دراسة.

وليست هذه فحسب، بل إن شأن هذه الجماعة جعل ينمو ويعظم وفى ذلك العهد ظهر فيها عدد من زعمائها وأنصارها بيد أن هذا لم يدم طويلا، إذ لم يكد الخليفة المتوكل يلى الحكم حتى جعل رد الفعل يظهر ويتجلى فى حياة أهل السنة فيستعيدون قوتهم ويكافحون الشيعة والمعتزلة.

وفى ذلك العهد ظهر فيها عدد من العلماء حملوا لواءها بهيئة مشرفة ترفع الرؤوس، وتسجل مواقف العقلية الإسلامية بأحرف الخلود كالترمذى، وأبى بكر السجستاني، وعلى الأخص توجت أعمالهم فى هذه الحقبة بمنتجات أبى الحسن الأشعري الذى كان مذهبه على قمة الاعتزال بين الحنابلة والمعتزلة والذى رفع نجاحه رأس أهل السنة خاصة، وعلماء الكلام بعامة.

وقد ظلت الحال على هذا المتوال من التقدم وفى منتصف القرن الرابع الهجرى استولى الفاطميون على مصر ونشروا فيها مذهبهم. وبهذا أحيط مذهب أهل السنة

بموامل المحاربة والإضعاف من كل جهة، فالفاطميون في مصر والبويهيون في بغداد قد ضيقوا عليهم الخناق ولم يبق لهم ولى ولا نصير سوى السلطان محمود الغزنوى. وفي أثناء هذا الإحداق الخائى من كل الجوانب هبَّ السلاجقة السنيون واستولوا على بغداد في سنة ٤٤٥ للهجرة فتتفست أهل السنة الصعداء وجعلت مدارسهم تنتعش. ولهذا كان القرنان الرابع والخامس ساطعين في المعارف الدينية بأنواعها. فمن أهل السنة ظهر أبو بكر الأجرى، وأبو الحسين الملقى، وابن بطة العكبرى، وأبو بكر الباقلانى، والحاكم النيسابورى، وأبو منصور البغدادي، وإمام الحرمين الجوينى والإمام الغزالى. ومن المحيط الشيعى المعتزلى برز الشيخ المفيد، والشرىف المرتضى، وأبو جعفر الطوسى فى المشرق، وابن حزم فى المغرب، وكان فى عصره أقوى المدافعين عن المذهب الظاهرى. وقد اعتمدنا على أمهات كتب هذه المذاهب وأساسياتها الرئيسية، وكتب التاريخ الموثوق بها مثل: كتاب السنة لـ «أحمد بن حنبل» و«منهاج السنة النبوية» لابن تيمية و«تليس إبليس» لابن الجوزى، و«أصول الدين» لعبد القاهر البغدادي و«الفرق بين الفرق» لنفس المؤلف، و«مقالات الإسلاميين» للأشعرى، وكتاب «الفصل لابن حزم» و«الطبقات الكبرى لابن سعد» و«الملل والنحل للشهرستانى»، وكتاب «الخطط» للمقرزى و«الخطط» لابن الأثير و«تاريخ الأمم والملوك» للطبرى، وكتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد، و«منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة» لجمال الدين الحلى، و«فرق الشيعة» لحسن بن موسى النوبختى، و«فهرست كتب الشيعة» لأبى جعفر الطوسى وكتاب طبقات المعتزلة لابن المرتضى. وكثير غير هذا من المصادر الإسلامية، و«الاحتجاج للطبرسى» و«الشيعة فى الميزان» لمحمد جواد مغنية. و«تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة» د/ محمد على فياض. و«عقائد الإمامية» لمحمد رضا المظفر. ومرضى العسكرى. و«إمامية الزيدية».

ومن الأوربية التى يعتبر مؤلفوها من أعيان الباحثين كـ «ماسينيون» و«هنرى كوربان» و«نادير» وما إلى ذلك مما يؤلف مجموعة محترمة من المستندات المذهبية والتاريخية المعتمدة و«فيلهوزن» و«فان فلوتن»، و«أبلياييف» و«دونالدس» و«جولدتسيهر». ومهما يكن من الأمر فإن الدور الذى مثله أهل الاعتزال، إذ يعنى بقيمة زعمائها العقلية والعملية وبنضالهم القوى ضد غلاة الشيعة وضد جميع الفرق التى أحدثت تشققات فى الصفوف الإسلامية أو فتحت ثغرات فى الأمة.

وكانت محاولات ابن هُبَيْرَة الذى كان وزير المكثفى والمستنجد على التعاقب والذى كان من أشهر مشاهير المناضلين عن السنة وكان يحده الأمل القوى فى إعادة

بناء ذلك التماسك، وقد آمن بأن الوسيلة المثلى لهذا هي ربط الشيعة المعتدلة بالسنية. ومن نصوصه في ذلك قوله: «نحن لا نريد ترك على بين أيدي الروافض فنحن أحق منهم بأن نعدده منا إذ إننا ننتمي إليه وهو يتنمي إلينا».

وقد نقل لنا في مؤلفنا هذا النص لابن هبيرة من كتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب؛ ولأن محاولاته جديدة بالدراسة.

ومما يدعو المؤلف إلى احترام الوزير أنه كان في كتابه، «الإفصاح» معتدلاً إلى أبعد حدود الاعتدال فذكر جميع أصحاب المذاهب التشريعية على مستوى واحد دون انحياز إلى أحدهم ضد الآخرين.

ومن تلك الجهود المشكورة أيضاً «نادر شاه» الذي أراد - في القرن الثامن عشر - أن يتقرب عن حل سلمى للمشاكل التي استعصت منذ زمن بعيد بين أهل السنة والشيعة المعتدلة والتي طالما تسببت في معارك دموية اشتعل أوارها بين هاتين الطائفتين من المسلمين. وأخيراً انتهى إلى ذلك الحل الحاسم في رأيه، وهو قد عرضه على الباب العالي واقترح إصدار أمر رسمي بضم مذهب الجعفرية الشيعي إلى المذاهب الأربعة. ولا سيما وأن هذا المذهب كان سائداً وحيوياً لدى شيعة العراق المعتدلين، ولكن الباب العالي - بعد أن تردد كثيراً - رفض هذا العرض؛ لأنه كان يخشى من أن تنفيذه يرفع شأن «نادر شاه» وأن يخلد اسمه كواضع السلام والاستقرار في الإسلام. وهذه تحتاج إلى دراسة. وكان الشهرستاني وهو من أهل السنة وكان يتذوق الشيعة الاثني عشرية كما يظهر من تفسيره «مصاييح الأنوار ومفاتيح الأسرار» أنه يعادى الغالية وينفيها عن الجعفرية، مؤسسى الشيعة المعتدلة، وسارت على خطاه الاثني عشرية فيروى نصاً: أن سدير الصيرفي سأل جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - فقال: جعلت فداك إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثرتم حتى قال بعضهم: إن الإمام ينكت في أذنه، وقال آخرون يقذف في قلبه، وقال آخرون: يرى في منامه، وقال آخرون: إنما يفتي بكتب آبائه فيأبى جوابهم أخذ جعلنى الله فداك؟ قال: لا تأخذ بشيء مما يقولون يا سدير، نحن حجة الله وأماؤه على خلقه، حلالنا من كتاب الله، وحرامنا منه».

«روى أن الفيض بن المختار دخل على جعفر بن محمد - عليه السلام - فقال: جعلت فداك؛ ما هذا الاختلاف الذى بين شيعتك، فإني ربما أجلس في حلقتهم بالكوفة فأكاد أشك، فأرجع إلى المفضل فأجد عنده ما أسكن إليه فقال أبو عبد الله: أجل إن

الناس أغروا بالكذب علينا حتى كأن الله عز وجل فرضه عليهم، لا يريد منهم غيره وإنى لأحدث أحدهم الحديث فلا يخرج من عندي حتى يتأوله على غير تأويله».

«كتب إليه (إلى الإمام الصادق) إن قوما من شيعة قالوا: إن الصلاة رجل والصوم رجل، والزكاة رجل، والحج رجل، فمن عرف ذلك الرجل فقد صلى وصام وزكى وحج. وكذلك تأولوا المحارم على أشخاص، فقال:

ومن كان يدين لله بهذه الصفة التي سألت عنها فهو عندي مشرك بين الشرك. واعلم أن هؤلاء القوم سمعوا ما لم يقفوا على حقيقته، ولم يعرفوا حدوده فوضعوا حدود تلك الأشياء مقاسة برأيهم، ومنتهى عقولهم، ولم يضعوها على حدود ما أمروا به تكديبا واقتراء على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ، وجرة على المعاصي، والله تعالى لم يبعث نبيا يدعو إلى معرفة ليس فيها طاعة، وإنما يقبل الله عز وجل العمل من العباد بالفرائض التي فرضها عليهم بعد معرفة من جاء بها من عنده. فأول ذلك معرفة من دعا إليه، وهو الله الذي لا إله إلا هو، وتوحيده، والإقرار بربوبيته، ومعرفة الرسول ﷺ الذي بلغ عنه، وقبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرسل الذين افترض طاعتهم في كل عصر وزمان على أهله، ثم العمل بما افترض الله عز وجل على العباد من الطاعات ظاهرا وباطنا واجتناب ما حرم الله عز وجل تحريما ظاهرا وباطنا، وإنما حرم الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر جميعا. والأصل والفرع كذلك.

١ بعد تولى السلطان محمود ملك شاه بعد موت أخيه كييارق سنة ٤٨٩ هـ السلطة أخذ يحارب الإسماعيلية وهدم قلعة «شاه در» قلعة «ضان لنجان» من قلاع الإسماعيلية. ومن هذا العصر اتهم وزيره سعد الملك، سعد بن محمد الرازي بأنه مال إلى الباطنية فقتل، وأرسل السلطان محمد جيشا لمحاصرة قلعة «آلموت».

ويبدو أن الشدة التي واجهت الباطنية شجعت الخصوم والأصدقاء أن يزيف بعضهم لبعض التهم طمعا في صفاء الجو لهم. من هنا كان هاجس الميل إلى الباطنية متشيرا في هذا العصر، ومن المؤكد أن عددا من الأبرياء وبخاصة من الشيعة الإمامية ذهبوا ضحية هذا الهاجس. ويشأن سعد الملك الرازي يذكر صاحب النقض: إنه كان شيعيا إماميا أصوليا، لكن حاشية السلطان محمد حسدوا هذا الوزير فوشوا به، وأوغروا عليه صدر السلطان فقتله، ثم ندم السلطان، وبكى عليه، وأغدق العطاء على من رثاه، وأمر بدفنه بإجلال واحترام. النقض / ٨٦ - ٨٧ هـ.

حتى الشيعة الإمامية لم يسلموا من غدر الباطنية، ذلك يعطى رأينا قوة ويوجب على الشيعة المعتدلة أن يجتمعوا ويعلنوا براءتهم من تلك الطوائف الغالية.

وإننا لمع أئمة التقريب بين المذاهب بأن فكرة التقريب بين المذاهب أصبحت اليوم حاجة ملحة وهدفا رفيعا لكل مسلم غيور على الإسلام، مهما كانت نزعتة المذهبية ورأيه في المخالفات المذهبية، ويقول الشيخ محمد رضا المظفر:

«وليس شيء أفضل في التقريب بين المذاهب الإسلامية من أهل كل عقيدة كشف دقائقها وحقائقها» فهذه الطريقة - فيما أعتقد - أسلم في إعطاء الفكرة الصحيحة عن المذاهب، وأقرب إلى فهم الصواب من الرأي الذي يعتنقه جماعته.

وتلك رسالة الكتاب.

د / محمد إبراهيم الفيومي

القاهرة - مدينة نصر - منطقة ٦

٢٢ / ش محمود غنيم

الباب الأول

•••••

المشكلة السياسية العظمى

مَنْ الخليفةُ ؟

مشكلة فى تاريخ وتاريخ فى مشكلة

الفصل الأول

الخلافة والقوى المضادة

الفصل الثانى

قوى المدينة: الخروج على الشرعية

الفصل الثالث

قوى الشام المضادة: معاوية وعمر بن العاص

الفصل الأول

الخلافة والقوى المضادة

لما قضى النبي ﷺ دون أن يوصى بمن يخلفه ودون أن يرد في القرآن الكريم نص على من يخلفه، أو قاعدة عرفية سبقت لاختيار خلفه أو خليفته الذي سيرأس الجماعة الإسلامية حار المسلمون في الأمر كيف تفصل في مسألة عظمى؟ مسألة الزعامة الزمنية ولن تكون، تلك المسائل هي التي شقت المسلمين إلى شقين متقابلين أخيراً، يحكم بينهما السيف وهما الأساس التاريخي لتطور عقيدة الإمامة. فطلت محلاً للخلاف بين المسلمين. وليس من شك في أن الرسول ﷺ كانت له في حياته، بوصفه الرسول ﷺ، سلطة لا تختمل الجدل. ولكنه توفى من غير أن يعين خليفة له. ولعل المؤمنين كانوا يتوقعون، في أثناء حياة النبي ﷺ، أن يظل هو على رأس الجماعة الإسلامية إلى يوم الحساب بالذات، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى نشأت في المدينة منازعات حررية كادت تهدد كيان العرب السياسي الجديد بالانحلال التام ولم تكن ثمة حقوق وراثية، بل لم تكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب. والقرآن الكريم نفسه - دستور يسير النبي ﷺ على ضوئه في الحكم - لم يشتمل على أيما توجيه يستعين به المسلمون على حل مشكلتهم، ويهديهم سواء السبيل إلى معرفة الرجل الذي يجب أن يدعى لخلافة الرسول ﷺ. وما كان لشيء أن ينقذ سفينة الدولة من الغرق، في غمرة هذا النزاع، غير قرار جرى.

فالنبي ﷺ لم يعقب ولداً. لكن الأمر لم يتم على هذا النحو. بل تم انتخاب أبي بكر، وقد تم هذا الانتخاب بمهارة. لكن على الرغم مما أحدثه هذا الاختيار من غم في قلوب أنصار على بن أبي طالب، بيد أن الجميع امتثلوا لهذا الاختيار نظراً لما تحلى به أبو بكر من فضائل ومزايا. وباستفتاء مماثل تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر.

والواقع أن مهمة عمر كانت صعبة في وسط هذه البيئة التي طالما أثارتها الدسائس والحزازات الصغيرة، وبخاصة لأن أصحاب النبي ﷺ السابقين إلى الإسلام كانوا يحصون عليه أعماله، وكانهم مجلس شيوخ وفي سنة ٦٤٤م، قُتل عُمر لدُنْ عودته من الحج الذي اعتاد أدائه كل عام، وهو في غمرة نضاله الجليل بسبيل نشر راية الإسلام، وعزمُ الشباب لما يزل - أو يكاد - ملء بُردِيه. ذلك بأنّ غلاما فارسيا، هو أبو لؤلؤة فيروز - وكان يعمل في المدينة في خدمة حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة - جاء الخليفة يشتكى إليه شدة الخراج الذي كان يتعين عليه أن يجمعه لسيدته، فلم يسمع منه، فلما كان صباح اليوم التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم الناس في صلاة الصبح طعنه الفارسي بخنجره طعنتين، كانت إحداهما قاتلة، وإذ قد جاءه الموتُ فجأة، فلم يكن في ميسور عمر أن يتخذ أى إجراء في ما يتصل بالخلافة. وكان أبو عبيدة - وهو أقرب الناس إليه بعد أبي بكر - قد توفي قبله. وليس بالإمكان أن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذي عين - على فراش الموت - أهل الشورى الذين فصلوا في المسألة بعد وفاته. وكانت وفاته في ٢٣ تشرين الثاني سنة ٦٤٤م.

وكذلك تولى عثمان من بعد مقتل عمر. وعثمان بن عفان من بنى أمية، وهي أسرة مكية، من التجار ذوى النفوذ الكبير في مكة، وبزعامة أبي سفيان حاربت الرسول ﷺ وقاومت الدعوة الجديدة بعنف، ولم تعتق الإسلام إلا بقوة السلاح لما استولى المسلمون على مكة، ولكن عثمان بن عفان آمن بالإسلام إيمانا صادقا مخلصا لا تشويه مثل تلك العواطف. وكان مثالا للتقى والورع، وحكم الجماعة بنزاهة مطلقة، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه عين أقاربه في الوظائف الكبرى، وخصوصا أنه أعطى معاوية بن أبي سفيان حكم دمشق والشام.

والواقع أن الأمويين هم أنساب بنى هاشم، عشيرة النبي ﷺ، ولكنهم كانوا في العصر الجاهلي أرفع منهم مكانا وأشد قوة وبأسا. وكان سيدهم البار، أبو سفيان، قلب المعارضة القرشية للنبي ﷺ طوال سنوات عديدة. حتى إذا تم للمسلمين فتح مكة استقر معظم الأمويين في المدينة، حيث عمل النبي ﷺ على إرضائهم وتأليف قلوبهم، بشتى الطرق والأساليب. وفي عهد أبي بكر وعمر وفق يزيد بن أبي سفيان، ووفق أخوه معاوية من بعده، إلى أن يبلغا مرتبة بارزة في الدولة.

وقام أنصار على (باستثناء على نفسه) بمعارضة هؤلاء الخلفاء الثلاثة خفية ولكن لم يحدث انشقاق مفتوح بين هذا الفريق المناصر لعلى، وهم الصحابة المتمسكون بسنة

الرسول ﷺ، وبين الفريق الآخر الذى كان يشمل مسلمين فاترى الإيمان. وهذا الفريق الأخير كان على رأسه بنو أمية وخصوصا فى عهد خلافة عثمان، ومعاوية والى الشام.

فلما قتل عثمان فى سنة ٣٦هـ (٦٥٦م) فى بيته بالمدينة على يد الذين تسوروا بيته ودخلوا عليه وهو يتلو القرآن^(١)، أراد الحزب الأموى بزعمه معاوية الانتقام لقتل عثمان، مدعيا أن لعل يدا فى هذا القتل، وهو ادعاء كاذب.

فانضم أهل المدينة جميعا، وقسم كبير من أهل مكة، إلى على الذى كان هؤلاء المسلمون المتحمسون يعدونه الأحق بالخلافة بنوع من الحق الإلهى.

وبعد معركة صفين، الواقعة على شاطئ الفرات (فى سنة ٣٧هـ/٦٥٨م) بين على ومعاوية، انتصرت حيلة الأموى على أمانة على. لقد وافق على التحكيم الذى انتهى بعزله، وذلك فى اللحظة التى أو شك فيها أن يتنصر على خصمه معاوية نصرا حاسما.

واندلعت النار فى الكوفة. ففى حزيران سنة ٦٥٥ اعترضت قوة تتألف من ألف شخص على رأسهم مالك الأشتر اليمنى الذى كان مواليا لعل شخصيا، سبيل عامل الكوفة، سعيد. عند عودته من الحج ومنعته من دخول البلدة. وحسب عثمان أن فى ميسوره أن يدفع الكارثة كرة أخرى، فاستبدل سعيد رجلا آخر يرضى عنه الكوفيون.

وفى مصر لم يغمض عثمان عينه عن خلع عمرو بن العاص، فاتح البلاد، وتعيين نسيه [عبد الله بن سعد] ابن أبى سرح، حاكما مكانه وكان النبى ﷺ أهدر مرة

(١) يراجع: الفرق الإسلامية - الفريد بيل - ترجمة د. عبد الرحمن بدوى.

: الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى د. محمد إبراهيم الفيومى، دار الشروق.

: تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان - تعريب: نبيه أمين فارس - منير بعلبكي.

: الإسلام والعرب - روم لاندوا - ترجمة منير بعلبكي.

: العرب والإسلام والخلافة العربية تأليف إيليا ييف نقله إلى العربية د. أنيس فريحه.

: تاريخ العرب العام لـ أ. سيديو ترجمة عادل زعيتير.

: تاريخ العرب - فيليب حتى.

الروايات فىمن قتل عثمان بن عفان متضاربة: قيل: إن الذى تولى قتله كنانة بن بشر النجيبى، وطعنه عمر بن الحقيق عدة طعنات. وجاء عمير بن ضابئ البرمجي - وكان أبوه قد مات فى سجن عثمان - فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه، وفى رواية أخرى أن الخافقى بن حرب ضربه بحديدة فى فيه، ثم تقدم سودان بن حمران بالسيف وضرب عثمان فقتله. ولستنا نعلم أن أحد هؤلاء فارسي نصراني.

دمَ هذا الأخير ثم عفا عنه واشتدت النعمة على عثمان في مصر، وانضم إلى عمرو في إذكائها محمد بن أبي حذيفة وهو ابن أبي بكر الصديق بالتبني ومن أشيع على التحمسين. وفيما كانت إحدى المعارك البحرية الكبرى تدور على الشاطئ اللقيائي بين الأسطول المصري وبين البيزنطيين في عهد الإمبراطور قسطنطين الثاني، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر إحدى السفن راعمين أن الجهاد الحق قد انتهى إلى أن يهمل وي طرح. فلما كانت السنة التالية سار جمع من العرب يبلغ عددهم خمسمائة رجل من مصر إلى المدينة ليشتنوا هناك الحرب التي يريدونها ضد العدو الداخلي، وفي نيسان سنة ٦٥٦ بلغ هؤلاء أبواب المدينة، فإذا معظم أهلها يقفون إلى جانبهم. وكان عثمان، وهو في ذلك الحين سيد أقوى إمبراطورية على وجه الأرض، لا يملك في مقره سلاحا مهما، يدفع به الناقمين. ومن هنا تعين عليه أن يباشر المفاوضات مع خمسمائة نائر، فوفق إلى إقناعهم بالانسحاب واعداء إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم. ولكن الأمويين لم يلبثوا أن أطلعوا رؤوسهم ثانية، وحملوا الخليفة على أن يؤكد في خطبة الجمعة التالية، أن المصريين إنما رجعوا إلى بلادهم؛ لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال. فاستاء أهل المدينة لذلك أشد الاستياء حتى لقد عيروا عثمان ورجموه بالحجارة. فسقط مغشيا عليه وحمله القوم إلى خارج المسجد، الذي لم تطؤه قدماء بعد ذلك قط^(١).

وتجمهر المدنيون حول منزل عثمان ورفضوا أن يتزحزحوا من أماكنهم. ورجع المصريون أيضا، مدعين أنه قد وقعت في أيديهم رسالة من عثمان إلى عامله ابن أبي سرح يأمره فيها بالفتك بالزعماء عقب عودتهم، على الرغم من أن الخليفة أنكر أن تكون له معرفة بالرسالة التي وضعت نصب عينيه. عندئذ طلب إليه الثائرون أن يستقيل ما دام من الممكن أن يجرى شيء كهذا من غير علمه، ولكن عثمان رفض أن يحقق هذا الاقتراح الجريء الذي تقدم به الثائرون، فحاصروه في منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسبائه وبعض العبيد والموالي. أما المحرضون الفعليون على الثورة، على وطلحة والزبير، فآثروا أن يتابعوا إنقاذا للمظاهر. وأما السيدة عائشة، فتركت المدينة تحت ستار الحج إلى مكة، لكي لا تشهد الوقائع فيما بعد.

وانتهى النضال إلى ذروته عندما رشق أحد المدافعين عن عثمان رجلا من المصريين بحجر فقتله. وطالب الثائرون بتسليم القاتل فلم يجابوا إلى طلبهم، فانقضوا

(١) هي معركة ذات الصواري. تاريخ الدولة العربية - فلهاورن - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريذة.

على المنزل من الأراضي المجاورة، وقتلوا الخليفة الذي كان يتلو القرآن في هدوء، من غير أن يشترك في المعركة، وانتهبوا ما في بيته. وكان ذلك يوم الجمعة ١٧ حزيران ٦٥٦ فسال دم الخليفة على نسخة القرآن التي كان يقرأ فيها، وإنما خُبِثَتْ هذه النسخة، كأثر مقدس، ولكن عددا من خزائن الكتب لم تلبث أن تنازعت في ما بعد شرف امتلاكها فزعمت أن نسختها هي الأصلية. ودفنت امرأة عثمان - نائلة الكلية، التي أصيبت أيضا بجراح - جثة الخليفة الصريع في سكينه الليل^(١)، يساعدها بعض الأصدقاء، وأرسلت بعض أصابع نائلة المقطوعة إلى ابن عم عثمان، معاوية أمير سورية، فكان يلوح بها من على المنبر ليستثير حماسة الناس للأخذ بثأر الخليفة. وكان معاوية قد وجه إلى المدينة قوات لنصرة عثمان، فلم تكد تعلم بمصرعه حتى رجعت وهي في منتصف الطريق^(٢).

قوى العصبية القبلية المضادة «المرتدون»

١- المرتدون

لم يكن في وسع العرب أن يشقوا لهم طريقا إلى الخارج طالما كانوا محاطين بدول قوية سياسيا وحربيا: روما وبيزنطة وفارس.

لكن في مستهل القرن السابع ظهر الإسلام في جزيرة العرب وأظل الجميع بقيادة سياسية واحدة وقاعدة مشتركة. لقد جمع تحت سلطان واحد قوى هو سلطان النبي محمد ﷺ أولا، ثم سلطان الخلفاء من بعده، غير أن جنود الفتوح الإسلامية، أولئك العرب القادمون من قبائل بدوية رحل في الجزيرة العربية، كان أكثرهم شديدي الغيرة الدينية والتقوى الإسلامية، وبعضهم الآخر قد أنحى القرآن عليهم باللائمة على ذلك: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾ [التوبة: ٩٧]؛ وفي آية أخرى تتعلق بالكفار من العرب: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠].

وهذا الفتور الديني الذي عند بعض بدو بلاد العرب سنجده فيما بعد قد أثر على سير الأحداث في صفين وعلى ما لاقاه الحسين من الغدر به.

بدأ فتور الإيمان الديني يظهر مسلحا في عصر الخليفة الأول.

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١١٣ بروكلمان.

(٢) العرب الإسلام والخلافة العربية: س. إيليا ياف.

حيثُ بدأت موجة من الارتداد ما لبثت أن طغت على الحياة فى بلاد العرب والواقع أن الدوافع الدينية لم تكن مسئولة عن هذه الموجة إلا نادرا، كل ما فى الامر أن بعض العرب رغبوا فى أن يتخلصوا من سلطة المسلمين.

أعلن بعض المرتدين أنهم لا يزالون راغبين فى أن يعبدوا الله، ولكنهم يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وإنما استأثروا بخاصة من الرسل الذين كان الرسول ﷺ يبعث بهم فى السنوات السالفة إلى كثير من القبائل ليعلموها الدين الجديد ويجمعوا من أفرادها الزكاة. فقد كان هؤلاء الرسل مصدر إزعاج وإعنت فى نظر القبائل البدوية التى كانت تتمتع من قبل بكامل حريتها واستقلالها فى مراعيها الخاصة^(١).

وكان النبی ﷺ قد شغل نفسه فى أيامه الأخيرة، بإعداد الجيوش للقصاص من البيزنطيين الذين هزموا المسلمين فى مؤتة، فوجد أبو بكر نفسه مسئولا عن إنفاذ خطة النبی ﷺ الأخيرة هذه، على الرغم من أن الأنبياء المخوفة عن شيوع الاضطراب فى أنحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة من كل حذب وصوب، وهكذا وجه أبو بكر نخبة جيوش الإسلام إلى الشمال تحت قيادة أسامة، ولكننا لا نعرف شيئا عما استطاعت هذه الحملة أن تحققه من الأعمال، بل لسنا نعرف ما إذا كانت قد اجتازت الحدود البيزنطية أم لا. ومهما يكن، فقد قضى أسامة وجنوده شهرين خارج المدينة، وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين فى مركز لا يساعدها كثيرا على الدفاع عن نفسها، والواقع أن أسدا وغطفان، النازلين غير بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبت لهم ويصدهم عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة، فعهد عندئذ بالقيادة إلى «سيف الله» المجرب، خالد بن الوليد، الذى هزم كلتا القبيلتين عند بئر «بزاخة» هزيمة حاسمة اضطرتهما إلى الاستسلام فى الحال.

أما هؤلاء الذين ارتدوا عن الإسلام عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإنهم لم يرتدوا عنه لبغضهم إياه وكرهيتهم له، وإنما ظنوا أن الإسلام قد انتهى بوفاة الرسول ﷺ. أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد عماد هذا الدين، بل

(١) يراجع: تاريخ الدولة العربية ج ٣٥٠، فلهاوزن.

السيادة العربية ص ٥٠ فان فلوطن ترجمة.

تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٠٠ كارل بروكلمان

تاريخ العرب العام ص ١١٠ ل.أ. سيدور. عادل زعتر

العرب والإسلام والحلافة العربية ص ١٧٣ ش. إيليا ييف.

زعموا أن الزكاة إنما هي إتاوة يدفعونها للرسول ﷺ. ومن ثم لم يجدوا مبررا لدفعها بعد وفاته^(١).

على أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين حقا، فقد كان السواد الأعظم منهم من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق. وقد نعى الله - سبحانه وتعالى - عليهم هذا في غير آية من القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿[الحجرات: ١٤-١٦]. وما يدل على أن هؤلاء لم يسلموا حقا وإنما تورطوا في الدخول في الإسلام منهم بإسلامهم على الرسول ﷺ. وقد ندد عليهم القرآن الكريم في ذلك بقوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] المترجمان.

وهنا كما يرى «فان فلوتن» أن أولئك الوصوليين الذين لم يدخلوا الإسلام عن اقتناع بصحته وإدراك لسمو مبادئه، وإنما دخلوه لأنه دين الفاتحين ولما عساه أن يدره عليهم من النفع أو يدرأ عنهم من الشر وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، إذ لا تخلو أمة من الأمم من ذلك الفريق من ضعاف النفوس ومرضى القلوب، ولا سيما في تلك الأوقات العصيبة والانقلابات السياسية والاجتماعية العنيفة حيث يقوم دين جديد على أنقاض دين قديم وتقوم دولة فتية على أطلال دولة متداعية. ولقد مَنَّ الإسلام وابتليت الأمة العربية بتلك الطائفة التي اتخذت الإسلام جنة لتسدير المؤامرات ضد المسلمين ولم يكن قتل عمر بن الخطاب على يد أبي لؤلؤة إلا نتيجة لتلك المؤامرة التي دبرها له الهرمزان لما كان يكتن من الحقد للعرب بعد أن ثلوا عرش الفرس ومزقوا دولتهم. كذلك اتخذ بعض اليهود والنصارى الإسلام ستارا يكيدون من ورائه لهذا الدين الخفيف، فأدخلوا فيه الكثير من الخرافات والأساطير التي لا تمت إلى هذا الدين الخفيف بصلة. ولولا ما قام به علماء المسلمين ولا سيما علماء التفسير ومصطلح الحديث لمقاومة

(١) السيادة العربية ص ٢٠٠ فان فلوتن - ترجمة إبراهيم حسن، وركى إبراهيم.

ذلك الخطر الداهم لضاع الإسلام ولعصفت به أعاصير تلك الضلالات والبدع التي أثارها عليه هؤلاء الأدعياء على الإسلام منذ القرن الأول الهجرى^(١).

كان أبو بكر شديد الحيلة في أمر المرتدين: فكان لا يأخذ في ذلك بالشبه ولا يحكم فيه بالظنة، إذ كان يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليه من أمر الدين، وما عرض له من الشبه في صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

والى القارئ طائفة من أقوال الأئمة في هذا الموضوع: قال أبو حنيفة: إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام؛ لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها، فعلينا إزالة تلك الشبهة، أو هو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق فلا يكون ذلك إلا بمهلة، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهل، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام في الشرع كما في الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية في البيوع). فلهذا يمهل ثلاثة^(٢).

ب- المتنبئون،

١ - مسيلمة: من بنى حنيفة وتميم:

أما فتنة بنى حنيفة في اليمامة فقد كانت أمرٌ عوداً وأشد خطراً. ففما كان محمد ﷺ لا يزال على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل اسمه مَسْلَمَة - وقد دعاه المؤرخون مسيلمة من باب التصغير الذي يقصد به التحقير - وادعى النبوة، مطالباً بحكومة المدينة بأن تتترف له بحقوق متكافئة مع حقوقها. والذي يبدو أن مسيلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً، فأوصى بالصيام وحرم الخمر، وحض أتباعه على الطهارة والعفة سامحاً لكل منهم بالاتصال الجنسي إلى أن يزرق ابناً ذكراً، فحسب. وفي الواقع أننا نقع في خطبه على أصداء من الأفكار المسيحية. أفرغت في لغة رجل بدوى يحتر الأرض، فهو يتكلم عن «الشاء السود، وعن اللبن الأبيض، وعن الطاحنات والخابزات، وعن الضفدعة التي تعيش في الماء والطين، ولكنه يتكلم أيضاً عن مملكة السماء، وعن ذاك الذي سيأتى من السماء»^(٣). ولقد كان لهذا الرجل، على الرغم من

(١) السيادة العربية ص ٢٠١.

(٢) كتاب المبسوط لشمس الدين السرخسي (القاهرة سنة ١٣٢٤هـ) ج ١٠ ص ٩٨ - ١٠٠.

(٣) إعجاز القرآن للباقلاتي - تحقيق السيد صقر، ذكر نماذج من ترهاتهم.

سذاجنه، أثر كبير فى نفوس أتباعه من قبيلته حتى أن كثيرا منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه.

٢ - سَجَاح: من بنى تميم وبنى تغلب وبنى حنظلة:

وفى شمالى الجزيرة أضمرت امرأة تدعى «سجّاح» نيران حركة تشبه حركة مسيلمة، بين أفراد قبيلة تميم، النازلة على مقربة من الحدود الفارسية. وإنما ظهرت سجّاح، أول ما ظهرت، بين أخوالها بنى تغلب فى العراق، وكانت النصرانية واسعة الانتشار فيهم حتى إذا جاءها نبأ وفاة النّبي ﷺ سارت مع عدد كبير من أتباعها إلى أنسابها من قبيلة تميم الذين كانوا يحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافى أدنى من مستوى غيرهم من العرب، فهم يؤلهون الشمس، على الخصوص. ولم يؤيدها أول الأمر غير أقربائها الأذنين، بنى حنظلة، ولكنها ما لبثت أن بسطت سلطانها على القبيلة برمتها. وتذهب الروايات إلى أنها اتجهت بعد إلى الجنوب وعقدت حلفا مع مسيلمة، ولكنها لم يوفقا إلى توحيد قوى أتباعهما فى نضال مشترك ضد المدينة. وهكذا لم يلبث الحليفان أن افترقا، فرجعت سجّاح إلى العراق، حيث اختتمت نشاطها العام. وفى الأخبار أنها ماتت على الإسلام، والواقع أنه عندما ظهر خالد بن الوليد فى أراضى تميم تقدم إليه القوم بالطاعة فى كل مكان تقريبا، ولم يشذ عن هذا الإجماع ويخلص لإيمانه بسجّاح، حتى النهاية، إلا مالك بن نويرة سيد بنى يربوع، من حنظلة، الذى ارتد عن الإسلام، عقب وفاة النّبي ﷺ مباشرة. ولكن خالد ما لبث أن طوقه وجنده فاضطر إلى الاستسلام أيضا. ومع ذلك فقد أمر خالد بقتله، وبقتل جميع أتباعه شطرا لعناده.

وبعد إخضاع تميم انقلب خالد إلى الإمامة لقتال أصحاب مسيلمة وكانوا قد هزموا قوة إسلامية يقودها عكرمة. وسار مسيلمة بعد هذا النجاح الأول حتى بلغ حدود الإمامة الشمالية حيث وقعت معركة حاسمة فى عقربة، لم تعرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قبل. ولكى يلهب خالد طموح رجاله، فقد جعل كلا من المهاجرين والأنصار والبدو يحارب مستقلا عن الآخر. وكانت قوة مسيلمة التى تتألف من بنى حنيفة تفوق قوة خالد عددا، فقاتلت قتالا شديدا، فانكشف المسلمون وأشرفوا على الهزيمة. ولكن سخرية بنى حنيفة بهم دعتهم إلى أن يذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد، فوفقوا أولا إلى أن يضعوا حدا لتقدم العدو، وما لبثوا أن ردوه على عقبيه شيئا

بعد شيء. فلما رأى بنو حنيفة أن الهزيمة لا بد واقعة بهم تراجعوا إلى حديقة واسعة، ابتغاء أن يجدوا في حيطانها المنية ما يقوى مركزهم ويقيهم عادية هجوم المسلمين. غير أن هذا العمل بالذات هو الذي انتهى بهم إلى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على حديقة الموت، كما تدعوها الروايات، وفتكوا بأعدائهم فتكا ذريعا لم ينج منه أحد، حتى مسيلمة نفسه. ولم تكن خسائر المسلمين يسيرة، فقد استشهد من المهاجرين والأنصار وحدهم سبعمائة رجل، بينهم كثير من أصحاب الرسول ﷺ السابقين إلى الإسلام، وكبار حفظة القرآن.

والحق أن هذه الغلبة التي اشتراها المسلمون بثمن غال، لم تقرر مصائر بنى حنيفة فحسب، بل مصائر العرب على الجملة، فقد احتمت قلوب قوات مسيلمة المشتتة، في حصونها ثم استسلمت حذر الموت، وبذلك قضى هناك على الثورة قضاء مبرما.

٣ - نبوة عبهلة ذو الحمار: حضرموت:

أصاب الانحطاط السريع الإمبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى الثاني (أبرويز) الساساني، سنة ٦٢٨م، فقد تركت الولايات الحربية، وبخاصة اليمن النائية، لتدير شئونها بنفسها. وفي غمرة من هذه الفوضى العامة التي اجتاحت البلاد، أعلنت قبائل كثيرة إسلامها، من طريق الوفود التي بعثت بها إلى المدينة، عقب فتح مكة، ولقد وفق النبي ﷺ قبل وفاته إلى إقرار النظام في البلاد، وإلى تعيين ما يجب أن تؤديه من الضرائب تعيينا صار في ما بعد مثلا يحتذى. ومع ذلك فلم يقض عماله على صغار الحكام المحليين المتعدين، بل عاضدوهم كما يعاضد ممثلو الدول الاستعمارية اليوم الأمراء الوطنيين، ولقد أنشأوا نظاما للمراقبة عاما، ونظموا شئون التشريع والعبادة، وجبوا الضرائب، قبل كل شيء. وإذا كان هذا المظهر غير الشعبي من مظاهر سلطة العمال الرسمية، كثيرا ما يحملهم على اصطناع تدابير قاسية فقد ثار عليهم الناس في حضرموت، والنبي ﷺ لا يزال على قيد الحياة، ثورة لم تلبث أن قمعت بأقصى الشدة. وحتى قبل هذه الثورة، ظهر في قبيلة الأوس رجل ادعى النبوة اسمه عبهلة ذو الحمار «أى راكب الحمار» (منذ القدم والحمار يعتبر في الشرق، عموما، الدابة التي يمتطيها المخلص المنتظر) [زكريا ٩ : ٩]. وهذا هو السبب الذي من أجله دخل يسوع القدس وهو راكب على أتان، والذي من أجله سمى مؤسس إحدى الفرق المتعصبة الناشئة في شمالي أفريقيا في القرن العاشر «ذا الحمار». بل إن أحد الدين ثاروا في مطلع

هذا القرن على سلطان مراكش اشتهر بلقب «بو حمارة». وكانت الوحداية منتشرة انتشارا واسعا على أيدي اليهود والمسيحيين في جنوبي بلاد العرب، ومن هنا لم يدع، ذو الحمارة، الناس إلى عبادة صنم ما، أو وثن ما، ولكنه دعاهم إلى أن يعبدوا الله الرحيم. وجاءته الأنبياء بمرض النبي محمد ﷺ بُعِيدَ عودته من حجة الوداع، فشجعه ذلك على إعلان دعوته، فهاجم من لبحران العامل الفارسي الذي كان لا يزال مقيما في صنعاء. حتى إذا هزمه أمست اليمن كلها منطرحة على قدميه، ولكن الرسول ﷺ استطاع، برغم مرضه، أن يفيد من نفوذه هناك، من طريق رسله ورسائله، حتى لقد اجتمع المخلصون له على حرب النبي الكاذب. ثم إن [الأبناء، وهم] أرستقراطيو صنعاء الفرس، اتفقوا في ما بينهم، بتحريض من أحد الرسل المسلمين، على قتل عبهلة، فتم ذلك على ما تقول الروايات قبل وفاة الرسول ﷺ بيوم واحد، ولكن ردة أخرى ما لبثت أن عكبت هذا النصر الإسلامي المؤقت. ذلك بأن رجلا اسمه قيس [ابن عبد يغوث]، وكان من أحد أصحاب عبهلة وأعلامهم مقاما، أعلن الثورة على الفرس بمعاونة الغرب وتأييدهم. فما كان من أبي بكر إلا أن وجه إليه جيشا يقوده عامل كان محمد ﷺ نفسه قد عينه على جزء من حضرموت، ففضى على الفتنة وأقر الأمن في البلاد.

ج - قبائل الردة.. قبائل الخوارج ومن غدروا بالحسين،

راودني فرض يرى أن قبائل الصحراء الذين شقوا عصا الطاعة على الجماعة الإسلامية وقام فيهم المتنبيون، كانت قبائل بني تميم وتغلب وحنظلة وعرب حضرموت على حظ من النصرانية وكان بعضهم يؤلهون الشمس وإن ما بقى من خطبة مسيلمة - وهى قليلة - تعلن عن أصداء الأفكار المسيحية التى طبعتها بطابعها وبخاصة حين يتكلم عن مملكة السماء.

ونفس تلك القبائل هى التى كانت تجرى وراء كل ناعق، طيشا واستخفافا، دون أن تدرك عاقبة ما تسعى إليه، ولم تستطع أن تتخلص من طيشها ولم تواتها حكمة التريث إلا قليلا فصباحا مع هاتف الصباح ومساء مع هاتف المساء.

وكنا نرى أن قبائل تميم - وتغلب - وحنظلة وأسد وغطفان وبنو ضبة - الذين كانوا وراء حرب الردة والمتنبيين، هم الناكثون لبيعة الإمام على والخارجون على عثمان ووحدة الجماعة الإسلامية. وهم أنفسهم الذين انخرطوا مع حركة عائشة وطلحة والزبير. وكان المؤرخون رصدوا تلك القبائل أيضا التى انشقت على الخلافة الشرعية ولم

يبتوا على رأى بل هم أنفسهم الذين وضعوا النواة الأولى للخروج والخارجية منذ أن شقوا عصا الطاعة على الشرعية ثم شرعية الإمام على . . . وتلك القبائل التي انضمت إلى جيش عائشة وطلحة والزبير. ثم أخيرا كسرت الحسين، وهى القبائل التي لحقت بالحسين وهو فى طريقه إلى الكوفة ظنا منها أن الخلافة دانت له ولما رأوا جيش ابن زياد مقبلا أدبروا فى أفناء الصحراء قبائل شتى .

قبائل البصرة التي انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير هى: تميم، حنظلة، بنو عمرو بن تميم الرباب وهم: تميم، وعدي، وثور، وعكل، وبنو عبد المناف بن أد بن طائفة بن إلياس بن مضر، وضبة بن أد بن طائفة، وزيد مناة، ومعظم آل خندف، وكان على رأس هؤلاء هلال بن ويع بن دارم وأبو الجرباء وهو من بنى عثمان بن عمرو بن تميم، والمنجاب بن راشد^(١).

كما انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير قبيلة الأزد وكان عليها مسعود وزياد ابنا عمرو، وصبرة بن شيمان الحداني وقيل عبد الرحمن بن جشم بن أبى حنين الحماني^(٢).

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير أفناء قيس بن سليم وعامر وباهلة^(٣).

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير قسم بن ربيعة وكان عليها عبد الله بن مالك، وكان على بكر بن وائل مالك بن مسمع^(٤).

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير: خزاعة وكان عليها عبد الله بن خلف الخزاعي، وقضاة وعليها عبد الرحمن بن جابر الراسبي وقيل الرعبي الجمي، ومذحج الربيع وعليها ابن زياد الحارثي، والشواذب وعليها رجلان، وعلى مضر الحارث بن راشد، وعلى سائر اليمن ذو الأجرة الحميري. كما انضم إلى معسكر عائشة هوازن وبنو سليم، والأعجاز وعليها مجاشع بن مسعود السلمى، وعلى عامر زفر بن الحارث، وعلى غطفان أعصر بن النعمان الباهلى. وانضم إليها أيضا قواد من بنى ناجية^(٥).

(١) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، ج ٢ ص ٢٢٩ (قالوا)؛ الطبرى، تاريخ، ج ٤ ص ٥٠٣، ٥٠٤.

(٢) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، ج ٢ ص ٢٢٩ (قالوا)؛ الطبرى، تاريخ، ج ٤ ص ٥٠٤، ٥٠٥.

(٣) انظر حول ذلك البلاذرى، أنساب، ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، ج ٢ ص ٢٣٨. ابن أئثم، الفتوح. ج ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٥) الطبرى، تاريخ، ج ٤ ص ٥٠٥، ج ٤ ص ٥١٦، ٥١٧ (أبو مخنف) الدينورى، الأخبار ص ١٤٧.

الإمامة، ج ١ ص ٨٢. قبائل البصرة: ماسينيون، خطط البصرة وبغداد ص ١٦، ٢٦.

انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير قوات من كنانة وبنى أسد.

ويبدو من أسماء قادة الخوارج أن معظمهم ينتمى إلى القبائل العربية الشمالية التي أسلمت متأخرة ولم يكن لها تراث حضارى فى الماضى. وظل أفرادها يمثلون التزعة البدوية التي يمكن استشارة الروح القبلية فيها ضد السلطة المركزية لقريش بالمدينة. أى من القبائل التي لا تقبل الخضوع بسهولة والتي لم تتأصل العقيدة فى نفوسهم وتعمق مثل غيرهم بعد. فتميم من أكبر القبائل المضربة شأنًا وعددا كأنها دخلت الإسلام متأخرة وأنت الرسول ﷺ فى آخر الوفود. كما أنها ارتدت بعد وفاته وادعى أشخاص منها النبوة مثل سجاح، وقيل: إن شيث بن ربيع التميمي^(١)، أحد زعماء الخوارج كان مؤذنا لسجاح حين ادعت النبوة.

وقد خذل بنو تميم على بن أبى طالب فى معركة الجمل وحاربوا معه فى صفين ولكنهم ما لبثوا أن صاروا من الخوارج^(٢) ويبدو أن قبيلة تميم كانت من القبائل التي استهدفتها السبئية واستغلتهما فى مخططاتها ضد الدولة الإسلامية.

لقد وجدت السبئية فى تميم بذلك أرضا خصبة لزرع ما تريد من أفكار ومبادئ حسب مخططهم. ومن الجدير بالذكر أن السبئية لم تكن لها مبدأ ثابت سوى القضاء على سيادة الإسلام. فقد كانت تجعل لكل مرحلة ما يناسبها من أقوال وفلسفات.

وبانقضاء حرب الردة، رجعت القبائل العربية التي أعلنت العصيان بعد وفاة النبي ﷺ والتي لم تخضع إلا بعد جهد ومشقة، إلى حظيرة الإسلام، وجنت من ذلك فوائد كثيرة عوضتها عن ضياع استقلالها المطلق. ومن ذلك الحين لم يعد يسمح للدين غير الإسلام بالحياة ضمن شبه جزيرة العرب نفسها. وهكذا نقل عمر اليهود، الذين سمح محمد ﷺ لهم بالبقاء فى خيبر، إلى سورية وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربيا بنعمة الإسلام، فهو يلتحق بإحدى القبائل كمولى من موالها، ولكن أحدا، أول الأمر، لم يكن يتوقع أن يعتنق غير العرب الإسلام. وعلى هذا الأساس كان الغرض من الحرب المقدسة (الجهاد) نشر الإسلام.

ومن هنا انتظمت الإمبراطورية - التي نشأت بعد وفاة النبي ﷺ عن الدولة القومية التي رفع هو قواعدها - طبقتين متميزتين دينيا، وبالتالي سياسيا. فقد كان

(١) ابن قتية: دار المعارف ص ٤١٥.

(٢) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٥١٣. تاريخ اليعقوبى: مجلد ٢ ص ١٩٠.

المسلمون، بوصفهم الحكام، يؤلفون أيضا طبقة المحاربين. والواقع أن النظام العربى احتل مكان الصدارة فيه الأساس القبلى أو العشيرة مما كان له أثره السيئ على العرب أنفسهم إذ كانوا يدخلون المعارك تحت ألوية القبائل.

وهكذا، وبعد أن خضعت بلاد العرب كلها فى هذه الفترة القصيرة من الوقت، نسييا، لسلطة الإسلام، صار فى مقدور أبى بكر أن ينفذ خطة النبى الأخيرة، تلك التى تقضى بنشر الإيمان فى ما وراء حدود الوطن الأم؛ ذلك بأنه كان عليه أن يوجد فرصة من النشاط الخارجى لهذه القوى التى كانت فى الماضى على استعداد دائم لأن تتفانى فى منازعات لا نهاية لها.

الفصل الثاني

قوى المدينة الخروج على الشرعية

١ - روح الاستياء العام:

مع خلافة عثمان انتهى الأمويون إلى القمة؛ لأن عهده كان في الواقع عهد أسرته وعشيرته. فلقد ترك تصريف الشئون لنسيه مروان في المدينة، وعين أقرباءه حكاما على جميع الإمارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبي ﷺ القدماء - الذين أثروا ثراء ضخما في أثناء الفتوح والذين اقتنوا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في مكة أملاكا مثلها في الطائف وأراضى واسعة أيضا - أن مكائتهم القديمة توشك أن تضيق على يد هذه الأسرة التي تسعى إلى أن تسيطر على كل شيء. ولقد حاولوا بادئ الأمر أن يحرروا الخليفة من سلطان أسرته فباءت محاولاتهم بالإخفاق. وعندئذ أعلنوا الخصومة شخصيا. وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه في المدينة وليس حوله إلا نفر من الأصدقاء، وبخاصة بعد أن وقفت عائشة «أم المؤمنين» في جانب خصومه. كذلك استطاع أعداء الخليفة أن يستثيروا العرب في الولايات، فانقلبوا على عثمان^(١).

واستطاع خصوم الخليفة في المدينة، وعلى رأسهم على وطلحة والزبير، أن يفيدوا من الاستياء العام، ومع أنهم كانوا يعتبرون من واجبههم الدفاع عن إدارة عثمان فلم يجرؤوا على النضال ضده، بل تركوا هذه المهمة البغيضة لأهل الأمصار.

والحق أن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الفينة والفينة من طريق الهجوم

(١) العرب والخلافة العربية س . إيليايف ترجمة د. أنيس فريحة .

على صندوق المال الإقليمي وسلبه، ومن طريق الاحتجاج على إرسال الأموال الفائضة إلى العاصمة، بوجه خاص.

صحيح أن عمر كان قد أحدث هذا النظام من قبل أن يجروا أحد على رفضه وعصيانته. ولكن عثمان كانت تعوزه شخصية سلفه القوية، وفي نفس اليوم الذي صرع فيه عثمان، بايع الناس عليا بالخلافة في مسجد (المدينة) ولكن طلحة والزبير اللذين كانا حتى تلك اللحظة يعملان في ما يظهر لمصلحة علي، تخلفا عن مبايعته، وحملاه تبعة مقتل عثمان، ثم إنهما لحقا بعائشة، إلى مكة. وكانت أم المؤمنين لا تزال تضمّر لعلّ عداها القديم، فما كادت تعلم أنه قبل البيعة حتى دعت المؤمنين إلى الثأر للرجل القتل. فاستجاب لدعوتها الأمويون وأناس آخرون شاركوها في كرهه على ليس غير. وعزموا على التقدم إلى البصرة حيث كانت له منذ زمن طويل، وما تزال، صلات واسعة جدا. حتى إذا انقضت أربعة أشهر على مقتل عثمان خرج المتآمرون، بعد أن تجمعوا في معسكر على الطريق العامة المؤدية إلى العراق.

ولم يكادوا يبلغون البصرة حتى فتكروا غدرا بأميرها الذي أتر أن ينتظر الأمر من علي على أن ينضم إليهم. حتى إذا وفقوا إلى الاستيلاء على المدينة (البصرة) نشب الخلاف بين طلحة والزبير على إمارة الناس في الصلاة، ولكن عائشة حسمت هذا الخلاف مؤقتا بأن سمت لهذه المهمة ابن اختها عبد الله بن الزبير.

٢- السيدة عائشة والدعوة الظالمة: الثأر لعثمان؛

وكانت عائشة قد علمت بمقتل عثمان وهي عائدة إلى المدينة بعد أداء مناسك الحج، فرجعت إلى مكة^(١)، واستأذن طلحة والزبير عليا، بعد مقتل عثمان بأربعة أشهر، للذهاب إلى مكة لأداء العمرة، فأذن لهما^(٢)، وانضمّا هناك إلى عائشة، وشكلوا جميعا حركة هدفت إلى رفع الظلم الذي حاق بالخليفة عثمان.

وقد تناولت المصادر أهداف هذه الحركة بما يعكس نظرة ومفهوم كل منها لأحداث الفتنة وتطوراتها، فقد أورد الطبري قول عائشة: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ﷺ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر،

(١) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى: القرن الأول - القرن الرابع الهجري د. عدنان محمد فلاحم.

(٢) البلاذري. أنساب. ج ٢ ص ٢١٨.

فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين، غير نافعين ولا متقين؛ لا يقدرّون على امتناع ولا يأمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في صلاح هذا^(١). وما إن وصلت إلى مكة حتى قصدت الحجر الأسود فسترت به، ودعت الناس إلى إنقاذ أهل المدينة، والنكال بالغوغاء^(٢)، وقالت: «إن عثمان قتل مظلوما، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فطالبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام»، ولعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم». ودعت الناس صغيهرهم وكبيريهم إلى «معروف نامركم به، ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثكم على تغييره». ودعت طلحة والزبير قائلة: «فأتمروا أمرا؛ ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء. وقد حرص كلاهما الناس للنهوض «فيدرك بهذا الدم لثلا يبطل، فإن إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبدا؛ إذا لم يقطم الناس عن أمثالها لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب». وأشار الطبري إلى دعوة عائشة وطلحة والزبير المسلمين إلى إعزاز الإسلام، وقتال المحلين^(٣)، وإصلاح أمر الله - عز وجل - وأمر رسول الله ﷺ، والدعوة إلى المعروف ونيل المنكر^(٤)، وإشاعة الإصلاح، وإعادة الوحدة بين المسلمين، وترسيخ الاتفاق بينهم^(٥). والثأر لعثمان، وإقامة الحد ضد القتل من غوغاء أهل الأمصار، وعييد أهل المدينة، ونزاع القبائل^(٦). وأوضح الطبري أن فكرة معاقبة قتلة عثمان هي مطلب عام قدمه أهل المدينة بعد توليه الخلافة مباشرة، إذ قالوا له: «يا علي، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم^(٧). ويلاحظ أن فكرة تنفيذ إقامة الحدود على كل من اشترك في يوم عثمان قد أخذت تطبيقها الفوري بعد استيلاء طلحة والزبير وعائشة على البصرة^(٨).

(١) الطبري . تاريخ . ج٤ ص ٤٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٨.

(٣) المصدر السابق ص ٤٥١ .

(٤) ن.م. ج٤ ص ٤٦٢ (سيف)، ج٤ ص ٤٧٢ (سيف)، ج٤ ص ٤٧٣ (سيف).

(٥) البعقوبي، تاريخ، ج ٢ ص ١٨٠.

(٦) البلاذري، أنساب، ج ٢ ص ٢٢١.

(٧) الطبري . تاريخ، ج٤ ص ٤٣٧ (سيف).

(٨) ن . م ج ٤ ص ٤٧٢ (سيف).

وكان الهدف الرئيسى وراء خروج عائشة وطلحة والزبير هو معاقبة قتلة عثمان، والانتصار لأهل المدينة، وتطبيق مبادئ الإسلام وحدوده. أما ما يقال عن الأهداف الخاصة لخروجهم هو محض افتراء وتأويل لا يمكن القبول به. والروايات التى أشار البلاذرى والطبرى إلى أن الطمع المادى هو من الأسباب التى دفعت طلحة والزبير للخروج على علي، إذ سألهما رجل فى البصرة عن أسباب خروجهما؟ فقالا: «بلغنا أن عندكم دراهم فجتنا نشارككم فيها»^(١) وأكدت روايات أبى مخنف والمداثنى على أن جُل اهتمام طلحة والزبير حال وصولهما البصرة كان الحصول على الأموال من بيت مال المسلمين بأى وسيلة^(٢). ويبدو واضحا أن الهدف العام منها هو إدانة خروج طلحة والزبير على علي واعتبار الطمع سببا رئيسيا له.

ولإن كنا نرى أن الطمع فى الولاية والخلافة كان من أسباب خروج طلحة والزبير على علي، لأنهما سألاه أن يولييهما البصرة والكوفة، لكنه رفض قائلا: «تكونان عندي فأتحمل بكما فإنى وحشٌ لفرأكما»^(٣). وتذهب روايات عديدة إلى تقدير علاقة الإمام علي بصاحبيه كل مذهب إلى علاقة يشوبها شيء من التوتر وشيء من المهادنة وشيء من الملق السياسى؛ فرواية تذهب إلى أن عليا «ولى طلحة: اليمن، والزبير: اليمامة والبحرين، فلما دفع إليهما عهديهما قالاه له: وصلتك رحم! فقال: لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لى فيكما رأى»^(٤)، وأضاف «أنتما شريكاي فى القوة والاستقامة، وعوناي على العجز والأود»^(٥). ورواية تذهب إلى إبراز الرغبة الجامحة عند طلحة والزبير للوصول إلى السلطة بأى ثمن وأى وسيلة أنهما قالاه بعد قتل عثمان: «هذا جزاؤنا من علي قمنا له فى أمر عثمان، حتى أثبتنا عليه الذنب، وسببنا له القتل، وهو جالس فى بيته وقد كفى الأمر، فلما نال بنا ما أراد فعل دوننا وقدم غيرنا».

(١) البلاذرى، أنساب، ج٢ ص ٢٧٠ (شيسان بن فروخ)، ج٢ ص ٢٧١ (زهير بن حرب): الطبرى، تاريخ، ج٤ ص ٤٧٥.

(٢) البلاذرى . أنساب، ج٢ ص ٢٢٧، ٢٢٨ (أبو مخنف) (روح بن عبد المؤمن)، الطبرى، تاريخ، ج٤ ص ٤٧٤ (المداثنى). انظر للمقارنة: ابن أبى شبة، المصنف، ج٨ ص ٧١٨ - ٧١٩؛ ابن أبى الحديد، شرح، ج٧ ص ٤١ - ٤٣؛ حمدان، الخلافة، ص ١١٥ - ١١٦.

(٣) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى ص ٢٠٨.

(٤) اليعقوبى، تاريخ، ج٢ ص ١٨٠، الإمامة، ج١ ص ٥٤.

(٥) المصدر السابق.

وروى بعضهم أن عليا رفض اقتراحا قدمه المغيرة بن شعبة له لتولية طلحة:
اليمن، والزيبر: البحرين^(١).

٣ - طلحة والزيبر يتغيران على الإمام علي:

كما اعترفا بمتهى الصراحة لعثمان بن حنيف عامل علي على البصرة، عندما سألهما عن أسباب خروجهما: «لم نر أولى بها منا، وقد صنع ما صنع»^(٢).

ويسوق البلاذرى روايات تشير إلى وجود منافسة داخلية بين كل من طلحة والزيبر على الإمرة، بلغت أوجها فى اختلافهما على إمامة الصلاة، فى أثناء توجههم إلى البصرة، مما دفع عائشة إلى الفصل بينهما، بأن أمرت ابن أختها عبدالله بن الزبير بالصلاة، وعلق أحد أصحابهما، ويدعى معاذ بن عبد الله على ذلك بقوله: «والله لو ظفرنا لافتنا ما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر»^(٣).

كما يشير إلى أبعاد التنافس بين طلحة والزيبر حين أشار إلى كتمان الزبير نبأ تسلمه رسالة من معاوية، دعاه فيها إلى القدوم إلى الشام لمبايعته، وبعد تسرب الخبر إلى طلحة وعائشة، أشعرت عائشة عبد الله بن الزبير بغضبها، فلام بدوره أباه وقال له: «أتريد أن تلحق بمعاوية؟ فقال: نعم، ولم لا أفعل وابن الحضرمية ينارعى فى الأمر؟»^(٤)، وقد تنبّهت عائشة إلى هذه المنافسة، فقالت: «لا تباعوا الزبير على الخلافه ولكن على الإمرة فى القتال، فإن ظفرتم رأيتم رأيكم»^(٥).

ساء الناس خروج عائشة على الوالى الشرعى فأذت المشاعر المؤمنة وأطلقت الألسنة من حياء الإيمان تلوك أعراض الصحابة وجددت خصومات جاهلية كان الإسلام قبجها وشجعت مرضى القلوب والنفوس على أن يسفكوا الدماء الطاهرة، وكان أجدر بها أن تتخذ سبيلها فى حل ما بدى لها من المشاكل والتفاوض مع الإمام علي، وكان الظاهر من مراجعتها أمرين: إقامة الحدود على قتله عثمان ورفع الظلم عن أهل المدينة. وحذرهم القعقاع بن عمرو من تفاقم الأوضاع فى البصرة بعد قصاصهم من قتلة

(١) المصدر السابق، جـ ٢ ص ١٨٠.

(٢) ن ٤ ص ٤٦٩ (الزهرى).

(٣) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٨.

(٤) البلاذرى . أنساب، جـ ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٨ (خلف بن سالم). انظر للمقارنة: ابن أبى الحديد شرح،

جـ ١ ص ٢٣١.

(٥) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (أحمد بن إبراهيم) جـ ٢ ص ٢٦ (بكر بن الهيثم).

عثمان، ودعاهم إلى مبايعة على ومساعدته على ضبط الأمور، وإعادة الوحدة إلى المسلمين، وقال لهم: «وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم».

وهناك روايات تقف مع الإمام على وتشدد على مبايعة وتحتج على خروج عائشة وطلحة والزبير في مكة، وخاصة من قبل زوجات الرسول ﷺ، وفي مقدمتهن أم سلمة التي نصحت عائشة بالإقامة في مكة، وعدم الخروج إلى البصرة^(١). ودعت المسلمين إلى «تقوى الله، وإن كنتم تابعتم عليا فارضوا به، فوالله ما عرف زمانكم خيرا منه»^(٢). رفض عبد الله بن عمر الخروج مع طلحة والزبير، حيث قال لهما: «إني امرؤ من أهل المدينة، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض، وإن يجتمعوا على القعود أقعد، فتركاه ورجعا»^(٣). قوله لهما: «وأنتما بالمدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل عليا إلا من كان على خيرا منه»^(٤). كما نصحهما عدد من الصحابة بعدم الخروج، وذكرهما بمواقفهما المعارضة لعثمان «كان منكما في عثمان من التجليب والتأليب مالا يدفعه جحود، ولا ينفعكما فيه عذر»^(٥).

أما في المدينة، فإن الروايات لا تتحدث عن ردود أفعال تشير إلى التطورات التي تحدث في مكة، إلا بعد قرار عائشة وطلحة والزبير المسير إلى البصرة لكن الإمام عليا لم يلق بالآلا إلى خطورة خروج عائشة وطلحة والزبير فهي من وجهة نظره لا تخرج عن كونها حركة احتجاج يذيعها الحوار ويمنع شراستها وشيعة القريبى والصحبة فقال معلقا: «وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغنى عنهم»^(٦). وأكد «إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام القور والنجاة، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل»^(٧). وعندما وصلته أنباء

(١) الإمامة، ج١ ص ٥٩ (ذكروا)، ابن اعثم، الفتوح، ج١ ص ٩٦، ٩٨.

(٢) البلاذرى، أنساب ج٤ ص ٢٢٤.

(٣) الطبرى، تاريخ ج٤ ص ٤٦٠.

(٤) الإمامة، ج١ ص ٦٤ (ب.م).

(٥) ن.م. ج١ ص ٦٤ (ب.م) انظر للمقارنة: نصر، وقعة، ص ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦.

(٦) الطبرى . تاريخ . ج٤ ص ٤٤٦.

(٧) ابن اعثم، الفتوح، ج١ ص ٩٩.

عزمهم على الخروج إلى البصرة، قرر الخروج إليهم لإقناعهم بعدم المسير^(١)، حرصا على عدم إصابة الإسلام بالوهن.

وكان الهدف الأساسي لخروج علي: هو مواجهة معسكر عائشة وطلحة والزبير وقتاله، باعتباره معسكر الناكثين لبيعته^(٢). والخارجين على الإجماع.

وكانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان، وخروج علي من المدينة؛ انتقال مقر الخلافة بعيدا عنها، وصار الحكم في الخلافة إلى السيف، وانتقلت قوة الدولة إلى الأمصار؛ إذ هاجرت غالبية القبائل إلى دار الهجرة، وانتقل مركز الثقل في جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها، وقد خطأ أهل المدينة أنفسهم الخطوة الحاسمة في ذلك، حين تركوا أهل الأمصار يسيطرون على مقدرات الأمور في مدينتهم، الأمر الذي دل على بداية تنازلهم عن سيادتهم الشاملة^(٣).

واتجه علي نحو ذى قار، واتخذها مركزا لتجمع قواته^(٤). بهدف الاتصال مع الكوفة، وكسبها إلى جانبه، فهي في نظره مستقر أعلام ورجال العرب^(٥)، وكتب لأهلها «إنني قد اخترتكم على الأمصار وإنني بالآثرة»^(٦). ودعاهم إلى نصرته لإظهار الحق^(٧). وإصلاح أوضاع الأمة «فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخوانا»^(٨).

وتباين المصادر في ذكر أسماء الرسل ومكان إرسالهم، فتذكر أن عليا أرسل من الربيعة عدة وفود لاستنهاض أهل الكوفة، واستكشاف مواقفهم منه، حيث أرسل كلا من محمد بن أبي بكر، ومحمد بن عوف^(٩)، وقيل محمد بن جعفر^(١٠)، ثم هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص^(١١)، إلا أنهم فشلوا جميعا في مهامهم.

(١) الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٤٦.

(٢) البلاذري، أنساب، ج٢ ص ١٣٨. الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٦٦، ابن أعثم، الفتوح، ج١ ص ٩٩، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦. (٤) المصدر السابق، ص ٢٣٠، الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٨١.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٥٥. ابن أبي الحديد. شرح، ج٢ ص ١٨٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٤٧٧. (٧) المصدر السابق، ص ٤٧٧. المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.

(٨) المصدر السابق ص ٤٧٨، انظر للمقارنة: ابن أبي الحديد، شرح، ج٢ ص ١٨٧.

(٩) المصدر السابق، ص ٤٧٧ (الملاحق).

(١٠) ن. م. ج٤ ص ٤٧٨ (ميف).

(١١) البلاذري، أنساب، ج٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥.

٤ - وكانت موقعة الجمل، صدعا لا يلتئم:

ولم يكن الإمام على مجانباً للصواب حين ظن كل الظن أن التلاقى على كتاب الله حتماً مقضياً وأمرهما محسوم بالصفح الجميل وذلك حين خندق طلحة والزبير في منطقة الزابوقة في البصرة، وهما يقولان: «خرجنا للصلح»^(١)، ويعلنان رفضهما اللجوء إلى الحرب بشدة «إنا وهم مسلمون، وهذا أمر لم يكن قبل اليوم، فينزل فيه قرآن، أو يكون فيه من رسول الله ﷺ سنة، إنما هو حدث»: وأضافا «أمر ما بيننا وبين إخواننا، هو أمرٌ ملتبس» «نحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه أجبنا، وإلا فإن آخر الدواء الكى»^(٢)، فما دار بخاطر الإمام هو عينه ما حبسته خواطرهما، عبر عن تلك الخواطر الإمام على بقوله: بأن لنا ولهم أن الإصلاح الكف عن هذا الأمر، فإن بايعونا فذاك، فإن أبوا وأبينا إلا القتال فصنع لا يلتئم.

وبعد إخفاق السفارة مع طلحة والزبير نشبت المعركة، فأما الأول فجرح جرحاً أودى بحياته، وأما الثاني فقد أخرج من الميدان بتيكيت الضمير والندامة، وقتل فيما هو يفر، وتوقفت المعركة أمام الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة وتستفز من على ظهره المقاتلين. حسب العادة العربية العريقة، ولم تتم الغلبة لعل إلا بعد أن عقر الجمل، الذي خلع اسمه على هذه المعركة، في ٤ كانون الأول سنة ٦٥٦ م، وعرضت عائشة على المنتصر تأييدها، ولكنه رفضه، ثم إنها توفيت في ١٣ تموز سنة ٦٧٨ م. وهي في السادسة والستين من عمرها، واعترف لعل بالخلافة في جميع أنحاء العراق فظل فيه وجعل الكوفة مقراً.

(١) الطبري، تاريخ، ج٤ ص ٤٩٢.

(٢) أنساب ج٢ ص ١٤٠.

الفصل الثالث

قوى الشام المضادة معاوية وعمر بن العاص

١ - غفلة أهل الشام:

وورث معاوية بن أبي سفيان، رأس البيت الأموي وأمير سورية، مهمة المطالبة بدم عثمان. بيد أنه كان عليه، قبل أن يحقق هذه المهمة أن يبعد عن بلاد الشام الخطر البيزنطي الذي لا يزال يتهدها.

وكانت الشام منذ أول الأمر تربة غير صالحة للدعوة العلوية؛ ويحكى أن أبا عبدالرحمن النسائي (٢١٥ - ٣٠٣) دخل دمشق، وكان يتشيع، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله؟ فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل؟ وفي رواية أنه قال: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله له بطناً»، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم داسوه، ثم حمل إلى الرملة، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس وكان أهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة.

ويذكر ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية أنه كان يتشيع ويقدم علياً على عثمان، وكان يدخل في كتابه أشعاراً للشيعة. ويروى أيضاً أن عوانة بن الحكم (المتوفى عام ١٤٧هـ - ٧٦٤م) كان يضع أخباراً لبنى أمية. وعامة أخبار المدائني مأخوذة عنه^(١). وإذا كان أحد الشعراء حوالي عام ٣٠٠هـ - ٩١٢م يعزو أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأخبار^(٢). فإن المقدسي يحكى لنا أنه كان يوماً بجامع واسط، وإذا برجل قد اجتمع

(١) الإرشاد (معجم الأدياء) ج ٦ ص ٩٤، ٤٠٠، Goldziher: "Kultur der Gegenwart" (?)

(٢) هو الشاعر الملقب بالخبر روى حيث يقول:

من غابت الأخبار عنه، ودينه .: دين الإمامة، قال بالأرهم

انظر مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤.

عليه الناس، فدنا منه، فإذا هو يروى حديثا بسنده عن النبي عليه الصلاة والسلام: إن الله يدني معاوية يوم القيامة، فيجلسه إلى جنبه، ويغلفه بيده، ثم يجلوه على الناس كالعروس، فقال له المقدسي: بماذا؟ قال: بمحاربتة عليا، فقال له المقدسي: كذبت يا ضال! فقال: خذوا هذا الرافضي؛ فأقبل الناس عليه، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه^(١)، وكذلك حكى المقدسي أنه كاد ييطش به لأنه أنكر على رجل من عباد أصفهان قوله: إن معاوية نبي مرسل^(٢). على أن عليا لم يصبح موضع النزاع، ومضى الوقت الذي نجد فيه خليفة عباسيا مثل المتوكل (٢٢٣ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ - ٨٦١ م) شديد البغض لعليّ ولأهل بيته، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص، ويقول: قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين، يعنى عليا - رضى الله عنه، والمتوكل يشرب ويضحك^(٣).

وفى سب الإمام على: يروى البلاذري رأى الأمويين فى سب على:

قال مروان لعلى بن الحسين (زين العابدين) ما كان أحد أكف عن صاحبنا من صاحبكم، قال فلم تشتمونه على المنابر؟ قال: لا يستقيم لنا هذا إلا بهذا.

ذكر المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) شيئا عن غفلة أهل الشام عن البيت العلوى فى ثوب طرف ونوادير وكنت قرأتها على هذا المحمل الفكاهى لكن قرأت نظائرها فى الجاحظ «فى رسائله»، وفى كتابه (الحيوان) وفى (البدء والتاريخ) للمقدسى ذكرنا طرفا منها مما جعلنا نعيد النظر فيما كتبه المسعودى وحملناه محمل الجدل - ورأينا كثيرا من الأدباء الظرفاء يعمدون إلى نقد المجتمع يصوبون إليه سهامهم فيصيصونه فى الصميم بسهام دقيقة من غير أن يقعوا تحت طائلة الغدر السياسى، ومثل هذا الأدب يظهر فى فترات القهر والعسف السياسى يمر بالأذن أدبا فكاهيا يشيع البهجة فى النفس وتطرب له الأسماع لكنه هو السم الزعاف بعينه. لذلك نظرنا إلى تلك الطرائف على أنها نقد اجتماعى يصور بلاهة أهل الشام وقسيم من العراق.

قال المسعودى: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم

(١) المقدسى ص ١٢٦، وكان من أثر هذا النزاع فى أمر على ومعاوية أن معاوية صار له شأن دينى؛ ويحكى المسعودى (المروج ج ٥ ص ١٤) أن قبر معاوية بالباب الصغير بدمشق، وهو يزار إلى هذا الوقت «وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس».

(٢) المقدسى ص ٣٩٩؛ والمتنظم ص ٦٠ ب.

(٣) أبو الفدا تحت عام ٢٣٦ (ج ٢ ص ١٨٨).

وأهل الرأي والعقل منهم: من أبو تراب [هذا] الذى يلعبه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصا من لصوص الفتن.

وحكى الجاحظ قال: سمعت رجلا من العامة وهو حاج وقد ذكر له آل البيت يقول: إذا أتيت من يكلمنى منه؟ وأنه أخبره صديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلى على محمد ﷺ: ما تقول فى محمد هذا؟ أربنا هو^(١)؟

وذكر ثمامة بن أشرس قال: كنت مارا فى السوق ببغداد، فإذا أنا برجل عليه الناس مجتمعون، فنزلت عن بغلتى، وقلت: لشيء ما هذا الاجتماع، ودخلت بين الناس، وإذا برجل يصف كحلا معه أنه ينجى من كل داء يصيب العين، فنظرت إليه فإذا عينه الواحدة برشاء والأخرى مأسوكة^(٢)، فقلت له: ياهذا، لو كان كحلك كما تقول نفع عينيك أ: فقال لى: [يا جاهل] أها هنا اشتكت عيناى؟ إنما اشتكتا بمصر، فقبالوا كلهم: صدق، وذكر أنه ما انفلت من نعالهم إلا بعد كد.

وذكر لى بعض إخوانى أن رجلا من العامة بمدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصحاب الكلام على جار له أنه يتزندق، فسأله الوالى عن مذهب الرجل؟ فقال: إنه مرجئ قدرى ناصبى^(٣) رافضى، فلما قصه عن ذلك قال: إنه ييغض معاوية ابن الخطاب الذى قاتل على بن العاص، فقال له الوالى: ما أدرى على أى شيء أحسدك: على علمك بالمقالات، أو على بصرك بالأنساب؟

وأخبرنى رجل من إخواننا من أهل العلم، قال: كنا نعد تناظر فى أبى بكر وعمر وعلي ومعاوية، ونذكر ما يذكره أهل العلم، وكان قوم من العامة يأتون فيستمعون منا، فقال لى ذات يوم بعضهم وكان [من] أعقلهم وأكبرهم حية: كم تطنبون فى علي ومعاوية وفلان وفلان؟ فقلت له: فما تقول [ليس هو أبو فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبی عليه الصلاة والسلام بنت عائشة أخت معاوية، قلت: فما كانت قصة علي؟ قال: قتل فى غزوة حنين^(٤) مع النبی ﷺ.

وقد كان عبد الله بن علي حين خرج إلى الشام فى طلب مروان، وكان فى قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبى العباس السفاح

(١) فى أ «ما تقول فى محمد هذا؟ قال: ربنا هو».

(٢) فى أ «والأخرى موكوسة».

(٣) فى ب «مرجئ قدرى أباضى فضى».

(٤) فى أ «قتل فى غزوة خيبر».

أشيأنا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة [من سائر أجناد الشام] فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة، فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر البجلي:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً راد على كل العجب
عجباً من عبد شمس إنهم فتحو للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من تراب

وقد كان بيغداد رجل فى أيام هارون الرشيد متطبب يطيب العامة^(١). بوصفاته وكان دهرى يظهر أنه من أهل السنة [والجماعة] ويلعن أهل البدع ويعرف بالسنى تنقاد إليه العامة؛ فكان يجتمع إليه فى كل يوم بقوارير الماء خلق من الناس، فإذا اجتمعوا وثب قائماً على قدميه فقال لهم: معاشر المسلمين، قلت لا ضار ولا نافع إلا الله فلاى شىء [مصيركم إلى] تسألوننى عن مضاركم ومنافعكم؟ الجأوا إلى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون.

يذكر صاحب البدء والتاريخ: وحلف ناس من أهل الشام أنهم ما علموا لرسول الله قرابة غير بنى أمية وبعث عبد الله بن على فى أثره^(٢).

٢ - معاوية وبيعة الإمام علي:

وتحت ولاية معاوية رفض الشام مبايعة على، ورفض أهلها استقبال واليهم الجديد سهل بن حنيف، إن كان عثمان بعثك فحيهلابك، وإن كان بعثك غيره فارجع^(٣)، الأمر الذى دفع علياً إلى إرسال كتاب إلى معاوية طالبه فيه بالبيعة، فرفض ذلك واستعصى ووجه رجلاً من بنى عباس، ثم أحد بنى ربيعة قبيصة، ودفع إليه صحيفة بيضاء، لا كتاب فيها سوى البسمة، ويقال: إنها كانت مختومة، وعنوانها من معاوية ابن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب. وأثار هذا الرد لدى على شعوراً بالمواجهة «يا أهل المدينة والله لتقاتلن أو ليأتينكم من يقاتلكم»^(٤)، إلا أن ذلك لم يمنع علياً قبل

(١) فى أ «تبرك العامة بصفاته». (٢) البدء والتاريخ ج ٦ ص ٧٤.

(٣) م. ن. م. ج ٤ ص ٤٤٢ (سيف).

(٤) الطبرى، تاريخ، ج ٤ ص ٤٤٣ (سيف) انظر للمقارنة: ابن أعثم: الفتح، ج ١ ص ٨٠، ٨١، ٩٢.

توجهه إلى العراق من الاستمرار في إرسال كتب إلى معاوية مناه فيها، وهدده، وتوعده، إلا أن محاولاته كانت بلا جدوى^(١).

وذكر البلاذري أن عليا أراد أن يرسل صبيحة مقتل عثمان عبد الله بن عمر إلى معاوية ليطلبه بالبيعة، فرفض قائلا: «هذا أمر لم أكن في أوله ولا آخره»^(٢). كما رفض عبد الله بن عباس اقتراحا لتسلم ولاية الشام^(٣). لم يكن معاوية في رده يتغنى وجه الحق إنما كان مناورا ريثما تدلهم الأمور أكثر مما هي عليه وتأخذ المعارضة قوتها المسلحة ويكون بأسها شديدا فهو كان في أولها وفي آخرها.

وأقرط مؤرخو الفتنة الكبرى فكانوا: أشد بغضا لأهل الشام لعدم تعاطفهم مع بيعة الإمام علي وأشدّهم عليه بأسا فأطلقوا عليهم السنة حدادا تلعنهم بأوصاف تدينهم فهم معسكر البغاة^(٤) والقاسطون^(٥) والطلقاء والمؤلفة قلوبهم^(٦)، ومحبو الدنيا^(٧)، والسلطة والحكم والمال^(٨)، والمفسدين^(٩) والسفهاء^(١٠) والظالمون^(١١)، والمحلون^(١٢).

-
- (١) البلاذري . أنساب، جـ ٢ ص ٢١١، ٢١٢، (أبو مخنف)، جـ ٢ ص ٢١٢ (خلف بن سالم)، جـ ٢ ص ٣٤٠ (هشام بن الكلبي)، الإمامة، جـ ١ ص ٥١ (ب.م)، جـ ١ ص ٨٧، ٨٨ (ذكروا)، الطبري، تاريخه، جـ ٤ ص ٤٤٣، ٤٤٤ (سيف). PETERSEN. "Al-Muawiyah". PP.164,177.
- (٢) البلاذري، أنساب، جـ ٢ ص ٢٠٩.
- (٣) ن . م . جـ ٢ ص ٢٠٨ (أبو مخنف).
- (٤) البلاذري، أنساب، جـ ٢ ص ١٦٨.
- (٥) المصدر السابق ص ١٢١. الطبري، تاريخ، جـ ٣ ص ٣٨، الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة في الحكمين، ص ٣٨٤، ٣٨٥.
- (٦) الإمامة، جـ ١ ص ٥٧ (ذكروا)، جـ ١ ص ٩٨ (ذكروا)، جـ ١ ص ١٠٣ (ذكروا)، جـ ١ ص ١١٢ (ذكروا)، جـ ١ ص ١٤ (ذكروا)، جـ ١ ص ١١٧ (ذكروا)، جـ ١ ص ١٣٥ (ذكروا)، جـ ١ ص ١٦٥ (ب.م)؛ انظر للمقارنة: الدينوري، الأخبار، ص ١٦٤.
- (٧) البلاذري، أنساب جـ ٢ ص ٧٣.
- (٨) المصدر السابق ص ٢٨٣. الطبري تاريخ، جـ ٥ ص ١٨.
- (٩) الطبري، تاريخ، جـ ٤ ص ٤٤٥.
- (١٠) ن . م . جـ ٤ ص ٥٤٧ (أبو مخنف). انظر للمقارنة: الدينوري، الأخبار، ص ١٦٤.
- (١١) البلاذري، أنساب، جـ ٢ ص ٣٨ (أبو مخنف)، جـ ٢ ص ١٥٩ (قالوا)، جـ ٢ ص ٢٩٤، ٢٩٥ (أبو مخنف)، جـ ٤ ص ١٢١ (قالوا)؛ اليعقوبي، تاريخ، جـ ٢ ص ٣٠١؛ الإمامة، جـ ١ ص ١٠٦ (ذكروا)؛ الطبري، تاريخ، جـ ٥ ص ٧٨ (أبو مخنف)، جـ ٥ ص ١٠٣ (أبو مخنف).
- (١٢) اليعقوبي، تاريخ جـ ١ ص ١٥٩ (ب.م).
-

وأصحاب الباطل^(١)، ومفرقي الجماعات^(٢)، وأولياء الشياطين^(٣)، والملحدون^(٤)، والطغاة^(٥)، وشراب الخمر^(٦)، وأوثان الجاهلية^(٧)، والفجرة^(٨)، والمرتشين^(٩)، وهى اتهامات صريحة تشكك فى إسلامهم، وتخط من قدرهم.

قد يكون الدافع الذى دفع بالمؤرخين إلى قذف معسكر معاوية بخسة المواقف ليس تشنيع المؤرخين للبيت العلوى أو العباسى كما يذهب بعض النقاد؛ لأن القول بهوى المؤرخين مع البيت العلوى يطمس قضية الشام مع الإمام على وإلا كيف نفهم امتناعه عن البيعة؟ وكيف نفسر حمل السلاح عليه فى حرب صفين؟ وكيف نفسر التحكيم وإجلاس معاوية على سدة الخلافة؟ لا شك أن الأوصاف التى كالمها المؤرخون للشام صادقت مكانا لها فى جبلتهم ودانت سجايهم الحسيسة، فالدافع وراء المؤرخين ليس هو التشيع العلوى إنما رأى تاريخى تأولوا له حديث عمار وهو كما ذكروا إقرار الرسول ﷺ لعمار بن ياسر بأن الفئة الباغية ستقتله «تقتل عمار الفئة الباغية»^(١٠). هذا فى الوقت الذى أشار فيه البلاذرى وصاحب الإمامة والسياسة والطبرى إلى تأكيد معاوية على أن الفئة التى ستجلب عمارا للقتال. هى الفئة التى ستقتله، وهى الفئة الباغية^(١١) وهو تأويل يحمل عسرا شديدا.

-
- (١) الإمامة، ج١ ص ٥٩ (ب.م) انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.
 - (٢) الطبرى، تاريخ، ج٤ ص ٤٤٥ (سيف)، انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.
 - (٣) ابن أبى الحديد شرح، ج١ ص ٢٣٩.
 - (٤) البلاذرى، أنساب، ج٤ ص ١٢١.
 - (٥) البلاذرى، أنساب، ج٢ ص ٣٩١.
 - (٦) حبيب ريات، مزاعم المؤرخين العباسيين فى وصف شره الأمويين، ص ١٦١، ١٦٢.
 - (٧) البلاذرى، أنساب، ج٢ ص ٣٣ (المداينى)، ج٢ ص ٣٩ (المداينى)، ج٢ ص ٣٩ (المداينى) ج٢ ص ٤٠ (المداينى) يعقوبى، تاريخ، ج٢ ص ١٨٧.
 - (٨) الطبرى، تاريخ، ج٥ ص ١٠٢ (أبو مخنف).
 - (٩) ن. م. جده ص ١٠٢ (أبو مخنف). انظر للمقارنة: الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالته فى الحكمين، ص ٣٦٨، ٣٦٩، المسعودى، التنبيه، ص ٢٦١؛ ابن أبى الحديد، شرح، ج١ ص ٣٣٤ - ٣٤٠ - انظر المؤرخون العرب والفئة الكبرى. ص ٣٠٩.
 - (١٠) البلاذرى، أنساب، ج١ ص ٦٨، يعقوبى، تاريخ، ج٢ ص ١٨٨، الطبرى، تاريخ، جده ص ٤١، ابن سعد، الطبقات، ج١ ص ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٩، مسلم، صحيح، ج١ ص ١٧٤، ٢٤٨.
 - (١١) البلاذرى، أنساب، ج٢ ص ٣١٧، الطبرى، تاريخ، جده ص ٤١، ابن سعد الطبقات، ج٢ ص ٢٥٣، نصر، وقعة، ص ٢٤٣، ابن أعثم، الفتح، ج١ ص ٣٩١.
-

٣ - معاوية يخطط للصراع المسلح:

بعث معاوية من ليلة انتصار الإمام علي في موقعة الجمل إلى عمرو بن العاص أن يأتيه فكتب إليه . أما بعد فإنه قد كان من أمر علي وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك فقد سقط إلينا مروان من رافضة أهل البصرة وقدم على جرير بن عبد الله في بيعه على وحبست نفسى عليك حتى تأتيني على بركة الله تعالى: فلما انتهى الكتاب إليه دعا ابنه عبد الله ومحمدا فاستشارهما، فقال له عبد الله أيها الشيخ إن رسول الله ﷺ قبض وهو عنك راض ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فإنك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها نصبها معاوية فتضججان غدا في النار ثم قال لمحمد ما ترى؟ فقال بادر هذا الأمر فكن فيه رأسا قبل أن تكون فيه ذنبا. فلما أصبح دعا وردان مولاه فقال له ارحل يا وردان ثم قال حذ يا وردان فحط ورحل ثلاث مرات فقال وردان: لقد خلطت أبا عبد الله فإن شئت أخبرتك بما في نفسى، فقال: هات قال اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: على معه آخرة بلا دنيا. ومعاوية معه دنيا بلا آخرة.

والرأى: أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغن عنك. شعر عمرو بأن الدنيا تستدعيه ما دامت تستدعيه/ ما دام معاوية قد بعث له فلم تقاوم نفسه وانضم إلى معاوية. من هنا بدأ معاوية مناورته.

قال معاوية مناورا حينما طالبه الإمام علي بالبيعة: هذا أمر لم أكن في أوله ولا في آخره. إجابة مأكرة تدخل في باب الملق السياسي وذلك هو قدر الإمام على حاقت ببيعه الدواهي من كل جانب فأتعب الجند وأقلق الولاة وأفسحوا للسيف أن يحل محل الشورى والبيعة وكان أحرص الناس على حقن دماهم وأموالهم وأعراضهم قال بلجند:

«إنكم قد سرتم لتمعنوا الشام وتأخذوا العراق»^(١) وقال أحد رؤساء القبائل لمعاوية: ما ننظر إلا لله ولا نغضب إلا للخليفة ولا نحامي إلا عن الشام^(٢). كما أشار إلى تحذير قبيلة كندة لزعيمها الأشعث بن قيس، عامل أذربيجان، حينما هم بالالتجاء إلى معاوية، بعد ما طالبه على بمبايعته وتسليمه أموال ولايته «أندع مصرك وجماعة قومت وتكونن ذنبا لأهل الشام»^(٣). وهو المعنى نفسه الذى عبر عنه عبد الله بن عمرو

(١) الإمامة، ج ١ ص ١٠٧ (ذكروا) انظر للمقارنة: نصر، وقعة، ص ٥٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٨.

(٢) لإمامة ج ١ ص ١٠٧ (ذكروا) الطبرى، تاريخ ج ١ ص ٤٣.

(٣) لإمامة ج ١ ص ٩٥، ٩٦ (ذكروا).

ابن العاص في قوله لوالده، حينما هم بتلبية طلب معاوية بالمسير إليه من فلسطين، ليشاوره حول بيعه على «... أقم في منزلك، فلست مجعولا خليفة، ولا تريد أن تكون ذنباً لأهل الشام، ولا لحاشية معاوية على دنيا قليلة»^(١)، ويتفق أيضاً مع رسالة قبيلة بكر بن وائل إلى أحد قادتها، مصقلة بن هيرة، الذي التجأ إلى معاوية في أعقاب معركة الجمل «... ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق»^(٢). ويورد الطبري تحذير معاوية لجنده من أن أهل العراق «جاءوكم وهم لا يرون إلا أنهم سيقبضون بيسضتكم ويخربون بلادكم»^(٣).

وكان الالتجاء لمعاوية وأهل الشام وترك على منقصة وذنباً. واختفت وراء أطماع معاوية في صراعه مع على رغبة في السيطرة على العراق، وتسخير خيراته وأهله لمصلحة أهل الشام، وبانت شعاراته الكثيرة حول مطالبته بدم عثمان ماهي إلا خدعة واضحة لإثارة عصبية القبائل وتأجيج الصراع الدائر.

ويذهب النقاد في تقدير موازين القوى على الجبهة العراقية إلى أنها كانت تضم عناصر متباينة في الولاء والمفاهيم والاتجاهات، فهناك الأنصار والمهاجرون، وإلى جانبهم أشرف القبائل وأهل القادسية والأيام وجماعات الروادف ومجموعات القراء، وهي عناصر تختلف في درجة تقديرها لمصالحها، وفي نظرتها لقريش ولسلطان المدينة، وفي فهمها لأبعاد الصراع الذي تخوضه^(٤)، الأمر الذي يفسر تأكيد البلاذري وصاحب الإمامة والسياسة والطبري على عدم تجانس الآراء في معسكره، وعدم انضباط قبائله لدرجة أنها ظلت مثار شكواه منذ انطلاقته لمواجهة معاوية حتى مقتله^(٥).

أما الشام فأيدت قبائله وقياداته ورجالاته معاوية في صراعه مع على معلنة دعمها المطلق.

ومن جهة أخرى أكد صاحب الإمامة والسياسة والطبري انضمام أربعة آلاف من القراء إلى معاوية بقيادة عبد الله بن عمر بن الخطاب^(٦).

(١) ن. م. ج. ص ١٠٠ (ذكروا).

(٢) ن. م. ج. ص ٩١ (ذكروا).

(٣) الطبري تاريخه ج ٥ ص ٩٨ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٢٦٦.

— المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ رسالة في الحكمين ص ٤٢٦ — ٤٢٧. طه حسين الفتنة ج ٢ ص ٨١.

(٥) البلاذري أنساب ج ٢ ص ٣٨.

(٦) الإمامة ج ١ ص ١١٠.

وقد وصفت هذه المصادر الهاربيين بالخونة والعملاء، والغدارين، وأصحاب المصالح الخاصة. ورأت أن مادفعهم إلى ذلك هو الطمع في السلطة والمال والضيقة سياسة على القائمة على الحق والصدق والعدل.

ومن المفاجآت التي يستعصى على من أوتي حظاً من سلامة الرأي تفسير خروج عبد الله بن عمر على رأس تلك القوة من القراء وكان قد اعتذر عن مبايعته ثم بايعه اتقاء الفتنة واعتذر أن يكون رسول على إلى معاوية وقال ما قاله معاوية . . . وخرج بالليل إلى مكة تاركاً علياً يتذمر عليه بالمدينة. وكنا نخاله ملاذاً للرأي حين تغدو المواقف منبهة، لكن نبع الرأي الصائب من مخنف بن سليم - أبرز قادة الإمام على حين - قال في أسف بالغ وألا نسفك دماء المسلمين^(١) بأيدينا وماهى إلا أجنحتنا نجدها بأسيا فانا، فإن نحن لم نؤاس جماعتنا، ولم نناصح صاحبنا كفرنا وإن نحن فعلنا عزنا أبغنا، ونارنا أحمدا^(٢). أما عدى بن حاتم فقال: «ما أبقت هذه الوقعة لنا ولا لهم عميداً»^(٣).

٤ - فكرة رفع المصاحف التحكيم:

يقول المسعودي: فإن الأسبوعين الأخيرين من موقعة صفين - كانا أدمى الأسابيع حقاً فلا عجب إذن أن كره الناس الحرب وتداخوا إلى الصلح^(٤) من هنا كان الجو مهياً لدعوة عمرو بن العاص - يصفه اليعقوبى بأنه باع دينه مع على لندياه مع معاوية - إلى رفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم. يقول ابن سعد: ورفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى مكيدة فيها^(٥) ذلك شكل ضغطاً. دفع عمرو بن العاص إلى اقتراح فكرة رفع المصاحف، بهدف إيقاف القتال، والرجوع إلى حكم الله^(٦)، ولاقت هذه الفكرة تأييداً وتشجيعاً من معاوية^(٧). وقيادات أهل الشام^(٨).

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٢٤.

(٢) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٢٦ - ٢٧.

(٣) الإمامة ج ١ ص ١٢٩.

(٤) التنبيه للمسعودي ٢٩٥.

(٥) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢١.

(٦) البلاذرى، أنساب، ج ٢ ص ٣٢٢.

(٧) البلاذرى، أنساب، ج ٢ ص ٣٢٣.

(٨) الإمامة ج ١ ص ١٣٢.

وعلى الرغم من أن السوريين كانوا أحسن تدريباً من العراقيين غير المنظمين، فقد نجح العراقيون بقيادة مالك الأشتر، أحد أشياخ على المتحمسين، في الضغط على خصومهم وإحراجهم إلى درجة حملت معاوية على التفكير في الفرار. وفي هذه الأثناء كان حفظة القرآن الأتقياء يذبلون أقصى الجهد لدى الفريقين، ليتحقق السلام. وتذهب الروايات إلى أنه في هذه اللحظة الحرجة أشار الداهية عمرو بن العاص، فاتح مصر وأميرها السابق على معاوية بأن يبعث بقوات جديدة، رافعة المصاحف على رؤوس الرماح دلالة على أنها تحكم كلمة الله، لا كلمة السيف، في أي الرجلين يجب أن يلي أمر المسلمين. ومع أن هذه الحادثة قد تكون وهمية، فالذي لاشك فيه أن أهل العراق قد أجبروا عليها الذي اعتبر أن النصر قد كُتب له، على أن يوقف المعركة.

دعا على قواته إلى تجاهل النداء، والاستمرار في القتال معتبراً فكرة رفع المصاحف خدعة ومكيدة وأيدته في رأيه أقلية من رؤساء القبائل وأشرافها ودعته إلى مواصلة الحرب، مثل الأشتر^(١). وعمير بن عطارد، وحرث بن جابر البكري، وعبد الرحمن بن الحارث، وعدى بن حاتم، وقيس بن سعد^(٢).

وهددت عصاة من قراء المعسكر العراقي علياً بالقتل، إذا ما أصر على عدم الموافقة على دعوة أهل الشام بوقف القتال، ومن أبرزهم آنذاك مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين^(٣). كما أيد وقف القتال عدد كبير من زعماء القبائل العراقية.

الحكمان: أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص؛

وفي فترة المهادنة التي فرضت نفسها باقتراح من أهل الشام^(٤)، جلس الفريقان للتفاوض فأبدى على موافقته على قيام الأشعث بن قيس - وهو من خير من يقوم بمهمة التفاوض بين الفريقين - لتحديد الأهداف والخطوات فاقترح أهل الشام الذي ظل موحداً، أن يكون عمرو بن العاص ممثلاً عنهم في مفاوضات ومؤتمر التحكيم الذي وصفه أهل العراق بالقوى والفاجر والخائن وداهية العرب، بينما وصفه بالحنك والداهية.

(١) البلاذري: أنساب، ج ٢ ص ٣٢٠.

(٢) الإمامة ج ١ ص ٢٤.

(٣) الإمامة، ج ١ ص ١٣١.

(٤) اللورخون العرب والفتنة الكبرى.

٥ - كتاب التحكيم ماله وما عليه:

وأشارت الروايات إلى أسباب اختيار أبي موسى الأشعري، فهو رجل يثق أهل العراق بتقائه، وأهل الشام بتقواه، وضعفه وتقاه خير من قوة عمرو، وخير مما نحن فيه^(١). وإنه لم يدخل في شيء من الحرب^(٢) وأبرزت احتجاجا على اختيار أبي موسى الأشعري بسبب دوره في تثبيت الناس عنه في معركة الجمل^(٣). وأوردت وصف الأشر له بالمخادع، بينما وصفه الأحنف بن قيس بـ «كليل الشفرة قريب القعر» لا يصلح لهؤلاء القوم» و«رجل يمانى وأهله مع معاوية»^(٤).

اختار على أبا موسى الأشعري ممثلا للعراقيين، قيل يوم الجمعة، لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة رفض معاوية^(٥) أو عمرو بن العاص^(٦) كتابة «أمير المؤمنين» بجانب اسم على في وثيقة التحكيم؛ لعدم اعترافهم بذلك.

وافق علي على محو لقبه^(٧)، بعد أن استشار قومه. ويعد أن تذكر حادثة مماثلة واجهها الرسول ﷺ يوم الحديبية، حينما اعترض الكفار على تسمية «رسول الله» ودعوه لكتابة اسمه واسم أبيه في وثيقة اتفاقهما، فمحا الرسول ﷺ ذلك بيده^(٨).

ثم هوجم فيما بعد من الخوارج الذين اعتبروها تنازلا منه عن الخلافة التي يابعه عامة المسلمين عليها.

وكان عدم إصرار علي على تثبيت لقبه «أمير المؤمنين» أتاح لمعاوية طرح مصطلح الشورى، وعزز من إصراره على تطوير محاور صراعه مع علي، وأعطاه غطاء شرعيا للخروج على خلافته، وعدم الاعتراف بها. وأما قياسهم موافقة الإمام على طرح لقب أمير المؤمنين قياسا على ما كان في صلح الحديبية فهو قياس لا يحمل دلالة القوة ولا تجمع بينهما الموازنة.

(١) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٣: الإمامة ج ١ ص ٣٢.

(٢) البعقوي، تاريخ ج ٢ ص ١٨٩.

(٣) البلاذري، أنساب، ج ١ ص ٣٣٣. (٤) الإمامة، ج ١ ص ١٣٢.

(٥) الطبري، تاريخ ج ٥ ص ٥٢ (على بن مسلم) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥٠٨.

(٦) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٤٧ (اللدائني): الطبري، تاريخ ج ٥ ص ٥٢ (أبو مخنف).

(٧) البلاذري، أنساب، ج ٢ ص ٤٤ (إسحاق الفروي): البعقوي، تاريخ ج ٢ ص ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣،

انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥٠٨.

(٨) المؤرخون العرب، الفتنة الكبرى.

وحملت نصوص كتاب التحكيم الذى تضمن تعهد علي ومن معه من شيعته من أهل العراق ومعاوية ومن معه من أهل الشام مكانة سياسية جديدة بالنظر نعروض لها بعد عرضه: «هذا ما تقاضى عليه، على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة. ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين، والمسلمين. وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين^(١) على أن يحكما بما فى كتاب الله، فما لم يجداه فبالسنة الجامعة العاملة غير المفرقة، وأن يصلحا بين الأمة ولا يرداها إلى الحرب والفرقة. وأخذ الحكمان العهود والمواثيق من معاوية وعلي وجندهما. ومن اشترك من الناس بالفتنة أن يقبلوا بحكمهما. وأن يعطوهما الأمن والأمان لدعائهما وأموالهما وحريمهما، واتفقا على تأجيل القضية إلى رمضان من العام المقبل، أو إلى أى موعد يتفقان عليه. ودعا كل منهما الطرفين إلى وضع السلاح خلال هذه الفترة. كما أتاح الكتاب للحكمين أن يجتمعا إن اتفقا قبل ذلك الموعد. وإن مات أحد الحكمين، فإن أمير الشيعة يختار مكانه من أهل العدل، ولهما ألا يحضر لقاءهما إلا من أحبا. ولا يشهده إلا من أراد^(٢). واتفقا أن يكون مكان الاجتماع مكان عدل بين الكوفة والشام والحجاز^(٣) فى دومة الجندل^(٤)، فإن لم يجتمعا لذلك، اجتمعا العام المقبل فى أذرح ولهما أن يجتمعا بغيرهما، إن رضيا بذلك^(٥).

وشهد على الكتاب شهود من المعسكرين العراقى والشامى.

لم تخرج نصوص كتاب الحكمين عن نصوص عهد أمان عام وجاء خاليا من معالجة القضية الأساسية التى ارتكز عليها صراع معاوية مع علي، وهى القصاص من قتلة عثمان. وأغفلت موقف معاوية من شرعية خلافة علي، حتى جعلته يرفض السماح

(١) الطبرى، تاريخ، ج ٥ ص ٥٣ (أبو مخنف) انظر للمقارنة، نصر وقعة، ص ٥٠٤.

(٢) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ (المداينى): اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٠، الإمامة

ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ (ذكروا): الطبرى تاريخ ج ٥ ص ٥٤ (أبو مخنف)، ج ٥ ص ٧٥ (الزهرى)،

انظر للمقارنة، نصر، وقعة، ص ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥١٠، إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام، ص ٣١٧.

(٣) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٣٢٥ (المداينى): اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ١٩٠، الطبرى، تاريخ ج ٥

ص ٥٤ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة ص ٥٠٦، ٥١١.

(٤) الإمامة ج ١ ص ١٣٦ (ذكروا) ج ١ ص ١٣٨ (ب.م)، ج ١ ص ١٤٠ (ذكروا)، الطبرى، تاريخ ج ٥

ص ٥٧ (الزهرى)، ج ٦ ص ٦٧ (أبو مخنف).

(٥) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٥٧ (الزهرى) ج ٦ ص ٦٦ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥١١.

له بكتابة لقبه «أمير المؤمنين» في كتاب التحكيم. ربما كانت تلك المؤاخذات وراء شك الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) في صحة الكتاب حيث أضعف نصه وأسانيده وشهوده^(١).

واحترم علي ما تم الاتفاق عليه في كتاب التحكيم. ودعا على قواته بعد يومين من إنجاز كتاب التحكيم للعودة إلى الكوفة، بعد أن أمر بدفن القتلى، وإطلاق سراح الأسرى، فسار إلى الكوفة في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين^(٢).

بعد أن اتخذ علي قراره بإعلان القطيعة مع الخوارج. وعدم الاستجابة إلى مطالبهم بعدم إرسال أبي موسى الأشعري إلى مؤتمر التحكيم^(٣). واجتماع الحكمين في دومة الجندل ويبدو أن الوفد الشامي وصل قبل الوفد العراقي لانشغال علي مع الحرية وتردده في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه في وثيقة التحكيم. دفع ذلك معاوية إلى إرسال كتاب دومة الجندل إلى علي يقول فيه: «لا يلفتك عن رأيك أعارب بكر وتميم» واقترح عمرو بن العاص على أبي موسى الأشعري مبايعة معاوية بالخلافة، إلا أنه رفض اقتراحه^(٤). مبديا رغبته في إحياء سيرة عمر بن الخطاب، وذلك بخلع كل من علي ومعاوية، وجعل أمر الخلافة شوري بين المسلمين، يختارون لأنفسهم من أحبوا فوافقه عمرو بن العاص على اقتراحه.

وأعلن أبو موسى الأشعري قرار الخلع فقال: «أيها الناس إن رأينا قد اتفق على أمر أرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة. . إنا نظرنا في الأمر فلم نر شيئا أصح من خلع هذين الرجلين، ثم تستقبل الأمة أمورهما فيكون أمرهم شوري يولون من اختاروا. إني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أموركم. وولوا من رأيتم أنتم». وأقبل عمرو بن العاص فثب معاوية وخلع عليا، إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي عثمان والمطالب بدمه، وهو أصح سياسة وأحزم رأيا من غيره.

وإذ لم يوضع للاجتماع، قبل انعقاده، هدف معين، فقد اختلف الفريقان. وكان اختلافهما على طرفي نقيض. فقد كان العراقيون يتوقعون أن يحصلوا على الاعتراف

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة في الحكمين: ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

(٢) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٧.

(٣) البلاذري . أنساب ج ٢ ص ٣٤٦. الطبري . تاريخ ج ٥ ص ٦٦.

(٤) البلاذري . أنساب ج ٢ ص ٢٥٠. اليعقوبي . تاريخ ج ٢ ص ١٩٠.

الرسمى بخلافة علي. فى حين كان معاوية يطالب ببحث ما إذا كانت تبعة علي فى مقتل عثمان تجعله غير أهل للحكم. ولكن مندوبه اعتبر كلا من علي ومعاوية مدعيا للخلافة، واستطاع بعدد من الإيحاءات الموافقة أن يقنع خصمه بخلع الرجلين معا. ولم يكن فى وسع علي أن ينزل عند هذا الحكم، ورأى نفسه مضطرا إلى أن يحث يمينه. وإذ قد وضع على نفسه بهذا الصنيع، على طرف الخطأ، فقد أطلق جنود معاوية أنفسهم لقب الخليفة على ابن أبى سفيان، منذ ذلك الحين.

لذلك نرى أن تفاوض الحكيمين حول تفاصيل الخلاف بين الإمام علي ومعاوية ربما كانت مدروسة جيدا من قبل معاوية وعمرو بن العاص فهى فى صالح معاوية دون الإمام علي. وغير مدروسة تماما من قبل الإمام علي إنما ارتجال أبى موسى الأشعري أيما ارتجال من غير أن يرجع بها إلى من حكموه. فلا هى موافقة لتصوص كتاب التحكيم الذى يطلب الأمان وعدم الفرقة للأمة ولا هى تثبت الحق الشرعى للإمام علي. لقد أصاب التفاوض مقتل الشرعية فى عصب البيعة والشورى وأورث الأمة ضعفا على ضعف ووهنا على وهن. وكانت قسمة ضيزى حين ساءت بين الإمام علي والخليفة الشرعى وبين معاوية ذلك الوالى المعزول وذلك حين رفض الإمام علي وغضب لخلعه وفق صيغة التحكيم التى أعلنها أبو موسى الأشعري، إلا أن عمرو بن العاص أيد خلع على وإبقاء معاوية، لم يرفض التحكيم استنادا إلى قصة الخديعة. بل اعتمادا على أن الحكيمين نبذا حكم القرآن وراء ظهرهما، «أن يُحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن». فما هو الذى نبذاه سوى حقه وشرعيته فى الخلافة والطاعة كما أن دراسة الأسباب التى أدت إلى تمرد الخرب بن راشد عام ٣٨هـ ضد علي، يدعم ما قاله له، لأنك حكمت فى الكتاب، وضعفت عن الحق إذ جد الجد. وركنت إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زار، وعليهم ناقم «فهل الحق الذى ضعف عنه على هو» أنه لم يقبل حكم أبى موسى، الذى يقضى بترك اختيار الخليفة إلى الشورى بين المسلمين، وخاصة أن الخرب أكد أنه لم يرض عليا ولا سيرته «فأريت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى من الناس».

وجدد المؤرخون ملامح شخصية أبى موسى الأشعري، كما تصوره رواياتهم، فهو ساذج ومسال� وضعيف ومنقاد لتوجهات ومطالب عمرو بن العاص بشكل ملفت للنظر، وتتهمه هذه المصادر - بصورة غير مباشرة - بالخيانة لعدم تأكيده على شرعية خلافة علي، وعدم أحقية معاوية فى التشكيك بها، ولعدم إشارته إلى براءة علي من دم عثمان.

وراح المؤرخون يذكرون: الصورة الماكرة والمخادعة لعمر بن العاص، فهو لا يتورع عن اللجوء إلى أى شيء لتحقيق أهدافه وغاياته مستخدماً قدرته وذكاؤه وسيلة لذلك وعدم مصداقيته.

ونقل شريح بن هانئ وعبدالله بن عباس أنباء التحكيم إلى علي، فكان يلعن معاوية، وأبا الأعور السلمي، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة^(١). كما لام أتباعه على إجبارهم إياه على اختيار أبى موسى الأشعري، وأوضح أنه لا سبيل إلى حرب القوم، حتى انتهاء المدة المحددة^(٢). وأضاف بأن الحكمين نبذا حكم القرآن وراء ظهرهما، وأحيا ما أمات القرآن^(٣)، وكتب لأبى موسى الأشعري «إنك امرؤ ضلك الهوى، واستدرجك الغرور». وأعلن ابنه الحسن أن الحكمين أرسلوا ليحكم بالقرآن على الهوى، فحكموا بالهوى على القرآن.

رحب معاوية بنتيجة الاجتماع، وكتب لأبى موسى الأشعري «فلو كانت النية تدفع الخطأ لنجا المجتهد وأعذر الطالب، والحق لمن نصب إليه فأجاب، وليس لمن أعرض له فأخطأ». وبعدما علم معاوية أن علياً يلعنه «لعن علياً وابن عباس والأشتر وحسنا وحسينا». وأضاف البلاذري أسماء «قيس بن سعد، وعبد الله بن جعفر».

ولم يلبث مركز علي في العراق أن تضعف إلى حد بعيد. والواقع أنه كان لا يزال في طريق العودة من صفين عندما لأمه جماعة من جيشه، معظمهم من بنى تميم، لوماً عنيفاً على ما أبداه من استعداد للنزول عند قرار هيئة محكمة من البشر. وكان من رأيهم أن الحكم لله وحده. فانشقوا عن علي وانسحبوا إلى قرية حروراء، غير بعيد من الكوفة، وانتخبوا أحدهم، عبد الله الراسبي. خليفة عليهم.

٦ - قراء المعسكر العراقي:

وفي سنة ٦٥٣ ظهر الاختلاف في قراءات القرآن في أثناء غزوة أرمينية بين جيوش الشام وجيوش العراق. وإذ كان التوتر بين سكان هذين القطرين على أشده أئذ

(١) البلاذري أنساب ج ٢ ص ٣٥١.

(٢) الإمامة ج ١ ص ١٤٣ (ذكرون).

(٣) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٦٦.

فقد كان من الطبيعي أن يؤدي ذلك الخلاف على أى القراءات القرآنية أصح، إلى اشتباكات عنيفة بين الجنود. ولكى يحول الخليفة دون تجدد هذه الحوادث عزم على اعتماد نسخة رسمية من القرآن.

والواقع أن أجزاء كثيرة من الوحي كانت قد دوت بشكل منجم متفرق حتى فى أيام النبى ﷺ. فلما كانت خلافة عمر عهد إلى زيد بن ثابت، المدنى الشاب الذى كان يكتب الوحي للرسول ﷺ، بأن يجمع صحف القرآن كلها. ولكن ذلك لم يعد أن يكون عملا شخصيا ليس له صفة رسمية عامة. حتى إذا توفى عمر انتقلت هذه الصحف إلى ابنته حفصة. ثم إن عثمان حصل على هذه المجموعة الأولى. فعهد إلى زيد، وثلاثة نفر من القرشيين، بأن يعيدوا النظر فيها كرة أخرى. ففرغوا لما نذبوا له وأدوا مهمتهم فى عناية فائقة يشهد عليها اقتران عملهم بالقبول والإعظام، فى كل مكان، من غير معارضة. ومع ذلك فقد وجد الكوفيون فى هذا الصنيع مادة خصبة أفادوا منها فى إثارة الناس على عثمان، آنذاك.

ثم تجددت خصومة قديمة حين قام قراء المعسكر العراقى، أو أهل البصائر والعباد، أو الخوارج فيما بعد، بالضغط على علي لحمله على قبول فكرة التحكيم التى طرحها معسكر معاوية حين رفعوا المصاحف فوق الرماح^(١) إلى حد تهديد قيادات القراء مثل مسعر بن فديكى التميمى وزيد بن حصين الطائى، عليا للموافقة على ذلك، وهددوه بالقتل إذا ما أصر على رفض الدعوة للتحكيم^(٢).

ويلاحظ أن إلقاء تبعة وقف القتال على القراء كان نواة المذهب الخارجى فيما بعد، ودعم الفكرة التى روجت لها هذه المصادر حول إكراههم عليا على قبول وقف القتال مع معاوية، وهى فكرة لم تصمد للنقاش، إذ اتضح وجود شبه إجماع داخل المعسكر العراقى على قبول المواجهة، ولا يمكن التسليم بإمكانية إملاء القراء لقراراتهم على علي بالقوة والتهديد.

وتذهب روايات مختلفة عن آراء القراء فى التحكيم، ففى حين أظهر بعضها

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٣٨. اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ١٩٢. الطبرى تاريخ ج ٥ ص ٦٥، ٦٦.

(٢) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٤٩، ابن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣١٧، ٣١٢، ابن أبى الحديد شرح ج ٢ ص ٢١٧.

تأييدهم له من خلال إصرارهم على اختيار أبي موسى الأشعري ممثلاً للمعسكر العراقي في مؤتمر التحكيم، بسبب اعتزاله الفتنة وعدم اشتراكه في القتال^(١).

وروايات أخرى تظهر رفض القراء لمبدأ اختيار الحكيمين^(٢). لرفضهم تدخل البشر في الحكم، واعتقادهم أن القرآن أدان معاوية وخطأه، ولإيمانهم أن رفع أهل الشام لمصاحفهم هو استسلام لأهل العراق^(٣). ولرغبتهم في أن يصبخوا طرفاً ثالثاً في الصراع، أو على الأقل أن يوكل إليهم دور مهم لكي يتفحصوا القرآن ميدانياً ويصدروا حكمهم في الخلاف الدائر بين علي ومعاوية^(٤). وبما يدعم فكرة معارضة القراء للتحكيم عدم مشاركتهم في الشهادة على القضية، كما شهد دعاة المواقفة عليه.

كذلك وردت روايات معارضة القراء للتحكيم بعد الانتهاء مباشرة من صياغة كتاب القضية، إوجاء الاحتجاج على لسان أفراد عاصروا تحكيم الرجال في أمر الله، وجأهروا بالاحتجاج على ذلك تحت شعار «لا حكم إلا لله»، ومن هؤلاء عروة بن أدية التميمي، الذي اعترض الأشعث بن قيس أثناء عرضه لكتاب التحكيم على القبائل وضرب بسيفه عجز دابته. وأورد البلاذري عدداً من الروايات المتباعدة بشأن أول من حكم فأشار إلى أنه يزيد بن عاصم المحاربي^(٥)، أو الحجاج بن عبد الله بن سعيد بن زيد مناة من تميم، الذي يعرف بالبرك الصريمي^(٦)، أو رجل يدعى سعيداً من بني محارب بن حصيفة بن قيس بن عيلان بن مضر^(٧)، أو رجل من بني يشكر بن بكر بن وائل حمل على أصحاب علي فقتل منهم واحداً غيلة، فشد عليه رجل من همدان وقتله^(٨)، أو فتیان أخوان من عنزة يقال لهما معدان وجعد حملاً على أهل الشام، وقتلاً حتى قتلا

(١) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٢٤، اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٩١، الطبري، تاريخ، ج ٥ ص ٦٣.

(٢) المدائني، تاريخ ج ٥ ص ٥١.

(٣) هشام جعيط، الفتنة، ص ٢١٠ سليم التميمي، ظهور الخوارج، ص ٢٧.

(٤) إبراهيم شعبان، صدر الإسلام ص ٨٧.

(٥) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٦، اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٩٠، الأشعري، مقالات ج ١ ص ٢٧٢، المسعودي، مروج ج ٢ ص ٤٢ - ٤٤، القلسي، البدء ج ٥ ص ٢٢١، فلهارون، الخوارج والشيعه، ص ٢٥ - ٣٢.

(٦) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٦، المبرد، الكامل ج ٢ ص ١٨٧. (٣) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٦.

(٧) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٦.

(٨) البلاذري، أنساب، ج ٢ ص ٣٣٨.

على باب رواق معاوية^(١)، أو صالح بن شقيق المرادي، وهو من رؤساء مراد^(٢). كما جاء هذا الاحتجاج على لسان جماعات من بنى راسب^(٣). ويبدو أن البلاذري أراد التأكيد على أن البدايات الأولى للتحكيم تمثلت برافضين من مختلف القبائل^(٤)، أو ربما أراد استعراض الأصول المختلفة للمحكمة التي مثلت مرحلة مهمة من مراحل تطور حركة الخوارج التي ظهرت فيما بعد^(٥).

٧ - الخوارج أو المحكمة:

وأخذت مواقف المحكمة من التحكيم تلقى تأييدا واسعا من الناس، بمن فيهم أولئك الذين أعلنوا في البداية دعمهم لوقف القتال، كما أخذت في بلورة منطقها وتنظيم احتجاجاتها.

إذ أكدت المحكمة أن قبول التحكيم هو شك في عدالة القضية التي قاتلت من أجلها مع علي، كما أنها تمثل ارتدادا بعد إيمان، وشكا بعد يقين، ومفارقة للجماعة، ولذلك أنكروا التحكيم منذ البداية، ونقموا على علي ودعوه إلى إعلان الحرب ثانية على معاوية^(٦). وعدم جواز تحكيم الرجال في أمر الله، وعلى ضرورة إعادة رص صفوف معسكر أهل العراق لمواجهة أهل الشام^(٧)، ويبدو أن اعتراضهم على وثيقة التحكيم جاء بعد إدراكهم أن صواب قتل عثمان أو عدمه سيبحث في التحكيم وهم الذين لعبوا دورا في الفتنة عليه^(٨).

إن شعار «لا حكم إلا لله» لم يكن شعار جماعة معينة، فالاحتجاجات فردية صدرت من قبل أشخاص مختلفين وردت أسماء بعضهم. أما الآخرون فلم تذكر أسماءهم، وربما خالطتها صيحات جماعات صغيرة غير واضحة^(٩).

(١) البلاذري، أنساب، ج ٢ ص ٣٣٦.

(٢) نصر، وقعة، ص ٥١٢، ٥١٣، المقدسي، البدء ج ٥ ص ٢٢١.

(٣) البلاذري، أنساب، ج ٢ ص ٣٣٨. فلهاورن، الخوارج والشيعة ص ٢٥ - ٢٧.

(٤) محمود عبد الرزاق، الخوارج وقضية التحكيم، ص ٤٧ - ٥٧. سليم التميمي، ظهور الخوارج،

ص ١٦ - ٢٠، صالح العلي، التنظيمات ص ٥٩ - ٦٠.

(٥) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان محمد ملحة.

(٦) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٢٧.

(٧) الإمامة ج ١ ص ٢٨، الطبري، تاريخ ج ٥ ص ٥٥.

(٨) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٧٠، ذيب سعيد نشأة حركة الخوارج ص ١٧٢.

(٩) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣٩.

وأكد البلاذرى أن آراء المحكمة لم تؤد إلى انفصالهم عن جيش علي، ولكن افترق أنصارها إلى ثلاث فرق: فرقة رجعت إلى أمصارها ومنازلها في العراق على الرغم من مناشدة علي لهم بالصبر على هذه القضية، وأقامت الفرقة الثانية وقالوا: «لا نجعل نـظر إلى ما يصير شأنه»، ومضت الفرقة الثالثة التي شهدت على علي بالشرك، وهم أهل النهروان^(١). وأشار البلاذرى والطبرى إلى المناقشات العديدة والمصادات العنيفة التي شهدتها معسكر أهل العراق في أثناء عودة علي إلى الكوفة حيث ازداد الخلاف والنقاش بشأن التحكيم: «خرجوا مع علي إلى صفين وهم مترادون متحابون فرجعوا متباغضين متعادين، فما برحوا من معسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشائمون ويضطربون بالسياط»^(٢).

٨ - ليس كل من اعترض على التحكيم خارجيا؛

وبالغت روايات تاريخية في تقدير عدد الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي ولعل السبب في ذلك هو أنهم كانوا يرون أن كل من خرج على التحكيم كان خارجيا مع أن الإمام علي لم يرض عن التحكيم وليس خارجيا؛ لأن صورة التحكيم لم تكن طبق الأصل الذي تم الاتفاق عليه؛ لذلك رفضه أبو موسى الأشعري نفسه. فالذين اعترضوا عليه غير الذين خرجوا عليه لكن قائمة الخوارج الذين اعترضوا جعلتهم ضمن الذين خرجوا، مع أن صيحات المعارضة على علي استمرت بعد عودتهم إلى الكوفة، وهذا لا يعنى خروج كل من اعترض إلى حروراء^(٣).

ولعل السبب في تضارب هذه الأعداد هو قرب الكوفة من حروراء ويمكن الحـرورية من الدخول والخروج فيها بحرية، وبخاصة أن النزاع بينهم وبين علي ظل حتى ذلك الوقت سياسيا وليس عسكريا.

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٤٢.

(٢) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٤٢. الطبرى، تاريخ جـ ٦ ص ٦٣.

(٣) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، د. محمد إبراهيم الفيومى - دار الشروق.

الباب الثاني

.....

فقه النص على إمامة الإمام علي

الفصل الأول

الإمام علي

الفصل الثاني

الفكر السبأى

الفصل الثالث

علي والحق الإلهى

الفصل الرابع

القبائل المنتصرة للإمام علي

الفصل الأول

الإمام علي

إن ما يعتقده الشيعة في حق علي الصريح في الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ مبين باختصار في كتاب فارسي لا زال الإقبال على دراسته شديدا حتى هذا اليوم وهو كتاب (عقائد الشيعة) وقد لخصه الأستاذ براون في كتابه: *Persian Literatur in Modern Times* - ص ٣٨١. جاء فيه «إن عليا هو أمير المؤمنين بالحق»^(١)، فكان الواجب نصبه خليفة بعد رسول الله ﷺ. وهو الذي يفسر أوامر الله للناس بعده. ولد صباح الجمعة وهو أصغر من الرسول ﷺ بثلاثين عاما وكانت ولادته في داخل الكعبة، وعاش ثلاثا وستين سنة منها اثنتان وثلاثون في حياة الرسول ﷺ وإحدى وثلاثون سنة بعده. وهذه المدة هي مدة خلافته إلا أن حقه بقي مغصوبا مدة خمس وعشرين سنة قضاه في بيته.

(١) أشار الدكتور جولدستيهير في كتابه (العقيدة والشرعة في الإسلام) إلى أن المحدث الشيعة الشهير أبا جعفر محمد الكليني (المتوفى سنة ٣٢٨هـ - ٩٦٩) قد قطع في كتابه (الأصول من الجامع الكافي، طبعة يمينى ١٣٠٢ هـ - ٩٦٩، ص ٣٦١) بأنه «لاحق لغير علي بالتسمي بأمير المؤمنين». وقول ابن سعد (الطبقات ٣ (١) ص ٢٠٢) إن عمر كان أول من تسمى بأمير المؤمنين قال: «إن رسول الله ﷺ لا توفي واستخلف أبو بكر الصديق كان يقال له خليفة رسول الله ﷺ فلما توفي أبو بكر - رحمه الله - واستخلف عمر بن الخطاب قيل لعمر خليفة خليفة رسول الله ﷺ فقال المسلمون فمن جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ فيطول هذا ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة يُدعى به من بعده من الخلفاء. أفتقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ نحن المؤمنين وعمر أميرنا فدعى أمير المؤمنين، فهو أول من سمى بذلك). - عقيدة الشيعة ص ٣٥ دوايت دونالدس.

«وَأول الغاصيين أبو بكر ومدة حكمه ستان وثلاثة أشهر ثم عمر بن الخطاب عشر سنوات وستة أشهر وجاء بعده عثمان فتولى الحكم اثنتى عشرة سنة^(١). ثم اعترف بعلي خليفة فنصب مدة أربع سنوات وستة أشهر.

«وحارب فى هذه المدة ثلاثة حروب الأولى مع القاسطين الظالمين أى معاوية وحزبه والثانية فى البصرة مع الناكثين أى عائشة وطلحة والزبير وهى حرب الجمل؛ لأن عائشة ركبت الجمل، والثالثة مع المارقين وهم الخوارج ووقعت عند النهروان».

«وقيل إنه كان لعلى سبعة عشر ولدا وتسع عشرة بنتا. وقد تزوج بعد فاطمة بنت الرسول ﷺ اثنتى عشرة امرأة. وبلغ عدد أزواجه وسراياه ٣٩٥، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد العمران أو عبد مناف. واسم أبيه عمرو وسماه آخرون عمران أو عبد مناف الأصغر. ويكنى بأبى طالب وقد غلبت كنيته عليه. وروى أنه كان مؤمنا يوحى الله^(٢)».

ومن المهم أن نلاحظ أن سن علي كان عند وفاة الرسول ﷺ ٣٣ سنة فهو لا يزال حدثا بالنسبة لعرف القبائل العربية، لتولى المسئولية الإدارية الكبرى فليس من الشاذ أن يختار الناس من هم أكبر منه سنا من الصحابة البارزين مدة خمس وعشرين سنة. ويظهر بالحقيقة وجوب التقدم فى السن فى اختيار الخلفاء الراشدين، فأبو بكر استخلف وعمره فوق الستين، وعمر كان سنه ٥٣ وعثمان كان قد بلغ نحو السبعين، وعلي كان عمره إما ٥٩ أو ٦٤ بالنسبة لسنة عندما آمن أول مرة فليل: إنه كان بالعاشرة وقيل بل الخامسة عشر.

ولم يمض على وفاة الرسول ﷺ زمن طويل حتى جاءت فاطمة ومعها علي إلى أبى بكر تسأله ميراثها من أبيها فقال لهما: «أشهدكما الله، ألم تعلموا أو تسمعا أن رسول الله ﷺ قال: نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة^(٣)» قالوا: «نعم ولكن

(١) إن صحة ما ذكر فى مدة خلافة كل من الخلفاء الثلاثة الأول يؤيد المسعودى فى مروج الذهب ج١، ص ١٧٥، ١٩٠، ٢٥٠. وهناك اختلاف بسيط بالأشهر فى ما ذكره السيوطى ترجمة jarret ص ٨٧. ويذكر البيهقي (ج ٢ ص ١٥٦، ١٨٣، ٢٩٥) أن مدة خلافة أبى بكر ستان وأربعة أشهر وخلافة عمر عشر سنوات وثمانية أشهر وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة.

(٢) كتاب عقائد الشيعة تأليف الحاج مرزا أقاسى. الكتاب الرابع، الفصل الثانى. مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٧٩ يذكر أن أبى طالب والد علي رفض أن يصلى صلاة المسلمين ولم يعترف بوحداية الله عند موته كما جاء. — نفس المصدر السابق ص ٣٥.

رسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وهو بار بهم^(١) فلما سألها عما تريده من الإرث قالت: «فدك وخيبر وأرض الفء بالمدينة - حصتي منها مثلما تركت بناتك بعد موتك» فقال: «حقاً أن أباك ﷺ خير مني وأنت خير من بناتي، إلا أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»^(٢).

وقيل: إن فاطمة غضبت غضباً شديداً من حكم أبي بكر، وإنها ماتت بعد أبيها بمدة لا تزيد على ستة أشهر. ومن المهم أن نلاحظ قصر هذه المدة، لأنها تعين المدة التي امتنع بها علي عن مبايعة أبي بكر، فإن علياً ذهب بعد وفاة فاطمة إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة. وكانت المناصب الخطيرة أو ذات المسؤولية الكبيرة قد خص بها غيره. فكان عمر للقضاء وعتاب أمير مكة للحج بالناس بالنيابة عن أبي بكر، وقيادة الجيوش لاسامة وخالد. وكان علي يتولى أكثر الأحيان المكتابة.

وينظر علي إلى أبي بكر بعين الاحترام وله عليه تأثير في القرارات التي كان يتخذها، فمن ذلك أن أسامة لما عاد منصوراً من غزوته إلى بلاد الشام أراد أبو بكر أن يسير بالجيوش إلى محاربة طليحة المتنبى، فأشار عليه علي بالبقاء في المدينة حتى أقفعه، وذهب خالده مكانه.

١ - التآمر على قتل الإمام علي:

وكان بين أنصار علي ضد معاوية كثير من الفرس أو العجم الذين كانوا ينزلون مدن العراق الجديدة وقد جاءوا لمكافحة كبرياء العرب من المدينة الذين خرجوا على زمن عثمان لحكم العالم^(٣) وكان معه أيضاً عدد من القراء الذين كانوا يطعنون في عثمان وبعض أحكامه وقد انضموا إلى علي. إن هؤلاء الأعداء الألداء لحكم العرب لم يكونوا ليرضوا بكل اتفاق، وبعد فشل التحكيم قرروا عدم إمكان خدمة أغراضهم بالولاء لعلي. وقد ذكر ابن سعد مختصراً أمر هؤلاء الذين لم يرضهم شيء فخرجوا من الجيش

(١) مسند الطيالسي رقم ٦١. جاء في تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ١٤١ أن «فاطمة بنت رسول الله ﷺ أتته تطلب ميراثها من أبيها فقال لها: قال رسول الله ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» فقالت: أفي الله إن تركت أباك ولا أرت أبي، أما قال رسول الله: (المرء يحفظ في ولده) فبكي أبو بكر بكاء شديداً «انظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطي».

(٢) البخاري ف ٦٤، ٣٨ ومسلم ف ٣٢، ٥٢. نفس المصدر السابق ص ٣٦.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي لزيدان ج ٤.

وهم الخوارج^(١). قال: «فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء فبذلك سموا الحرورية فبعث إليهم عبدالله بن عباس وغيره فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم قوم كثير وثبت قوم على رأيهم وساروا إلى نهروان فعرضوا للسبيل وقتلوا عبدالله بن خباب بن الارت. فسار إليهم علي فقتلهم بالنهروان وقتل منهم ذا الندية وذلك سنة ثمان وثلاثين ثم انصرف علي إلى الكوفة فلم يزل يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل»^(٢).

إن علياً، الذي كانوا يأملون أن يكون المطالب بحقهم والمدعى عنهم ظهر أنه عدوهم الألد. وأصبح أمر المقاومة المسلحة أمراً غير ممكن فقد كان انكسارهم حاسماً. ولكنهم كانوا يعرفون من هو المسئول عن قتل آبائهم وإخوتهم فلما نظروا ما تم من أمر المملكة الإسلامية التي مزقتها الحروب الداخلية أخذوا ينظرون بعين الحقد إلى الطموح الشخصي للرجال الذين أصبحوا يعتقدون بأنهم هم العثرة في سبيل الوحدة الوطنية. إن الروايات التي تذكر بالتفصيل المؤامرة التي انتهت باغتيال علي^(٣) على الرغم من اعتبار أحد الكتاب لها من الروايات المشكوك بصحتها^(٤) قبلها المبرد ويكررها اليعقوبي ويذكرها الدينوري وهي بلا شك الأساس لرواية المسعودي^(٥) قال: في سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وتواعدوا واتفقوا على أن لا يتكص رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه إليه حتى يقتله أو يقتل دونه وهم: عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وكان من تحبيب، وكان عدادهم في مراد فنسب إليهم، وحجاج بن عبد الله الصريمي ولقبه البرك، وزادويه مولى بني العنبر. فقال ابن ملجم: أنا أقتل علياً وقال البرك: أنا أقتل معاوية، وقال زادويه: أنا أقتل عمرو بن العاص، وتواعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان وقيل: ليلة إحدى وعشرين فخرج عبدالله بن ملجم المرادي إلى علي فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت علقمة وكان علي قتل أباه يوم النهروان وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها فقالت لا أتزوج حتى تسمى لي جعلاً قتال: لا

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ (١) ص ٢١.

(٢) عقيدة الشيعة دوايت دونالدسن.

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ - ص ٢١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة «الخوارج».

(٥) الكامل للمبرد ص ٥٤٨، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها، الدينوري ص ٢٢٧ - ٢٢٩، مروج

الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٤٢٦ وما يليها. - عقيدة الشيعة ص ٥٥.

تسألني شيئا إلا أعطيته فقالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي، فقال ما سألت هو لك مهر إلا قتل علي فلا أراك تدركينه قالت: فالتمس غرة فإن أصبته شفيت نفسي ونفعك العيش معي وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال والله ما جاء بي إلى هذا المصر وقد كنت هاربا منه إلا ذلك وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها.

٢ - تعقيب:

إن الرواية التي تحدثت عن تأمر الخوارج على قتل الإمام علي ليس فيها ما يشهد لدور ابن سبأ في التأمر على قتله لا من قريب ولا من بعيد وهي لليعقوبي، والدينوري والمسعودي فإن روايتهم جاءت خالية من دور ابن سبأ الضالع في مسيرة الأحداث التي غيرت مسيرة الخلافة الإسلامية على وجه التاريخ فلم يكن بينهم مشيرا ولا مشاركا ولا مخططا. . لكن رواية سيف بن عمر كما رواها الطبري فإنها جعلته أصل كل شر ويلاء.

ونحن لا ننكر الوجود التاريخي لابن سبأ ولا ننكر أن له تخطيطا في توجيه بعض الأحداث. . لكننا ننكر مبالغات المؤرخين حين أسبغوا عليه دورا بارزا في الفتنة الكبرى، بينما الأمر واقع الأحداث غير ذلك؛ لأن الدور البارز يدور حول تلك المحاور التاريخية:

* طلحة والزبير وعائشة.

* معاوية وعمرو بن العاص.

* التحكيم والغدر بالإمام.

* جيش الإمام علي نفسه.

فأين دور ابن السوداء؟

على أي حال إن القول فيه لا يخرج عن كونه مروج أفكار وجلت الأرض المهينة بين الأعراب البداة الذين كانوا ضالعين في فتنة الردة أو من الذين قد خرج بينهم المتنبؤون دعاء الأفكار الضالة.

وكما قلنا في كتابنا^(١): إن الثورة على عثمان ما هي إلا ثورة القبائل العربية في

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، دار الشروق.

شبه الجزيرة على قريش لاستئثارها بالخلافة، وأن تلك الثورة جاءت انتصارا للتيار القبلي على التيار الإسلامي، أو هي انتصار للعصية العربية على الإسلامية. وإن عثمان ذهب ضحية تلك الظروف، فلما بويغ علي جاء يمثل التيار الإسلامي في اتجاهاته وميوله، في ظروف استعلاء التيار القبلي وانتصاره.

يقول الإمام علي ناقدا الروح القبلية وقيمها التي قد نشطت وعادت إلى الظهور فافرضة منطقها في رسم خريطة العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع. وقد أفلحت إلى حد بعيد في تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشك والضعف بين فئاته السياسية. يقول في إحدى خطبه:

«قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم، ونبت المرعى على دفنكم^(١). وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم في كسب الأموال. لقد استهام بكم الحُبث وتاه بكم الغرور والله المستعان على نفسى وأنفسكم^(٢)».

فالقبايل دخلت الإسلام كما دخلت قريش وهاجرت لإعلاء رأيته ولكن قريشا استأثرت بالخلافة وقادت وتزعمت. وبما راد من هذا التدمير، أن عامة القواات الفاتحة كانت من القبائل فرصتها سانحة للتدخل، كما ظهرت نزعة إقليمية لعلها تطور للنزعة القبلية في الأمصار بمعنى عدم ارتياح الأقاليم لسلطة المدينة وسيادتها، إذ إن الموارد كانت ترسل من الأمصار إلى بيت المال بالمدينة أى أن الفتنة بكل مراحلها إنما جاءت نتيجة للصراع أو التصادم بين التيار الإسلامي من ناحية والتيار القبلي من ناحية أخرى، أى أن خلافة علي كلها كانت صراعا بين التيارين الإسلامى، والقبلى^(٣).

(١) حركة التاريخ عند الإمام علي - دراسة في نهج البلاغة ص ١٠٢ محمد مهدي شمس الدين.

(٢) الدفن: جمع دفنة: ما يتولد ويتجمد ثم ينبت عليه العشب ونبت المرعى عليه فتبدو جميلة وهي في الواقع قذرة، لعب بكم الشيطان خدعكم.

(٣) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، دار الشروق.

الفصل الثاني

الفكر السبئي

كان الإمام علي يضيّق بابن سبأ ضيقاً شديداً حتى همّ علي بقتله ذات يوم لولا أن نهاه عبدالله بن العباس وقال له: «إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام، وتحتاج إلى مدارة أصحابك»^(١)؛ لذلك تراجع علي عن قتل ابن سبأ. ثم رأى إخراجَه من الكوفة فنفاه إلى المدائن^(٢).

وحينما قتل علي - رضى الله عنه - زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال: «كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه علي وأن عليا قد صعد إلى السماء»^(٣).

زعم ابن سبأ أن عليا حي لم يمت؛ لأن فيه الجزء الإلهي^(٤) ولا يجوز أن يموت. وزعم أن عليا في السحاب وأن الرعد صوته وأن البرق سوطه^(٥)، والسبئية من سمع منهم صوت الرعد قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين^(٦).

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٣٥.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين ص ٥٩. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢١، ص ٢٣٥.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص ٢٣٣.

(٤) الأشعري مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١١. الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤.

(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤. أورد الشهرستاني تلك الرواية غير أنه ذكر أن البرق تبسمه ج ١ ص ١٧٤.

(٦) التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين د. عبد المنعم ماجد.

ويرى د. فياض أن بداية الغلو في الأئمة العلويين قد عزيت إلى عبدالله بن سبأ رئيس الفرقة المعروفة بالسبئية^(١) وقد اختلف في أصل عبدالله بن سبأ وفي كونه شخصية حقيقية أم خيالية، وفي غير ذلك من أمور سنأتى على ذكرها في ما يلي من الصفحات.

فابن سبأ كان يهوديا فأسلم ووالى عليا^(٢). ويروى الطبرى أن عبدالله بن سبأ كان يهوديا من أهل صنعاء أمه سوداء^(٣). وتبين له وتسمى أن المؤرخين المسلمين أطلقوا على عبد الله بن سبأ لقب ابن السوداء نسبة لأمه، وأنه كان يهوديا من صنعاء^(٤).

أما سعد الأشعري فإنه، على الرغم من إشارته إلى يهودية ابن سبأ نقلا عن جماعة من العلماء، فإنه يتبنى عروية ابن سبأ وأصله اليماني بقوله: «وهو عبدالله بن وهب الراسبي الهمداني» ثم يجعل له مساعدين في رئاسة السبئية وهما «عبد الله بن حرس وابن أسود»^(٥). فسعد الأشعري ربما يكون أول من أثار الشك في يهودية ابن سبأ وذلك بإثبات أصله العربى واعتقد أن لشكته المذكور نتائج مهمة؛ إذ إنه يؤدى إلى فقدان هدف من أهداف مروجى قصة ابن سبأ وهو زعمهم أن أصل التشيع من اليهودية على اعتبار أن أول من قال بوصية النبي ﷺ لعلى هو عبدالله بن سبأ اليهودى الأصل.

أما زمان ظهور الآراء السبئية ومكانها ففيها اختلاف. يقول النوبختى: «فلما قتل على - رضى الله عنه - افرقت التى ثبتت على إمامته... فصارت فرقا ثلاثة: فرقة منهم قالت: إن عليا لم يقتل ولم يمت... وهى «أول من قال منها بالغلو وهذه الفرقة تسمى السبئية أصحاب «عبد الله بن سبأ»... ويبدو من الرواية السابقة أن زمن ظهور السبئية كان بعد مقتل علي

أما مكان الفرقة المذكورة فهو العراق؛ لأن عليا كما تقول الرواية نفسها نفى ابن سبأ من الكوفة إلى المدائن^(٦).

(١) النوبختى، فرق الشيعة، ص ١٩

(٢) أيضا، ص ٢٠.

(٣) التاريخ ٣: ٤٥٩، محمد بن يحيى، التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان (بيروت، ١٩٦١) ص ٥٥.

(٤) Hiutms ,M. Th . "Ibn S ab'a " , Ency . of Islam . I-p29. (٤)

(٥) المقالات والفرق، ص ٢٠.

(٦) فرق الشيعة، ص ١٩.

أما الطبرى، وهو المصدر الرئيسى لقصة ابن سبأ، فيورد روايتين فيما يتعلق بزمان ظهور ابن السوداء قال فى الرواية الأولى: إنه ظهر بعد أن أسلم فى زمن عثمان دون أن يحدد تاريخاً معيناً^(١)، ويقول الطبرى فى الرواية الثانية أن عبدالله بن عامر والى البصرة علم، بعد مضى ثلاث سنين من إمارته، بوجود رجل اسمه حكيم بن جبلة كان يسكن البصرة ويتراأس عصابة من اللصوص كانت تغير فى المناسبات على أطراف بلاد فارس فكتب فى أمره إلى عثمان فأمر الخليفة بحجزه وجماعته فى البصرة فكان (حكيم بن جبلة) لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر... (٢).

ولما كانت ولاية ابن عامر على البصرة فى سنة ٢٩هـ^(٣)، وأنه حبس حكيم بن جبلة رئيس اللصوص بعد ثلاث سنين من بدايتها، يكون قدوم ابن السوداء للبصرة بين ٣٢ - ٣٣هـ.

ويظهر من رواية الطبرى السابقة أنها تحدد وقتاً لظهور السبيبة أسبق من رواية الأشعرى التى أوردناها، فهى تجعل ظهورهم فى السنوات الأخيرة من حكم عثمان بينما الأشعرى يجعل ذلك الظهور بعد مقتل علي. وسنرى فيما بعد أن تحديد هذا التاريخ كان مهماً فى نظر من أقحموا قصة ابن سبأ فى النزاع بين عثمان وبين من ثار عليه من المسلمين؛ لأنهم أرادوا أن يظهروا أن خروج ابن سبأ كان فى السنوات الست الأخيرة من حكم عثمان وهى السنوات التى قويت فيها المعارضة وعدها المؤرخون فترة المخالفات التى ارتكبها عثمان.

أما المكان أو الأمكنة التى ظهر فيها ابن سبأ وجماعته فهى، كما وردت عند رواة قصة ابن سبأ الحجاز والبصرة والكوفة والشام ثم مصر.

كان ابن سبأ فى الشام فى حدود سنة ٣٣هـ؛ وتنقله من البصرة إلى الكوفة ثم الشام يتطلب نصف سنة على الأقل. وعند الرجوع إلى الطبرى نجد أن المناظرة التى جرت بين معاوية وأبى ذر حول قضايا المال كانت فى سنة ٣٠هـ قال الطبرى: «لما ورد ابن السوداء الشام لقي أباً ذر فقال يا أباً ذر لا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ألا

(١) التاريخ. ٣، ٣٧٨ - ٩.

(٢) أيضاً، ٣: ٣٦٨.

(٣) أيضاً ٣: ٣٢٠.

إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله . . .»^(١).

وبعد المناظرة المذكورة كتب معاوية إلى عثمان في أمر أبي ذر وأخبره أنه يشير الفتنة عليه، فطلب الخليفة من معاوية أن يبعث بأبي ذر إلى المدينة «فبعث (معاوية) بأبي ذر ومنعه دليل»^(٢) ولما وصل أبو ذر المدينة قابل عثمان في السنة نفسها، وجرى بينهما نقاش حول المال، وانتهى إلى نقى أبي ذر إلى منطقة تعرف بالريذة حيث توفي هناك سنة ٣١ أو ٣٢ هـ^(٣) ومن هذا يظهر أن الجدل حصل بين أبي ذر ومعاوية في سنة ٣٠ للهجرة وأن أبا ذر أعيد للمدينة في السنة نفسها، ثم مالبث أن توفي في سنة ٣١ أو ٣٢ هـ كما أسلفنا. كل هذه الحوادث حصلت قبل التاريخ الذي حدده واضعو قصة ابن سبأ لظهوره وهو سنة ٣٣ هـ، فكيف يصح أن نقر مقابلة أبي ذر لابن سبأ في الشام سنة ٣٠ هـ مع أن ابن سبأ لم يظهر بعد، وأن ظهوره إن صح، كان بعد وفاة أبي ذر ولعل في هذا دليلاً على أن ابن سبأ لم يكن شخصية تاريخية وأن أبا ذر لم يلقيه في أى وقت من الأوقات.

١ - هل عمار هو ابن السوداء؟

ويناقش د. فياض رأى الوردى وهو فيما نرى رأياً بعيداً عن الصواب ولا يصدق إلا في ذاكرة الوردى. يقول الدكتور الوردى في معرض كلامه عن ابن سبأ: «ويبدو أن هذه الشخصية العجيبة اخترعت اختراعاً وقد اخترعها أولئك الأغنياء الذين كانت الثورة موجهة ضدهم»^(٤).

ويرى الوردى أن ابن سبأ هو عمار، ويرى أن من غرائب التاريخ أن نرى كثيراً من الأمور التي تنسب إلى ابن سبأ موجودة في سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه. ويسوق أدلة على ذلك منها:

١ - إن ابن سبأ كان يكنى بابن السوداء ومثله في ذلك عمار.

(١) التاريخ، ٣: ٣٣٥.

(٢) أيضاً، ج ٣، ص ٣٣٦.

(٣) القمى، عباس، الكنى واللقاب، ج ١ (النجف، ١٥٩٦) ص ٧٣.

(٤) الوردى على، وعاظ السلاطين (بغداد، ١٩٥٤، ص ١٥١).

٢ - كان عمار من أب يمانى، ومعنى هذا أنه كان من أبناء سبأ، فكل يمانى يصح أن يقال عنه أنه ابن سبأ.

٣ - وعمار فوق ذلك كان شديد الحب لعلي بن أبى طالب يدعو له ويحرض الناس على بيعته فى كل سبيل.

٤ - وقد ذهب عمار فى أيام عثمان إلى مصر وأخذ يحرض الناس ثمة على عثمان. فضج الوالى منه وهم بالبطش به.

٥ - وينسب إلى ابن سبأ قوله: إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق وإن صاحبها الشرعى هو علي بن أبى طالب.

٦ - ٧ - قضايا تتعلق بدور عمار فى حرب الجمل وفى علاقته مع أبى ذر.

ويستخلص الوردى أن ابن سبأ لم يكن سوى عمار بن ياسر. فقد كانت قريش تعتبر عماراً رأس الثورة على عثمان، ولكنها لم تشأ فى أول الأمر أن تصرح باسمه فرمزت عنه بابن سبأ أو ابن السوداء، وتناقل الرواة هذا الرمز غافلين وهم لا يعرفون ماذا كان يجرى وراء الستار^(١).

وقد قبل الدكتور الشيبى رأى السابق، ثم حاول تعزيزه بإيراد نصوص تثبت القضايا التى وردت فى محتوياته^(٢).

يبدو أن رواية قصة ابن سبأ وضعوا على لسان بطل قصتهم آراء ذات أهمية بالغة منها:

أولاً: الرجعة: روى الطبرى أن ابن سبأ قال «لهم (أهل مصر) فيما يقول العجب عن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً ﷺ يرجع. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ...﴾ (٨٥)» [القصص] فمحمداً ﷺ أحق بالرجوع من عيسى. قال فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها».

ثانياً: الوصية: قال ابن سبأ لمريديه، كما يروى الطبرى: «أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصى، وكان علي وصى محمد ﷺ، ثم قال: محمد ﷺ خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك من أظلم عن لم يجز وصية رسول الله ﷺ

(١) أيضاً، ص ٣٧٤ - ٨.

(٢) الشيبى، كامل، الصلة بين التصوف والتشيع، ج ١ ص ٣٦ - ٤٠.

ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة. ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدوا بالظعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر فبث دعائه.. (١).

ثالثاً: القول بأن المال مال المسلمين لا مال الله: روى محمد بن يحيى خبراً رفعه إلى سيف بن عمر أن ابن السوداء لما ورد الشام لقي أبا ذر فقال: «يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله عز وجل، ألا كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله، فقال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره، قال: فلا تقله عَنِّي لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين وأنوى. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً. فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى معاوية فقال هذا: والله الذي بعث عليك أبا ذر. وكان أبو ذر بالشام، وجعل يقول يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا يتفقونها في سبيل الله بمكان من نار... فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس» (٢).

رابعاً: نسبة الألوهية إلى علي. يقول الرازي: إن السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ. «وكان (عبدالله بن سبأ) يزعم أن علياً هو الله تعالى. وقد أحرق على - رضي الله عنه - منهم جماعة..» (٣).

ولابن السوداء آراء أخرى ذات صلة بالنقد الذي وجه للخليفة عثمان وإلى ولاته. يقول طه حسين: «يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف في البلاد الإسلامية أيام عثمان إلى ابن السوداء» (٤).

أما القول بالرجعة الذي نسب إلى ابن سبأ فهو يختلف عن الرجعة التي تحصل

(١) التاريخ، ٣: ٣٧٨ - ٩.

(٢) التمهيد، ص ٧٤ - ٥، واليلدي، ٣: ٣٣٥.

(٣) الرازي، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة، ١٩٣٨) ص ٧٢.

(٤) الفتنة الكبرى، ج ١ (القاهرة، ١٩٤٧) ص ١٢٨ - ٩.

بعد ظهور المهدي، والتي أصبحت من ضروريات مذهب الإمامية. وسنشير إلى ذلك عند كلامنا عن عقائد الإمامية في فصل لاحق. ويطلق ابن الجوزي على الغلاة القائلين برجعة من نوع الرجعة المنسوبة لابن سبأ اسم «الرجعية» ويعدها فرقة متميزة عن الإمامية. ويقول: إنهم «رعموا أن علياً وأصحابه يرجعون إلى الدنيا ويستقون من أعدائهم»^(١).

ويبدو أن واضع قصة ابن سبأ استهدفوا من نسبتهم القول بالرجعة إلى ابن سبأ تشويه فكرة الرجعة عند الشيعة الإمامية. تلك الفكرة التي تختلف في مضمونها، كما سنبين في حينه، عن مفهوم الغلاة للرجعة.

أما القضية الثانية التي نسبت إلى ابن سبأ فهي القول بوصية النبي ﷺ لعلي. ويعلم واضعو قصة ابن سبأ أن الشيعة يقولون بفكرة الوصاية. ولكن الشيعة يرون أن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن ينص على علي بالوصية، ونص النبي ﷺ على ذلك في يوم الغدير بحضور سبعين أو ثمانين ألفاً من المسلمين. ويرى الحلبي أن حديث الوصية لم يرد بكتب الشيعة فقط بل أورده أحمد بن حنبل في مسنده بطرق ثمانية، وأورده ابن عبد ربه في العقد الفريد، وأورده مسلم في الصحيح^(٢). بينما أراد واضعو قصة ابن سبأ أن يجعلوا مصدر وصاية النبي ﷺ لعلي يهودياً طارئاً على الإسلام هو ابن السوداء وليس النبي ﷺ وبأمر من الله. ولا يخفى ما في هذه القصة من التشويه والنكايه بالشيعة وهو، على ما اعتقد، ما قصده واضعو قصة ابن سبأ.

أما فيما يتعلق بالزعم القائل بأن ابن سبأ وجماعته نسبوا الألوهية إلى علي فيبدو أن الغلو بالإمامة عند السبئية تطور مع الزمن فتحول إلى القول بالألوهية. يقول سعد الأشعري بعد أن يشرح عقيدة السبئية بالغلو في علي: «وقالوا بعد ذلك في علي أنه إله العالمين...»^(٣) أما الرازي فيجعل القول بالألوهية علي عقيدة أساسية لدى السبئية ونص بصراحة على أن ابن سبأ «يزعم أن علياً هو الله تعالى»^(٤). وبمرور الزمن أصبح ابن سبأ لم يقل بإلهية علي فحسب بل يزعم أنه هو نبيه. وقول العلامة الحلبي: «عبدالله بن سبأ.. غال ملعون حرقه أمير المؤمنين علي بالنار، كان يزعم أن علياً - عليه السلام - إله

(١) تليس إيليس، ص ٢٢.

(٢) الحلبي، الحسين بن يوسف، إثبات الوصية (النجف لا ت) ص ١٩.

(٣) المقالات والفرق، ص ٢١.

(٤) اعتقادات، ص ٧٢.

وأنه نبى، لعنه الله^(١). وهكذا جعلوا ابن سبأ يتنقل مع الزمن، من القول بالغلو بإمامة علي إلى القول بإلهيته وينتهى إلى الادعاء بالنبوة. ولعل التنقل المذكور، وتراكم الإضافات على محتوى القصة يقوم دليلاً على ضعفها وعلى اختلاف الأقوال المنسوبة لابن سبأ فيها. ويقول هوتسما: إن أفكار ابن سبأ لم تبق على ما أرادها واضعوها الأوائل بل تطورت. ويضيف قائلاً: «يصعب جداً أن نقرر القضايا التي قالها ابن سبأ وتلك التي قالها خلفاؤه»^(٢).

أما الدكتور فياض فيقول:

أما عمار بن ياسر فقد أراد واضعو قصة ابن سبأ أن يشوهوا معارضته لعثمان ويجعلوها ناتجة عن وقوعه تحت تأثير ابن سبأ. قال الطبرى: إن عثمان بعد أن سمع فيما أثاره ابن سبأ من التشويش فى الأمصار أرسل رجلاً ممن يثق بهم إلى الأمصار فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر وقالوا: أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم. . . « واستبطنوا الناس عماراً حتى ظنوا أنه اغتيل فلم يفجأهم إلا كتاب من والى عثمان على مصر ابن أبى سرح يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه منهم عبدالله ابن السوداء^(٣). « وأراد واضعو القصة أن يورطوا عمار بن ياسر فى الوقوع تحت تأثير ابن سبأ كما وقع أبو ذر وغيره من قبل. ولو رجعنا إلى المصادر لوجدنا أن معارضة عمار لعثمان تعود إلى بداية تولى الأخير للخلافة. خطب عمار بعدبيعة عثمان فى المسجد فقال: «يا معشر قريش، أما إن صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ﷺ ههنا مرة وههنا مرة فما أنا آمن من أن ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله. . .»^(٤). وذات مرة أخذ عثمان مالا من بيت المال بالمدينة يسقط فيه حلى وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلى به أهله فأظهر الناس الطعن عليه. . فقال: لنأخذ حاجتنا من هذا الفء وإن رغمت أنوف أقوام فقال له علي: إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه. وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفى أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعلى يا ابن المتكأ تجترئ ؟ خذوه. فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه

(١) غالى، الحسن بن يوسف «الرجال» (طهران، ١٣١٢) ص ١١٤.

(٢) Op. cit, I, p.29

(٣) الطبرى، ٣: ٣٧٩.

(٤) المسعودى، مروج ج ٢، ص ٢٣١.

حتى غشى عليه... (١) ويبدو أن معارضة عمار لعثمان كانت مستمرة وعقيفة نال من أجلها عمار الضرب وحاقت به الفتنة. وقد أثارت شدة عثمان تجاه غضب بنى مخزوم حلفاء عمار فانحرفوا عن عثمان من أجل ذلك (٢).

٢ - رأى الوردى فى الميزان:

بعد مناقشة فياض له وهى مناقشة علمية نقول:

يذهب د. على الوردى فى كتابه (وعاظ السلاطين) وهو بصدد التعليق على عبدالله بن سبأ إلى تأويل تاريخى غريب بقدر ما هو عجيب يقوم على خلع شخصية تاريخية قابلة للجدل ليزرع عليها شخصية تاريخية لا يقبل وجودها جدلاً ولا شكاً بناء على رؤيته الذاتية التى تخصه هو دون غيره. وهى إحلال شخصية عمار بن ياسر ذلك الصحابى الجليل محل شخصية مزعومة هى عبدالله بن سبأ الذى ينسب إليه حكاية التآمر والدسائس والفتن، وتكلف فى سبيل زعمه أدلة اصطنعها من عند نفسه اصطناعاً ليثبت حكمه الذى أعده قبلاً - بسبق إصرار - وحين نعرض لأدلة التى ساقها تأخذك من تلايب فكرك لتقف بك على طرفى النقيض تماماً لتتأججه الذى ذهب بها إلى أن ابن السوداء هو عمار بن ياسر، إنها رؤية تباعد بينها المقارنة ولا تدنيها. فإن تراءى لعل الوردى أن يمنية عمار وإطلاق ابن السوداء عليه فيه ما يدفع إلى المقارنة فإن فيها ما يبعد بينها أكثر، فابن السوداء اليهودى جاء يغدر بالإسلام ويشير فتناً عظيمة تشكل مع الأحداث بألوانها. بغض النظر عن تحقيق الوقائع التاريخية التى ترفض وجوده، وأما سيرة عمار بن ياسر... فهى فى مصر كما هى فى الكوفة والبصرة والعراق صبغها حب الرسول ﷺ وجعل استشهاده نقطة فاصلة بين الفئتين الباغية والعادلة فى قوله ﷺ: ويح عمار تقتله الفئة الباغية - وكان تأول الحديث من الفئتين يشهد بصحة روايته، وصلاح عمار. واتخذت الفئتان من استشهاده حجة على براءتهما حين تنازعا من المقصود بالفئة الباغية. فهل هم الذين أخرجوه أم هم الذين قتلوه؟ فحرص الفريقين على البراءة من دمه دفعهما إلى إشكالية التأويل وما ذلك كان منهم إلا بحثاً عنم هو أولى بالبراءة من الأخرى حتى تكون بمنجاة من وزر قتله - فلم تدع عليه إحداهما بأنه صاحب فتنة أخرجته عن صحبة الرسول ﷺ، كذلك لم تدع عليه بأنه كان على يهوديته

(١) أنساب الأشراف، ٥ : ٤٨.

(٢) المسعودى، مروج ج ٢، ص ٢٢٧.

ملتحقاً بالإسلام^(١). وإذا لم يكن عبد الله بن سبأ لم يكن له وجود تاريخي فما معنى إطلاقه على عمار؟ إن الأعمال التي تنسب إلى ابن السوداء وتداولها المؤرخون، من الظلم القادح أن يحملها عمار، ومن الأشد ظلماً أن نرضى لعمار هذا الظلم. ورد في السنة النبوية أن أبا ذر الغفاري عير أعرابياً بأمه فقال له: يا ابن السوداء فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك فقال له: إنك امرؤ فيك جاهلية. فكيف ينكرها الرسول ﷺ على أبي ذر حين سب أعرابياً ثم نرضى إطلاقها على عمار؟

ونلاحظ أن المستعربين الروس لا يلقبون بالآ إلى عبدالله بن سبأ فصاحب كتاب العرب والإسلام، والخلافة العربية لا يذكره سلباً ولا إيجاباً رغم أنه ركز على مظاهر الترف في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان وعلى غضب أبي ذر الغفاري الذي نادى بأن مال المسلمين إنما هو للمسلمين جميعاً يوزع عليهم بالعدل. . وعده إيليا بييف في كتابه بأنه على رأس الناقمين وذكر أن النبي ﷺ كان يصفه بالصحابي الصالح والمسلم التقى الكامل^(٢). وأغفل ذكر ابن سبأ إغفالاً تاماً، ولم يكن إغفاله إياه لرؤية ذاتية وهوى إنما مرده إلى تقديمه كتاب فتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة ٨٩٢ وهو قبل الطبري وكتاب فتوح البلدان هو أولى بالتقديم على الطبري المتوفى ٩٩٣ وله موازنة علمية بين منهجيهما دقيقة وقيمة^(٣) كذلك لم ترد في اليعقوبي المتوفى ٨٩٧ ولا الدينوري المتوفى ٩٨٥ إنما انفرد بها الطبري لذلك لم تلق منه اهتماماً. وتتميز عن كتب الاستشراق الغربي. والأمر الثاني: أن الاستشراق الروسي فضح نفسه؛ لأنه أخضع التفسير التاريخي الإسلامي للأسس الماركسية فحصرها في المفهوم الاقتصادي الاجتماعي. والإسلام لديه دين ظالم لكن الاستشراق الغربي ليس واحداً، والمعاصر خير من القديم ويرى أن الإسلام نشأ في وضوح النهار.

٣ - عمار بن ياسر وابن سبأ:

لقد أفلقني ما وقع من التباس بين عمار بن ياسر وابن سبأ رده بعض الباحثين استمداداً من بعض المستشرقين حول الصحابي الجليل عمار بن ياسر الذي جعله رسول الله ﷺ حداً فاصلاً بين الفئتين: الباغية والعادلة. . وقفت أمام تلك المسألة كثيراً وبينما ذلك الكتاب. . تاريخ الشيعة يتخذ طريقه إلى المطبعة وقع في يدي كتاب: آراء الخوارج

(١) ص ١٥١ طبع بغداد ١٩٥٤، والمزيد راجع كتاب عبد الله بن سبأ مرتضى العسكري.

(٢) العرب والإسلام والخلافة العربية ص ١٩٦.

(٣) نفس المصدر ص ١٦٨.

- مؤلفه الأستاذ الفاضل الدكتور عمار الطالبي وجدت فيه دراسة وافية عن عبدالله بن سبأ وعمار بن ياسر فسررت بها - ورأيت فيه حلا حاسما فالحقتها بالكتاب واستفادت الدراسة بها .

٤ - عبد الله بن سبأ:

ذهب المستشرق Lévi della Vida أن عبد الله بن سبأ له أسماء كثيرة فهو ابن حرب، وابن السوداء، وابن وهب السبائي، ويكاد يجمع أهل السنة أنه يهودي يمني، وتعتبره الشيعة غالبا من الغلاة قد لعنه جعفر الصادق (+١٤٨هـ/٧٦٦) نفسه، ويذكر الذهبي استنادا إلى رواية سيف بن عمر أن ابن سبأ كان سبب الفتنة الحادثة في الملة، ويفترض المستشرق Hodgson أن ابن سبأ ليس يهوديا في أغلب الاحتمالات، مشايحا في ذلك لـ: Lévi della Vida^(١) واعتبره البغدادي (+٤٢٩/١٠٣٨)، وابن كثير (+١٣٧٢/٧٧٤) روميا^(٢)، وافترض M.S. Hodgson أن عبد الله بن سبأ شخص مغاير لابن السوداء، وإن ابن السوداء كان مساعدا له، والذي أنكر موت علي بن أبي طالب عنده هو ابن السوداء لا عبد الله بن سبأ^(٣)، ولكن لم يأت بنصوص أو أدلة تؤيد افتراضه، وقد يسر لي أن أثير على نص يؤكد ما ذهب إليه المستشرق المذكور، وهو ما أورده أبو المظفر الإسفرائيني في كتابه «التبصير في الدين» حيث قال: (ووافق ابن السوداء عبد الله بن سبأ بعد وفاة علي في مقالته هذه، وكانا يدعوان الحلق إلى ضلالتهم)^(٤) ويذكر سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعري القمي (+٩١٣/٣٠١) أن عبد الله بن سبأ كان يساعده شخصان أحدهما عبد الله بن حرس، وثانيهما ابن أسود، ووصفهما بأنهما من أجل أصحابه^(٥)، ولعل ابن أسود هذا، وابن السوداء الذي ذكره الإسفرائيني هما شخص واحد وهو سودان بن حمران اليمني، من قبائل مراد اليمنية التي نزلت بمصر؛ لأنه قد عرف بنشاطه الكبير في مصر، وفي المدينة، وكان من أعظم

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة «ابن سبأ».

(٢) د. النشار، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٢ ص ٣٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ط ٢، ج ١، ص ٥٢ - ٥٣.

(٤) التبصير في الدين ص ٧٢، ويمكن أن يكون المستشرق قد اطلع على هذا النص ولكنه لم يشر إليه. ولكن لا يفهم من النص أن ابن السوداء وحده هو الذي أنكر موت علي، وإنما يدل على أن ابن السوداء

انضم إلى عبد الله بن سبأ بعد مقتل علي.

(٥) سعد القمي، كتاب المقالات والفرق، ص ٢٥.

مساعدي ابن سبأ في الفسطاط المصري، وهو الذي يذكر المؤرخون أنه اتصل بعمار بن ياسر حين قدومه إلى مصر، وكان قائدا لإحدى فرق الوفد المصري ومن الذين تسوروا دار عثمان، ونادى حين قتل: قد قتلنا عثمان، ويذكره الطبري بكثرة^(١).

وأول ذكر لابن سبأ في تاريخ الطبري ورد في حوادث سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠، وكان أول اتصال له بأبي ذر الغفاري (٣٢٠هـ/ ٦٥٢) وأثار أمامه الاعتراض على معاوية في سياسته الاقتصادية وأبدى شبه استنكار لقول معاوية: «المال مال الله كأنه يريد أن يقول إن معاوية يرغب في أن يختص به دون المسلمين، ثم أتى أبا الدرداء عويمر (٣٢٠هـ/ ٦٥٢) فحدث فيه أنه شخص يهودي وقال له: (أظنك والله يهوديا واتصل أيضا بعبادة ابن الصامت (٣٤٠هـ/ ٦٥٤) فشك في أمره، وأمسك به، وحمله معه إلى معاوية، وقال له: (هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر؟)^(٢) وهذا شأن المؤامرات إلى اليوم حيث يقوم المتآمرون ذوو النزعات الأيديولوجية أو الاقتصادية أو السياسية بالاتصال بكبار الأعيان، والسياسيين والذين لهم تأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية فإذا يتشاوروا بالشيطان والمجرمين، ثم إن ابن سبأ ظهر في سنة ٣٢٢هـ/ ٦٥٢ بالبصرة وكان أول اتصال له بحكيم بن جبلة العبدى أحد لصوص بنى عبد القيس، من أصل عماني أقام بالبصرة وكان ذا شجاعة نادرة، يشارك في الفتح، وفي المعارك فإذا رجع الجيش الذي يرافقه خنس عنه، وتكر وأخذ في الإغارة على بلاد فارس، والاستيلاء على أموال أهل الذمة، حتى اشتكى منه أهل الذمة والمسلمون على السواء إلى الخليفة عثمان، فأمر وإلى البصرة بحبسها، ومنعه من الخروج منها، فلما أتى ابن السوداء البصرة كما أشرنا نزل عنده، واجتمع به وينفر معه ويبدو أنه كان عارفا للأحوال الاجتماعية في البصرة. وقد عبر الطبري برواية سيف بن عمر عن طريقة عمله في ذلك الاجتماع بقوله: (فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح، فقبلوا منه واستعظموه)^(٣)، وهذا شأن الغنوصية في الدعوة في البداية بالإشارة والتلميح ثم يعقبه التصريح، ويبدو أن وراء ابن السوداء جماعة تحركه، وتترصد الظروف وتختار الأشخاص الذين يمكن لهم أن ينفذوا المؤامرة. ويذكر هذا المصدر أن وإلى البصرة وهو عبد الله بن عامر (٥٩٠هـ/ ٦٧٨) اشتبه في أمر ابن سبأ

(١) الطبري، ط، الحلبي، ج ٥ ص ٩٩، ١٠٣.

(٢) ن. م. ج ٤ ص ٢٨٣.

(٣) ن. م. ج ٤ ص ٣٢٦ قال المقرئ: فجعل يطرح مسائل على أهلها، (البصرة) ولا يصرح، فأقبل عليه جماعة وأعجبوا بقوله، فطرده عبد الله بن عامر، الخطط. ج ٤ ص ١٤٦.

وفى اتصاله بجبله بن حكيم، ذلك اللص الجريء فأرسل إليه وسأله عن أمره فأجابه بأنه رجل من أهل الكتاب يرغب فى الإسلام، فشك فيه الوالى، وأمره بالخروج من المدينة^(١)، وكان حكيم بن جبلة بعد ذلك رئيسا لإحدى الفرق الأربع من الثوار الذين قدموا المدينة من البصرة، كما كان الأشتر رئيسا لفرقة من فرق ثوار الكوفة، فالسبائى الأول بهذا الاعتبار إنما هو حكيم بن جبلة، فلما أخرج ابن سبأ من البصرة دخل الكوفة فأخرج منها أيضا، وينص الطبرى ثم المقرئى من بعده على أنه توجه من الكوفة إلى مصر، واستقر بها، وأخذ فى الطعن على عثمان زاعما أنه استولى على الخلافة بدون حق، داعيا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويحدثنا السيوطى (٧٩٥٠٥/٩١١+) نقلا عن سيف بن عمر، أن عبد الله بن سبأ دخل مصر سنة ٦٥٤هـ/ ٦٥٤ وأنه أوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه، فحدث برجعة محمد - عليه السلام - قائلا ما دام عيسى سيرجع فإن محمدا وهو أفضل منه لا بد من رجوعه إلى الدنيا، محتجا بالقرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ...﴾ (٨٥) [القصص] واخترع بدعة القول بأن عليا وصى بل إنه خاتم الأوصياء كما أن محمدا خاتم الأولياء، وصرح بأن عليا أصلح للخلافة من عثمان وما عثمان إلا معتد على ولاية علي وخلافته، فأنكر عليه بعض الناس واقتن به جمع كثير من أهل مصر، وكان ذلك سبب قيامهم على عثمان، واعتبر السيوطى هذه الواقعة من الحوادث العجيبة التى وقعت بمصر^(٢) واعتمد ابن سبأ فى مصر على جماعة يمنية، وخاصة أحد أبناء وجوه القبائل اليمنية التى جاءت إلى مصر أثناء الفتح، وهو الغافقى ابن حرب العكوى، ويظهر أنه لما لم يجد صنائع فى الحجاز والشام، اقتصر على بعض الأعوان فى البصرة والكوفة واختار الإقامة فى الفسطاط بمصر وجعله مركزا له، وهنالك استمال الغافقى الذى أدرك ابن سبأ ناحية الضعف فيه، وهى حبه الشديد للرئاسة والجاه، واستغل كذلك محمد بن أبى حذيفة بن عتبة، وجعله اليد اليمنى له ولجماعته فى مصر ولمعرفته بأحوال الخليفة عثمان؛ لأنه كان ريسه وتنكر له حين رفض أن يوليه إحدى الولايات، أما الزعامة والتصدير فكانا للغافقى^(٣) وكان ابن سبأ يكاتب صنائعه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٢٧.

(٢) السيوطى، حسن المناظرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢، ص ١٤٨، وأورد هذا المعنى أيضا ابن كثير، فى البداية والنهاية، مصر (دون تاريخ) ج ٧، ص ١٦٨.

(٣) الطبرى ث. مصر ١٣٢٦ ج ٥ ص ١٠٧، آراء الخوارج ص ٥١.

فى البصرة والكوفة ويكاتبونه فى الطعن على عثمان وأمراته. وعندما ذهب الوفد المصرى إلى المدينة صحبهم ابن السوداء، وأعطيت الرئاسة العامة للفرق الأربع إلى الغافقى بن حرب وفى المدينة استفحل أمرهم، ومنعوا عثمان من الصلاة بالناس فى المسجد وأصبح الغافقى إماما يصلى بالناس ثم كان من الجانبين على عثمان ويعد مقتله بقيت المدينة فى إمارة الغافقى خمسة أيام^(١)، وكان لابن سبأ دعة بثهم، لاستمالة الناس بدعوى أنهم يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر^(٢)، وبذلك يبدو لنا كيف اعتمد على القبائل اليمنية النازلة بمصر، ونشر بين الناس فكرتين يهوديتين هما المهديّة والرجعة وحاول أن يستر وجهه بقاعدة إسلامية هى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٣)، وهنا نتساءل عن تاريخ إسلامه، قيل أنه أسلم بعد مضي سنة من خلافة عثمان، وقيل بعد مضي سبع سنين، وأغلب الظن أنه أسلم بعد سنة ٦٥٣/٢٣ لأنه سئل فى هذه السنة، فقدم نفسه على أنه رجل من أهل الكتاب، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وبعد ذلك كله كان يبدو ابن سبأ للناس بالكوفة، مع قتلة عثمان^(٤).

وقد أثّرت مسألة عبد الله بن سبأ لدى الباحثين المعاصرين فحاولوا أن يشككوا فى وجود عبد الله بن سبأ باعتباره شخصية تاريخية واقعية، فزعم بعضهم أنه عمار بن ياسر (٦٥٧/٣٧+) ^(٥) وأنكر بعضهم الآخر وجوده على الإطلاق، أو شك فى وجوده^(٦)، أما القدماء من أهل السنة والشيعة على السواء فإنهم اعتبروه باتفاق حقيقة واقعية وشخصية تاريخية وليست من اختراع أهل السنة أو الأموية العثمانية كما يزعم بعض الباحثين المحدثين؛ ذلك أن سعد بن عبد الله القمى الشيعى المعاصر الطبرى وهو

(١) ن. م.، ج ٥ ص ١٣٠.

(٢) الطبرى، ط. دار المعارف ج ٤ ص ٣٤١.

(٣) الدكتور النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٢، ص ٢٤.

(٤) الدكتور النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ج ٢، ص ٢٦.

(٥) وهو الدكتور على الوردى، فى كتابه: وعاظ السلاطين ببغداد، ١٩٥٤، ص ٢٧٤ وتبعه على ذلك الدكتور كامل مصطفى الشبى، فى كتابه الصلة بين التصوف والتشيع مطبعة الزهراء ببغداد، ج ١ ص ٣٥ - ٣٧.

(٦) من هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى (عثمان) ط ٧ دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣٣ (على وينوه) دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤ - ٢٥ وأنكره أيضا مرتضى العسكري، فى كتابه «عبدالله بن سبأ» ط ٢ القاهرة ١٣٨١ ص ١٧ - ١٢ ويلاحظ أن أغلب المنكرين له أو المشككين فيه من الشيعة، آراء الخوارج، د. عماد الطالبي.

ثقة وواسع المعرفة بالأخبار^(١) يقر بوجوده، ويقرر أنه أول من بذر بذرة الغلو^(٢) الشيعي وكذلك النويختي الذي يعتبر من أعظم مؤرخي مقالات الشيعة فإنه يتفق تمام الاتفاق مع القمي^(٣)، أما أن عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر فيما يزعم على الوردى فهذا أبعد؛ لأن الوقائع التاريخية لا تسمح لنا بذلك فإن ابن سبأ لما ابتدأ حركته بمصر، وشاعت أخبار جماعته أرسل عثمان بن عفان عمار بن ياسر إلى مصر ولم يعد كما عاد أصحابه الذين أرسلوا إلى بقية الأقاليم، وذلك لأن بعض أصحاب ابن سبأ استمالوه لما يعلمون من سوء التفاهم بينه وبين عثمان مما جعل والي مصر يرسل به إلى المدينة فعاتبه عثمان وقال له: يا أبا اليقظان قذفت ابن أبي لهب أن قذفك وغضب علي أن أخذت لك بحقك أخرج عني يا عمار^(٤)، وكان ابن سبأ قد ذهب إلى المدينة وكانوا يكتابونه من مصر^(٥)، فهما شخصان أحدهما بمصر، والآخر بالمدينة، ولماذا يرمز بنو أمية بلبن السوداء لعمار بن ياسر في ذلك العهد وهم قد نسبوا إلى من هو أعظم من عمار بن ياسر من الصحابة الكفر، وأعلنوا سبه من على المنابر، وأما القول بأن علياً أيضاً رمز له بأبي تراب وسمى أتباعه بالتراية فإن النبي ﷺ نفسه كناه بهذه الكنية في قصة أوردها البخاري ومسلم، وابن هشام (٨٣٤/هـ - ٢١٨/هـ) في سيرته^(٦) فما يمنع الناس أن يصرحوا باسم عمار بن ياسر ولا أغفل الرواة ذلك ولم يعرفوا ما وراءه كما يدعى بعض الباحثين، وإذا رمزوا له باسم ابن السوداء فلماذا يجعلونه يهودياً؟ فإذا قيل أنهم يقصدون بذلك تشويه التشيع، والتشنيع عليه، فإننا نقول أن مؤرخي الشيعة أنفسهم يعترفون بوجود ابن سبأ، وبأنه يهودي، ويقررون أنه من أول من أدخل الغلو إلى التشيع، وللطعن على أبي بكر وعمر وعثمان، ثم إذا كانت هذه العقائد الغالية الدخيلة قد وجدت في ذلك العهد فهي أثر واقعي موجود والأثر يدل على المؤثر، وما ابن سبأ إلا شخص ظهر من بين أشخاص بقوا تحت الحفاء شأن الجمعيات السرية، وما هو إلا داعية

(١) سعد القمي كتاب المقالات والفرق (مقدمة محققة محمد جواد مشكور ص ١).

(٢) ن. م. س ٢٠.

(٣) النويختي أبو الحسن، فرق الشيعة ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) ابن عساکر، (١١٧٦/٥٧١+) تاريخ دمشق، دمشق ٢٩ - ١٣٥١ هـ ج ٧ ص ٤٢٩.

(٥) الطبري، ج ٤ ص ٣٥٣.

(٦) وقيل توفي سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ وهو هشام بن عبد الملك بن أيوب الحميري.

(٧) محمد الزمخشري (١١٤٤/٥٣٨+) كتاب خصائص العشرة الكرام البررة تحقيق الدكتورة بهيجة باقر

الحسني، بغداد ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ص ٩٢ ت١.

يظهر ويختفى، وإذا كان مقصد من ينكر عبد الله بن سبأ أو يشكك فيه أن يبعد التهمة عن الشيعة وصلتها باليهودية فكيف يستطيع أن ينفي الأفكار اليهودية التي اعتنقها الغلاة منها وخاصة السبائية؟ ومن أين جاءت وكيف وصلتهم والحال هذه أن الشيعة غير الغالية تعترف بوجود هؤلاء الغلاة، وبأن العناصر التي فيها أجنبية ودخيلة على الإسلام، وتنكر ذلك أشد الإنكار، أما الطبري وغيره من الرواة فإنهم يدركون جيدا الفرق بين عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر كما أشرنا إلى ذلك من قبل، حيث نص على وجود أحدهما بالمدينة وعلى الآخر بمصر، وأما مجرد اتفاقهما في الكنية وهي ابن السوداء فهذا لا يقوم دليلا على أنهما شخص واحد؛ لأننا نجد أعلاما كثيرين متشابهين في الكنى، وبما جعل بعض المؤرخين يؤلفون في التشابه من الأسماء والكنى، لبيان الفروق بينها، وأما صلة عمار بن ياسر بأبي ذر فهي كصلة بقية كبار الصحابة الذين تجمعهم الصحبة، والتقدم الزمنى في العقيدة، ولم يثبت أن عمار بن ياسر أوحى إلى أبي ذر ربما كان يدعو إليه من الزهد الذي لا يجب على المسلم أن يطبقه على النحو الذي كان يدعو إليه، وإنما يشتركان في أنهما قد غضبا على عثمان، لأمر تستوجب الخروج والدعوة إلى قتله، وفتح باب الفتنة الأعظم على الأمة، أما ذهابه إلى مصر^(١) فإنه لم يذهب إليها بغية الوثوب على عثمان، وإنما بعثه عثمان نفسه، لاستطلاع الحالة هناك باعتباره من كبار الصحابة فاستماله بعض الناقمين على عثمان وكانت حالته النفسية وسوء تفاهمه مع عثمان يدعو إلى الإنكار عليه، لكن كما ينكر كل مسلم على أخيه المسلم إذا أخطأ فلم يكن يهدف إلى قتله أو إلى الخروج المسلح عليه؛ لأن الصحابة وخيار المسلمين لم يكن لهم دخل في دم عثمان، ولهذا نجد ابن تيمية يقرر: (إن خيار المسلمين لم يدخل أحد منهم في دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتل وإنما قتلته طائفة من المفسدين، في الأرض من أوباش القبائل، وأهل الفتن، وكان على - رضى الله عنه - يقول: اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل)^(٢) وإذا كان الأمويون قد رمزوا إلى عمار بن ياسر بابن السوداء فلماذا لم يشنع عليهم من كتب التاريخ وهم قد بدأوا التدوين بعد عصر الأمويين، ولهم الحرية الكاملة في أن ينسبوا إلى الأمويين كل رذيلة، وإذا كان الرواة قد نسبوا إلى معاوية أشياء كثيرة مشينة، ونسبوا إلى علي أشياء

(١) إذا كان وجود عبد الله بن سبأ في مصر يتفق مع عمار بن ياسر فيها فإن النصوص التي لدينا تحدثنا أن عبد الله بن سبأ دخل مصر سنة ٣٣هـ أو سنة ٣٤هـ وكان عمار بن ياسر في ذلك الحين في المدينة ولم يدخل مصر إلا حين بعثه عثمان سنة ٣٥هـ. (الطبري ج٤ ص ٢٤١).

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة ج ٢ ص ١٨٦.

وإلى كبار الصحابة أقوالا وأفعالا، وأضافوا وطعنوا عن هوى فما المانع إذن أن ينسبوا إلى عمار بن ياسر ما نسبوه وأن يكشفوا عن حقيقته؟ أو عن حقيقة من غالت الناس واخترع شخصية وهمية، وأفكارا وهمية، وربط بينهما ربطا وهميا؟ ثم إن الاختلاف الوحيد بين ابن سبأ وعمار بن ياسر يلزم منه أشياء غير مقبولة، ولا تسمح لنا الظروف التاريخية والنفسية أن ننسبها إلى عمار بن ياسر، فإذا كان عبد الله بن سبأ عمار بن ياسر، فمعنى ذلك أن الأخير هو الذى أشاع فكرة الوصية وفكرة المهدوية والزندقة عما لا يستطيع أى مؤرخ أن ينسبه إلى عمار بن ياسر الصحابى الجليل، والواقع أن عمار بن ياسر ليس شيعيا إلا بالمعنى اللغوى فهو من محبى علي وأتباعه، ولكن ليس من الذين يعتقدون فيه أنه الوصى، أو المهدى أو أن الإله حل فيه، أو أن الرسول ﷺ نص على خلافته، وهو المبدأ الأساسى للشيعة، ومن ثم فإن التشيع بمعناه الاصطلاحي الحقيقى لا ينطبق على عمار بن ياسر وإلا فلنا أن عبد الله بن عباس شيعى أيضا؛ لأنه كان اليد اليمنى للإمام علي، وكان رسوله إلى الخوارج، ومن ناحية أخرى فلن يهودية ابن سبأ لم يذكرها أهل السنة فحسب، وإنما ذكرها قدماء الشيعة، فالتنويختى ينص على أن جماعة من أهل العلم من أصحاب على قالوا: إن ابن سبأ يهودى وكان يقول بالوصى قبل أن يسلم^(١).

وقد تعجب بعض الباحثين، من أن شخصا واحدا كابن سبأ استطاع أن يوقد نار هذه الفتنة كلها حتى أنكر وجوده التاريخى كما فعل طه حسين حيث ذهب إلى أن ابن سبأ منحول مخترع، أدى إلى اختراعه الجدل بين الشيعة وخصومهم من الفرق الأخرى، وقال أنه قد بولغ فى أمره كيدا للشيعة^(٢) وقد أشرنا إلى أن قدماء الشيعة أقروا وجوده، ولم ينكروه، فلو وضع كيدا لهم، وتشيعا عليهم لردوا ذلك، وهم يترصدون خصومهم، ولكن لم نجد ذلك فى كتب الشيعة المتقدمين الذين جادلوا وناضلوا عن مذهبهم، ومن جهة أخرى فإن عبد الله بن سبأ لم يكن وحده، فله جماعة وراءه وخلايا منها من يوجد بالبصرة، ومنها من يوجد بالكوفة، وبمصر، وإلا فكيف نستطيع أن نفسر النظام المحكم الذى اتبع فى تكوين الوفود التى جاءت إلى المدينة، الوفد البصرى والكوفى والمصرى، فقد كان كل وفد يتكون من أربع فرق، وكل فرقة عليها رئيس، ويتزعم الفرق الأربع من كل بلد رئيس عام، والغريب أن الوفود الثلاثة متساوية

(١) التنويختى، فرق الشيعة، ص ٢٣.

(٢) الفتنة الكبرى، (على وبنوه) ص ٢٤ - ٢٥.

فى عدد الأعضاء^(١)، فهل كان هذا مصادفةً واتفاقاً أم أنه ينبئ عن حركة منظمة؟ أما التعجب من أن فرداً واحداً يلعب على عقول الصحابة، فإننا لا نقول أنه لعب على عقول الصحابة، وإنما لعب بعقول ذوى الأغراض، والأهواء وذوى العصبية وحب الرئاسة وكسب المال، فكان الجو الاجتماعى مناسباً ومهيئاً للعب فى الماء العكر، والواقع أن ما قاله الدكتور طه حسين من أن الظروف الاجتماعية والسياسية كانت تدعو إلى الاختلاف وإلى نشأة المذاهب^(٢) حق، ولكن دور ابن سبأ، وبقايا أهل الردة، والغنوص المستر واليهود المستترين واقع تاريخى وحق أيضاً، فإذا كان المنافقون والمرتابون والمتنبئون موجودين فى عهد النبى نفسه^(٣) فكيف لا يوجدون فى عهد اتصل فيه المسلمون بالأمم الأخرى ذوات العقائد القديمة والديانات والأمجاد السياسية التى لا يمكن نسيانها فى ظرف يسير، ولا يمكن السكوت المطلق أمام هذا المعتقد الجديد الذى أصبح بيده المجد والسلطة والسياسة والمال، لهذا اعترف طه حسين بأن ابن سبأ استغل الفتنة ولم يثرها^(٤). أما الشيخ زاهد الكوثرى (١٣٧١/١٩٥٢) فإنه يعلل دور ابن سبأ بأن (المسلمين ما خبروا أساليب الماكرين وطرق فتن الفاتنين من قوم بهت أهل غدر وفجور على ما فى صحيح البخارى وغيره)^(٥) ويرد على من أنكر وجوده بإجماع المؤرخين الإثبات على وجوده وإحداثه^(٦) ويعتمد من أنكر وجوده مثل مرتضى العسكرى المعاصر على أن رواية سيف بن عمر لا يوثق بها وأنه ضعفه أهل الحديث واتهموه بالكذب تارة والزندقة أخرى، وبأنه ربما يكون مناصراً لتميم التى كان لها دورها فى الردة، والواقع أن سيف بن عمر ليس ثقة فى الحديث ولكنه من أقدم المؤرخين إذ توفى فى عهد الرشيد (٨٠٨/١٩٣+) بعد ١٧٠هـ/٧٨٦ ومن ناحية أخرى فإنه من رجال الترمذى

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٠٤.

(٢) طه حسين الفتنة الكبرى، (عثمان) ص ١٣٤.

(٣) قال ابن قتيبة: (ونحن نعلم أنه قد كان يشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد، ويحضر معه المغارى المنافق لطلب المغنم، والرفيق الدين والمرتأب والشاك، وقد ارتد بعده أقوام منهم عيينة بن حصن لحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ وأمن به. تأويل مختلف الحديث ص ٢٣٤.

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى (عثمان) ص ١٣٤.

(٥) زاهد الكوثرى، مقدمته على «المقدمات الخمس والعشرون» من دلالة الخاترين لموسى بن ميمون (١٢٠٧/٦٠٥+) شرح أبى بكر محمد التبريزى، من أهل القرن السابع الهجرى مصر، ١٣٦١هـ ص ٣.

(٦) قال زاهد الكوثرى: (رغم محاولة بعض المقسطين من أبناء اليوم إنكار وجود شخصى يقال له عبد الله ابن سبأ فضلاً عن أن يكون أحدث تلك الأحداث، المقدمات الخمس والعشرون (المقدمة) ص ٣ - ٤.

(٨٩٢/٢٧٩٠) ولم يناقض في روايته راويا آخر، ولم يرد عليه أحد من المحدثين أو المؤرخين في خبره الخاص بابن سبأ، وإذا كان لنا أن نتهمه في أخباره عن حروب الردة؛ لأنه تيمى ويحتمل أن يتعصب لقومه فليس لنا أن نتهمه في خبره عن ابن سبأ إذ لم يكن له غرض خاص، بل إن اتهامه بالزندقة يقتضى أن يخفى عن الزنادقة مشاركتهم في إيقاد نار الفتنة، فلا ينسب ذلك إلى عبد الله بن سبأ وإلى أمثاله، فليس هناك مبرر واضح يحتم علينا أن نتهمه في هذا الخبر خاصة، وقد عرف قوم ابن سبأ بالدس في كل زمن^(١) ولم ينكره اليهود في زماننا كجولدتسيهر وغيره من أهل الاستشراق من اليهود ومن غير اليهود^(٢) وأما الزعم بأن خبر ابن سبأ لم يكن إلا من اختراع المحدثين في القرنين الثانی والثالث الهجريين فإن التدوين في التاريخ والحديث إنما نشط في هذين القرنين فكيف يصبح القول بأن ما يقوله هؤلاء المدونون في هذا العصر مخترع منحول؟

ويقرر بعض الباحثين أن خبر إحراق السبئية مزعوم مخترع من أصله، وأنه لم يرد في أى كتاب موثوق من كتب التاريخ^(٣) يمكن رده بما أورده البخارى عن عكرمة (١٠٥٠/٧٢٣) قال: (أتى علي - رضى الله عنه - بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس، فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: من بدل دينه فاقتلوه)^(٤) وفسر الشراح الزندقة هنا بتفاسير مختلفة منها أنها تطلق على من أسر الكفر وأظهر الإسلام، ومنها أنها الثنوية، ومنها أنها ادعاء وجود إله آخر مع الله، والمعنى الأخير هو ما زعمه ابن سبأ في علي، وروى حديث آخر يسند وصفه ابن حجر بأنه سند حسن أن قوما جاءوا عليا فقالوا له: (أنت ربنا وخالقنا ورازقنا)

(١) يقول زاهد الكوثري: والشئ من معدته لا يستغرب، وسعى قومه (ابن سبأ) في الفتن طول التاريخ حقيقة ملموسة لا يتجاهلها إلا من هو ضالع معهم في آخر الزمن وقد عرفهم الناس في كل دور بأنهم أهل مكر وغدر. - مقدمة المقدمات الخمس والعشرون ص ٤.

(٢) أمثال: فان فلوتن في كتابه (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بنى أمية ترجمة الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكى إبراهيم، ط ١ مصر ١٩٣٤ ص ٧٩، ونيكلسون في كتابه به تاريخ الأدب العربى ط. كميردج، ص ٢١٥ ودوايت م. دونلدسن في كتابه (عقيدة الشيعة) ٨٥ من الترجمة العربية مكتبة الخانجي مصر ١٩٤٦. العقيدة والشرعية في الإسلام لجولدتسيهر ترجمة محمد يوسف موسى وجماعة ص ١٩٢ فلهوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العث، دمشق ١٩٥٦، والخوارج والشيعة ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) الدكتور كامل مصطفى الشبيى، الصلة بين التصوف والشيعة، ج١ ص ٩١.

(٤) ابن حجر، فتح البارى، ج١٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

فحاول أن يردهم؛ فلما أبوا أمر بإحراقهم^(١)، وورد بطريق آخر منقطع أنهم جماعة من عباد الأوثان، وفي رواية أخرى أنه أحرق المرتدين، وذكر ابن حجر، ما ذهب إليه أبو المظفر الإسفرائيني من أنهم طائفة السبائية، وعلق على ذلك بأنه من الممكن أن يكون أبو المظفر يعتمد على الرواية التي أشرنا إلى أن ابن حجر وصف سندها بالحسن، وذهب ابن تيمية إلى أن الذين حرقهم على هم الذين قالوا له أنت إله، فأحرقهم عند باب مسجد بنى كندة بالكوفة، واعتمد في ذلك على ما أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس^(٢) إلا أنه يذكر أن عبد الله بن سبأ نفاه علي إلى ساباط بالمدائن ونفى زميلا له يسمى عبد الله بن يسار إلى خازر^(٣)، وروى أبو جعفر بن شاهين (+٣٨٥/٩٩٥) بسنده عن الشعبي (+١٠٤/٧٢٣). وهو كما يقول ابن تيمية كوفى ومن أخبر الناس بالشيعة - أن عليا حرق جماعة من غلاة الشيعة ونفى بعضهم، ومن المنفيين عبد الله بن سبأ اليهودى الصنعاني، وعبد الله بن يسار، وروى هذا بطريق آخر عن الشعبي، ورواه ابن عاصم خشيش بن أصرم (+٢٥٤/٨٦٨) في كتابه «الاستقامة» وعنه نقله أبو عمرو الطنكي شخص آخر من المنفيين وهو أبو بكر الكردوسى^(٤) على أنه نفى إلى الجابية^(٥) وروى مثل هذا أبو القاسم الطبري (+٣٦٠/٩٧٠) في شرح أصول السنة بسنده عن عبدالرحمن بن مالك بن مغول^(٦) ولكن الأخير ضعيف عند أهل الحديث^(٧) وهو ثقة في الرواية فحادثة الحرق ثابتة في هذه المصادر، وخاصة صحيح البخاري؛ لأن أئمة الحديث يتحرون في رواية الأخبار، ويشرطون شروطا لا يشترطها المؤرخون من غير أهل الحديث، ومنهجهم منهج علمي يعتمد على النقد التاريخي، ولكن الإشكال في

(١) ن. م.، ج ١٢ ص ٢٢٧.

(٢) ابن تيمية، مجموع الرسائل الكبرى ج ١ ص ٢٥ منهاج السنة، ج ١ ص ٨٤.

(٣) نهر بين الإربل والموصل وعليه كوردة يقال لها نخلا يسمى أهلها الحزاز ويصب في دجلة (معجم البلدان).

(٤) ويلكزه الملطي باسم «أبو الكردوس» التنييه والرد، ص ١٥٦ ولعله هو الذي ذكره نصر بن مزاحم المقرئ باسم: كردوس بن هاني البكري الذي كان من أشد أنصاره وهو الذي يتكلم بلسان قبيلته وبيعة (وقعة صفين ص ٥٥٤ وهو غير كردوسى، (خلف بن محمد الواسطى) للحدث الذي ذكره الذهبي (العبر ج ١ ص ٥٣) لأنه توفي سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧).

(٥) قرية من أعمال دمشق شمال حوران (معجم البلدان).

(٦) من أهل القرن الثاني الهجرى معاصر للشعبي (+١٠٤/٧٢٢). قال فيه النسائي غير ثقة، وقال أبو داود كتاب وقال أحمد والدارقطني متروك (الذهبي ميزان الاعتدال القسم الثاني ص ٥٨٤).

(٧) ابن تيمية منهاج السنة ج ١ ص ٦ - ٨.

تعيين الطائفة التي أحرقت، وما ورد في رواية عبد الرحمن بن مالك بن مغول فإنه وقع النص فيه على الرافضة، والواقع أن اصطلاح الرافضة لم يستحدث في زمن الشعبي^(١)، ولكن يمكن أن يكون الناقل للرواية راويا لكلام الشعبي بالمعنى، فاستبدل لفظ الشيعة أو السبائية بلفظ الرافضة التي عرفت في زمنه، فالثابت على هذا الأساس إنما هو الحرق، أما التعبير فإنه يتغير بتغير الزمن، ويحدث الاصطلاحات؛ لأن الأخبار والأحاديث تجوز روايتها بالمعنى، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الله بن سبأ ادعى الألوهية لعلي فأحرق أصحابه بالنار^(٢)، أما الذهبي الحبير الناقد للأخبار ورواتها، فيستفق في التعبير مع ما ورد في البخاري فيقول في عبد الله بن سبأ: (من غلاة الزنادقة ضال مضل، أحسب أن عليا حرقه بالنار^(٣)) فهو يظن أن عليا حرقه أيضا، ولكن أغلب الروايات تقول بنفيه إلى المدائن ويحرق أصحابه، ويقرر ابن حجر أن الذين حرقهم هم الذين ادعوا فيه الألوهية^(٤) والواقع أن أحداث صدر الإسلام لا تزال غامضة تحتاج إلى دراسة، وهذا الغموض لا يسمح لنا بأن نصدر أحكاما قاطعة. فلعل ظهور بعض النصوص أو النقوش ينير لنا السبيل، ورغم هذا فإنه يحلو لبعض الناس أن يلغي وجود ابن سبأ بجمرة قلم، أو أن يشكك في وجوده دون مبرر واقعي، أو دليل قاطع. وهذه المحاولة لتبرئة اليهود من فتنة المسلمين تشبه كما قال الدكتور محمود قاسم محاولة أخرى في عصرنا هذا، وهي تبرئة اليهود من دم المسيح، حيث أعلن المسيحيون ذلك فعلا حسب اعتقادهم في قتل المسيح عليه السلام^(٥).

ظهرت آثار السبئية حتى في الخروج على علي، فبعد تنفيذ مؤامرتهم في قتل عثمان أخذوا في إيقاد نار الفتنة من جديد، فابتدأت النزعة الخارجية على علي قبل حرب الجمل بقليل، وذلك أنه لما خطب وأعلن أنه مرتحل، وأمر بالآل يرتحل معه أحد من أعان على قتل عثمان، اجتمع بسبب ذلك جماعة ومن بينهم ابن السوداء فتشاوروا وتبادلوا الآراء، فقال ابن السوداء: (إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فابصروا الرأي

(١) ن. م.، ج ١ ص ٨. (٢) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص ٧٣.

(٣) ميزان الاعتدال القسم الثاني ٤٢٦.

(٤) ابن حجر، هدى الساري مقدمة فتح الباري ص ٣٣٨.

(٥) الدكتور محمود قاسم، دراسات في الفلسفة الإسلامية ص ١٤٤ - ١٤٥. آراء الخوارج، د. عماد الطالبي.

وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون^(١) ثم بعد هذا كله استتر ابن سبأ، ولم يرد أن يظهر على المسرح الذى هيا له، وأعد له عدته، وحقق بعض الذى يريد، ولذلك فإننا لم نسمع عنه فى معركة صفين، ولم نر له ذكرا، حتى أن نصر بن مزاحم المنقرى لم يذكره فى كتابه وقعة صفين ولا مرة واحدة، كما لم يذكر عبدالله بن وهب الراسبى؛ لأن الأول استتر فى هذه الفترة، والثانى لم يظهر ويشتهر أمره، إلا بعد التحكيم، حيث تزعم حركة الخوارج بالمعنى الاصطلاحي النهائى للخروج، وليس معنى عدم ذكر نصر ابن مزاحم لعبد الله بن سبأ ولعبد الله بن وهب الراسبى أنهما لا وجود لهما؛ لأن المؤلف اختار لنفسه معركة واحدة وتحدث عنها ولم يشر إلى ما قبلها، ولا إلى الظروف التى جاءت بعدها، فهل معنى عدم ذكره لعبد الله بن وهب أنه لا وجود له؟ وليس من المستبعد أن يطلع علينا من ينكر وجوده، متلذذا بأنه غير مذكور عند بعض المؤرخين القدماء، وخاصة المنقرى؛ لأن كتابه يعتبر أقدم نص وصلنا عن معركة صفين.

٥ - أصول مبادئ السبئية:

وقد روى عن عامر بن شراحيل^(٢) الشعبى أن ابن سبأ قيل له: إن عليا قد قتل، فقال: إن جئتمونا بدماعه فى صورة لم نصدق موته، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض^(٣) بحدافيرها.

وفى ذلك يقول الشاعر^(٤):

برئت من الخوارج، لست منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب

وقالت السبئية أيضا بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة^(٥) بعد على - رضى الله عنه - فالتناسخ مرتبط بالحلول. أظهر ابن سبأ هذا القول ونشره بين الناس فكان بذلك أصل الغلو فى الإسلام والأصل الذى تشعبت منه أصناف الغلاة^(٦). والغلاة هم الذين غلوا

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٩٤.

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، ولد فى خلافة عمر، وكان علامة التابعين، وهو أكبر شيوخ أبي حنيفة، توفى عام ١٠٤ هـ.

(٣) التوبختى: فرق الشيعة ص ٤٣ وما بعدها. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ج ١ ص ٤٢.

(٤) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٨٨. البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٥٩. (٦) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤.

فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن حدود الخليقة والبشر. وحكموا فيهم بأحكام الإلهية فصارت لهم فرق مختلفة عديدة انشعبت كلها وانبثقت عن أقوال عبدالله بن سبأ. وكل فرق الغلاة مستفقون على التناسخ والحلول. وقد يكون الحلول بجزء، وقد يكون الحلول بكل، فهو كظهور ملك بشخص، أو شيطان بحيوان. وللتناسخ مراتب منها: النسخ، والمسح، والرسخ^(١).

لم يكتف ابن سبأ بتأليه على ومبدأ الحلول والتناسخ بل نراه فى هذه الفترة عقب مقتل علي - رضى الله عنه - يتناول فكرة الرجعة أى رجعة الإنسان بعد الموت إلى الدنيا. وضع لهم رجعة على هذه المرة. لقد أكد ابن سبأ أن علياً حى لم يموت وأنه سينزل من السماء ويملك الأرض بحذاقيرها^(٢). وسيرجع إلى الدنيا ويتقم من أعدائه^(٣). أكد ابن سبأ عودة علي إلى الأرض ليملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً^(٤) وارتبطت بذلك فكرة المهدي المنتظر الذى تصوره السبئية فى علي دون غيره^(٥).

انتشرت تلك الأفكار انتشاراً سريعاً فى مشرق العالم الإسلامى وبخاصة بين الفرس وانتشر التشيع. وبذلك نجحت الحركة السبئية باعتبارها الرابطة التى تربط أبناء الأمة فإذا ضعفت تلك الرابطة سقطت تلك الأمة فى مهاوى الضعف.

انطلق عبدالله بن وهب بن سبأ رعيم الحركة اليهودية آنذاك من منطلقات ثلاث فقد أحدث فى هذه الأمة ثلاثة أمور كان لكل منها الأثر البالغ فى تفريق كلمتها، وتصديق وحدتها وتشعب أمرها وهى:

الأمر الأول: كان ابن سبأ أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بن أبى طالب بالإمامة، فعلي وصى الرسول ﷺ وخليفته على الأمة من بعده بالنص يوم الغدير^(٦).

(١) تاريخ العرب العام ص ١٥٠ ل. أ سبيرو. ترجمة عادل زعير.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤.

(٥) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٥٩.

(٦) جولد تسيهر: العقيلة والشرعة فى الإسلام ص ١٩٦ وما بعدها، ص ٢٠٣.

الأمر الثاني: كان ابن سبأ أول من أحدث القول برجعة النبي ﷺ بعد موته. ثم طور الفكرة بعد ذلك فأحدث القول برجعة^(١) علي - رضى الله عنه - إلى الدنيا بعد موته. وما ارتبط بذلك من فكرة المهدي المنتظر.

الأمر الثالث: كان ابن سبأ أول من أحدث القول بأن عليا لم يقتل، وأنه لا يزال حيا، وأنه يسكن السحاب؛ لأن فيه جزءا إلهيا^(٢)، أى أن روح الإله تحل في البشر. وما ترتب على ذلك من القول بتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة، أى أن الجزء الإلهي يحل في الأئمة^(٣) لذلك استحقوا الإمامة دون غيرهم.

والواقع أن أكثر هذه القضايا مأخوذ عن اليهودية^(٤) دين ابن سبأ، والتي كان يعرفها قومه يومئذ، بل إنه كان يستدل لمن يخدمهم على صحة هذه القضايا ببعض ما عرف من أحوال موسى - عليه السلام - مع شيء من التلميح والتحريف^(٥).

تلك هي جهود السبئية في خلافة علي، وهي جهود جبارة هدامة ضالعة في المكر والخداع والتأمر. تشيع السبئية لعلي وطالبوا بحقه في الخلافة. وبايعوا له بها وانضموا لرجالهم وانضوا تحت لوائه، وكان ذلك جزءا من المخطط. ثم مهدوا لإشعال نار الفتنة واستغلوا كل موقف لصالحهم. حتى كانت معركة الجمل.

ثم تقربوا من علي ونشروا تلك الأفكار المنافية للعقيدة، ولا شك أنهم استعانوا بيهود العراق وفارس فانتشر التشيع سريعا^(٦).

ومن الجدير بالذكر أن ابن سبأ أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي - رضى الله عنه - ومنه انشعبت أصناف الغلاة^(٧)، ومن المؤكد أن السبئية بأقوالهم تلك، قد خرجوا على العقيدة. وفي ذلك يقول البغدادي: «وهذه الفرقة ليست من فرق أمة الإسلام لتسميتهم إليها»^(٨).

(١) بطوشوفسكى: الإسلام في إيران ص ١٨٩ - ١٩٠ (نقلا عن الطبرى).

(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشرعة ص ٢١٥. وما بعدها.

(٣) جولد تسيهر: العقيدة والشرعة في الإسلام ص ١٩٦. وما بعدها، ص ٢٠٣.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤.

(٥) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١١.

(٦) السبئية د. نادية حسنى صقر النهضة المصرية.

(٧) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٧٤.

(٨) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢١.

وقد أجمع المحققون من أهل السنة على أن ابن سبأ الملقب بابن السوداء كان على
هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي ثم في أولاده^(١)
من بعده، فابن سبأ قد أظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً

(١) المصدر السابق ص ٢٣٥

الفصل الثالث

علي والحق الإلهي

إن ادعاء الشيعة على الإمام علي لم يكن بنظر أصحابه وشيعته مجرد طموح سياسي بل حق إلهي له وكان خصوم الشيعة يرون أن للتعاليم والصفات الشخصية الخفية نسباً في تاريخ الإسلام اليد الطولى في ظهور وجهة النظر هذه وانتشارها فقد ظهر منذ زمن خلافة عثمان داعية متقل اسمه عبدالله بن سبأ، قطع البلاد الإسلامية طولا وعرضا «يريد إفساد المسلمين» كما يقول الطبري ويظهر حسب قول wrilhausen أنه كان يهوديا قبل أن يسلم وأصله من صنعاء اليمن وقد جاء الحجاز ومدينتي البصرة أو الكوفة الحديثين ثم ذهب إلى بلاد الشام واستقر أخيراً في مصر وفي مصر قام بدور رئيسي في المؤامرة في سبيل علي وأعلى أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا عاصيين^(١) وكان الناقمون في خلافة عثمان يكاتبون ابن سبأ سرا وسار مع الركب الذي قدم المدينة من مصر قبل مقتل عثمان^(٢) ولا يشير ابن سعد إلا إلى كونه أحد القراء الذين صحبوا علياً^(٣)، ويذكر ميرخوند في روضة الصفا^(٤) إن الكاهن اليهودي حاء المدينة وأسلم وهو يأمل أن يكرمه عثمان ويحترمه فلما لم يحصل له ما أراد أخذ يتصل بالناقمين عليه وينكر على عثمان إدارته علناً، وبلغ عثمان خبره أخيراً فقال «ومن هذا اليهودي الذي أتجمل منه هذا؟» وأمر بنفيه من المدينة ثم ذهب إلى مصر وصار من المشاغبين العاملين ضد عثمان

(١) عقيدة الشيعة دوايت دونالدس ص ٦

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٤٢، ٢ ص ٩٨ ودائرة المعارف الإسلامية مادة عبد الله بن سبأ

(٣) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٦٣ (٤) روضة الصفا ج ٢ ص ١٠

وكان من احتجاج ابن سبأ قوله: إن النصارى يقولون برجوع عيسى فينزل من السماء فإن قلنا: إن محمداً أعظم من عيسى وجب أن يرجع قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ...﴾ (٨٥) [الفصل].

ومن تعاليمه الأخرى مما كان له نفوذ مباشر قوله: إن لكل نبي وصي وإن علياً وصي محمد ﷺ. وقد نصبه بنفسه وإن الناس لما لم يعملوا بأمر الرسول ﷺ فقد ظلّموا علياً ظلماً فاحشاً، فوجب عليهم جميعاً أن يقرّوا بحق علي المنصوص عليه من الله، وأن يطيعوه طاعة مطلقة. وقد ذهب غلاة الشيعة إلى أبعد من ذلك فقالوا بالوهمية علي نفسه، ويقال: إنهم أخذوا عقيدتهم عن ابن سبأ^(١) الذي علمهم «أن روح الله حلت في كل نبي وأنها تنتقل فيهم الواحد بعد الآخر وقد انتقلت بعد وفاة محمد إلى علي ثم أبنائه الذين انتقلت إليهم الإمامة».

فحدث من ذلك جدال كبير في ما إذا نص الرسول ﷺ بالفعل علي في غدِير خُم أو لم يفعل، وهل توجد أقوال أخرى للرسول ﷺ كان الواجب فهمها على أنها تعبر عن غايته في نصب علي خليفة له. فقد وردت في بعض كتب الحديث القديمة عند أهل السنة أحاديث يظهر أنها تؤيد^(٢) العلويين الذين رفضوا الحديث في نظرية إجماع الأمة، في قولهم هذا. ثم كيفوا فيما بعد أنفسهم حسب مقتضيات الظروف واعترفوا بالخلفاء القائمين وبايعوهم بالاسم مع احتفاظهم برأيهم في أن أحد الفاطميين الأحياء هو بالحقيقة الخليفة أو إمام المسلمين.

وتدل كلمة الإمام: علي من يؤتم به في الصلاة، والإمامة منصب من مناصب الخلافة يحتفظ به الخليفة لنفسه. ولما أمر الرسول ﷺ في مرضه الأخير أبا بكر أن يصلي بالناس اعتبر ذلك سنداً قوياً بيد الطاعنين بالقول في النص على خلافة علي. فقالوا بأن كل نص محتمل سابق لعلي غير واقع. ولم يكن لعلي أن يؤم الناس والصلاة بهم مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان. وكان الخلفاء الثلاثة يكرمون منزلته ويحترمونه ويستشيرونه، وليس ثمة خبر موثوق يدل على أنه لما استخلف ادعى بسلطة روحانية أكثر مما كان لغيره من الخلفاء. وهو في مركزه أحد أصحاب رسول الله ﷺ، انتخب للخلافة بعد عثمان بإجماع من كان حاضراً من الوجوه والرؤساء وغيرهم. وقد قتل في أثناء جهوده للتغلب على ثورة شديدة واسعة النطاق ضد سلطته.

(١) الملل والنحل للشهرستاني.

(٢) صحيح الترمذي ٣١: ٤٦، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٧٢ وما يليها.

قال أحمد بن حنبل: «لم ترد رواية بفضل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بقدر ما ورد في فضائل علي»^(١) ووصفها بعضهم في أنها كانت من الكثرة بحيث أثارت حسد بنى أمية وكرههم له. أما أمر اعتماد محمد ﷺ عليه اعتمادا خاصا، فيعترف به الجميع. ويذكر أصحابه أنه قضى صباه مع رسول الله ﷺ ولم يفارقه. وكان من أول من آمن به وربما كان أولهم بعد خديجة زوجة الرسول ﷺ. ويروى أن النبي ﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك أبقاه في المدينة وقال له: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟»^(٢).

وعلى كل حال، فإنه كهارون كان في بعض الحالات إذا كلف ببعض الواجبات الإدارية الخطيرة كانت أجوبته تفصح عن شعور الشباب وتردد التواضع. فيروى عنه أنه قال: «بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا فقلت: يا رسول الله إنك تبعثني إلى قوم شيوخ ذوى أسنان وإنى أخاف أن لا أصيب. فقال: إن الله سيثبت لسانك ويهدي قلبك»^(٣) وكان عمر نفسه يعتبر عليا أفضى أهل المدينة وأقراهم للقرآن^(٤).

وقد سماه الحسن البصرى «بعالم الله في هذه الأمة»^(٥) وذكر الواقدي أنه كان عند ظهور الإسلام ستة أو سبعة نفر يعرفون القراءة والكتابة في قريش قبيلة الرسول ﷺ، منهم عمر وعثمان وعلي، ممن تولوا الخلافة بعده. أما الرسول ﷺ فيقال إنه كان أميا، يكتب له أربعة ما يوحى إليه من القرآن، على ما يجدهونه من العصب والرقاع وقطع الأديم والعظام. ومن الروايات التي يرويها المسلمون أن عليا آخر الخلفاء الراشدين كان يكتب الكاف الطويلة التي يمتار بها الخط الكوفي بصورة مضبوطة يصعب حتى مع آلة القياس التفريق بين الكافات التي يكتبها»^(٦).

١ - صحيفة الجفر:

وتؤكد بعض الروايات أنه كان عند علي نسخة من القرآن جمعها وربطها بنفسه وعلق

(١) مسند الإمام أحمد ١ ص ١٠٨، ١١٤، ١١٨، عقيدة الشيعة ص ٦١ دوايت دونلدس.

(٢) ابن حجر ج ٢ ص ١، ١٢٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠١.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة دى سلان ج ١ ص ٦٦٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠٢.

(٦) جولدتسيهر الباب الخامس الفصل ٣. - العقيدة والشريعة في الإسلام ترجمة حسن عبد القادر

وعبدالعزیز عبد الحق. د. محمد يوسف موسى.

عليها بعض الحواشي حسب ما كلم الرسول ﷺ به وهذه الحواشي التي على سخته هي كما يظهر كل ما ادعاه علي بما أوحى للرسول ﷺ ولم يكن عنده غيره ولما كان لقضية حقيقة هذه الصحيفة التي كان علي يراجعها تأثير على اعتقاد الشيعة بوجود كتاب سري يسمونه بالجفر^(١). فلا أرى مندوحة من ذكر بعض الأحاديث الواردة عن الموضوع فلتذكر أولاً أن كلمة الصحيفة تجمع على صحف وقد جاءت هذه الكلمة بصيغة الجمع في ذكر «الصحف المائة التي أنزلت على آدم وشيث وإدريس وإبراهيم وموسى وأشار إليها القرآن في سورة الأعلى (الآية ١٨، ١٩) ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصَّحَفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صحف إبراهيم وموسى»^(٢). وجاء في باب العلم من البخاري حديث رواه عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: «هل عندكم كتاب؟» قال: لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة «قلت: وما في هذه الصحيفة؟» قال: «العقل وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»^(٣) وأورد البخاري حديثاً عن (إبراهيم) التميمي رواه مرتين^(٤) عن أبيه ذكر خطبة لعلي قال فيها: «ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفة» ثم ذكر أن فيها التوصية بالجريح وما يفعل بالإبل المسنة وحدود حرم المدينة وهي بين عائر وكذا. وذكر أحمد بن حنبل هذا الحديث عدة مرات وقال: إن حدود حرم المدينة بين عائر وثور ثم أضاف على عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحدث فيها (أي المدينة - المعرب) حدثاً أو أوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل»^(٥)

فإذا كان عمر علي بين العاشرة والخامسة عشر عند أول إسلامه وأنه كان يعرف الكتابة كما تذكر الروايات، فليس ببعيد من أن يكون عنده قرآن علق هو حواشيه بما حدثه به الرسول ﷺ. وأن ما جاء في هذه الحواشي قد بيته الروايات بصورة عامة، فهي عبارة عن بعض تفاصيل لأحكام وغيرها، لا غموض أو سر فيها ولا علاقة لها بما يدعيه الشيعة من الادعاءات المرتبة في الأزمنة المتأخرة عن كتاب الجفر

ومن هذه الروايات المتأخرة ما ذكره الكليني^(٦) في أن «النبي ﷺ علم علياً باباً

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة «جفر» بقلم D.B.Mcdonald

(٢) قاموس الإسلام تأليف Haghos

(٣) صحيح البخاري، فصل ٥٨ باب ١، ١٧

(٤) صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٩، مسند الطيالسي، طبعة حيدر آباد سنة ١٣٢١ هـ رقم ٩١

(٥) عقيدة الشيعة ص ٦٥ دوايت دونالدس

(٦) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٨١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٦

يفتح له منه ألف باب»^(١) وأن طول هذه الصحيفة، وهى بخط علي سبعون ذراعا بلراف الرسول ﷺ و«ففيها كل حرام وحلال وكل شىء يحتاج إليه الناس» وأن عنده الجفر و«فيه علم النبىين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل» ويذكر المسعودى أن الأئمة المتأخرين كانوا يشيرون إلى هذه الكتب التى يفترض أن عليا تركها لهم يتوارثونها صاغرا عن كابر^(٢).

والاعتقاد بوجود هذه الكتب المقدسة السرية عند الأئمة، ثابت. وتوسع الكتاب المتأخرون فى وصفها فذكر محمد باقر المجلسى فى القرن السابع عشر فى كتابه (حياة القلوب)^(٣) أنه لما دعا محمد ﷺ نصارى نجران فى اليمن إلى الإيمان بنبوته وأن عيسى قد بشر به، ذكر كتابا اسمه (الجامعة). ويقولون: إن فى هذه الجامعة صحف ١٢٤٠٠٠ نبى. ففيه صحيفة آدم «عن ملكوت الله عز وجل وما خلقه وما قدره فى السموات والأرض، دنيا وآخرة.

وأورث أبو البشر هذا الكتاب الذى يحتوى على جميع العلوم ابنه شيث فأضاف إليه شيث وأورثه إدريس، وكذلك صحف إبراهيم وموسى وعيسى حتى جاء خاتم النبىين محمد ﷺ.

وصنف المجلسى صاحب التأليف الكثيرة كتابا باللغة الفارسية عن حياة الأئمة وقد طبع بالبحر فى طهران سنة ١٩١٢. واسم هذا الكتاب (تذكرة الأئمة) ويذكر فيه أن الجفر الجامع كتاب اتفق العلماء على أنه كان عند علي وأن ما بقى منه اليوم هو ٢٨ فصلا كل منها من ٢٨ صفحة كل صفحة من ٢٨ جزءا. «ولا يعلم ما كتب فيها إلا الله والأئمة أو من علمهم إمام معصوم».

ويشير الكتاب نفسه إلى «الصحيفة» ويقول: إنها بإملاء الرسول ﷺ وخط علي، وطولها سبعون ذراعا وعرضها بعرض جلد الكبش. واسمها أيضا الجامعة وفيها كل حرام وحلال» وكتابان آخران أقل أهمية من الصحيفة أحدهما الجفر الأبيض وهو من أربعة عشر جزءا كل جزء من ١٤ قسما إلخ. ومصحف فاطمة، وأحاديث كثيرة تدل على أن الله أعطى آدم خمسة عشر حرفا من حروف الاسم الأعظم، ونوحا ثمانية

(١) أصول الكافى للكلينى ص ٨٥.

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج ٧ ص ٣٨٢.

(٣) حياة القلوب للمجلسى ج ٢ ص ٣١٥.

وإبراهيم ستة وموسى أربعة وعيسى اثنين وأصف بن برخيا حرفا واحدا وأعطى محمد ﷺ اثنين وسبعين حرفا، فعلمها عليا^(١)

٢ - الإمام علي والحق النصي:

غدير خم:

إن الشيعة يعلقون أهمية كبرى على الخبر الوارد بأن محمدا ﷺ عند عودته من حجة الوداع نزل مكانا يعرف بغدير خم، وفيه أعلن لن كانوا معه رغبته في نصب علي خليفة من بعده. وينقل ابن واضح اليقوي (المتوفى سنة ٨٩١ ب م) أنه قال لعلي في غدير خم:

وخرج ﷺ ليلا متصرفا إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة وقام خطيبا وأخذ علي بن أبى طالب - رضى الله عنه - فقال: أأست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه^(٢). (ثم قال) أيها الناس إننى فرطكم وأنتم واردون على الخوض وإنى سألتكم حين تردون علي عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، قالوا. وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا تفلخوا ولا تبدلوا، وعترتى أهل بيتى^(٣).

وروى أيضا أن الرسول ﷺ عند انصرافه من غزوة الحديبية وقبل النزول بغدير خم بأربع سنوات كاملة ولثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة أيضا، قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٤) وقد سميت غزوة الحديبية بصلح الحديبية وبمواعيد المشركين^(٥) كما سميت آخر حجة للرسول ﷺ حجة الوداع، فى الحالتين يدل بوضوح على احتمال كون

(١) تذكرة الأئمة للمجلس، طبع طهران ١٩١٢ ص ٥٦ وما يليها.

(٢) أورد الإمام أحمد بن حنبل الحديث عدة مرات فى مسنده الجزء الاول ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٣.

(٣) تاريخ اليقوي ج ٢ ص ١٢٥

(٤) قال المسعودى فى كتاب (التبيين والإشراف) ص ٢٥٥، ١٨ وفى منصرفه ﷺ عن الحديبية قال لأمير المؤمنين ٧٨ على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بغدير خم (من كنت مولاه فعلى مولاه) وذلك فى اليوم الثامن من ذى الحجة. وغدير خم يقرب من الماء المعروف بالحرار بناحية الجحفة. وولد على وشيعته يعظمون هذا اليوم. انظر كذلك جولدسيهر ج ٢ ص ١١٨

(٥) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ١٥٨. (٥) السابق ج ٤ ص ١٦

أحدهما تكررًا للثاني. غير أن هناك ما يستدل به من تسلسل الحوادث سنة ٦ للهجرة لم يكن له ولد وكان حفيده الحسن والحسين من علي وفاطمة لا يزالان طفلين عمر أولهما ثلاث سنوات وعمر الآخر أربع. ولا يمكن أن يخلفه حفيده إلا إذا اعترف بعلي خلفا له، فإنه ليس من عادة العرب رد النسب إلى ابنته فاطمة^(١).

ولا يغرب عن بالنا أن عليا لم يكن ابن عم الرسول ﷺ وصهره فحسب، بل إن أباه أبا طالب كفل محمدا ﷺ ورباه وحماه فلا غرو أن يرغب الرسول ﷺ في أن ينظر المسلمون إلى علي نظرتهم إلى المرجع الثاني في الأهمية بعده.

ويقول ابن خلكان^(٢): (قلت) والثامن عشر من ذى الحجة هو عيد الغدير وهو غدير خم. وخم موضع بين مكة والمدينة به غدير أو بطيحة على قول بعضهم ويقال: إن رسول الله ﷺ لما عاد من مكة بعد حجة الوداع (١٠هـ) وقف في خم وأخى علي ابن أبي طالب - رضى الله عنه - وقال: علي مني كهارون من موسى، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

ويصف الملا محمد باقر المجلسي من علماء الشيعة الأعلام (المتوفى سنة ١٧٠٠م) خلاصة الحديث لما جرى في غدير خم. قال:

لما انقضت مناسك الحج قفل النبي ﷺ راجعا من مكة إلى المدينة ومعه علي - رضى الله عنه - والمسلمون. فلما بلغ غدير خم نزل هناك، وهو مكان لم يكن نزول المسافرين متعارفا فيه. والسبب في نزوله هناك ما أنزل عليه في القرآن بلزوم نصب علي - رضى الله عنه - خليفة من بعده. وقد أنزل عليه في ذلك عدة مرات ولم يعين الوقت لتبليغ ذلك، وقد أخرج خشية اعتراض الناس. ولو جاوز ذلك المكان، أى غدير خم لتفرق الناس وذهبت كل قبيلة ناحية.

فأمر محمد ﷺ الناس بالاجتماع ليقول لعلي - رضى الله عنه - ما يجب أن يبلغهم جميعا وقد أنزل الله عليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ [المائدة: ٦٧]. وكان لذلك الأمر بنصب علي - رضى الله عنه - خليفة أن نزل الرسول ﷺ ومن معه في ذلك المكان.

(١) عقيدة الشيعة وهو كتاب عن تاريخ الإسلام في إيران والعراق. دوايت. م. دونلس تعريب ع. م. الخالجي.

(٢) ابن خلكان ج ٣ ص ٣٨٣. وعقيدة الشيعة السابق ص ٢٥٠.

وكان الهواء فى غاية الحرارة والمكان مملوءا من الأشواك، حتى كان الرجل يضع الرداء تحت قدميه من شدة الرمضاء. وأمر الرسول ﷺ أن ينصب له منبر من أقتاب الإبل، فلما نصب له واجتمع الناس ارتقى محمد ﷺ المنبر ودعا عليا إلى يمين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه أخبر الناس بدنو أجله قائلا: «ولقد دعيت إلى ربي وإنى مجيب، وإنى مغادركم من هذه الدنيا وإنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترته أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض» ثم قال: «أست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا «نعم» فأخذ بيد علي - رضى الله عنه - ورفعها حتى بان يياض إبطه وقال ﷺ: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فلما نزل النبی ﷺ من المنبر صلى صلاة الظهر ثم ذهب إلى خيمته وأمر بنصب خيمة بجانب خيمته لأمير المؤمنين. فجلس علي في خيمته وأمر الرسول ﷺ الناس أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا عليه بأمر المؤمنين ففعلوا نساء ورجالا وسر عمر بذلك مثل غيره^(١). ومن المهم أن نتذكر أن المؤرخ اليعقوبى (المتوفى سنة ٨٩١ م) كان متشيعا لآل علي، وقد صنف تاريخه قبل المجلسى بشماتة سنة وقبل أن تدون أحاديث الشيعة المتداولة اليوم بخمس وعشرين سنة على الأقل.

٣ - تصحيح الطبرى لرواية غدير خم:

وكان لتصحيح الطبرى حديث غدير خم الأثر الأكبر فى اتهامه بالرفض من قبل أعدائه، فالخافظ ابن حجر (ت ٨٥٢) يقول: «وإنما نبذ بالتشيع؛ لأنه صحيح حديث غدير خم»^(٢) على الرغم من مخافته للنتائج التى رتبها الشيعة على هذا الحديث، ومن أهمها قولهم: إنه نص على تعيين الرسول ﷺ لعلي خليفة من بعده، وأمينا للوحي، وأخذ له البيعة بإمرة المؤمنين يوم الغدير^(٣)، وتأكيدهم أن تعيين علي كان من تمام الدين؛ إذ لم يتفرق الناس حتى نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾^(٤)

(١) حياة القلوب للمجلسى ج ٢ ص ٣٣٩ وتجد وصفا كاملا لمبايعة علي عن غدير خم فى كتاب مطارح الأنظار باللغة الفارسية لمحمد صالح المازندراني طبعة بمبى سنة ١٢٨٧ هـ. ص ٩٢.

(٢) ابن حجر، لسان، ج ٥ ص ١٠٠، ٧٢-٧٣، TAYOB. The Case of Al- Taabari's.

(٣) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية ص ٦٠، ٦١.

[المائدة]. ووضعوا على لسان الرسول ﷺ حديث «الله أكبر على تمام الدين، ورضا الرب برسائتي، وبالولاية لعلي من بعدى»^(١).

أما الطبرى فأكد على أن أحق الناس بالخلافة بعد الرسول ﷺ وأولاهم بالإمامة هم أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب، وأن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الإمامة^(٢)، كما كفر الطبرى كل من قال بتكفير الصحابة من الشيعة والخوارج، وكان لا يقبل أخبارهم ولا شهاداتهم. وكان يدعو إلى قتل كل من قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامي عدل وهدي^(٣)، كما كان لا يقبل رواية التهم بالشيعة، ويعتبر التشيع طعنا فى عدالته^(٤). يضاف إلى ذلك أن الطبرى صنف بعد رجوعه من بغداد إلى طبرستان عام ٢٩٠ هـ كتابا فى فضائل أبى بكر وعمر بعد أن وجد الرفض وسب أصحاب الرسول ﷺ متشرا بين أهلها، ولاقى بتصنيفه هذا الكتاب المضايقة والتهديد من الروافض ومن حاكم طبرستان فهرب منها^(٥). ولم يتعرض الطبرى لحديث الغدير ولا لإمامة علي عند تفسيره لآية كمال الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة]، إذ أثبت بسند صحيح أن هذه الآية نزلت فى عرفة خلافا للشيعة الذين قالوا إنها نزلت فى غدير خم^(٦). وخالفهم كذلك فى مقصود هذه الآية؛ إذ بين أنها نزلت لتبين للناس أن الله - سبحانه وتعالى - أكمل لهم دينهم بإفرادهم البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه^(٧)، خلافا للشيعة الذين زعموا كما مر سابقا أنها نزلت لتبين للناس أن الدين اكتمل بوصية الرسول ﷺ بالإمامة من بعده لعلي^(٨).

فههدف الطبرى من تصحيح حديث خم لم يكن إلا الاحتجاج به على صحة إثبات الخلافة لعلي كما يفعل الشيعة، وتبيان فضائله، والرد على منتقديه تمشيا مع تقديره واحترامه للصحابة والتابعين ومن تبعهم، والوقوف فى وجه من يحط من قدرهم

(١) الطوسى، مجمع البيان، ج ٣ ص ٢٤٦، السيوطى الدر المنثور ج ٣ ص ١٦، ٢٧.

(٢) الطبرى، صريح السنة، ص ٢٤.

(٣) الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج ٢ ص ٧١٢.

(٤) الطبرى، المنتخب من ذيل المزيل ضمن كتاب تاريخ الرسل، ج ١١، ص ٦٤٦، ٦٦٦.

(٥) الحموى، معجم الأنبياء، ج ٦ ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٦) الطبرى، جامع البيان، ج ٦ ص ٧٩.

(٧) ن. م. ج ٦، ص ٨٠.

(٨) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية ص ٦٠، ٦١.

ودورهم فى انتصار الإسلام^(١). فليس غريباً أن يتجاهل فى تاريخه حديث الغدير؛ إذ رفض أن يستخدم كدليل وغطاء شرعى قدمه الرسول ﷺ لعلّى لإثبات عدالة موافقه وتحركاته ضد أعدائه.

تعقيب:

تذهب الشيعة وفق ما قدمناه إلى أن الإمام علي هو الأولى بالخلافة أو الإمامة من أبى بكر وعمر وعثمان، ولا نشك فى شخصية الإمام علي ففضائله لا تعد ولا تحصى شجاعة ورجاحة عقل وسعة فى العلم وتقوى وورع. وفهما للدين وللرسول ﷺ وإدارة للمعارك فضله على صفحة التاريخ مشهود.

أما حديث «غدير خم» فلا اعتراض لنا عليه لا سنداً ولا متناً - فهو مسلم به من حيث زمانه ومكانه. وشخصية الرسول ﷺ وهو المتحدث. وشخصية الإمام وهو المتلقى منه. وفحوى خطابه أوصى بالثقلين، وهما كما أجاب الرسول ﷺ على سؤال: ما الثقلان؟ فقال الرسول ﷺ: الثقل الأكبر وهو كتاب الله سبب طرفه بيد الله. وطرف بأيديكم فاستمسكوا به.

والثانى: عترتى أهل بيتى.

يجتهد الملا محمد باقر المجلسى فى توضيح سبب نزول الرسول ﷺ بغدير خم أنه أراد أن يعلن نصب علي... وهذا ما تؤكد عليه الشيعة وما تبغيه من حديث غدير خم. وهو أن تنصيب الإمام - الإمام علي - من تمام الدين، ورضا الرب برسالتى، وبالأولايه لعلى من بعدى.

لكن الطبرى له موقف آخر من الحديث والخلافة، فأما الحديث فهو فى رأيه صحيح، وصحته - فى نظره - لا تلغى أحقية أبى بكر فعمر، فعثمان فعلي فى صحة الخلافة. وأن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة أو الإمامة. وكفر الطبرى كل من قال بتكفير الصحابة من الشيعة والخوارج... ولعدم تحديد مفهوم الشيعة الغالية من الشيعة المعتدلة - إلا مؤخراً - كان التشيع فى نظر الطبرى تهمة تطعن فى عدالة الرجل، وحين شاع الرفض وسب الصحابة - ألف كتابه فى فضائل أبى بكر وعمر. وبسبب تأليفه لعلى من الشيعة الرافضة ما لقى من الاضطهاد والتهديد. ونشايح الطبرى فيما ذهب إليه.

(١) محمد المخزون. تحقيق مواقف الصحابة، ص ١٩٢.

٤ - حديث الصحيفة:

ولما توفي ﷺ قال الناس: ما كنا نظن أن رسول الله ﷺ يموت حتى يظهر على الأرض، وخرج عمر فقال: والله ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت وإنما تغيب كما غاب موسى أربعين ليلة ثم يعود والله ليقطعن أيدي القوم وأرجلهم، وقال أبو بكر: بل نعه الله إلينا فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٢٠)﴾ [الزمر] فقال عمر: والله لكأني ما قرأتها قط، ثم قال: لعمرى لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدى الذي قلته الجزع.

«ولم يخلف ﷺ من الولد إلا فاطمة وتوفيت بعده بأربعين ليلة وقال قوم بسبعين ليلة. وقال آخرون: ثلاثين ليلة. وقال آخرون: ستة أشهر»^(١) وجاء في حديث رواه كل من مسلم والبخاري أنه رسول الله ﷺ لما دنت وفاته كان عنده في البيت عدة رجال بينهم عمر بن الخطاب فقال النبي: «إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا» فقال عمر: «إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله» واختلف الحضور، منهم من قال قريبا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال النبي ﷺ لهم: «قوموا، ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي ﷺ خلاف».

وروى عبد الله أن ابن عباس كان يقول: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم».

وهناك حديث آخر تجدر ملاحظته بصورة خاصة لعلاقته بمعتقدات الشيعة فيما بعد بالأئمة، وهو ما روته عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ عندما كان صحيحا يقول: «إن كل نبي يخير قبل موته، بين هذه الدنيا والآخرة» فلما أضعفه المرض كان يردد (مع النبيين والصديقين والشهداء الذين ارتضيت) وردد (بل الرفيق الأعلى) فعلمت أنه قد خير فاختار^(٢).

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٥، البخاري، الفصل ٦٣ رقم ١١ طبقات ابن سعد ٢ (٢) ص ٤٢. (٢)
البخاري الفصل ٣ رقم ٣٩، الفصل ٥٨ رقم ٦ الفصل ٦٤ رقم ٨٣ الفصل ٧٥ رقم ١٧ الفصل ٦٩
رقم ٢٦، انظر كذلك مسلم فصل ٢٥ رقم ٢٢، ابن سعد ٢ (٢) ٦ وما يليه وأحمد بن حنبل ج (١)
٢٣٢، ٢٩٣، ٣٢٤.
(٢) البخاري ف ٦٤، ٨٤، الترمذي ف ٤٦، ١٥ ابن سعد ج ٢ (٢) ٩، ٢٥، ٦٠ أحمد بن حنبل ج (١)
٢٦٧. انظر كتاب روضة الصفا لميرخوند ج ٢ ص ١٧٢.

والذى عليه الجمهور أن محمدا ﷺ مات بين ذراعى عائشة كما جاء فى حديث مروى عنها. وقد أوردته صاحب كتاب مشكاة المصابيح، فقد أراد الرسول ﷺ أن يستاك بضريح الأراك فأخذته عائشة فليته له ثم ناولته إياه فاستن به وقال: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم رفع يده وقال: «اللهم اغفر لى واجعلنى مع الرفيق الأعلى» وهبطت يده وقبض ﷺ.

تعقيب وتحقيق:

أما حديث الصحيحة: فهو لا يعطى تفسيراً لأحقية الإمام علي فى الخلافة ووفق نصه أنه لما دنت وفاته ﷺ كان عنده فى البيت عدة رجال بينهم عمر بن الخطاب فقال النبى ﷺ: «إيتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدى أبداً. فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله... واختلف الحضور... فتصه يفيد أن الرسول ﷺ يكتب أو يملأ فيها مزيداً من الشرح لكتاب الله وهو عاصم لكم من الضلال لو تمسكنا به.

لكن الصحابة رأوا معالجة الرسول ﷺ لوجهه قد أشغلته عن إمام ما طلبه منهم وليس فيه ما يبرر للشيعه أن تأخذ موقفاً من أبى بكر وعمر والصحابة حين أجلبوا طلب الرسول ﷺ إلى أن يهدأ وجهه.

ينقل ابن أبى الحديد عن النقيب أبى جعفر: لما كان أكثر الناس موتورين فى الدنيا إذ المستحقون أكثرهم محرومون بينما الحمقى والجهلاء حظهم من الدنيا عظيم تدر عليهم الخيرات. بل إن ذوى الفضل والاستحقاق غالباً ما تضطرهم الدنيا إلى الذل والخضوع إلى هؤلاء لضررهم أو استجلاباً لنفعهم، ولما كان علي مستحقاً محروماً بل هو أمير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم، فإن الدين ينالهم الضيم وتلحقهم المذلة بتعصب بعضهم لبعض ويكونون يداً واحدة على الذين استأثروا بالدنيا ونالوا مأربهم، فما بالك إذا كان من هؤلاء المحرومين رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل محتو على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم قد جرعتة الدنيا علاقمتها، وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفى بيته وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ولا دائر فى خلدته... ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه أهلاً له، ثم كان فى آخر الأمر أن قتل ذلك الرجل الجليل وقتل بنوه من بعده... وسبى حريمه ونساؤه وتتبع أهله وبنوه بالقتل والطرء والتشريد والسجون

مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وارتفاع الخلق بهم، فهل يمكن أن لا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص وهل تستطيع القلوب أن لا تحبه وتهواه وتذوب فيه وتتغنى في عشقه انتصارا له وحمية من أجله وامتعاضا مما ناله^(١).

إن تحليل النقيب الذى نقله ابن أبى الحديد يشرح موقع الإمام علي وبنيه من التاريخ ولماذا تحرك به التاريخ وفق مفهوم بشرى إذا لم ييسر لقارئ التاريخ أن يعيش في النصوص الدينية التي ترفع تميزه أو يعطى قارؤها فهمها لها، فإذا لم يكن ذلك متيسرا فتلك مآسيه على وجه التاريخ أحصاها الأصفهاني في كتابه (مقاتل الطالبين) نتيين منها عظمة التضحية في سبيل المبدأ وتحرير الجماعة من ريق الشهوات. حكى البلاذري على لسان الإمام علي: ما لقي أحد من هذه الأمة ما لقيت، توفي رسول الله ﷺ وأنا أحق الناس بهذا الأمر فبايع الناس أبا بكر، فاستخلف عمر فبايعت ورحبت وسلمت، ثم بايع الناس عثمان فبايعت وسلمت ورضيت، وهم الآن يميلون بيني وبين معاوية.

من هنا كان تحليل النقيب أبى جعفر له مكانة في فلسفة التاريخ. رحم الله الإمام وبنيه وليس بعد قول الله تعالى تقدير:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۖ﴾ (٧) إلى قوله: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۖ﴾ [الإنسان]، أنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين - عليهم السلام - بمناسبة قصة صيامهم ثلاثة أيام وتصدقهم خلال تلك الأيام الثلاثة على المسكين واليتيم والأسير^(٢).

بعد ما سبق تمخض التحكيم عن تغير اجتماعى وسياسى ودينى وكان من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين: أهل السنة، والشيعة، وكان لأهل البيت فريق يعترف سرا بحقوقهم، حتى في عهد الخلفاء الثلاثة الأولين، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام.

وبعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من هم من غير أبناء علي، وكانت هذه المعارضة موجهة أول الأمر إلى الأمويين، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافر فيهم

(١) ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة مجلد ٢ ج ١٠ ص ٥٧٦ - ٥٧٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٧٠: تفسير القرطبي ١٩ / ١٢٣٠ أسباب النزول للواحدي / ٢٥١، روح المعاني

للآلوسى ٢٩ / ١٥٧، أسد الغابة ٥ / ٥٣٠ - ٥٣١، تفسير النسفى ٤ / ٣١٨، شرح نهج البلاغة

لابن أبى الحديد ٢١ / ١٣ و ٢٧٦، الغدير للأمينى ٣ / ١٠٧ - ١١١.

الشروط التى يوجهها الشيعة فى الإمام، وهم حين يبينون وجوه النقص فى هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبى - عليه الصلاة والسلام - ممثلة فى ذرية علي وفاطمة، وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين بأنهم مختصبون ظالمون، فكذا عارضوا النظام السياسى فى الدولة الإسلامية سرا وجهرا فى كل العصور^(١).

ويذهب محمد باقر الصدر فى كتابه: بحث حول الولاية^(٢) إلى أن الإمام عليا هو الأحق بالخلافة نصا. ويرى: أن الشواهد على ذلك من حياة النبى ﷺ والإمام علي عليه السلام أن النبى ﷺ كان يعد الإمام إعدادا رساليا خاصا، كثيرة جدا، فقد كان النبى ﷺ يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها، ويؤده بالعطاء الفكرى والتشقيف، إذا استفاد الإمام أسئلته. ويختلى به الساعات الطوال فى الليل والنهار، ويفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم فى حياته.

— روى الحاكم فى المستدرک بسنده عن أبى إسحاق، سألت القاسم بن العباس. كيف ورث على رسول الله؟ قال: لأنه كان أولنا به لحوقا وأشدنا به لزوقا.

وفى حلية الأولياء، عن ابن عباس أنه كان يقول: كنا نتحدث أن النبى ﷺ عهد إلى علي سبعين عهدا لم يعهد إلى غيره.

وإذا كانت الشواهد كثيرة على أن النبى ﷺ يعد الإمام إعدادا خاصا لمواصلة قيادة الدعوة من بعده، فالشواهد على إعلان الرسول القائد على تخطيطه هذا وإسناد رعاة الدعوة الفكرية والسياسية رسميا إلى الإمام علي - عليه السلام - لا تقل عنها كثرة، كما نلاحظ ذلك فى «حديث الدار» و«حديث الثقلين» و«حديث المنزل» و«حديث الغدير» وعشرات النصوص.

وقد أدت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها فى صورة تغلب عليها الصبغة الدينية، على حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية، فإنهم يقولون: إن الرئيس الشرعى الوحيد من الناحية الروحية والزمينية هو الإمام المعصوم الذى يعين تعيينا، ويكون من أبناء النبى ﷺ^(٣).

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٣٤٠ ج ١ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

(٢) بحث حول الولاية ص ٦٤ محمد باقر الصدر.

(٣) وفى صفحة ٢٣٠ تكلم جولدسيهر عن الفرق الأساسى بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة.

وأوجب أهل السنة تنصيب الخليفة تنفيذاً لأحكام الشريعة وفروضها، وحماية لحدود بلاد الإسلام والدفاع عنها، والإشراف على تعبئة الجيوش، وأخذ ما فرض على المسلمين في أموالهم، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل، وغير ذلك من المهام، وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالاتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياساتهم، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين.

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم، بفضل ما وهبه الله من الصفات، ويحكم وراثته للنبي ﷺ، وهو يحكم ويعلم متلقياً ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة، فكانه يتلقى عن الله رسالة مستمرة، وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان. ويزعم الشيعة أن وراثته الإمامة تنقلت من آدم، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبي ﷺ وجد علي - رضي الله عنه - ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ﷺ، والآخر إلى أخيه (أبو طالب) والد علي، ثم سار النور من علي إلى ذريته. وهذا النور الذي في روح الإمام يجعله إمام عصره، ويجعل له قوى روحانية تتجاوز حدود القدرة الإنسانية، وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس؛ لأنه مبرأ من بواعث الشر متحل بالفضائل الإلهية وهذه صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة، أما الغلاة منهم فهم يرفعون الإمام إلى الأفق الإلهي^(١).

٥ - أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة:

يذهب بعض الناس إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن، وأن الشيعة، فليس من بينهم من ينكر السنة، بل هم يقرون بالسنة التي حملها أهل البيت، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون في أخذ السنة على الصحابة الغاصيين. وثم أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة، والتي تؤيد الشيعة المتشددين الذين يعتمدون على أحاديث البخاري ومسلم، ويقرؤونها أيام الجمع، ونستطيع معرفة شأن السنة عندهم من أن كثيراً من قول علي في القرآن والسنة يؤخذ مما رواه الشيعة عن علي، فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء، وما يدل أيضاً

(١) في ص ٢٥٤ وما بعدها ينبه جولدسيهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة.

على اعتداد الشيعة بالسنة النبوية أنهم كتبوا الكثير في السنة وما يتعلق بها، وأنهم وضعوا أحاديث كثيرة وأذاعوها، فالشيعة لا يعارضون أهل السنة بصفاتهم منكرين للسنة، بل بصفة أنهم أولياء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتارون على العامة الغارقين في بحار العمى والضلال.

وكان الحمدانيون أول أسرة تدخلت في أمور بغداد، وكان هذا التدخل مشيراً للعجب؛ ذلك أن ابن حمدان على شدة تشييعه وميله إلى علي وأهل بيته سعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوه في النصب^(١). ولكن الأحوال تغيرت لما استولى الديلم على بغداد، وكانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً على يد أحد العلويين، فلم يكذب معز الدولة يدخل بغداد حتى قبض على الخليفة المستكفي وأنزله عن عرشه على صورة مهينة. وكان من الأسباب الظاهرة في ذلك أن المستكفي كان قد قبض على الشافعي رئيس الشيعة^(٢). وفي سنة ٣٤٩هـ - ٩٦٠م قامت فتنة بين العامة ببغداد، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن، ولم تقم الجمعة إلا في مسجد برائنا الشيعي^(٣). وفي عام ٣٥١هـ كتب معز الدولة على المساجد لعن الصحابة، فمحاها الناس أثناء الليل^(٤). وفي العام التالي أمر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشوراء، وهو أكبر عيد للشيعة، وأن يظهروا الحزن. فأغلقت الأسواق وعطل البيع والشراء، ولم يذبح القصابون، ولا طبخ الهراسون، ولا ترك الناس أن يستقوا الماء، ونصبت القباب في الأسواق، وعلقت عليها المسوح، وخرجت النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن يدرن في البلد وينحن ويلطمن وجوههن على الحسين - رضى الله عنه -. وفي هذا اليوم كان يزار قبر الحسين بكريلاء^(٥). ويصف البيروني ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح في يوم عاشوراء، وما كان يظهره الشيعة من حزن، ثم يقول:

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣.

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٢٣.

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٨٩، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥١، وابن الأثير ج ٨ ص ٣٩٧.

(٤) انظر ما تقدم.

(٥) المنتظم ص ٩٣ ب، وكتاب الوزراء ص ٣٧١، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٣، ٤٠٧، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٣٦٤. ولا نجد قط ذكراً لروايات ألفت لتمجيد الشهداء كالتى نراها اليوم عادة، على أنه من العبارات التى تشيع أن يكون أصلها من قصة تمثيلية قول السيدة سكينة بنت الحسين - رضى الله عنها: «كنت أحسن من السماء وأعذب من الماء» (رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ١٢٩٧ ص ٣٧)، (وليس في هذا دليل مقبول. المترجم).

«ولذلك كره فيه تجديد الأواني والثياب»^(١). وفي اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خم)، فاحتفل به الشيعة ببغداد، وزعموا أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول ﷺ إلى علي بن أبى طالب واستخلفه^(٢)، وفيه أظهروا السرور بأمر معز الدولة، على خلاف صنيعهم فى يوم عاشوراء، فنصبوا القباب وعلقوا الثياب، وأظهروا الزينة. وفى ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبابد والبوقات، وفى صبيحته نحرروا جملا ويكروا إلى مقابر قريش^(٣). أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور، «فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا يوم عاشوراء وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم فى العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم». وقد حاول أهل الحديث أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روى عن النبي ﷺ من الحض على فعل الخير فيه^(٤). وكانوا يزعمون أن «الاكتحال فيه مانع من الرمد فى تلك السنة»^(٥)؛ ولذلك يقول القمى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م) مشددا فيمن يفرح بيوم عاشوراء: «من ترك السعى فى يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه ويكائه يجعل الله - عز وجل - يوم القيامة فرحه وسروره... ومن سعى يوم عاشوراء يوم بركة وادخر بمنزله شيئا لم يبارك له فيما ادخر، وحشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار»^(٦). ولما زالت الدولة الفاطمية وجاء ملوك بنو أيوب اتخذوا يوم عاشوراء، بعد أن كان يوم حزن، يوم سرور، جريا على عادة أهل الشام^(٧). ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء، فجعلوا بعده ثمانية أيام يوما نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبره فى مسكن، كما يزار قبر الحسين بكربلاء^(٨). وكذلك عملوا بإزاء

(١) الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوروبا ص ٣٢٩.

(٢) المنتظم ص ٩٣ ب، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧، وكتاب الوزراء ص ٣٧١، وقد أخطأ أبو الحسن (ج ٢ ص ٤٢٧) بجعله ذلك عام ٣٦٠ هـ.

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٧١، والمنتظم ص ٩٣، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠٧.

(٤) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٢٩.

(٥) عجائب المخلوقات للقزوينى، طبعة عام ١٨٤٩ ص ٦٨.

(٦) كتاب العلل للقمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ ب.

(٧) الخطط للمقرئى ج ١ ص ٤٩٠.

(٨) كتاب الوزراء ص ٣٧١، وكذلك عرف ياقوت هذه الأماكن.

يوم الغدير بعده بشمانية أيام يوما ادعوا أنه اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ وأبو بكر - رضى الله عنه - فى الغار، وعملوا فى هذا اليوم ما يعملها الشيعة فى يوم الغدير. وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك فى يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة عام ٣٨٩هـ - ٩٩٩م^(١). وفى هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين الفريقين، حتى كان الحكام الأقوياء يمنعون من عملها أحيانا^(٢). وقد حدث مرة فى فتنة بين أهل السنة والشيعة بأن الشيعة صاحوا: حاكم يا منصور، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة، وقد بلغ الخليفة ذلك، فأحفظه، وأنفذ الحراس الذين على بابه لمعاونة أهل السنة، فهزموا الشيعة، ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة، فسألوه العفو عما فعله السفهاء فعفا عنهم^(٣). وفى عام ٤٢٠هـ - ١٠٢٩م كان خطيب مسجد برائا، وكان شيعيا، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويغلو فى علي، فأمر الخليفة بالقبض عليه، وعين محله خطيبا آخر، فلما صعد المنبر دقه بعقب سيفه على ما جرت به العادة، والشيعة ينكرون هذا، وقصر فى الخطبة عما كان يفعله من تقدمه فى ذكر علي بن أبى طالب، وقال: اللهم اغفر للمسلمين، ومن زعم أن عليا مولاه، فرماه العامة حيثئذ بالآجر، فوافاه كالمطر، وخلع كتفه، وكسر أنفه، وأدمى وجهه، وعرف الخليفة ذلك فغاضه وأحفظه، وكتب فى الشيعة كتابا شديدا للوزير، وفى آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ، وتوجهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخليفة، فأحالوا ما جرى على سفهاء الأحداث، وسألوا الصفح عن هذه الجناية، وطلبوا إقامة خطيب عملت له نسخة يعتمدها فيما يخطب، وتجنب ما يحفظ الشيعة^(٤). وما كان له شأن فى ثورات الشيعة المفاجئة فى القرن الرابع الهجرى أن مشهديهما الكبيرين المقدسين عندهم كانا بالعراق. على أن موضع قبر علي كان موضع شك، وقد بين ذلك المسعودى.

٦ - التشيع السياسى والروحى:

أما التشيع السياسى أو النصرة والاتباع لعلي دون الالتزام بالنص على إمامته الدينية فقد أصبح فى خلافته متشرا بصورة واسعة، ثم أخذ يتقلص فى آخر عهده وفى

(١) المنتظم ص ١٤٣ أ - ١٤٤ ب، وكتاب الوزراء ص ٣٧١.

(٢) فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام ٣٨٢ هـ (المنتظم ص ١٣٤ أ) وعميد الجيوش عامى ٣٩٢ هـ - ٤٠٦ هـ.

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٨٢ - ٤٨٣، والمنتظم ص ١٤٧ ب، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٤.

(٤) المنتظم ص ١٥٢ ب.

(٤) نفس المصدر ص ١٧٨ أ - ١٧٩ ب.

الفترة التي تلت مقتله، ولكنه ما لبث أن استعاد شيئاً من قوته وبخاصة في العراق لاسيما بعد أن شعر العراقيون بفقد سيادتهم السياسية على يد الأمويين. إن انقسام التشيع إلى سياسى وروحي - وإن كان نظرياً - إلا أننا نرى ضيق الفجوة بين القائلين بالنص والقائلين بالنصرة حياً للإمام علي؛ لأن التشيع السياسى لا يرى فيه بعض الشيعة أنه لا يحتاج إلى نص، أما التشيع الروحي لشخص علي كما يرى الشيعة فهو المقصود وعليه يدور النص. ثم مع انقسام الشيعة إلى إمامية وغالية وروافض وزيدية أصبح التشيع وحدة واحدة وشملهما تفسير النص. وهذا ما جعل الزيدية تحافظ على الفوارق بينها وبينهما ففضل علي حق كما هو حبه مع إجازة ولاية المفضل؛ إذ لا نص على ذلك.

ويرى د. فياض أن ثمة نوعين من التشيع، مرتباً فرقاً زمنياً بينهما، وهما وفق قوله:

١ - كان التشيع الروحي أقدم عهداً من التشيع السياسى، وأنه يقوم على الاعتقاد بإمامة علي المفروضة من الله. وقد تطور الاعتقاد المذكور ثم تبلور فى عقيدة الإمامة المعصومة من الخطأ بعد أن أسند بالحجج الكلامية بقضية القول بالنص على تلك الإمامة من النبي ﷺ وبأمر من الله.

٢ - ظهرت بوادر التشيع السياسى أو الولاء لعلي دون الالتزام بقضية الاعتراف بإمامته الدينية فى سقيفة بنى ساعدة حين أيد حق علي بالخلافة عدد من المسلمين أمثال الزبير والعباس وغيرهما. وبلغ التشيع السياسى أقصى مداه حين بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان. وسبقت مناقشته.

٧ - الإمامية من أولاد فاطمة:

أما الشيعة أسلاف الإمامية فإنهم انتهوا إلى القول بإمامة علي بن الحسين (ت: ٩٤هـ) وعلى هذا هو الوحيد الأحق فى نظر الشيخ المفيد الإمامى الذى ساق الأدلة على بطلان أئمة الشيعة الآخرين المعاصرين لذلك الإمام كما بينا ذلك قبل قليل. قال النوبختي: «وأما الشيعة العلوية الذين قالوا بفرض الإمامية لعلي بن أبى طالب - رضى الله عنه - من الله ومن رسول الله ﷺ فإنهم ثبتوا على إمامته ثم إمامة الحسن من بعده ثم إمامة الحسين بعد الحسن. ثم افترقوا بعد قتل الحسين - رضى الله عنه - فرقاً، فنزلت فرقة إلى القول بإمامة علي بن الحسين. فلم تزل مقيمة على إمامته حتى توفى بالمدينة. . فى أول سنة أربع وتسعين^(١)، أما الفرقة الأخرى فقد قالت بانقطاع الإمامة

(١) فرق الشيعة، ص ٤٧.

بعد الحسين وأنه لا إمامة لأحد بعده. وفرقة قالت: «إن الإمامة صارت بعد مضي الحسين في ولد الحسن والحسين...»^(١).

ويترتب على ذلك أن فرق الشيعة عند وفاة علي بن الحسين (٩٤هـ) تنحصر في الفرق التالية:

أ - الكيسانية.

ب - الجماعة الشيعية القائلة بانقطاع الإمامة بعد موت الحسين.

ج - الفرقة القائلة بإمامة علي بن الحسين.

وبعد وفاة علي بن الحسين ساق جماعة من الشيعة الإمامة إلى ابنه زيد وعرف هؤلاء بالزيدية وهم الذين «ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم. إلا أن يكون كل فاطمي عالماً زاهداً شجاعاً، سخياً خرج بالإمامة أن يكون إماماً واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين»^(٢).

وهناك جماعة أخرى من الشيعة استمرت على سوق الإمامة في أولاد الحسين وبدا احتفظت بسلسلة الأئمة التي تبنتها جماعة الشيعة التي سميت بالإمامية فيما بعد. يقول النوبختي: «وأما الذين أثبتوا الإمامة لعلي بن أبي طالب ثم للحسن ثم للحسين ثم لعلي بن الحسين. ثم نزلوا إلى القول بإمامة أبي جعفر فمحمد بن علي بن الحسين باقر العلم فأقاموا على إمامته إلى أن توفي. ولما كانت وفاة الباقر سنة ١١٤ أو ١١٩هـ ترتب على ذلك أن الشيعة الذين اعترفوا بإمامة الباقر بعد أبيه علي زين العابدين لم يطلق عليهم اسم «الإمامية» ونظراً لاعتراف هؤلاء الشيعة بسلسلة الأئمة التي تبناها الإمامية حين تسموا بهذا الاسم فيما بعد، كما ستبين، صح أن نطلق عليهم أسلاف الإمامية.

يقول الشيخ المفيد:

فأما السمة للمذهب بالإمامة ووصف الفرق من الشيعة بالإمامة فهو علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان، وأوجب النص الجلى والعصمة والكمال لكل إمام، ثم حصر الإمامة في ولد الحسين بن علي - عليهما السلام - وساقها

(١) السابق. ص ٤٨.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل (القاهرة، ١٩٤٨) ص ٣٠٢.

إلى الرضا علي بن موسى - عليهما السلام - لأنه وإن كان في الأصل علما على من دان من الأصول بما ذكرناه دون التخصيص لمن قال في الأعيان بما وصفناه، فإنه قد انتقل عن أصله لاستحقاق فرق من معتقديه ألقابا بأحاديث لهم بأقوال أحدثوها فغلبت عليهم في الاستعمال دون الوصف بالإمامية، وصار هذا الاسم في عرف المتكلمين وغيرهم من الفقهاء والعامّة علما على من ذكرناه.

وأما الزيدية فهم القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن والحسين وزيد بن علي - عليهم السلام - وإمامة كل فاطمي دعى إلى نفسه وهو على ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة وكانت بيعته على تجريد السيف للجهاد^(١).

٨ - الشيعة تحدد نفسها:

يرى بعض المستشرقين أن الشيعة نشأت في الأصل نشأة إيرانية. ولا نميل إلى هذا الرأي؛ لأنه يلغى صراعا حقيقيا حول مبدأ شرعية خلافة الإمام علي. وما يسوقه المستشرقون من شواهد تاريخية لا تخدم رأيهم، مثلا الصراع العربي الفارسي ليس الأصل للتشيع لكن لما ارتبطت الشيعة بالعناصر المضطهدة تخلت عن تربية القومية العربية وكانت حلقة الارتباط هي الإسلام. ولكنه لم يكن ذلك الإسلام، بل نوعا جديدا من الدين اتخذ نقطة ابتدائه من بدعة غريبة غامضة اختلط بها المختار وهي «الكيسانية». والسبئية كانت قد اتخذت اتجاهها أنشأ يسيطر على طبقات واسعة بحيث اضطرت الشيعة بوجه عام إلى اتخاذ موقف أشد حدة بإزاء الفرق الأخرى وإزاء إبراز الخلافات بين الشيعة والسنة. والسبئية يسمون أيضا «الكيسانية» وكان كيسان زعيما للموالى^(٢)، فإن كان في نفس الوقت زعيما للسبئية. فيستنتج من هذا أن السبئية والموالى كانوا شيئا واحدا تقريبا.

واعتمادا على هذا الاستنتاج مضى بعض الناس زاعمين أن التشيع كملذهب ديني إيراني الأصل؛ لأن غالبية موالى الكوفة كانوا إيرانيين.

٩ - الشيعة بين النشأة العربية والفارسية:

دورى يصر على أن الشيعة منشؤها فارسي - وهو من الرعييل القديم الذي كان ينهج نهجه في إثبات النتائج أولا ثم البحث عن الشهود للقضية ثانيا.

(١) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات ص ٤ الشيخ المفيد.

(٢) الطبرى تاريخ الأمم والملوك ص ٦٣٣.

نراه يحتال لإثبات فارسية الشيعة ليصف الفرس بخضوع العبيد وأنهم نقلوا التوقير الوثني إلى علي وذريته والطاعة المطلقة للإمام. وهو دائما في أبحاثه إما أن يحقر العرب للفرس أو يحقر الفرس للعرب. يقول دوزي: «كانت الشيعة في حقيقتها فرقة فارسية، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنس العربى الذى يحب الحرية. وبين الجنس الفارسى الذى اعتاد الخضوع كالعبيد. لقد كان مبدأ انتخاب خليفة للنبي ﷺ أمرا غير معهود ولا مفهوم؛ لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة فى الحكم؛ لهذا اعتقدوا أنه ما دام الرسول ﷺ لم يترك ولدا يرثه، فإن عليا هو الذى كان يجب أن يخلفه وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل علي. ومن هنا فإن جميع الخلفاء - ما عدا عليا - كانوا فى نظرهم مختصين للحكم لا تحب لهم طاعة. وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا فى الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثرات سادتهم. وهم قد اعتادوا أيضا أن يروا فى ملوكهم أحفادا منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا. فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى علي وذريته. فالطاعة المطلقة للإمام» الذى من نسل علي - كانت فى نظرهم الواجب الأعلى، حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب. استطاع بعد ذلك بغير لائمة ضمير أن يفسر سائر الواجبات والتكاليف تفسيرا رمزيا وأن يتجاوزها ويتعدها. لقد كان «الإمام» عندهم هو كل شيء. إنه الله قد صار بشرا. فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات «ذلك الأساس فى مذهبهم» وعلى نحو مشابه يتحدث أ. ملر فى كتابه المذكور سابقا ص ٢٣٧. ويضيف إلى هذا أن الفرس كانوا - تحت تأثير الأفكار الهندية قبل الإسلام بعهد طويل - يميلون إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسد لروح الله التى تنتقل فى أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء.

١٠ - السبئية وكبرى المختار:

يقول فلهاوزن:

أما أن آراء الشيعة تلائم الإيرانيين. فليست تلك الملاءمة دليلا عليه. بل الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك. إذ تقول: إن التشيع الواضح الصريح كان قائما أولا فى الدوائر العربية، ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالى، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر.

وأولئك الذين كانوا يتواثبون حول الكرسى المقدس يذكرون أنهم «السبئية». ولم يكونوا من الموالى، بل من العرب، إذ كانوا من عشائر: نهـد وخارف وثور وشاكر

وشبام^(١). وهؤلاء السبئية كانوا على علاقات سيئة بعشائرتهم نتيجة لمذهبهم الغريب. وبخاصة شبام بالنسبة إلى قبيلة همدان، بينما كانوا على علاقات وثيقة جدا بالمختار. ومن أجله خاضوا النار ووشوا بقبائلهم. ونجد حديثا عن بطانة^(٢) من الشيعة العرب كانت تجتمع في منزلى امرأتين بارزتين. وتذكر أسماء بعض أفراد هذه البطانة ومنهم ابن نوف الهمداني الذي كان يتنافس مولاه وأستاذه (المختار) في الزعامة. لقد كان يصنع وحيا لدى الكرسي المقدس، وكان أحد عمومة الأعشى ممن تأثر لهذا الوحي. وكان أول سادن للكرسي هو موسى بن أبي موسى الأشعري.. ثم تلاه حوشب البرسمي. والبيتة هنا كلها يمنية. ويقال: إن المختار قد أظهر الكرسي على أنه كرسي علي بن أبي طالب. ولكن ثمة روايات أخرى تقول بعكس ذلك، وهذه الروايات الثانية أقرب إلى التصديق. وعلى كل حال فقد كان الكرسي في حوزة اليمنيين. وأصله إنما يبحث عنه لديهم. ولم يكن اختراعا أبدعه الهوى، بل مثله مثل الحجر الأسود كان قطعة وثنية وفي الأصل كرسي الله ثم كرسي علي، لأنهم ألوهوا عليا. وكراسي الله الحالية هذه نجدها كثيرا، وإن لم تكن عادة من الخشب، فالكرسي عربي^(٣).

١١ - حزب علي هو شيعته؛

ونميل إلى أن حزب علي هو في الأصل شيعة علي وكلذا حزب معاوية. والحزب يطلق عليه في العربية أيضا اسم «الشيعة» فكانت شيعة علي في مقابل شيعة معاوية. لكن لما تولى معاوية الملك في دولة الإسلام كلها ولم يعد مجرد رئيس حزب، أصبح استعمال اللفظ «شيعة» مقصورا على أتباع علي، ودخل في هذا الاستعمال أيضا تعارضهم مع الخوارج.

ولم يكن اتخاذهم عليا رعيما بسبب أنه ابن عم الرسول ﷺ وصهره وأبو أحفاده؛ إذ إن حق الأقربين في وراثة الرياسة - وكأنها ملك خاص - لم يكن معترفا به عند العرب، إنما كان حقا مقدسا لدى الفرس. وبالأولى لم يعترف به الإسلام. وإنما اختاروه؛ لأنه بدا لهم أفضل صحابة الرسول ﷺ الأقدمين. ومن هؤلاء كان الخليفة يختار حدا كبيرا مناط استمرار الحكومة عند تبدل الأشخاص الذين في المنصب الأعلى.

(١) الطبري ص ٧٠٤ وما يليها.

(٢) الطبري ج ٢ ص ٦٦٩.

(٣) الخوارج والشيعة فلهارون.

فكان علي إذن عمثلا في الأصل لهذه الطبقة الإسلامية التي نالت الرفعة بما لها من فضل ولحقها التقليدي في الخلافة الذي كان يهدده السلطان الفعلي لعمال الأمويين الذين عينهم عثمان، والأمويون أسرة عريقة النسب ذات تقاليد جاهلية وثنية. ولم يكد علي يتولى الخلافة حتى انقلب عليه العضوان الباقيان من هذه الأرستقراطية الروحية، وكانا حتى ذلك الوقت يؤازرانه ويقدمانه. وحولا الغضب من مقتل عثمان ضده وأخذنا لأنفسهما الحق في العمل.

ولكن الواقع هو أن الكفاح قد قام به جميع الطامعين في الخلافة ولم يكن «الحق» إلا نكأة لإثارة الجماهير وإعطائهم راية يقاتلون حولها. واستطاع علي أن يضم أهل العراق إلى صفه، وقد كانوا أشد سندا للذين ثاروا على عثمان. فانتقل إلى الكوفة ثم كسب البصرة لجانبه بعد ذلك. وتم له هذا بعد كفاح دموي ضد منافسيه الغادرين.

١٢ - سبب تشيع إيران*

* رأى محمد جواد مغنية:

يرى أن سبب التشيع في إيران يرجع إلى عنصر عربي، والتسنن إلى عنصر فارسي صرف. ولكن خصوم الشيعة مؤهوا وضللوا، وعكسوا الآية لا شيء إلا للكيد والتكيل، كما قال الدكتور طه حسين.

وقال الشيخ محمد حسين المظفر في «تاريخ الشيعة ص ٨، مطبعة الزهراء بالنجف:

«كان للإمام ثلاثة حروب: الجمل، وصفين والنهروان. وكان جيشه كله عربا أقحاحا بين عدنانية وقحطانية. أكانت قريش من الفرس أم الأوس والخزرج، أم مذحج، أم همدان، أم طذ، أم كندة، أم تميم، أم مضر، أم أشباهها من القبائل؟ وهل كان زعماء جيشه غير رؤساء هذه القبائل؟ أكان عمار فارسيا، أم هاشم المرقال، أم مالك الأشتر، أم صعصعة بن صوحان، أم أخوه زيد، أم قيس بن سعد، أم ابن عباس، أم محمد بن أبي بكر، أم حجر بن عدى، أم عدى بن حاتم، أمثال هؤلاء من القواد؟».

أما أصحاب الحسن والحسين فكلهم عرب، وجلهم من أصحاب أبيهما أمير المؤمنين (١).

(١) الشيعة في الميزان.

يقول مغنية: وإذا كان الفرس هم سبب التشيع في إيران وغير إيران، فهل جاء غلو بعض أهالي أصفهان في معاوية، ورفعته إلى منصب النبوة والرسالة، هل جاء هذا الغلو في معاوية نتيجة لتشيع الفرس؟ إنه لغريب حقا منطق خصوم الشيعة، كما قال الدكتور طه حسين. قالوا: إن الغلو في علي جاء من الفرس. ثم ينقل عالم من علمائهم مثل المقدسي أن بعض الفرس غالى في معاوية، حتى جعلوه نبيا مرسلًا. ثم كيف ومن أين وصل التشيع إلى جزيرة العرب؟ هل جاء إليها من الفرس، والتاريخ يقول: إن الفرس كانوا على التسنن حين كان سكان الجزيرة العربية على التشيع؟ وهكذا يقع في التناقض من يصفى على التاريخ صفته الذاتية العدائية، ثم يبنى عليه آراءه وأحكامه^(١).

وقال المستشرق جولدتسيهر في كتاب «العقيدة والشرعة» ص ٢٠٤:

«إن من الخطأ القول بأن التشيع في منشئه، ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الأمم الإيرانية في الإسلام، بعد أن اعتنقته، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا الوهم الشائع مبني على سوء فهم الحوادث التاريخية. فالحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحتة^(٢).

ومن دخل من الفرس وتشيع فحالته حال من تشيع من سائر الأمم، كالعرب والترك والروم وغيرهم لا باعث له إلا حب الإسلام، وحب آل الرسول ﷺ، فأسلم وتشيع عن رغبة واعتقاد. وإذا جاز أن يقال: إن الفرس تشيعوا كيلا للإسلام؛ لأنه قهرهم جاز أن يقال: إن غير الفرس تسننوا كيلا للإسلام، وأنه غلب وقهر الجميع لا الفرس وحدهم.

والحقيقة أن بعض الفرس دان بالتشيع للسبب الذي دان به غيرهم بالتشيع. وبعضهم دان بالتسنن للسبب الذي دان به غيرهم للتسنن، سنة الله في خلقه. إن الذين

(١) الشيعة في الميزان ص ٦٧ محمد جواد مغنية.

(٢) إن علماء المسلمين العرب هم الذين أدخلوا التشيع إلى فارس، وأرشدوا الفرس إليه بشهادة الشيخ أبي رهرة، قال في كتاب «الإمام جعفر الصادق ص ٩٤٥»: «أما فارس ونخراسان، وما وراءهما من بلدان الإسلام فقد هاجر إليها كثيرون من علماء الإسلام الذين كانوا يتشيعون فرارا بعقيدتهم من الأمويين أولا، ثم العباسيين ثانيا، وإن التشيع كان منتشرًا في هذه البلاد انتشارًا عظيمًا، قبل سقوط الدولة الأموية بقرار أتباع زيد ومنقلبه إليها». فالفرس — إذن — تشيعوا على أيدي العرب، ولم يخلقوا التشيع من تلقائهم كيلا للإسلام.

نشروا التشيع فى قم وأطرافها الأشعريون، وهم عرب صميمون هاجروا إليها من الكوفة فى عصر الحجاج. وغلبوا عليها، واستوطنوها. وانتشر التشيع فى خراسان بعد الخروج إليها وزاد الانتشار واتسع فى إيران فى عصر الصفوية الذين نصروا التشيع، وهم عرب؛ لأنهم سادة أشراف من نسل الإمام موسى بن جعفر، لا يمكن بحال أن يتعصبوا للأكاسرة، والذين يجوز فى حقهم ذلك هم قدماء الفرس، وهؤلاء جلهم كانوا على مذهب التسنن^(١).

أثبت السيد الأمين أن الذين نشروا التشيع وناصروه فى إبدالهم بين عربى أصيل، كالإمام الرضا والأشعريين^(١) أو من أصل عربى كالصفوية، وأن الذين رعموا التسنن وناصروه هم فرس أقحاح. كالبخارى والنسائي والرازي وغيرهم.

١٣ - ظهور دواكير مصطلح الشيعة:

أصل مصطلح الشيعة فى كتب التاريخ الإسلامى القديم منذ اجتماع سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة النبي ﷺ لاختيار الخليفة بمعناه اللغوى، بمعنى النصير والمعاون. إلخ فأطلق بهذا المعنى على شيعة عثمان وعلي ومعاوية دون معناه الاصطلاحى المذهب حكى البلاذرى بعضاً من ذلك منه:

١ - أتى مسلم بن عقيل - وهو فى الكوفة - هانىء بن عروة بن ثمران المرادى بيته من بابه للجيرة. فقال هانىء: والله لقد سألتنى شططا. ولولا دخولك دارى وثقتك بى لأحببت أن تنصرف عني، ولكنه قد وجب على ذمامك، فأدخله داره، وكانت الشيعة تختلف إليه فيها.

٢ - ودس ابن زيادة مولى له يقال له معقل وأمره أن يشهر أنه من شيعة علي ويتجسس عن مسلم ويتعرف موقعه.

٣ - وقد بلغنى أن رجلاً منهم بعث به الحسين بن علي إلى شيعته من أهل الكوفة.

(١) فى سنة ٨٣ هـ خرج ابن الأشعث على الحجاج، ثم هزم جيشه وتفرق فى البلاد، وكان بينهم خمسة إخوة: عبد الله والأحوص وعبد الرحمن وإسحاق ونعيم أبناء سعد بن مالك بن عامر الأشعري، فاجتمع الخمسة وتغلبوا على بعض القرى القريبة من قم، واجتمع إليهم بنو عمهم، وكان المتقدم من هؤلاء عبد الله وكان له ولد يتشيع، فانتقل من تلك القرى إلى قم ونقل التشيع إلى أهلها «الكنى واللقاب» ترجمة القمى.

٤ - وكان شريك شيعيا شهد الجمل وصفين مع علي .

٥ - سار الحسن بالناس من الكوفة عند أم سلمة . فقالت أم سلمة: ما تذكرون شيعة علي وهم الفائزون يوم القيامة .

ثم بدأت الشيعة فى النزوع إلى التميز المذهبى السياسى بعد التحكيم حين انشق جيش الإمام إلى فرقة الخوارج وخرجت عن شرعية خلافته وإلى شيعة تناصر عليا واستقلت نابتة الشام بمعاوية . فلم يبق من المناضلين ضد القوى المضادة: الخوارج والشام، ولا شيعة علي وهم من قبائل الكوفة العرب . من الكوفة شيعته، وشيعة شيعته البصرة . وكان شريك شيعيا شهد الجمل وصفين، فالشيعى الكامل من شهد الجمل وصفين، فالشيعة عربية المنبت والهدف نبتت فى الكوفة حاضرة خلافة الإمام علي لنصرته .

١٤ - وثيقة التحكيم وظهور مصطلح الشيعة السياسى:

تضمنت وثيقة التحكيم بعض المعانى السياسية لمصطلح «شيعة» ذكر فيها «علي ومن معه شيعته» و«معاوية ومن معه من أهل الشام» وداخل بنود الوثيقة «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبى طالب» ومعاوية بن أبى سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين .

وفى بعض النود . . . فإن مات أحد الحكمين، فإن أمير الشيعة يختار مكانه من أهل العدل . . . ثم وقع خلاف حول «الأمير» .

تلك صيغة كتاب التحكيم، وإن كان الجاحظ تشكك فى صحتها لضعف نصها لكنها تقوى من جهة أخرى وأسانيدها مشهورة، فإن تشكك فيها فإن الطبرى والبلاذرى واليعقوبى ومزاحم . . . قد ذكروها بأسانيدها منها: عن الزهرى، ومحمد بن إسحاق، وأبو مخنف . . . فالوثيقة وردت بطرق متعددة الروايات التاريخية ترجح صحتها وتقف دون نقد الجاحظ الذى اعتمد على النقد البلاغى .

حددت الوثيقة معنى الشيعة السياسى، هم المناصرون لحق علي فى الخلافة بعد بيعته فى المدينة التى أبرم فيها بيعة أبى بكر وعمر، وعثمان، وهم الذين وقفوا معه فى الجمل وصفين والنهروان ضد الخوارج الذين كانوا من شيعة علي ثم خرجوا عليه بسبب التحكيم . وإن صح وصف الإمام علي بأنه «أمير الشيعة» رغم أن فيه انتقاصا لحق الإمام

على وهو انتقاص يقلل من شأن الوثيقة وكاتبها ولا يقلل من شأن الإمام على فهو أمير المؤمنين بلا منازع، والشيعية دائرة من المؤمنين.. فإن وصفه بأمر الشيعة يعتبر أول وصف سياسي ميز جماعة المناصرين للإمام على، استعمله الخصوم والمناصرون معا استعمالا سياسيا رسميا.. وبذلك دخل معاجم الاصطلاحات السياسية وصار علما تميز به المناصرون لحق آل البيت في الخلافة، وورد في كتاب الصلح الذي تم بين معاوية والحسن جاء فيه: ويث معاوية، عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح، فدعوا إليه وزهداه في الأمر، وأعطياه ما شرط له معاوية وألا يتبع أحد بما مضى، ولا يتأل أحد من شيعة على بمكروه ولا يذكر على إلا بخير... وأشياء اشترطها الحسن^(١).

في حوار جرى بين معاوية والحسين «وقال للحسين بن علي: يا أبا عبد الله، أعلمت أنا قتلنا شيعة إليك، فحنطناهم، وكفناهم وصلينا عليهم، ودفناهم؟ فقال الحسين: لا ورب الكعبة، لكننا والله إن قتلنا شيعتك ما كفناهم ولا حنطناهم، ولا صلينا عليهم، ولا دفناهم»^(٢).

ومن هذه الاستعمالات:

«ما ورد عن زياد عن أبيه أنه - كان أحضر قوما بلغه أنهم شيعة لعلي، ليدعوهم إلى لعن علي والبراءة منه، وأن يضرب أعناقهم، وكانوا سبعين رجلا»^(٣).

ومن الاستعمالات التاريخية لهذا المصطلح ما ورد في كتاب أهل العراق سنة (٥٠هـ) إلى الإمام الحسين بن علي قال يعقوبى:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن علي من شيعته المؤمنين والمسلمين، أما بعد فحيهاد، فلن الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام»^(٤).

وتحدث ابن الأثير عن تلك الأحداث فقال:

«ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة

(١) مقاتل الطالبين. أبو الفرج الاصفهاني ص ٧٥ السيد صقر.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٣١.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٣٥.

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٢.

أرجفوا يزيد، واجتمعت الشيعة في منزل سليمان بن صرد الخزاعي فذكروا مسير الحسين إلى مكة وكتبوا إليه عن نفر، منهم: سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وغيرهم^(١).

وفي كتاب عبد الله بن مسلم الذي كتبه إلى يزيد بن معاوية، وهو من أنصار بني أمية، نقرأ في هذا الكتاب استعمال مصطلح (شيعة)، وهو يطلقه على ذلك الكيان والتكتل الذي بايع الحسين، جاء في الكتاب:

«أما بعد... فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة، وبايعته الشيعة للحسين بن علي ابن أبي طالب فإن يك لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويا...»^(٢).

وهذا معاوية بن أبي سفيان يستعمل كلمة (شيعة) ويصف أتباع عثمان بأنهم شيعة، عندما أوصى المغيرة بن شعبة يوم ولاء الكوفة سنة (٤١هـ)، جاء في تلك الوصية:

«... ولست تاركاً إساءك بخصلة: لا تتحام عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وإبطاء شيعة عثمان (رضوان الله عليه) والإدناء لهم، والاستماع منهم»^(٣).

وهذا يزيد بن معاوية عندما كتب إلى عبيد الله بن زياد، وعينه واليا على الكوفة لمجده يستعمل كلمة (شيعة) معبرا بها عن أتباعه وشيعته (شيعة بني أمية)، مما يؤكد استعمال هذا المصطلح في تلك الفترة بمعنى التكتل السياسي والأنصار العقائدين، جاء في هذا الكتاب:

«أما بعد فإنه كتب إلى شعيتي من أهل الكوفة، يخبرونني أن ابن عقيل فيها يجمع الجموع...».

من طلائع شيعة علي (عليه السلام) الذين كانوا من أفضل الصحابة والتابعين، نذكر منهم حجر بن عدي وستة معه من أصحابه، عمرو بن الحمق الخزاعي وعبد الله بن يحيى الحضرمي ورشيد الهجري، وجويرية بن مهر العبدى وأوفر بن حصين، وكثير غيرهم.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢: ٥٣٣.

(٢) الشيخ المفيد: الإرشاد: ص ٢٠٥.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ١٨٨ حوادث سنة ٥١ هـ. التشيع نشأته معالمة ص ٣٧.

وعندما بدأ الحزب الأموي يسلط الإهاب على شيعة آل البيت في عهد الحسن والحسين كان الاحتجاج يصدر من السبطين، ولكن دون جدوى... فلما استشهد الحسن بن علي (عليهما السلام) مسموما على يد معاوية بن أبي سفيان، تجمع الشيعة حول الإمام الحسين، وطالبوه بالثورة على معاوية، إلا أنه رفض ذلك، وطلب منهم الالتزام بعهد الصلح حتى موت معاوية، غير أن معاوية خالف ميثاق الصلح، وعقد البيعة لابنه يزيد وحول الحكم الإسلامي إلى حكم ملكي وراثي في الحزب الأموي، فرفض الحسين ووجوه الصحابة والتابعين بيعة يزيد.

وبدأت المواجهة المسلحة، وأعلن الحسين بن علي (عليهما السلام) الثورة على حكومة يزيد بعد موت معاوية، وقاد الكفاح كإمام للمسلمين ومستول عن حفظ الأمة والرسالة.

ونشاهد مصطلح الشيعة يتكرر في هذه الحقبة يبرر التشيع كتكتل سياسي وخط فكري معارض من حول الإمام الحسين بن علي، كما كان يتحرك من حول أبيه علي وأخيه الحسن (عليهم السلام)، ويجسد هذا الوجود السياسي الكتاب الذي وجهه أهل العراق إلى الإمام الحسين بن علي، فقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن علي أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، فإن الناس يتظرونك، لا رأى لهم غيرك، فاعجل يا ابن رسول الله ﷺ، فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار، وأعشبت الأرض، وأورقت الأشجار، فاقدم علينا إذا شئت فإنما تقدم على جند مجندة لك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك»^(١).

فتوجه الحسين من المدينة المنورة إلى العراق، ووقعت المواجهة بينه وبين الجيش الأموي، واستشهد الإمام الحسين وثمانية وسبعون من أصحابه وأهل بيته، وحلت الفاجعة بآل البيت النبوي، ونشبت الفتن أنيابها وانطوت مرحلة قيادة المواجهة المسلحة من جانب أئمة أهل البيت بعد علي والحسن والحسين.

وباستقراء وقائع الكفاح السياسي والفكري الذي استمر طيلة حياة الإمام علي، وولديه السبطين، الحسن والحسين (عليهما السلام)، ومن تابعهم وجاهد معهم، نلاحظ أن دعوتهم تركزت حول المطالبة بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والعمل

(١) السيد ابن طاووس: مقتل الإمام الحسين: ص ١٥ - ١٦.

بهما، لإيضاح هوية التشيع لأهل البيت (عليهم السلام)، وجوهر حركتهم الفكرية، ويتجسد ذلك واضحا في المواقف والتصريحات التي صدرت عن الأئمة وآبائهم. من ذلك ما ورد في كتاب الصلح الذي ثبت فيه الحسن بن علي (عليهما السلام) واشترط على معاوية: «أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه»، ويظهر ذلك واضحا في الرسالة التي كتبها الإمام الحسين (عليه السلام) لأهل العراق: «... وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمرى أهديكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»^(١).

وهكذا يتضح لدينا ظهور شيعتين متواجهتين شيعة آل البيت بقيادة علي والحسن والحسين، وشيعة بنى أمية خلال حكومة معاوية وابنه يزيد وما تلاها من فترة الحكم الأموي.

وجاء في نص اليعقوبي: «وخاف أهل الشام عبد الملك، فأقبل مسرعا إلى دمشق خوفا من وثوب عمرو بن سعيد، واجتمع الناس عليه، فقال لهم: إني أخاف أن يكون في أنفسكم مني شيء، فقام جماعة من شيعة مروان، فقالوا: والله لتقومن إلى المنبر، أو لنضربن عنقك، فصعد المنبر وبايعوه»^(٢).

وهكذا يتضح لنا أن معنى التشيع هو متابعة أهل البيت (علي وبنيه) وأن بلورته الأولى قد ولت على عهد رسول الله ﷺ، ثم ظهر في المدينة المنورة في صفوف الصحابة الأوائل حول علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ كتكتل يدعو إلى أحقية علي بالخلافة بعد أن كان حبا وولاء لشخصه في عهد رسول الله ﷺ ثم امتد مذهبا عقديا وفقهيا وسياسيا نتيجة لما يحمل من فهم ووعي متميز للإسلام استمدته من فهم ووعي الإمام علي وبنيه (عليهم السلام) فتبلور هذا المنهج العقدي والفقهى، على يد الإمامين محمد الباقر وولده جعفر الصادق (عليهما السلام) المعاصرين لأبي حنيفة ومالك بن أنس وغيرهما من أصحاب المذاهب الفقهية.

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٨ التشيع نشأته معاله ص ٣٨ هاشم الموسوي.

(٢) انظر حول ذلك البلاذري أنساب ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ (أبو مخنف) اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ١٨٢: الإمامة، ج ١ ص ٦٠ (ذكروا)، ج ١ ص ٦١ (ذكروا) الطبري، تاريخ ج ٤ ص ٥٢ (الزهرى) ج ٤ ص ٤٧٨ (اللدائى) ج ٤ ص ٤٨١ (سيف) ج ٤ ص ٥١٤ (سيف، ج ٢ ص ٥١٥ (سيف، ج ٤ ص ٥٢١ (أبو مخنف) ج ٤ ص ٥٢٨ (سيف)

وينبغي أن نشير هنا إلى أن المذهب هو عبارة عن طريقة ومنهج لفهم الإسلام، والكشف عن محتواه في المجالات العقيدية والتشريعية والسياسية.

وعندما تبلور هذا الكيان الشيعي، واتسع عند اشتداد الصراع بين علي - عليه السلام - ومعاوية انضم إلى صفوف علي البديون والمهاجرون والأنصار، وأصحاب بيعة الرضوان، وقاتلوا معه معاوية بن أبي سفيان في معركة صفين. ذكر اليعقوبي ذلك بقوله: «وكان مع علي يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلا، ومن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والأنصار أربعمائة رجل، ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد...».

الفصل الرابع

القبائل المنتصرة للإمام علي

لم تكن غالبية شيعة الإمام علي من عرب - مكة والمدينة وحسب، إنما كانوا من خارجها أشتاتا وأخلاطا من قبائل عرب البوادي قال فيهم القرآن: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا... (٩٧)﴾ [التوبة] وكان أكثرهم من الذين خرجوا على أبي بكر معرضين عن دفع الزكاة.

يقول آدم متز: ولقد نالنا العجب حين رأينا خلافا وقع بين المستشرقين ومن يذهب مذهبهم حول نشأة أصل الشيعة وكان الأمر غير واضح. بينما الأمر من الواضح الواضح الذي لا يحتاج البحث فيه إلى دليل لكن درج المستشرقون على تكوين أحكام مسبقة ثم يبحثون عن شهود تقف بجانبها، من ذلك قضية أصل نشأة الشيعة. لذلك رأينا قدم تطور نزوع القوى المضادة وكيف كانت عربية صرفة.

فمن هنا ذهب فلهاوزن وآدم متز ومن دار في مدرستهم من المستشرقين إلى أن الشيعة عربية الأصل.

يقول آدم متز: ولقد أبانت لنا مباحث فلهاوزن بصورة أدنى إلى الصواب أن مذهب الشيعة ليس - كما كان يعتقد البعض - رد فعل من جانب الروح الإيرانية يخالف الإسلام^(١). وما يؤيد أبحاث فلهاوزن التوزيع الجغرافي للشيعة في القرن الرابع، وقد

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم متز، ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة.

ألمح الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق الموطن الأول للتشيع. وكانت الكوفة وبها قبر علي - رضى الله عنه - أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد.

ويقول آدم متز: ومن الآراء الخاطئة القول بأن منشأ التشيع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها في الإسلام، وهذا ناشئ عن خطأ تاريخي، وقد رفضه فلهاوزن في بحث له هو: Wellhausen. Die Rellgios- Politischen Oppositionsparteien im Aiten Islam؛ وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية خالصة، ولم تنتشر بين غير الساميين إلا بعد ظهور المختار. هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظرة دينية، ومن القول بالمهدى ونحوه يمكن أن نرده إلى الأثر اليهودي والمسيحي، بل إن ما ذهب إليه الشيعة الغالية من تأليه علي كان أول من أتى به عبد الله ابن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية، وكذلك التجسيم عند الشيعة، يرجع بعضه إلى أصل عربي.

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل النظر العقلي بين العرب، وكذلك الفرس، وقد رحب الفرس بمعارضة الشيعة لأهل السنة وأخذوا بمذهب الشيعة، ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك، ولكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبي، بل هي عربية في صميمها.

١ - مع النشأة النصية:

يلذهب الشيعة وهم يستعرضون آراء الشيعة إلى القول بالنص على خلافة الإمام علي بالتعيين وأوردنا رأيهم كما عرضه العالم المحقق محمد جواد مغنية في كتابه: (التشيع). وهو رأى يمثل عقيدة التشيع في الخلافة وحق الإمام علي فيها فهو لديهم أصل من أصول الدين. من هنا تكتنف المناقشة عدة صعوبات منها:

* قيام بنائه على أدلة نصية.

* دخوله في الكيان العقدي في أصول الدين.

* يلزم القول بالوصية: القول بعصمة الإمام.

فالقول بالتعيين - الإمام - وإحاطته بسياج مقدس يدخله في باب يصعب ولوجه بالعقل الجدلى فهو غير قائم على قواعد من العقل، وإنما يصح النظر إليه من زاوية واحدة وهي زاوية النص وتأويله.

نرى أن النصوص التي ساقوها من القرآن الكريم شاهدة على إمامة علي بالتعيين تكلفوا تأويلها حين حملوها معنى خاصا وكأنها نزلت للقول بتعيين علي فبانت عن عسر المخاض.

وأما الأحاديث التي ساقوها من الممكن قبولها لو سيقت في مقام ذكر فضائل الأعمال، لكنهم أوردوها تأسيسا لعقيدة أصولية فلها شروطها الخاصة. وإليك ما ذكره صاحب كتاب (التشيع).

رأى هاشم الموسوى:

لقد تجنى كثير من الباحثين على نشأة التشيع وبدء ولادته، حتى قاد البعض هذا التجنى إلى اتهام الشيعة بأنهم فرقة أسست بأفكار عبد الله بن سبأ اليهودى الأصل والمحتوى، بينما ذهب بعض الباحثين إلى أن التشيع نشأ في خلافة الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام -، وذهب فريق آخر إلى أن التشيع ولد بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم انعقاد السقيفة حيث اجتمع عدد بارز من الصحابة في بيت علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، تؤيدهم فاطمة بنت محمد، والعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فكان هذا الاجتماع أول تشيع ظهر حول علي وأهل بيته.

ويذهب فريق آخر إلى أن التشيع نشأ حول علي في عهد رسول الله ﷺ، وأن الرسول ﷺ هو الذى أطلق هذا الاسم على مؤيدى علي وأتباعه.

نذكر من تلك الآراء ما نقله السيد محسن الأمين عن أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي في كتابه الفرق والمقالات: (الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب، المسمون بشيعة على في زمان النبي ﷺ وما بعده بانقطاعهم إليه القول بإمامته)^(١).

أما أبو حاتم السجستاني فيقول: «إن لفظ الشيعة كان على عهد رسول الله ﷺ، لقب لأربعة من الصحابة: سلمان وأبي ذر والمقداد وعمار»^(٢).

(١) السيد محسن الأمين: الشيعة بين الحقائق والأوهام: ص ٤١.

(٢) التشيع نشأته معале - هاشم الموسوى.

٢ - غدیر خم والوصية:

أما بيعة (غدیر خم) فقد ذكرها یعقوبی، و بین أن النبی ﷺ أوصى فيها لعلی بالإمامة^(١)، وقد تناول الشيخ الأمين^(٢) البحث عن عدم اشتها ر بیعة الغدیر. أما القول بالتواتر فقد جاء عن الشيعة أن النبی ﷺ «نص على أمير المؤمنين - علیه السلام - بالإمامة بعده واستخلفه على أمته بألفاظ مخصوصة نقلوها: منها قوله ﷺ سلم على علي بإمرة المؤمنين. وقوله ﷺ مشيراً إليه - رضی الله عنه - وأخذاً بيده: هذا خليفتي فيكم من بعدی فاسمعوا له وأطيعوا»^(٣).

و ألف الشيعة عشرات الكتب في وصية النبی ﷺ لعلی، فالمسعودی ألف كتابه الموسوم بـ (الوصية)^(٤) وذكر فيه كيفية اتصال الحجج والأوصياء من لدن آدم إلى القائم صاحب الزمان. وكتب العلامة الحلبي كتابه الموسوم (إثبات الوصية) وذكر الحلبي طائفة من الكتب في الوصية يزيد عددها على الثلاثين كتاباً من بينها كتاب المسعودی المذكور سابقاً^(٥).

رأى جواد مغنیه:

واتفق المسلمون بكلمة واحدة على أن السلطة الزمنية والدينية كانت للرسول ﷺ تعطى لخليفته، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل يعين الخليفة بالنص من النبی ﷺ، أو يترك الأمر فيه إلى اختيار الأمة؟ قال الشيعة: إن الخليفة يتعين بالنص لا بالانتخاب، أى أن الله سبحانه يأمر النبی ﷺ أن يبلغ المسلمين بأنه قد اختار (فأنا) خليفة بعده، وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا. وقد صدر هذا النص بالفعل من النبی ﷺ على علي بن أبى طالب.

هذا هو التشيع، وهكذا ابتداء ونشأ دون أن يضاف إليه أى شىء آخر... أما المغالاة في علي وصفاته أو تكفير خصومه السياسيين وما إلى ذلك فلا يمت إلى التشيع بسبب... والذي يدلنا على أن لفظ الشيعة علم على من يؤمن بأن علياً هو الخليفة بنص النبی ﷺ ما قاله فقهاء الإمامية في كتب التشريع من أنه إذا أوصى رجال بمالٍ للشيعة، أو

(١) طبع كتاب الأمينى بيروت، تحت عنوان «الغدیر في الكتاب والسنة والآداب».

(٢) تلخيص الشافى م، ج ٢ ص ٥٦ - ٧٠.

(٣) طبع الكتاب المذكور في النجف دون أن يذكر تاريخ الطبع.

(٤) إثبات الوصية في النجف دون أن يذكر تاريخ الطبع.

(٥) تاريخ الإمامية وأسلابهم من الشيعة ص ٣٩.

وقف عقارا عليهم يعطى لمن قدم عليا فى الإمامة على غيره بعد النبى ﷺ ولا يعطى للمغالين (كتاب المسالك للشهيد الثانى ج ١ باب الوقف).

بالتالى، فإن التشيع فى حقيقته وجوهره يتلخص بهذه الكلمة، وهى الإيمان بأن الإمام المنصوص عليه يتولى الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس، وقد أنكرت السنة عليهم ذلك، وبالعوا فى الإنكار، حتى قال بعض المؤلفين: إن هذه العقيدة نزعة فارسية استقاها الشيعة من الفرس^(١).

ونجيب بأنها إسلامية بحتة، لا شائبة فيها لغير الإسلام وقد أخذت من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، كما يظهر من الأدلة الآتية. وإذا أخذ الشيعة هذه النزعة من الفرس. فمن أين أخذ عثمان بن عفان قوله - حين طلب إليه أن يتخلى عن الخلافة - «ما كنت لأخلع قميصا قمصنيه الله». وقال أيضا: «لأن أقدم فتضرب عنقى أحب من أن أنزع سربالا سربلني الله».

٣ - من أدلة الشيعة:

استدل الشيعة على أن الخلافة تكون بالنص لا بالانتخاب بأدلة:

منها: أن الخليفة يحكم باسم الله لا باسم الشعب، فيجب والحال كذلك أن يختار من الله بلسان نبيه ﷺ، لا من الشعب بطريق الانتخاب.

ومنها: قوله تعالى فى الآية ٦٨ من سورة القصص: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ... (٦٨)﴾. فالله سبحانه حصر الاختيار به، ونفاه عن جميع الناس. (دلائل الصدق ج ٣ ص ٢١ طبعة ١٩٥٣).

ومنها: أن الاكثرية غير معصومة عن الخطأ، فمن الجائز أن تختار رجلا لا تتوافر فيه صفات الإمام من العلم والخلق فتعم الفوضى والفساد. وقد نص القرآن الكريم على سقوط رأى الاكثرية فى الآية ١١٦ من سورة الأنعام: ﴿وَأِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ... (١١٦)﴾. وفى الآية ١٠٣ من سورة المائدة: ﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ وفى الآية ٧٠ من سورة المؤمنون: ﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)﴾. وغيرها من الآيات.

(١) الشيعة فى الميزان. ص ١٤، ١٥.

كتاب (فدك للصر) ص ١٣ طبعة ١٩٥٥ . وج ٤ من كتاب (الميزان فى تفسير القرآن) للطباطبائي، ١٣٧٦ هـ، ص ١٠٩).

وجاء فى الحديث النبوى أن محمدا ﷺ يرى يوم القيامة أكثر أمته تدخل النار. وحين يسأل عن السبب يقال له: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى (كتاب الجمع بين الصحيحين . الحديث ٢٦٧)^(١).

وأهل السنة الذين قالوا: إن الخليفة يكون بالانتخاب لا بالنص يعترفون بأن الأكثرية قد تخطئ، وتختار غير الكفاء، لكن بعضهم قال: إذا انحرف الخليفة، عزلناه، وأتينا بالأصلح... وأعلن أبو بكر من على المنبر قائلا: «إن استعنت فأعينونى، وإذا زغت فقومونى». وأجاب الشيعة عن ذلك بأن وظيفة الإمام أن يقوم المعوج من رعيته، فإذا قومته الرعية انعكست الآية، وأصبح محكوما، والرعية هى الحاكمة، قال الشاعر الشيعى:

وقالوا: رسول الله ما اختار بعده إماما ولكننا لأنفسنا اخترناه

أقمنا إماما إن أقام على الهدى أطينا وإن ضل الهداية قومناه

فقلنا إذن أنتم أمام إمامكم بحمد من الرحمن تهتم وما تهنا

ولكننا اخترنا الذى اختار ربنا لنا يوم خططنا ما اعتدنا ولا حلنا

يسخر الشاعر من قولهم: إنهم يطيعون الإمام إن استقام، ويقومونه إن اعوج رد عليهم بأنهم أصبحوا هم الإمام، وهو المأموم.

٤ - أصل التشيع النصى:

من الذى جاء بالتشيع، وحمل الناس عليه؟ يرجع إلى أصل من أصول الإسلام، ومصدر من مصادره كآية من كتاب الله، أو رواية من السنة النبوية؟

وقد أجاب الشيعة عن ذلك إجابة حاسمة وواضحة، وأثبتوا بالأرقام من أقوال أهل السنة، وكتبهم الصحاح أن النبى ﷺ هو الذى بعث عقيدة التشيع، وأوجد لها،

(١) دلائل الصلح ج ٢ ص ٢٥ طبعة ١٩٥٣ . وهذا الشاعر هو سفيان بن مصعب العبد. قال السيد محسن الأمين: كان من أصحاب الإمام جعفر الصادق، وتوفى فى حدود سنة ١٢٠ هـ (أعيان الشيعة، القسم الثانى من الجزء الأول ص ١٦٦ طبعة ١٩٦٠).

ودعا إلى حب علي وولائه، وأول من أطلق لفظ الشيعة على أتباعه ومريديه، ولولاه لم يكن للشيعة عين ولا أثر.

قال العلامة الحلي في كتاب «نهج الحق»: ذكر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، والثعالبي في تفسيره أنه لما نزلت الآية ٢١٤ من سورة الشعراء: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته ثلاثين، فأكلوا وشربوا، ثم قال لهم: من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون خليفتي، ومعنى في الجنة؟ قال علي: أنا. فقال له: أنت.

ونقل الشيخ حسن المظفر في كتاب (دلائل الصديق ج ٢ ص ٢٢٣) عن كتاب كثر العمال ج ٦ ص ٣٩٧ أن النبي ﷺ قال لعشيرته: قد جئتم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على أمرى هذا؟ قال علي: أنا يابى الله أكون وزيرك عنده فأخذ النبي ﷺ برقبته، وقال: إن هذا أخى، ووصيى، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لولدك علي^(١).

وبهذه المناسبة نقل ما ذكره الأديب المصرى عبد الرحمن الشراوى في كتابه «محمد رسول الحرية، قال فى ص ٨٠ الطبعة الأولى» ورأى محمد ﷺ أن يجمع أسرته من بنى عبد المطلب، ويدعوهم إلى الإيمان بما جاء به، ليس أحب إليه من عشيرته وأولهم فى بيته، وبدأ يتكلم. وبدأوا يسمعون لمحمد، وهو يحدثهم عما جاء به. ولكن أحدا لم يستجب إليه: إلا علي بن أبى طالب^(٢) وحده الذى انتفض يؤكد أنه سينصر محمدا بسيفه. وضحك من الاستخفاف بعض الكبار، فقد كان علي هذا أصغر الحاضرين، كان إذ ذاك ما يزال فتى صغير السن، تتقدم به سنه إلى أول الشباب.

ولكن محمدا لم يستخف بحماسة علي، فقد قام إليه، وعانقه وبكى .

وقال الأمينى: فى الجزء الأول من كتاب «الغديرى»^(٣) ص ٩ طبعة ١٣٧٢هـ: بعد أن رجع النبي ﷺ من حجة الوداع، وهى الحجة التى لم يلبث بعدها إلا قليلا، وصل إلى غدير ثم جمع الناس، وخطبهم وقال فيما قال:

(١) دلائل الصديق ج ٢ ص ٢٢٣. (٢) نفس المصدر ص ١٨.

(٣) هذا الكتاب للشيخ عبد المحسن الأمين، وقد بلغ ١٢ مجلدا ضخما، جمع فيه النصوص على خلافة علي من طريق السنة ورواياتهم عن النبي ﷺ، وقد بلغت المئات، وطبع الكتاب أكثر من مرة فى طهران. . . من علماء الشيعة فى هذا العصر ومحل ثقة الجميع واحترامهم.

إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه يقولها ثلاث مرات. ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأظهر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب^(١).

ثم ذكر الأميني أنه روى هذا الحديث ١٢٠ صحابيا، و٨٤ تابعيا، أما طبقات رواته من أئمة الحديث وأساتذته فقد بلغوا ٣٦٠، وبلغ المؤلفون في حديث الغدير من السنة والشعبة ٢٦ مؤلفا.

وقد اعتبر الشيعة حديث الغدير هذا نصا بخلافة علي بعد النبي ﷺ، ومن هنا اهتموا به هذا الاهتمام البالغ، وأهل السنة يعترفون بصحة هذا الحديث، يقولون بصدره عن النبي ﷺ، ولكنهم أولوا الولاء بالحب والإخلاص، لا بالحكم والسلطان، فحديث «من كنت مولاه فعلي مولاه» أشبه عندهم بحديث «يا علي لا يحبك إلا منصف، ولا يبغضك إلا منافق» وغيره من الأحاديث الدالة على مكانة أهل البيت وعلو شأنهم، والحب وعلو الشأن شيء، والنص عليه... شيء آخر.

وأجاب الشيعة عن ذلك بأن قول النبي ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه» يدل صراحة على أن نفس ولاية النبي ﷺ الدينية والدنيوية هي بعينها قد جعلها النبي ﷺ لعلي بعده، إذ جعل عليا نظير نفسه في أنه أولى بهم من أنفسهم، ولا شيء مثل ذلك، وإلا كان للفظ المولى ألف معنى ومعنى.

٥ - لفظ الشيعة:

وكما أثبت الشيعة من كتب السنة وأقوالهم أن النبي ﷺ هو الذي بعث عقيدة التشيع ودعا إليها أثبتوا أيضا من طرق السنة أن النبي ﷺ أول من أطلق لفظ الشيعة على من أحب عليا وتابعه، قال الشيخ محمد حسين المظفر في كتاب «تاريخ الشيعة» ص ٥ طبع النجف:

جاء في كتاب (الصواعق المحرقة) لابن حجر وفي كتاب (النهاية) لابن الأثير أن النبي ﷺ قال: يا علي إنك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين.

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨.

وجاء في الدر المنثور للسيوطي أن النبي ﷺ قال: إن هذا - وأشار إلى علي وشيعته - لهم الفائزون يوم القيامة.

ثم قال صاحب «تاريخ الشيعة»: فكانت الدعوة إلى التشيع لعلي من محمد ﷺ تمشي منه جنباً لجنب مع الدعوة إلى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله . وبهذا يتبين معنا أن المصدر الأول والأخير لشيعة علي والتشيع هو النبي ﷺ دون سواه^(١).

رأى محمد باقر الصدر:

أما الشهيد الصدر فيتحدث عن نشأة التشيع وظهور الشيعة ككيان حول علي - عليه السلام - فيوضح أن هناك اتجاهين نشأ في صفوف الصحابة في عهد الرسول الكريم ﷺ:

الأول: اتجاه يتقيد بالنص في كل مجال من مجالات الحياة ولا رأى فيه بعد البيان النبوي بالاجتهاد مقابل النص، سواء في مجال العبادة أو السياسة أو شئون الحرب... إلخ.

الثاني: اتجاه يؤمن بإمكانية الاجتهاد مقابل النص في بعض المجالات.

وهذان الاتجاهان قد تجسدا بشكل تيارين عندما واجها النص النبوي على أطروحة إمامة علي - عليه السلام -، فاجتهد ذلك الفريق مقابل النص، والتزم الفريق الآخر بالنص، وبهذا ولد الكيان النص من حول الإمام علي - عليه السلام -.

ثم يوضح ذلك بنص قوله: «وهذان الاتجاهان اللذان بدأ الصراع بينهما في حياة النبي ﷺ قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام علي - عليه السلام - للدعوة بعد النبي ﷺ، فالممثلون للاتجاه التعبدى وجدوا في النص النبوي على هذه الأطروحة سبباً ملزماً لقبولها دون توقف أو تعديل، وأما الاتجاه الثانى فقد رأى أنه بإمكانه أن يتحرر من الصيغة المطروحة من قبل النبي ﷺ إذا أدى اجتهاده إلى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف^(٢). وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول ﷺ مباشرة متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لأطروحة زعامة الإمام

(١) نفس المصدر السابق ص ٨٩.

(٢) التشيع نشأته معاملة هاشم الموسوى. ص ١٩.

علي - عليه السلام - وقيادته التي فرض النبي ﷺ الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة. وقد تجسد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي - عليه السلام - وإسناد السلطة إلى غيره.

تعقيب وتحرير:

يقدم السيد محمد باقر الصدر لرأيه بمقدمة أوضح ما فيها خطأها، وإن كانت تخضع لتقسيمات عقلية واضحة وتحمل في ثناياها عناصر الحقيقة، وخطؤها هو أنه جعل النص في مقابل العقل، وهناك العقليون وهناك النصيون لكن مع القضايا الدينية يختلف مفهوم النظر العقلي عن غيره والنص في الشرع مقدم على العقل وإذا وجد النص فلا اجتهاد - إلا تفسيراً أو تأويلاً وتوفيقاً كل ذلك خدمة له. لا اجتهاد مع النص - وحين لا يكون نص يبدأ الاجتهاد. ويقول بعض الأئمة: «إن صح الحديث فهو مذهبي» فالنص في القضايا الدينية ليس مقابلاً للاجتهاد وإنما هو مكمل. وهذا ولا شك قضية تثير الجدل لا تحسمه.

وكان هدف السيد محمد باقر الصدر - رحمه الله - من وراء هذا التمهيد الجدلي هو بيان أن النبي ﷺ عهد إلى علي فوق خلاف جوهرى بين أصحاب الاتجاه الاجتهادى وبين الاتجاه النصي فغلب الاتجاه الاجتهادى الاتجاه النصي فكانت النتيجة كما يقول باقر الصدر: أن تجسد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي وإسناد السلطة إلى غيره... لا شك أننا نقدر حق الإمام علي حق قدره ونتولى آكل البيت ولا نبخس حق الصحابة وكلهم كملة لهم التحية والتبجيل، وذلك ما يؤكد غدیر خم وتلك هي الولاية الأدبية، أما الولاية السياسية فغدیر خم يتضمنها تأويلاً ولا يقصدها تصريحاً لذلك كان من رأى الإمام زيد ابن علي زين العابدين وفق قوله:

إنه «لا مانع من ولاية الفاضل مع وجود الأفضل ولا تفاضل بين العشرة المبشرين بالجنة، وهذا هو التاريخ. وما نظن علياً نبذ بيعة أبى بكر ولا نظنه خرج عليه كما خرجت عليه عائشة وطلحة والزبير، ولا نظن أباً بكر قد خرج على عهد النبي لعلي». يقول الشهرستاني في كتابه (نهاية الأقدام)^(١) في الإمام والخلافة: «فإن قيل قد أظهر

(١) نهاية الأقدام ص ٤٩٣ تحت جيوم.

النبي ﷺ ذلك يوم غدیر خم، حيث أمر الناس بالدرجات. وخطب الناس، وأخذ بيد علي وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار» وهذا حين نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ (٦٧) [المائدة] وقد فهم الجماعة من قوله: «من كنت مولاه فعلي مولاه» الخلافة، حيث هنا عمر، فقال: يخ بنخ يا علي أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة» وقال ﷺ: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وقد قال ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» إلى غير ذلك من الأخبار.

قيل: إن اقتنعتم بمثل هذه الأخبار فخذوا منا في حق أبي بكر كذلك حيث روي مسلم في صحيحه أنه قال: اتنوني بدواة وكف أكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان، وقال: ليصل بالناس أبو بكر...).

يصعب على الذين يتولون الإمام عليا الاستكانة إلى هذا الرأي - وهو وإن كان يخدم الشيعة في مراحلها التاريخية وهي مناصرة أولوية علي في البيعة، إلا أنها تشوه تاريخ الإمام علي من حيث أرادت تركيته. فقد جعلته صاحب فرقة وكتلة سياسية. وتدعيم هذا الرأي هو تدعيم لفكرة الخوارج على الشرعية ويكون علي أول الناكثين.

أما روايات إضرار النار على بيت فاطمة من أبي بكر ومن أبي بكر بالذات لما يطعن في روايات التاريخ التي لا تتحرى ذكر تقدير أقدار الرجال، فلا يجدر بأبي بكر أن يقوم محرقا ببيت فاطمة... ولا بيت فاطمة هو الذي يعتدى عليه ظلما ولا المجتمعون فيه لإجبار علي على البيعة.

أما موقف علي من بيعة أبي بكر كما ذكرها البلاذري والطبري في السقيفة.

يرى صاحب أنساب الأشراف أنه لما قبض رسول الله ﷺ:

* انحار الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بني سعد.

* واعتزل علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة.

* وانحار المهاجرون إلى أبي بكر، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل.

ورسول الله ﷺ في بيته لم يُفْرَغ من أمره بعد.

فأتى أبا بكر آت فقال: أدرك الناس قبل أن يتفارق الأمر وتكون فتنة مالم يغلقها الله بك فلن تغلق أبداً، وعلي بن أبي طالب والعباس متشاغلان به.

٦ - علي يعاتب أبا بكر:

مضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة، وإذا «سعد» على طنفسة متكنا على وسادة وعليه الحمى، فقال له أبو بكر: ما ترى أبا ثابت؟

فقال: أنا رجل منكم، فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير.

قال أبو بكر: «نحن أول الناس إسلاماً وأوسطهم داراً وأكرمهم أنساباً. وأمسهم برسول الله ﷺ رحماً. وأنتم إخواننا في الإسلام وشركاؤنا في الدين، نصرتم وأوتيتهم وأسيستم، فجزاكم الله خير الجزاء. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. ولن تدين العرب إلا لهذه الحى من قریش. فقد يعلم ملاً منكم أن رسول الله ﷺ قال: الأئمة من قریش فأنتم أحق أن لا تنفوسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم».

فقال الحباب، صاحب رأى منا أمير ومنكم أمير: ما نحسدك ولا أصحابك، ولكننا نخشى أن يكون الأمر فى أيدي قوم قتلناهم فحققوا علينا.

فقال أبو بكر: إن تطيعوا أمرى تبايعوا أحد هذين الرجلين: أبا عبيدة بن الجراح وكان عن يمينه وعمر بن الخطاب وكان عن يساره.

فقال عمر: وأنت حى؟ ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذى أقامك فيه رسول الله فابسط يدك لله فبسط يده، فبايعه عمر، وبايعه أسيد بن حضير وبايع الناس وازدحموا على أبى بكر^(١).

فقال الأنصار: قتلتم سعدا وقد كادوا يطؤونه. فقال عمر: اقتلوه إنه صاحب فتنة فبايع الناس أبا بكر إلا سعدا فإنه راغ ثم أتى الشام.

يقدم العباس علياً:

وسمع العباس وعلي التكبير فى المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله ﷺ فقال علي: ما هذا؟ فقال العباس: ما قدمتك إلى شىء إلا وتأخرت عنه وكان قد قال

(١) أنساب الأشراف، البلاذرى ج ٢.

له لما قبض رسول الله ﷺ: اخرج حتى أبايعك على أعين الناس، فلا يختلف عليك اثنان فأبى، وقال: أو منهم من ينكر حقنا ويستبد علينا؟ فقال العباس: سترى أن ذلك سيكون فلما بويح أبو بكر قال العباس: ألم أقل لك يا علي!

فخرج علي فقال: يا أبا بكر ألم تر لنا حقا في هذا الأمر؟ قال: بلى، ولكن خشيت الفتنة وقد قلدت أمرا عظيما. فقال علي: قد علمت أن رسول الله أمرك بالصلاة وأنتك ثاني اثنين في الغار وكان لنا حق ولم تستشر، والله يغفر لك وبإيعه.

لم يتخلف علي - رضى الله عنه - عن مبايعة أبي بكر ولم يتأخر كما تذهب روايات أخرى ولم يخش فاطمة فلم يبايع حتى وافاها الأجل فلما خرج حين سمع تكبير المسلمين وأشاح وجهه عن رأى العباس الذى أراد أن يقدمه على أبي بكر... غير أن عليا - وهو يبايع أبا بكر - ذكره بأنه لم يطب خاطره دون رد الخاطر كالتى قالها للأنصار أو التى قالها لعمر وأبى عبيدة حين قدمهما للمبايعة. فلم يكن علي مجابا للصواب حين عاتب أبا بكر وهو يبايعه قائلا: يا أبا بكر ألم تر لنا حقا في هذا الأمر... وهذا الحق الذى يذكر به أبا بكر هو الحق الأدبى.. وليس الحق الشرعى الذى نحلته الشيعة له. والحق الأدبى يتمثل فى تقديم أبى بكر لعمر وتقديم عمر لأبى عبيدة بن الجراح كما تشير بعض روايات المؤرخين: كان علي يود أن يعرضوا عليه الأمر لجملا.

٧ - علي ينضى الحق الشرعى:

يقول أبو مخنف: لما استخلف عثمان دخل العباس على «علي» فقال: ما قدمتك قط إلا تأخرت، قلت لك وقد اضطر النبي ﷺ فأسأله عن هذا الأمر لمن هو بعده. فقلت: أكره أن لا يقول لكم، لا تستخلف أبدا ثم توفى، فقلت أبايعك فلا يختلف عليك اثنان فأبى، ثم توفى عمر، فقلت لك: قد أطلق الله يدك وليس عليك نصير، فلا يدخل فى الشورى فأبى فما الحيلة؟

وينضى أن يكون حقا بالغلبة:

قدم خالد بن سعيد بن العاص من ناحية اليمن بعد وفاة النبي ﷺ فأبى عليا وعثمان فقال: أنتما الشعار دون الدثار. أرضيتم يابنى عبد مناف أن يلى أمركم غيركم.

فقال علي: أو غلبة تراها؟ إنما هو أمر الله يضعه حيث يشاء... وقال غير المدائني: بايع خالد أبا بكر بعد شهرين.

٨ - علي وأبو سفيان وأحقية أبي بكر:

في حوار جرى بين أبي سفيان وعلي: قال أبو سفيان لعلي: أترضون أن يلي أمركم ابن أبي قحافة، أما والله لأن شتمت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال لست أشاء ذلك، ويحك يا أبا سفيان «إن المسلمين نصحة بعضهم لبعض وإن نأت ديارهم وأرحامهم، وإن المنافقين غششة بعضهم لبعض وإن دنت ديارهم وأرحامهم ولو لم يكن أبو بكر لها أهلاً رأينا أبا بكر لها أهلاً ما خليناه وإياها.

ويروى المدائني أن أبا سفيان جاء إلى علي فقال: يا علي بايعتم رجلاً من أذل قبيلة من قريش، أما والله لئن شئت لأخرمنها عليه من أقطارها ولأملأنها عليه خيلاً ورجالاً، فقال له علي: إنك طالما غششت الله ورسوله ﷺ والإسلام فلم ينقصه ذلك شيئاً، إن المؤمنين وإن نأت ديارهم وأبدانهم نصحة بعضهم لبعض. وإننا قد بايعنا أبا بكر وكان والله لها أهلاً. ثم قال: إنني لأرى مقاتلك بوتقة لها الدم.

وذلك ما قام به معاوية حين أشعل نار الفتنة في صفين. وفي مقالة أبي سفيان.

رأى فلهاوزن والشيعي:

ويلخص الشيعي وجهة نظر فلهاوزن التي بثها في كتابه: الخوارج والشيعية في تطور التشيع منذ ظهوره حتى مقتل الحسين بقوله: «إن التشيع كان تكتلاً إسلامياً ظهرت نزعتة أيام النبي ﷺ وتبلور اتجاهه السياسي بعد قتل عثمان، واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين»^(١). إن مآذره الشيعي ملخصاً نلاحظه في وجهة نظر فلهاوزن وهو يرسم منحنى بياناً للخط الشيعي فيقول:

أما معاوية فكان معه أهل الشام وكان يحكم الشام منذ عهد طويل، فاستحاح الكفاح بينه وبين علي إلى كفاح بين أهل الشام وأهل العراق.

وانتهى الكفاح بقتل علي إلى غير صالح أهل العراق، ولكن هؤلاء لم يندمجوا في وحدة الدولة الإسلامية التي التأمّت من جديد بفضل معاوية إلا كارهين مرغمين،

(١) الشيعي، كامل الصلة بين التصوف والتشيع (بغداد ١٩٦٣ ص ١٧).

ويظواهرهم لا بقلوبهم ومن ثم أصبح على راية كفاحهم ضد نير أهل الشام، كانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التي كانت فيها الكوفة، لا دمشق حاضرة الإسلام وفيها بيت مال المسلمين - على أنها المثل الأعلى. فتمكن الشيعة أولا في العراق. ولم يكونوا في الأصل فرقة دينية، بل تعبيراً عن الرأي السياسي في هذا الإقليم كله فكان جميع سكان العراق وبخاصة أهل الكوفة، شيعة علي تفاوتوا فيما بينهم، ولم يقتصر هذا على الأفراد بل شمل أيضاً القبائل ورؤساء القبائل^(١). ولا يلاحظ بينهم إلا درجات في التشيع، لقد كان علي في نظرهم رمزا لسيادة بلدهم المفقودة. ومن هنا نشأ تمجيد شخصيته وآل بيته، تمجيذا لم يرتج له في أثناء حياته، على أنه ما لبث أن تكونت في أحضان مذهب سري عبادة حقيقية لشخصه.

بعد أن استتب الأمر لمعاوية في العراق بعث المغيرة بن شعبة الثقفي واليا على الكوفة، وأطلق يده في كل شيء ولكنه أوصاه بشتى علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي وإقصائهم وتوك الاستماع منهم وألا يدع ذم علي والوقوع فيه واللعن لقتلة عثمان من فوق المنبر في صلاة الجمعة وأن يرغم بعض أنصار علي المتحمسين، وقد ذكر له أسماؤهم على شهود هذا اللعن. ومن بين أنصار علي حجر بن عدي، وهو من أبرز رجال كندة (وإن لم يكن رئيسهم)، شهد المواقع مع علي في صفين وغيرها. فكان حجر إذا سمع ذلك قال: بل إياكم ذم الله ولعن. فكان المغيرة يحذره ولكن لا يؤذيه. وفي أواخر أيامه حدث ذات يوم أن قام المغيرة على عادته بدم علي، فنهض حجر بن عدي «فنعر نكرة في المغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجا منه، وقال: إنك لا تدرس بمن تولع في هرمك أيها الإنسان! مر لنا بأرراقنا وأعطيأتنا قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، لم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك.

وقد أصبحت مولعا بدم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين.

فقام معه أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق والله حجر وير. مر لنا بأرراقنا وأعطيأتنا. فإنا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدي علينا شيئا^(٢).

فتزل المغيرة من المنبر وذهب إلى بيته، فدخل عليه القوم من بني ثقيف وحذثوه

(١) الخوارج والشيعة، فلهاوزن، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي.

(٢) الطبري ج ٢ ص ١١٣.

فى الأمر، فقال لهم المغيرة: «إنى قد قتلته! إنه سياتى أمير بعدى فيحسبه مثلى، فيصنع به شيئا بما ترونه يصنع بى، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة. إنه قد اقترب أجلى وضعف عملى ولا أحب أن أبتدىء أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة»^(١).

وكان مصير حجر عن خلف المغيرة أشد نكرا، فقد خلفه على الكوفة فى سنة ٥١ زياد بن أبيه والى البصرة فجمع له المصرين: الكوفة والبصرة.

وليس فيما يورده أبو مخنف نبأ عن قدومه الأول إلى الكوفة، أما المدائنى فيذكر أنه ورد فى عدد قليل من الرجال وصعد المنبر وقال فيما قال: إنه وجد الهدوء والنظام يسودان الكوفة وليس بحاجة إلى أن يبدأ عمله بإقرارهما كما فعل فى البصرة. فشكر له الحاضرون مدحه بأن رجموه بالحجارة! فاحتل مداخل المسجد ولم يسمح لأحد بالخروج إلا إذا أقسم أنه لم يرم حجرا، فأبى عدد قليل منهم أن يقسم فقطع أيديهم.

وهذه القصة من الجمال بحيث تمنع من الاستمرار فى سردها. إذ يبدو أنها غير حقيقية. أما عوانة^(٢) فيرى غير هذا. فلا يذكر حدوث شيء حينما صعد زياد على منبر الكوفة لأول مرة. وحينما أخذ فى ختام خطبته يلعن عليا ويقرظ عثمان، لم يرتفع صوت بالرد عليه^(٣).

ويرجع زياد هادئا إلى البصرة وولى عمرو بن الحريث نائبا عنه باستمرار. وإنما تجاسر الشيعة - وقد استفحل أمرهم بسبب رفق المغيرة بهم. وعلى رأسهم حجر بن عدى - تجاسروا على عمرو بن الحريث وحصبوه بالحجارة فى أثناء الصلاة. فأسرع زياد قادما من البصرة إلى الكوفة وصعد المنبر «وعليه قباء سندس ومطرف خز أخضر قد فرق شعره» وأبرز للحاضرين خطورة الموقف وهدد حجرا، وكان حجر جالسا فى المسجد حوله أصحابه. فانسحب من المسجد مع أصحابه^(٤).

(١) الطبرى ج ٢ ص ١١٤. (٢) انظر فيما نقل الطبرى ج ٢ ص ١١٤.

(٣) كذا يقول المؤلف، بينما الذى ورد فى الطبرى فى الموضوع المشار إليه ج ٢ ص ١١٤، ١١٥ فى رواية عوانة نفسه مانصه: «ثم صعد المنبر (أى زياد) ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم، وذكر قتلته ولعنهم، فقام حجر فجعل مثل الذى كان يفعل بالمغيرة»، فلنا ندري من أين للمؤلف أن يقول: إن صوتا لم يرتفع بالرد على زياد).

(٤) وتبعنا لهذا تكون حركة حجر قد وقعت فى السنة التى تولى فيها زياد إمارة الكوفة أى سنة ٥١ هـ، بينما الطبرى فى رواية المدائنى (ج ٢ ص ١٦٢) وإيليا النصيبى يذكران أن تلك الحركة وقعت فى السنة التى مات فيها زياد، أى سنة ٥٣ هـ.

يقول فلهاوزن: وعند هذه النقطة يستأنف أبو مخنف - في نقل الطبرى - روايته، فيقول: إن زيادا قد اتخذ إجراءاته من المسجد. فبدأ بأن وثب بأشراف أهل الكوفة وصاح فيهم: أنتم معى، بينما إخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، فإن لم تظهروا لى براءتكم بالأفعال. فسأتىكم بأهل الشام. وأثر كلامه هذا فيهم، فأسرع كل منهم ييحث عن قريبه، حتى أقاموا جل من كان مع حجر بن عدى فى السوق (عند المسجد)، وأقبل الشرطة بالعمد فاشتدوا على أصحاب حجر وزياد يشهد هذا وينظر إليهم وهو على المنبر. أما حجر نفسه فقد خلصه أبو العمر طه الكندى وكان وحده ألين معه سيف ضرب به أحد الذين طاردوا حجرا، ولكن لم يقتله. فاستطاع حجر بن عدى أن يبلغ قومه فاجتمع حوله منهم عدد غير قليل. فلما رأى زياد أن الشرطة غير كافية استدعى كل المحاربين فى الكوفة. ولكنه احتفظ بمضرم مع فى الميدان المواجه للمسجد، وأرسل أهل اليمن^(١) - وكان حجر منهم - ضد حجر حتى لا يقع شر واختلاف بين مضرم وأهل اليمن فى هذه المناسبة الحرجة وحتى يخضعهم وذلك بأن يكونوا شرطة ضد قبيلتهم وصاحبهم فى الرأى - لأنهم كانوا بقلوبهم شيعة. ولكن كندة وأقرباءهم من حضرموت لم يذعنوا لأمر زياد؛ لأنه كان موجهها ضدهم أيضا أو على الأقل ضد واحد من بنى قومهم. كذلك فعل الأزد فى الظاهر، وكانوا يعتدلون من بيت إلى بيت لما أن جاءوا حتى كندة، وتركوا المدحج وهمدان أن يتقدموا، فتقدموا دون عائق حتى بلغوا بيت حجر، وهناك قبولوا بمقاومة: إذ جاء بنو جبلة، لما هوجم بيته، وهم بنو قرابة، وعفوا عنه، كذلك انتصر له حيثئذ أولئك الذين لم يكونوا على وفاق معه. ويقال: إنه رجاهم أن يغمدوا سلاحهم وأن يفرقوا على أن هذا كان سيحدث دون رجائه هذا.

(١) من الغريب أنه لم يرد ذكر لريسة، ومن مضرم بكر، تميم، هوازن، باهلة (أعصر)، أسد وغطفان. ومناهل اليمن: (١) مدحج وهمدان، (ب) والأزد، وبجيلة وخثعم، والأنصار، وخزاعة وقضاعة، ويضاف إليهم أيضا كندة حضرموت، ويجب أن لا يخلط بين الأنصار للمموريين من أهل اليمن، وبين الأنصار فى المدينة أهل العالية، الطبرى (ج ٢ ص ١٣٨٢) فهم من المدينة ويتسبون إلى مضرم. وفى عهد عمر الاول قسم أهل الكوفة إلى سبعة أقسام، لم يذكر الطبرى ج ١ ص ٢٤٩٥ غير ستة: (١) كنانة والأحباش، وجديلة، (٢) قضاعة (غسان بن شيبان)، بجيلة، خثعم، كندة، حضرموت، الأزد، (٣) مدحج، حمير، همدان، (٤) تميم والرياب، وهوازن، (٥) أسد غطفان ومحارب، نمر ضبيعة (بكر) وتغلب، (٦) إياد، عك، عبد القيس، أهل هجر الحمراء (من الفرس). أما زياد فقد قسم الكوفة إلى أربعة: ١ - أهل المدينة ٢ - تميم وهمدان ٣ - وريسة وكندة ٤ - مدحج وأسد. وفى كل ربع من هذه الأرباع اختلطت القبائل بعناصر، فكانت وحدات صناعية (حددت ١٩ الأوضاع المكانية؟) متساوية القوى تقريبا لم يكن على رأسها رؤساء قبائل، بل كان على رأسها حكام يعينهم الوالى. وكان أقوى القبائل فيهم قبيلتى مدحج وهمدان المتحالفتين.

واستطاع حجر الفرار، فأمر زياد الشرطة بمطاردته. فتتقل من حى إلى حى ومن شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل^(١)، يقوده أدلاء نجباء خلال هذه المساكن؛ لأن العطف العام كان فى جانبه فوجد ملجأ حيثما سعى، ولكنه لم يشأ جلب الضرر على من يلوذ بهم، فكان يترك ملجأه كلما اقتربت الشرطة منه، وأخيرا وجد الأمن فى منزل أحد الأزد، فقد فقدت الشرطة أثره فتوقفوا عن مطاردتهم غير المثمرة. هناك ألقى زياد المسئولية كلها على قبيلة كندة وهدد رئيسها، محمد بن الأشعث، بالعقاب الشديد إن لم يسلم معسكر الأمن (أى حجر) فى ظرف ثلاثة أيام.

فنهض حجر بنفسه وتقدم إلى زياد بعد أن أخذ منه وعدا بأنه لن يحكم فى أمره بل سيرسله إلى الخليفة ليتصرف فى شأنه. وأقبل على زياد فى غداة باردة وعليه برنس، فحبس، وعبثا حاول أن يحتج على هذه المعاملة، وبقي فى السجن خمسة عشر يوما^(٢)، فى أثناءها لم يكن لزياد عمل إلا طلب رؤساء أصحاب حجر فأتى منهم باثنى عشر رجلا تقريرا، وكانوا من قبائل مختلفة، وقد أخبر عنهم أهلهم أو كشفوا بأنفسهم عن أنفسهم. ولكن أحدا منهم لم ينكر تشييعه لعلي ليخلص من عقاب زياد.

وراح زياد يؤلف صيغة اتهام لحجر وأصحابه بأن حجرا جمع إليه الجموع وأظهر ختم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين.

وتزاحم رؤوس الأرباع فى الكوفة ليقعوا بالشهادة على صحة هذا الاتهام، حتى اضطروا إلى رفض كثيرين. إذ كان يكفيه سبعون شاهدا. قد اعتذر بعضهم فيما بعد عن توقيعه كما أنكر بعضهم الآخر أنه وقع^(٣).

وتنصل القاضى شريح بن هانئ الحارثى من التوقيع (وكان يقول: ما شهدت، ولقد بلغنى أنه قد كتبت شهادتى). ثم أعطيت صيغة الاتهام للشرطيين اللذين سيأخذان المسجونين إلى معاوية فى الشام.

وذاث مساء^(٤) سار هذا الموكب الحزين، ولما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة

(١) كانت القبائل تسكن فى أحياء، والبطون فى شوارع، والأسر فى منازل، كانت الأحياء تحمل أسماء القبائل (هرب حجر من كتلة إلى نخع ومنها إلى الأزد) والشوارع تحمل أسماء البطون. وهكذا يعطينا تخطيط الكوفة صورة عن أنساب العرب. ولم يكن الأمر فى البصرة مختلفا عن هذا.

(٢) المترجم: فى الطبرى ج ٢ ص ١٢٧ من ٧: «فحبس عشر ليال».

(٣) لم يكن التوقيع بأيدى الشهود أو على الأقل بأيدى جميع الشهود.

(٤) غالبا ما تذكر أوقات النهار، دون بيان تواريخ الأيام.

ابن ضبيعة العبسى إلى داره فإذا بناته مشرفات، فقال للشرطيين ائذنا لى فأوصى أهلى . فأذنا له فأوصاهن بالصبر . ولم يتقدم أحد لتخليص هؤلاء المساجين رغم سهولة هذا الأمر، فكان خوف القبائل هذا من سلطان زياد ممثلا فى شرطيين أشد وقعا عليهم من خطر الموت . فقالوا: إن هذا هو نهاية شعبهم . وتوقف الجميع فى موضع قبل دمشق يدعى مرج عذراء (وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلا) . فبقى المسجونون هناك موثقين بالقيود . وتسلم معاوية كتاب اتهامهم فصدق ما فيه ولم يصدق ما قاله حجر وكلف رسله تبليغه لمعاوية، على أنه سيسأل زيادا عن حقيقة الأمر فتأيد لديه ما قاله زياد فى كتاب الاتهام . وأمر معاوية بإخلاء سبيل كل منهم .

ولكنه رفض شفاعاة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، على أنه شاء مع ذلك أن يعفو عنه وعن الباقيين بشرط أن يبرأوا من علي، قبل أن يفعل ذلك منهم اثنان، فنجوا بحياتهم، وإن كانا بعد ذلك قد نقضا تبرؤهما من علي، أما الستة الباقون فقتلوا . وقد أرعدت خصائل حجر فنكا أبط الكفن معمدا والقبر قد حفر والسيف قد شهر، ولكنه ثبت مع ذلك على موقفه . وجاء مالك بن هبيرة بعد فوات الأجل والسيف؛ ذلك أنه قد غضب؛ لأن معاوية لم يستجب لشفاعته فى حجر، فجاء مع جماعة من كندة وسكون إلى مرج عذراء ليخلص المسجونين بالقوة . ولكنهم كانوا قد قتلوا . ولكن غضبه على الخليفة (معاوية) زال لما أن أرسل إليه هذا بمائة ألف درهم وقال للرسول أن يذكر له أن قتل حجر وفر على معاوية القيام بحملة ثانية ضد العراق - بعد الحملة الأولى فى عهد علي وبعد وفاة علي - ذلك أن حجرا كان يستثير الفتنة فى العراق . وكفن المقتولون وصلى عليهم ودفنوا كأشراف المسلمين^(١) .

وفى رواية قصيرة نقلها الطبرى . (ج ٢ ص ١١٥ وما يليها عن ابن الكلبي عن محمد بن سيرين يصور لنا حجر بن عدى فى صورة الحمل البرى الذى اقتيد إلى الجزرة . وقد أراد أهله وأصحابه حمايته، ولكنه أسلم نفسه ليعثوا به إلى الشام . فلما دخل على معاوية حياه تحية صادقة فقال معاوية: «أما والله لا أقبلك ولا أستبقيك!

(١) راجع أبيات عبد الله بن خليفة التى أرودها الطبرى جـ ٢ ص ١٤٨ - ص ١٥٤، ومنها يبدو أنه يشير إلى أن عدد الذين قتلوا كانوا ثمانية، ولعل السبب فى ذلك أن الاثنين اللذين تبرأ من علي قد أدخلوا فى الحساب . وكان معاوية قد أبقى عليهما، على أنهما قد قتلوا أيضا فيما بعد .

أخرجوه فاضربوا عنقه^(١) ولم يشترك معه أحد في حركته. وأشد من هذا سذاجة ما نراه ورد عند اليعقوبي^(٢) ممثلاً رأى الشيعة. حقا، إن ميل أبي مخنف مع حجر: فحجر لم يشأ من أصحابه أن يردوا على القوة بالقوة، بيد أنه مهد السبيل لذلك. ولكن واقع الحال الحقيقي يظهر لديه بوضوح. فأبو عمر طه الشيعي هو أول من استل سيفه وأسأل الدم، بينما كان الشرطة لا يستخدمون غير العصي، كذلك حارب عبد الله بن خليفة الطائي إلى جانب حجر بشجاعة^(٣).

وليس من شك في أن حجرا كان نائرا على السلطة وأنه كان يريد أن يجتذب إلى حكمه أهل الكوفة؛ ولهذا فإن زيادا حسب تقديرنا كان على صواب ومعاوية قد استعصم الحلم. لكن الأمر في ذلك العهد كان على خلاف تقديرنا الحالي. فإن قتل مسلم لا يحل إلا إذ قتل مسلما آخر أي أن النفس بالنفس، وكان الجارى أن يقتص صاحب الثأر بنفسه وكانت السلطة العامة إنما تساعده على ذلك وتهيئه له^(٤)، والجريمة ضد الدولة تنحصر في الخروج عن الإسلام، لا في الخيانة العظمى، مادام لم يصبها في مقتل، أما أن يقتل شخص بسبب خروجه على الدولة - مهما يكن ما يبرر هذا القتل - فهذا أمر كان يثير ثائرة الناس، وبخاصة في مثل هذه الحالة الأولى التي شمل الأمر فيها رجالا بارزين جدا، حتى إن أهل الكوفة بعامة قد شعروا بالخزي، وإن والي خراسان ربيع بن زياد. قد مزق قلبه الأسى وإن كان غير رقيق القلب. وأظهرت عائشة غضبها الشديد. وكذلك فعل الحسن البصري بعد ذلك بزمان ولم يكن يخضع في ذلك - كما خضعت عائشة أم المؤمنين - لدافع شخصية خاصة. ويقال: إن معاوية لما حضرته الوفاة شعر بتأنيب ضمير عنيف لقتله حجر بن عدي. ولكنه تبرأ من ذلك قائلا: إنه لما انحسر عنه قريش استسلم لتأثير زياد. وطبعاً كان عصب القبائل، وبخاصة اليمانية القوية. على السلطة بالغاء؛ إذ شعرت بأنه من العار ألا تخلص أبنائها من بطش السلطان.

واتحدت معارضة القبائل مع المعارضة الدينية. واشتد غضب الشيعة وخاصة لقتل حجر، وكان استشهاده مقدمة لاستشهاد سيد الشهداء الحسين بن علي^(٤).

(١) الطبري ج ٢ ص ١١٦ س ٩. ١٠.

(٢) الطبري ج ٢ ص ٢٧٣ وما يليها.

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٢١، ص ١٢٩.

(٤) الخوارزمي والشيعة قلهوارون، ترجمة عبد الرحمن بلوى ج ١ ص ١١٩.

الباب الثالث

.....

الشيعه العربيه الحسن والحسين

الفصل الأول

نشأة الشيعة وأصولها

الفصل الثاني

شيعة الحسن والحسين

الفصل الثالث

الشهيد الإمام الحسين وحق العدل السياسي

الفصل الأول

نشأة الشيعة وأصولها

١ - عروبة الفرق والطموح السياسي:

إن الفرق أو الطوائف التي حرك ظهورها التحكيم أو نشأت بعيده أو قبيله أو معه هي طوائف عربية كانت ترمى بادئ ذي بدء إلى غرض سياسى محض ، على الرغم من ظهورها بالمظهر الدينى لكنها ليست بالعربية الخالصة إنما كان يقف فى صفوفها مواليتها يسعون وراء أهدافهم من وراء مبادئ الإسلام التي تقر المساواة والعدالة والحرية، وكان يستعملهم العرب فى تصفية حسابهم.

يرى المؤرخون كما قدمنا أن الرامة - وهى القيادة العليا للمسلمين - أولى المسائل التي فرقت المسلمين ومزقتهم شيعا وأحزابا:

- حزب بنى أمية .
- حزب أهل المدينة .
- حزب الشيعة .
- حزب الخوارج .
- حزب المرجئة .

أما حزب بنى أمية ومركزه بلاد الشام الذى كان له النفوذ فى ذلك الحين فكان يدافع عن عرش الأمويين ، إذ كان يرى أن أمراء هذا البيت أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبو بكر وعمر وعثمان)، وأنهم أصحاب الحق فى الأخذ بشأ عثمان والمطالبين بدمه كما كانت تربطهم به أواصر القربى .

وكان يناوش بنى أمية حزب أهل المدينة الأنصار الذين كانوا يرون أن وصول بنى أمية إلى الحكم إنما هو انتصار أعدائهم القدامى من مشركى مكة.

أما حزب أهل الشيعة فإنهم يشاركون الأنصار فى عدائهم لبنى أمية؛ لأنهم غاصبون للخلافة، ويرون أنهم مع أهل البيت المتحمسين للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ولا سيما حق علي.

وحزب الخوارج كان يشارك حزب المدينة والأنصار وحزب الشيعة فى عدم اعترافه بحكم بنى أمية ويرى أن الخلافة حق الأكفاء من الأمة بالاختيار والشورى، كما كانوا يرمون أعداءهم السياسيين بالكفر ويعاملونهم معاملة الكفار، وكان شعارهم «لا حكم إلا لله» تلك العبارة التى لم يكن يقصد بها إلا حكم السيف. كانت تلك الأحزاب ترى أن جهادها لحزب بنى أمية الحاكم جهاد دينى لا يكاد يختلف فيه عن جهاد الكفار، وكانوا يستندون فى ذلك إلى سيرة يزيد الأول والثانى. إلى. وإلى هتك يزيد الأول حرمة الحرم المكى بعد استيلاء عبد الملك على مكة. واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس وإلقاءهم خطبة الجمعة قبل الصلاة وقتلهم الحسين بن علي، ولسبهم الإمام عليا جهارا لإنكاره حق معاوية فى الخلافة.

على أن الأمويين لم يستطيعوا القضاء على تلك الأحزاب واستئصال شأفتها. فالخوارج والشيعة الذين مزق جند بنى أمية أوصالهم وأفقدوهم خيرة رجالهم، وإن لم يبق لهم من القوة ما يمكنهم من مقاومة الأمويين وإعلان الحرب عليهم جهاراً، فإن مبادئهم ما فتئت أن انتشرت، وذلك للملاءمتها لتلك الحالات الاجتماعية الجديدة التى نشأت فى الدولة العربية فى الشرق. وهكذا تطور هذا النزاع السياسى للأحزاب العربية إلى جهاد اجتماعى دينى.

وبعد استشهاد علي - عليه السلام - استمر التشيع كحزب سياسى، وخط فكري حول الحسن بن علي - عليه السلام - فبايعه المسلمون، وتجمعوا حوله، غير أن الظروف السياسية اضطرت الإمام الحسن إلى مصالحة معاوية، والتنازل عن الخلافة له^(١)، وفق شروط ومبادئ اتفق عليها الطرفان، فنكث معاوية عهده هذا، ونصب ابنه يزيد خليفة

(١) جلال الدين السيوطى/ تاريخ الخلفاء، اشترط الإمام الحسن على معاوية «على أن تكون له الخلافة بعده... فأجابته معاوية الى ما طلب»: ص ١٧٩، التشيع تاريخه، معاله، هاشم الموسوى.

للمسلمين، خلافاً للعهد الذي أبرمه مع الإمام الحسن - عليه السلام -، وخلافاً لمبدأ الحكم الذي نصت عليه الشريعة الإسلامية وجرى عليه عرف الخلفاء السياسى .

ونقرأ فى كتاب الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبى سفيان شرطاً اشترطه الحسن لحماية شيعة آل البيت ودفع التسلط الأموى عنهم، ويكشف هذا الكتاب امتداد كتلة التشيع، كقوة سياسية وفكرية يحرص أهل البيت على حمايتها، والحفاظ عليها؛ لأنها كانت قوة المعارضة المستهدفة من قبل الحزب الأموى .

غير أن معاوية لم يف بذلك وعانت شيعة أهل البيت أشد المعاناة من الإهانة والقتل والتعذيب والملاحقة والحرمان ما ضج به التاريخ .

من هنا كان الخوارج والشيعة هما أقدم الفرق السياسية والدينية فى الإسلام، وأبرزهما وأبعدهما أثراً فى تاريخه الحى المضطرب، نشأتا فى حوض حزب واحد هو حزب أنصار الإمام علي، فتعاديا فيما بينهما، ثم شاعت ظروف الخصومة المشتركة ضدهما أن يتحالفا معا على مضض، ولكن مبادئ كل منهما كانت منذ البداية فى تعارض تام مع مبادئ الآخرين .

٢ - نشأة الشيعة فى الوضع اللغوى والتاريخى والاصطلاحى؛

١- الوضع اللغوى؛

الشيعة فى اللغة: الأنصار والأتباع، أما فى الاصطلاح، فإن الكلمة المذكورة تطلق على كل من يوالى علياً وأهل بيته - رضى الله عنه - قال الفيروزآبادى: «وشيعه الرجل، بالكسر، أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد، والاثنين، والجمع المذكر والمؤنث. وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علياً وأهل بيته حتى صار اسماً لها بخاصة»^(١).

٢- فى العرف التاريخى والاصطلاحى؛

أ - رأى الشهرستانى:

الشيعة هم: الذين شايعوا علياً - رضى الله عنه - على الخصوص، وقالوا بإمامته

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادى - لسان العرب، ابن منظور - مختار الصحاح، الفيومى .

وخلافته: نصا ووصية؛ إما جليا وإما خفيا. اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده؛ وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار العامة ينصب الإمام بنصبهم؛ بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين؛ لا يجوز للرسل - عليهم السلام - إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله، ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيب، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي لتبري: قولا، وفعلًا، وعقدا؛ إلا في حال التقية. ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك. ولهم في تعدية الإمامة: كلام، وخلاف أثير؛ وعند كل تعدية، وتوقف: مقالة ومذهب، وخبط. وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية.

بعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشييع.

ب - النوبختي وزمن النبوة:

أما النوبختي (ت ٣٠٠هـ) فيقول: إن أول فرق الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب - رضى الله عنه -، المسمون شيعة علي - رضى الله عنه - في زمان النبي ﷺ وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته^(١)، روى الصدوق (ت ٣٨١هـ) أن ابن عباس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعد الله تبارك وتعالى لشيعة علي من الثواب زلفى وكرامة^(٢)». وقال رسول الله ﷺ أيضا: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب، ثم التفت إلى علي - رضى الله عنه - وقال: هم شيعتك يا علي وأنت إمامهم»^(٣).

٣ - مع السقيفة وظهور فكرة التشيع:

أما الرأي الثانى فيجعل ظهور التشيع يوم السقيفة ويستند أصحاب هذا الرأي إلى

(١) فرق الشيعة (إستانبول، ١٩٣١) ص ١٥.

(٢) علل الشرائع (النجف، ١٩٦٣) ص ١٥٦.

(٣) الديلمى، محمد، إرشاد القلوب، ج ١ (بيروت، ١٣٨١) ص ١٩٣. الإمامية ومن سلف من الشيعة، د. عبد الله فياض.

تصريح جماعة من الصحابة يوم السقيفة بوجوب تقديم علي. روى الطبري أن الزبير اخترط سيفه وقال: «لا أغمده حتى يبايع علي...»^(١).

ويبين يعقوبى أن جماعة من المهاجرين والأنصار تخلفوا عن بيعة أبي بكر «ومالوا مع علي بن أبي طالب منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام، بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب...»^(٢).

٤ - تاريخ ظهور الشيعة يوم الجمل:

أما الرأي الثالث فيجعل تاريخ ظهور الشيعة يوم الجمل، قال ابن النديم: إن عليا قصد طلحة والزبير؛ ليقاتلها حتى يفينا إلى أمر الله جل اسمه (و) تسمى من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول شيعتى وسماهم - عليه السلام - الأصفياء، الأولياء، شرطة الخميس، الأصحاب^(٣).

٥ - مع صفين وظهور التكتل الشيعي:

أما الرأي الخامس فيجعل تاريخ ظهور الشيعة بعد رجوع علي من صفين، ومن أشهر القائلين بالرأى المذكور الأستاذ وات مونجمرى (Watt) يقول وات: إن بداية حركة الشيعة هو أحد أيام سنة (٦٥٨ م - ٣٧ هـ) حين قال جماعة من أتباع علي: إننا نوالى من والاك ونعادي من عاداك. ويعنى ذلك أن هؤلاء كانوا مستعدين للقول بأنهم يقبلون بصورة مطلقة حكم علي فى القضايا المهمة. ويبدو أن وات استند برأيه المذكور على نص ورد فى الطبرى يقول فيه: «لما قدم علي الكوفة وفارقه الخوارج وثبت إلى الشيعة فقالوا: فى أعناقنا بيعة ثانية نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت»^(٤).

يذهب بعض المؤرخين القدماء والمحدثين إلى أن التكتل الشيعي للإمام علي لم يكن وليد التحكيم كما هو الرأى الشائع والمشهور إنما يرون ظهوره منذ اجتماع السقيفة وهو رأى تميل إليه الشيعة، كما أن الخوارج يوصلون فرقتهم منذ الرسول ﷺ. والرأى كما يسوقونه:

(١) تاريخ الرسل والملوك، ج ٢ (القاهرة، ١٩٣٨) ص ٤٤٤.

(٢) التاريخ، ج ٢ (النجف، ١٣٥٨) ص ١٠٣.

(٣) الفهرست (القاهرة، لا. ت) ص ٢٦٣. تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة، د. عبد الله فياض.

(٤) المصدر السابق.

بدأ اسم علي يظهر خارج السقيفة كمرشح للخلافة، وكأحق شخص بها، كما ظهر في داخل السقيفة وفي وسط المتحاورين، فبعد أن خرج المهاجرون والأنصار المجتمعين في دار رسول الله ﷺ، لانتشار خبر السقيفة، قام الفضل بن العباس فخطب الناس المجتمعين هناك قائلاً: «يا معشر قريش، إنه ما حقت لكم الخلافة بالتصوي، ونحن أهلها دونكم وصاحبنا^(١) أولى بها منكم»^(٢).

وهكذا بدأ التكتل حول علي والمناداة بإمامته في اليوم الأول من وفاة رسول الله ﷺ، وبدأ التشيع الفكري والسياسي يظهر ككتلة وكيان، يحدثنا يعقوب عن ذلك بقوله:

«وتخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزيبر بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبي بن كعب»^(٣).

وبدأ هذا التكتل المتشيع لعلي يواصل مساعيه السياسية واجتماعاته، ويطلب بإعادة النظر فيما جرى في سقيفة بني ساعدة^(٤)، فقد نقل يعقوب ذلك بقوله: «وبلغ أبا بكر وعمر أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في منزل فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأتوا في جماعة حتى هجموا الدار...»^(٥).

أما ابن قتيبة فقد روى خبر هذا الاجتماع السياسي بالنص التالي:

«وأن أبا بكر - رضي الله عنه - تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي - كرم الله وجهه -، فبعث إليهم عمر، فجاء فتأداهم، وهم في دار علي فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالخطب وقال لهم: والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقن علي من فيها»^(٦).

وإذن، نستطيع أن نؤرخ لظهور التشيع ككيان سياسي وفكري متميز منذ الساعات الأولى التي تلت وفاة رسول الله ﷺ حينما احتدم الجدل حول المرشح للخلافة

(١) وصاحبنا: يعني علي بن أبي طالب - عليه السلام.

(٢) تاريخ يعقوب ٢: ١٢٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التشيع نشأته ومعاله، هاشم الموسوي.

(٥) المصدر السابق: ص ١٢٦.

(٦) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة ١: ١٩.

والإمامة، ويذا نفهم أن التشيع ولد فى صفوف الصحابة فى المدينة المنورة، وحفظا لوحدة المسلمين وتماسكهم أثر علي - عليه السلام - الانسحاب من المواجهة السياسية ومال إلى العزلة أيام الخليفتين أبى بكر وعمر، واكتفى بإبداء النصح والمشورة والمشاركة فى تسديد المسيرة الإسلامية.

ولقد سجل له التاريخ أروع تعبير عن التضحية والإيثار حين عبر عن موقفه بقوله: «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين»^(١).

غير أن الاتجاه والرؤى والجماعة المشايعة لعلي بدأت بالظهور كقوة سياسية وفكرية، وكحزب له وجهات نظر فى سياسة الدولة وجهازها الحاكم عندما تسلم عثمان الخلافة وتسلط الحزب الأموى على السلطة.

(١) نهج البلاغة/ الخطبة ٧٤. التشيع نشأته ومعاليه، هاشم الموسوى.

الفصل الثاني

شعبة الحسن والحسين

١ - الحسن بن علي وحق التنازل عن البيعة:

قامت فرقة الشيعة - أول ما قامت - إثر لعبة التحكيم السياسية التي قلبت موازين القوى السياسية وحرار أمامها أهل التقوى والورع، باختيار خليفة بويج بالمدينة عاصمة النبوة كما بويج فيها الخلفاء الأربع وقام على المبايعة أهل الحل والعقد.. ثم يخرجون عليه وقد حشدوا على أطراف الكوفة جيشا فيضطر كارها أن يلاقيهم بعيدا عن المدينة في مكان خروجهم عليه.. في موقعة الجمل وكانوا من العشرة المبشرين بالجنة، ومن أهل الحل والعقد وانتهت المعركة لكن بقي صراع الخارجين عليه في صفين ولم تنته المعركة ولم ينته التحكيم حتى هذا اليوم.

لكن انتهت مبادئ أصول الحكم تماما: انتهت البيعة ومعها الشورى واعتبارية المواطن وضاعت قيم أخلاقية: الصدق، والإخلاص، والحفاظ على العهد.. وبقيت الرشاوى والمساومة والاستبداد وحكم الفرد والسيوف والطعن والحرب والضرب وقيم النفاق والغدر والتآمر والحكم لمن غلب.

من هنا كان للإمام علي حق مشهود على التاريخ حق يتجدد مع وريثة التاريخ يتجدد بمعاذيره وتبريراته وزاد من أوار اشتعاله ما قاله الأصفهاني^(١):

(١) مقاتل الطالبين. ص ٢٤، أبو الفرج الأصفهاني ٢٨٤ - ٣٥٦هـ، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر مؤسسة الأعلى للطبوعات - بيروت.

«من احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان
وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه».

* فالإمام علي غدر به قومه وسلبوا بيعته بالإمامة فأعطاهما من لا يملك وهو
التحكيم لن لا يستحق وهو معاوية.

* وبعث معاوية من دس السم فى العسل للحسن وقال: إن لله جنودا فى العسل.

* وأرسلت الكوفة للحسين رسائل تمتلئ بخروجا عن البيعة وخرجوا مع ابن
زياد.

وفى كربلاء ودائما يلقي بيت النبوة ما لقيه الإمام علي والحسين دعاة المبدأ القائم
على البيعة والشورى من الذين يقيسون المبدأ بمنفعة ولهم منطقهم.

قال لقيادات الجيوش المحاربة: اختاروا واحدة من ثلاث:

١- إما أن تدعوني فأنصرف إلى حيث جئت.

٢- وإما أن تدعوني فأذهب إلى يزيد.

٣- وإما أن تدعوني فأذهب للجهاد فى ثغور المسلمين.

وبلغ هذه الخيارات عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد، فرفض قبول أى واحد
منها وأمر بالحرب أو النزول تحت حكمه.

٢- معاوية بن يزيد يتحسر على أهل الشورى؛

فلماذا لا يتحسر معاوية بن يزيد على أهل الشورى ثم يرفض الوصية لمن يخلفه
ويقول كيف أوصى وأمنع أهلها.

قال المسعودي^(١): وملك معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه، فكانت أيامه
أربعين يوما إلى أن مات، وقيل: شهران، وقيل غير ذلك، وكان يكنى بأبى يزيد،
وكنى حين ولى الخلافة بأبى ليلى، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب، وفيه
يقول الشاعر:

إنى أرى فتنة هاجت مراجلها والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: اعهد إلى من رأيت من أهل

(١) مروج الذهب ج ٣ للمسعودي، تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد.

بيتك، فقال: والله ماذقت حلاوة خلافتكم فكيف أنقلد وزرها وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأنعجل مرارتها، اللهم إني لبريء منها متخل عنها، اللهم إني لا أجد نفرا كأهل الشورى فأجعلها إليهم ينصبون [لها] من يرونها أهلا لها، فقالت له أمه: ليت أني خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام، فقال لها: وليتي يا أماء خرقة حيض ولم أنقلد هذا الأمر، أنفور بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوررها ومنعها أهلها كلها! إني لبريء منها.

فلم يكن وجود الشيعة في التاريخ عبثا فهم يريدون تصحيح مسيرة التاريخ كما كان يطمح إليها ذلك الخليفة التقى معاوية بن يزيد، فلم يكن انزعاجهم عن مجرى التاريخ العام الإسلامي شذوذا أو نفورا إنما هو رد فعل لفعل تاريخ ظالم.. لقد صنعه الأمويون صنعة مؤامرة وتولاه العباسيون صنعة مؤامرة وهم جميعا يغدرون بآل البيت ويسومونهم سوء العذاب.. فانتصر الشيعة لآل البيت حبا ومودة قصد تصحيح مجرى التاريخ العام غير ظالمين لأنفسهم.

وإذا كانت الشيعة يتمسكون بمسئوليتهم أمام التاريخ فإن المسؤولية التي أرقّت تاريخهم هي مسئولية تاريخية شأن أي مسئولية تاريخية على الوارثين أن يصححوا من أمر مسيرتها بالبحث والدراسة والتقارب وتصحيح المجرى التاريخي العام وتقارب التلاقي بتقليص الهوة التي صنعتها الأحقاد والأطماع بين الأصول.. وهي ولاشك واحدة:

-حق الأمة السياسي في البيعة والشورى وفق دستورها الإسلامي وتاريخ خلقائها.

٣- بيعة الحسن بن علي:

«بويع الحسن بن علي بن أبي طالب» على قول المسعودي^(١) «بالكوفة بعد وفاة أبيه بيومين من شهر رمضان من سنة أربعين، ووجه عماله إلى السواد والجليل. وقتل الحسن عبد الرحمن بن ملجم على حسب ما ذكرنا. ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن علي لخمس بقين من شهر ربيع الأول في سنة إحدى وأربعين وكانت وفاة الحسن - وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة - بالسّم، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

(١) مروج الذهب ج ٥ ص ١.

ويروى أحمد بن حنبل^(١) أنه بعد مقتل علي - رضى الله عنه - خطب الحسن بالناس فقال: «لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل. وقد نصبه رسول الله». وقد ناقشنا^(٢) صحة هذه القضية آنفاً وسنضطر فى هذا الفصل ما إذا كان هناك دليل على أن الحسن قد تعين سابقاً لتولى الخلافة بعد علي.

من المحتمل جداً أن فكرة الحق الإلهى التى تقضى بأن يعين كل إمام خلفه لم تتعد بوضوح فى أول الأمر عن الآراء الأخرى بالخلافة. فإن عادة القبائل العربية أن يختاروا من يلى السابق فى الأهمية بمجتمعهم، ولا شك أن هذا المبدأ هو الذى تقرر بموجبه اختيار أو تعيين الخلفاء الثلاثة الأول أبى بكر وعمر وعثمان. ويمكن أيضاً اعتبار أن علياً جاء إلى الخلافة فى الزمن الذى قدمته الظروف إلى الصف الأول دون أن يكون لذلك أية علاقة مع الإرث أو التخصيص، ويمكن أن نتوقع بصورة طبيعية أن تتول الخلافة بعد علي إلى معاوية؛ فإنه قد برهن عندما كان عاملاً لعثمان فى الشام على مقدرة فائقة فى الإدارة.

٤ - الحسن بين البيعة وادعاء النور الإلهى؛

ولكن الإسلام لم يعد محصوراً فى جماعة عربية متحدة يحكمها العرف والعادات القديمة، فقد تعرف المسلمون الذين اشتركوا بحملات الفتح ضد الدولة البيزنطية فى الغرب بفكرة الانتخاب الإرثى وكذلك الذين ألفوا جيوش الاحتلال فى أراضى الدولة الفارسية المنقرضة. وجاءت تعاليم ابن سبأ ودعوته فى أن علياً يكونه وصى النبي ﷺ انتقل إليه النور الإلهى أو الروح الإلهى الذى تكون من توريثه من شاء. وفى خلال خلافة علي التى دامت أربع سنوات انقسمت المملكة الإسلامية. وحدثت حروب أهلية شديدة دامت عدة سنوات فوضعت حداً فاصلاً بين الشرق والغرب. وكانت خطة التحكيم المرسومة لعقد هدنة بعد معركة صفين قد فشلت فى توحيد الشعور. فقد كان الخليفان المتنافسان علي ومعاوية يلعن أحدهما الآخر علناً فى الصلاة. وكان المجتمع الإسلامى بأجمعه منهوك القوى من جراء سنوات الحرب. وبينما كان كلا الطرفين يستعيد قوته كان هناك توتر وعدم طمأنينة بصورة مستمرة جعلت إيجاد

(١) أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٩٩ المستند.

(٢) انظر الباب الأول وحديث غدير خم - عقيدة الشيعة دوايت دونالدس ص ٨٥.

استقرار في الحكومة أمرا مستحيلا^(١). ففي هذا الزمن الذي يسوده الاضطراب العام اغتيل علي - رضي الله عنه - ونعلم أن الحسن اختير بعد ذلك مباشرة ليخلف عليا في الكوفة. وحسب حديث مقبول عند الشيعة^(٢) أن عليا قبل أن يموت دفع إلى الحسن «الكتب والسلاح» بحضور أهل البيت ورؤساء الشيعة وقال له: يا بني أمرني رسول الله ﷺ أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إلى رسول الله ﷺ ودفع إلى كتبه وسلاحه وأمرني أنه إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين «ثم أقبل على ابنه الحسين فقال» وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك هذا ثم أخذ بيد علي بن الحسين ثم قال لعلي بن الحسين: وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي وأقرته من رسول الله ﷺ ومنى السلام».

٥ - الحسن يهيئ نفسه للتنازل:

ويقول السيوطي: إن الحسن أرسل إلى معاوية يسأله تسليم الأمر إليه علي أن تكون له الخلافة من بعده. ويعلق مترجم كتاب السيوطي أنه لم يقرأ هذا الخبر في مكان آخر^(٣). ولعل أهم كتابين اليوم في إيران تبحث حياة الأئمة بالتفصيل هما كتابا (جنات الخلود وروضة الشهداء) وقرأ هذان الكتابان في المآتم الحسينية^(٤) ويذكر هذان الكتابان معلومات إضافية على تنازل الحسن عن الخلافة. فيذكران أن جيش الحسن كان يبلغ في أول الأمر أربعين ألفا وجيش معاوية ستين ألفا وقد نجح معاوية في إرشاء قواد الحسن. وفي الكتابين محاولة خالصة لجعل الإمام علي حق في تنازله ويلقيان اللوم على طمع بعض القواد وغدر أهل الكوفة المتكرر.

ولا يعلم بالضبط مدة خلافة الحسن القصيرة فيقول المسعودي: إنها كانت ستة أشهر وثلاثة أيام^(٥) ويصفه بأنه «أول خليفة خلع نفسه وتنازل لغيره».

٦ - المستشرقون والحسن:

ومن الأحاديث التي تصف حب محمد ﷺ لحفيديه الحسن والحسين ذلك

(١) عقيدة الشيعة داويت م. دونلمس تعريب ع. م. ص ٨٣.

(٢) أصول الكافي للكليني ص ١١٠. (٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة جارت ص ١٩٤

(٤) جنات الخلود، الفصل التاسع، وروضة الشهداء تأليف حسن واعظ كشفي (٩١٠هـ) الفصل ٦ ص ٧

-١١٧، براون = Persian Literature under Tartar Dominion ص ٤٤١، ٣-٥، ٥٠٤.

(٥) التنبيه والإشراف للمسعودي (المكتبة الجغرافية العربية) ج ٨ ص ٣٠٠.

الحديث الذى يعزى معرفة حوادث المستقبل بدرجة بارزة، عندما أخذ الحسن وهو طفل وصعد به المنبر وخاطب الناس قائلاً: «أتذكرون لابنى هذا.. إنه سيد وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين»^(١) ويذكر أن هذين الحفيدين كانا يشبهان أباهما وجدهما فى نواح مختلفة؛ فالحسن يشبه محمداً ﷺ بما فوق السرة وعلياً بما تحتها بينما يشبه الحسين علياً فى أعلاه ومحمداً ﷺ فى أسفله^(٢).

إلا أنه مهما كانت درجة التشابه الظاهرى مع النبى ﷺ فإن الاخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والشجاعة والضببط النفسى^(٣) والقابلية العقلية السياسية لقيادة شعبه بنجاح. وقد عرفت دائرة المعارف الإسلامية شخصيته مختصرة بأن «الشهوات النفسية ونقص النشاط والذكاء هما الصفتان الأساسيتان لأخلاقه. وبعد وفاة فاطمة فى شرح صباها لم تكن علاقته مع أبيه أو إخوته على أحسن ما يرام. وقد قضى رهرة شبابه فى الزواج والطلاق، حتى بلغ عدد من تزوجهن المائة، وسمى بالمطلاق وخلق لعلى أعداء خطرين. وقد برهن على كثرة تبذيره بأن خص كل امرأة من نسائه بمال كثير. فترى بذلك كيف بذرت أموال طائلة خلال خلافة على، بالزمن الذى كانت الخلافة نفسها شديدة الافتقار».

ويعترف الشيعة أنفسهم أنه كان للحسن ستون زوجة وعدد كبير من السرايا فقرأ أن عدد نسائه الشرعيات بلغ الستين عدا السرايا أو اللواتى تمتع بهن. وقد ذكر أن عددهن كان بين الثلاثمائة والتسعمائة. وقد طلق كثيراً منهم، فسمى بالمطلاق^(٤).

٧ - مآخذ المستشرقين على الحسن فى الميزان؛

إن موقف المستشرقين من الإمام الحسن مثل لامانس وبيروكلمان داويت ودونلدى وفيليب حتى يكاد يكون رأياً واحداً يتردد بينهم كما لو كانوا أجمعوا عليه سابقاً بعدم مخالفتهم، لخصته دائرة المعارف الإسلامية بقلم لامانس، وكنا نرى فى كتاباته عن الإسلام والرسول ﷺ وتاريخه زيفاً وتحريفاً متعمداً ينتميان إلى روح الرعيل الأول الذى نذر نفسه لخدمة الأغراض الاستعمارية وقراءاته تطفح بالمرارة العرقية. وسار على نهجه

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٩١، البخارى ٩٥، الترمذى ٤٦ - ٣٠ الطيالسى رقم ٨٧٤، «الحسن».

(٢) جنات الخلود الفصل ٩، البخارى ٦١ - ٢٣ الترمذى ٤١ - ٦٠ والطيالسى رقم ١٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة الحسن بقلم لامانس.

(٤) عقائد الشيعة الكتاب الرابع الفصل ٢.

صاحب كتاب عقيدة الشيعة في قوله السابق. والذي نراه أن دائرة المعارف الإسلامية ومن عزف على قيثارتها قد أخطأ وصف الإمام الحسن من عدة وجوه^(١):

- الوجه الأول: لقد كان الإمام الحسن بن علي عميقا في رؤيته للأحداث التاريخية التي تجري حوله بعيد النظر في قراءتها وهو من الذين سبقوا عصره. من هنا جاء تنوره لتفسير أحداثها أبعد مما كان يتوقعه إدراك قوائمه وليس كما يدعى الاستشراق أدت سطحيته ونقص نشاطه الذهني إلى الانسجام، قد يكون الأمر مقبولا لو لم يقدم حيثياته التاريخية: يا أهل العراق إني سخي بنفسى عنكم ثلاث:

- قتلكم أبي وطعنكم إياي.

- وانتهابكم متاعى.

- وقد كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوما لا يثق بهم أحد إلا غلب، ليس أحد يوافق الآخر في رأى، ولا يطمئن في خير ولا شر وقد لقي أبى منهم أمورا عظاما؛ لذلك أدرك أنه من الصعب السيطرة على شيعة تكونت من رعاى البوادي الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم ولا يحتملون سيطرة قائد عليهم غير شيخ عشيرتهم ولا يفرقون بين الناقة والجمال.

- الوجه الثانى؛ عدم تكافؤ الصراع بين المعسكرين، فلا ينبغى أن نغض الطرف عن أن معاوية حاكم الشام خبير حرب ويملك جيشا منظما وتمرس بالإدارة. يعرف كيف يسوس الأعراب وشيوخ القبائل بمختلف الحيل حتى استتب له الأمر، فوقر فى ذهن الحسن أن متارلته هى الضياع.

- الوجه الثالث: وهو يخص الحسن، وصفه بالمزواج المطلق فتلك عوائد العرب وأعرافهم ووجاهة الأشراف ومزيتهم. والذي لا شك فيه أن التنازل عن الخلافة قد تم تحت ظروف قاهرة جعلت حرية الإرادة معطلة والإكراه قائما.

٨ - أول المبايعين قيس بن سعد بن عبادة:

لما قتل علي بن أبى طالب بالكوفة، قام قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى فخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثم وصف فضل علي وسابقته وقرباته والذي كان عليه

(١) أنساب الأشراف ج ٣ البلاذرى.

فى هديه وعدله وزهده، وقرظ الحسن ووصف حاله ومكانه من رسول الله ﷺ، والذى هو أهله فى هديه وحلمه واستحقاقه الأمر بعد أبيه ورغبهم فى بيعته ودعاهم إلى طاعته. وكان قيس أول من بايعه، ثم ابتدر الناس بيعته. وقد كان قيس عاملا على أذربيجان.

٩ - الحسن يخرج للبيعة:

وخرج عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس بعد وفاة علي ودفته، فقال: إن أمير المؤمنين - رحمه الله تعالى - قد توفي برا تقيا عدلا مرضيا أحيا سنة نبيه ﷺ وابن عمه، وقضى بالحق فى أمته وقد ترك خلفا رضيا مباركا حليما، فإن أحببتم خراج إليكم فبايعتموه، وإن كرهتم ذلك فليس لأحد سلطان على أحد، فبكى الناس وقالوا: يخرج مطاعا عزيزا.

فخرج الحسن فخطبهم فقال: اتقوا الله أيها الناس حتى تقاته، فإننا أمراؤكم وأضيافكم، ونحن أهل البيت الذى قال الله: ﴿... لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ [الأحزاب] (١) والله لو طلبتم ما بين جابلق (٢) وجابر (٣) مثلى فى قرابتي وموضعي ما وجدتموه، ثم ذكر ما كان عليه أبوه من الفضل والزهد والأخذ بأحسن الهدى وخروجه من الدنيا خميصا لم يدع إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، فأراد أن يتتاع بها خادما، فبكى الناس ثم بايعوه.

وكانت بيعته التى أخذ على الناس أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم تحتل الشك فى موقفه فقال بعض من حضر: والله ما ذكر السلم إلا ومن رأيه أن يصالح معاوية.

ثم مكث أياما ذات عدد يقال خمسين ليلة ويقال أكثر منها وهو لا يذكر حربا ولا مسيرة إلى الشام خامر ابن عبد الله بن عباس الشك فى موقف الحسن وهو الذى حضر التحكيم وكان له فيه رأى فكتب إليه كتابا يحفزه إليه حفزا ويثبط به المسئولية. قال البلاذرى: وكتب إليه عبد الله بن عباس كتابا يعلمه فيه أن عليا لم يجب إلى الحكومة إلا وهو يرى أنه إذا حكم بالكتاب يرد الأمر إليه، فلما مال القوم إلى الهوى فحكموا به

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٥٠٣ للمقارنة المسعودى، مروج ج ٢ ص ٤٢٥.

(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩. ابن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣، ابن أبى الحديد، شرح ١٥ ص ٢٦.

(٣) الإمامة ج ١ ص ١٥٨، (بم) الطبرى، تاريخ، ص ٥٨.

ونبذوا حكم الكتاب رجع إلى أمره الأول فشمّر للحرب ودعا إليها أهل طاعته، فكان رأيہ الذی فارق الدنيا عليه جهاد هؤلاء القوم، ويشير عليه أن ينهض إليهم وينصب لهم ولا يعجز ولا يهن.

وتم الإعلان عن معاوية خليفة بالقدس كما تم الإعلان عن الحسن وهو الابن الأكبر لعلي بن أبي طالب خليفة في الكوفة، إلا أن هذه الازدواجية في الخلافة لم تستمر لفترة طويلة. وكان معاوية - وهو سليل عشيرة أمية التي تعتبر جزءا من الطبقة العليا الراسخة في مجتمع الجزيرة العربية - يتمتع بنفوذ أكبر وقوة عسكرية أكبر من الحسن. وأرسل معاوية مندوبين عنه؛ لكي يقنعوا الحسن أن يعتزل السلطة ويعود إلى المدينة المنورة ويحصل على معاش كبير مع وعده بعودة الخلافة - عقب وفاة معاوية - إلى العشيرة الهاشمية التي ارتفعت مكانتها إلى درجة عظيمة تمتع بها أحد أفراد هذه العشيرة ألا وهو نبي الله وبسبب اهتمام أفراد هذه العشيرة بتدعيم الدين الإسلامي الجديد القوى. ومات الحسن بسبب تعرضه لحالة من التسمم في عام ٦٦٩.

١٠ - معاوية تكثب بوعده:

ثم نكث معاوية بوعده حيث قام بتعيين ابنه يزيد خليفة في أثناء فترة حياته. وهو بذلك قد أنشأ أسلوب السلالة الحاكمة وهو أمر لا نظير له في دار الإسلام. وقضى هذا الإجراء على التقاليد السابقة التي تنادى بضرورة اختيار أكثر المسلمين ورعا وتقوى من بين عشيرة بنى هاشم أو عشيرة بنى أمية؛ ليكون زعيما للأمة الإسلامية. ومازال الحكم من خلال أسرة ملكية يلقي معارضة شديدة من جانب الكثير من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين. وهي معارضة تركز على أسس أيديولوجية.

ويحلول الوقت الذي مات فيه معاوية في عام ٦٨ هـ كان الأمويون قد دعموا قوتهم وسلطانهم، إلا أن الشيعة كانوا لا يزالون متشددين في آرائهم القائلة بأن عليا قد عين تعيينا إلهيا مقدسا؛ لكي يخلف النبي محمدا ﷺ وأن الرسالة الإلهية قد استقبلها بكل وضوح علي وأسرته، ولذلك فإن المنحدرين فقط من سلالة عائلة المسلم الحقيقي الأول هم الذين يصلحون لأن يحكموا دار الإسلام. وكأنه يجعل من كتابه عهد علي إليه وإن كان علي لم يعهد قبل موته عام ٤٠ هـ بالخلافة لأحد من بعده، وأنه أجاب الناس الذين سألوه عن رأيہ في مبايعتهم الحسن «ما أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر».

١١ - الحسن وسياسة النهج السلمى؛

على أن النهج السلمى فى سياسة الحسن تجاه معاوية ظهر منذ اللحظات الأولى لمبايعته بالخلافة؛ إذ اشترط على الناس من أجل الموافقة على بيعتهم له . . إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالت وتحاربون من حاربت^(١). هذا بينما أراد أهل العراق مبايعته على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى حرب المنحطين المضلين من أهل الشام، فرفض ذلك ولم يجلدوا بُداً من الموافقة على ما اشترط عليهم^(٢). فقال الناس: «ما هذا لكم بصاحب، وما يريد القتال»^(٣). وقال بعضهم: «والله ما ذكر التسليم إلا ومن رأيه أن يصالح»^(٤)، وعلى الرغم من ذلك استقامت للحسن بيعة أهل العراق^(٥)، والمدينة^(٦)، بينما بايعه أهل مكة بثناقل.

ورفض معاوية إعطاء الحسن البيعة، ودعاه حسب ما أورد البلاذرى إلى ترك الأمر له، ووعد بإعطائه مافى بيت مال العراق، وخراج أى الكور يشاء، يستعين بها على حوائجه.

مكث الحسن خمسين ليلة وهو لا يذكر حرباً ولا مسيرة إلى الشام، على الرغم من دعوة زعماء معسكره له بالتحرك^(٧). وشجع ذلك معاوية على المسير إلى العراق، والوصول إلى جسر منبج^(٨)، ومعه جند فلسطين بقيادة عمرو بن العاص، وجند الأردن بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد^(٩)، مؤكداً أن توجهه إلى العراق جاء تلبية لرغبة أهله ودعوتهم له^(١٠).

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٥٠٣ للمقارنة المسعودى، مروج ج ٢ ص ٤٢٥.

(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩. أبو مخنف بن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣، ابن أبى الحديد، شرح ١٥ ص ٢٦.

(٣) الإمامة ج ١ ص ١٥٨، (بم) الطبرى، تاريخ، ص ٥٨.

(٤) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٩، تاريخ ج ٦ ص ٦٢.

(٥) الطبرى تاريخ ج ٥ ص ٦٢.

(٦) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٤٥٨.

(٧) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩.

(٨) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٦، ٣٧، الطبرى تاريخ، ٥ ص ١٢٩.

(٩) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٠.

(١٠) ن.م ٣ ص ٤٩ اليعقوبى تاريخ، ج ٢ ص ٢١٤. الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٥٩.

وحدث الحسن الناس على الجهاد وقتال أهل الشام^(١)، وسار من الكوفة على رأس قوة ذكر البلاذري أنها بلغت خمسين ألف مقاتل^(٢)، أرسل منها اثني عشر^(٣)، وقيل عشرين ألف مقاتل^(٤) بقيادة قيس بن سعد^(٥)، أو عبيد الله بن عباس^(٦)، ونزلوا مسكنا من أرض العراق للحيلولة دون تقدم معاوية في أراضيهم.

وصل الحسن إلى ساباط المدائن، وهناك نهب جنده فسطاطه، وطعنه رجل يدعى الجراح بن سنان في فخذه، وأن سبب الطعن هو إخبار الحسن لجنده برغبته في مصالحة معاوية. واتهم اليعقوبي المعسكر الشامي صراحة بتدبير الأمر بشكل مقصود لإثارة الفتنة داخل المعسكر العراقي، وبين أن الحادث جرى بسبب إشاعة كاذبة أطلقها أنصار معاوية بين صفوف قوات الحسن حول اتفاق الطرفين على الصلح، وهي إشاعة لم يدققوها، مع أنها جاءت بعد سلسلة أكاذيب عمد معاوية إلى تسريتها بين قوات خصمه حول مصالحة كل من الحسن وقيس بن سعد له.

١٢ - الحسن يجمع أمره:

فلما شخص عبيد الله بن العباس سار الحسن بعده واستخلف على الكوفة المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وذلك بعد شهرين ويقال ثلاثة أشهر من بيعته، ثم سار الحسن فأتى دير كعب فبات به، ثم سار حتى أتى ساباط المدائن فتزل دون جسرهما ما يلي ناحية الكوفة وخطب الناس فقال:

إنى لأرجو أن أكون أنصح خلقه لخلقه، وما أنا محتمل على أحد ضغينة ولا حقدا ولا مريد به غائلة ولا سوءا، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة، ألا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمرى، ولا تردوا علي، غفر الله لى ولكم.

-
- (١) البلاذري، أنساب ج ٢ ص ٣٣، اليعقوبي تاريخ، ج ٢ ص ٢١٤.
 (٢) البلاذري، أنساب ج ٣ ص ٣٤، ٣٦، اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٣١٤، الطبرى تاريخ ج ٥ ص ١٥٩.
 (٣) الطبرى، تاريخ ج ٥، ص ١٥٩، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.
 (٤) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٩.
 (٥) البلاذري، أنساب ج ٣ ص ٣٤، ٣٦.
 (٦) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢١٥، المقدسى، البلد ج ٥ ص ٢٣٣٦ - ٢٣٣٧، ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة ج ١٦٦، ص ٢٢.
-

١٣ - الاعتداء على الحسن:

فَنظَرَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى بَعْضٍ، وَقَالُوا: عَزَمَ وَاللَّهِ عَلَى صَلَاحِ مَعَاوِيَةَ وَضَعْفٍ وَخَارٍ. وَشَدُّوا عَلَى فُسْطَاطِهِ فَدَخَلُوهُ وَانْتَزَعُوا مَصْلَاهُ مِنْ تَحْتِهِ وَانْتَهَبُوا ثِيَابَهُ، ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَبِي جَعَالٍ الْأَزْدِيُّ فَتَزَعَ مِطْرَفَهُ عَنْ عَاتِقِهِ فَبَقِيَ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ، فَدَهَشَ ثُمَّ رَجَعَ ذَهْنَهُ، فَرَكِبَ فَرَسَهُ وَأَطَافَ بِهِ النَّاسُ فَبَعْضُهُمْ يَعْجِزُهُ وَيُضْعِضُهُ، وَبَعْضُهُمْ يَنْحِي أَوْلَئِكَ عَنْهُ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْهُ. وَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ مِنْ خَزِيمَةٍ مِنْ بَنِي نَصْرٍ بَنِي قَعِينٍ بَنِي الْحَارِثِ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ دُودَانَ بْنِ أَسَدٍ، يُقَالُ لَهُ الْجِرَاحُ بْنُ سَنَانٍ وَكَانَ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ إِلَى مَظْلَمِ سَابِاطٍ فَقَعَدَ لَهُ فِيهِ يَنْتَظِرُهُ، فَلَمَّا مَرَّ الْحَسَنُ دَنَا مِنْ دَابَّتِهِ فَأَخَذَ بِلِجَامِهَا، ثُمَّ أَخْرَجَ مَعُولًا كَانَ مَعَهُ، وَقَالَ: أَشْرَكَتَ يَا حَسَنُ كَمَا أَشْرَكَ أَبُوكَ مِنْ قَبْلُ، وَطَعَنَهُ بِالْمَعُولِ فِي أَصْلِهِ فَخَذَهُ، فَشَقَّ فِيهِ فَخَذَهُ شَقًّا كَادَ يَصِلُ إِلَى الْعِظَمِ وَضَرَبَ الْحَسَنَ وَجْهَهُ ثُمَّ اعْتَنَقَا وَخَرَا إِلَى الْأَرْضِ، وَوُثِبَ عَبْدُ بْنُ الْحَصَلِ الطَّائِي وَيَعْضُهُمْ يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَصَلِ فَتَزَعَ الْمَعُولُ مِنْ يَدِ الْجِرَاحِ، وَأَخَذَ ظَبْيَانِ بْنِ عِمَارَةَ التَّمِيمِيِّ بِأَنْفِهِ فَقَطَعَهُ وَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى قِطْعَةٍ آجَرَ فَشَدَخَ بِهَا وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ حَتَّى مَاتَ.

وَحَمَلَ الْحَسَنُ إِلَى الْمَدَائِنِ وَعَلَيْهَا سَعْدُ بْنُ مَسْعُودٍ عَمَّ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ، وَكَانَ عَلِيٌّ قَدْ وُلَاهُ إِيَّاهَا فَأَدْخَلُوهُ مَنَازِلَهُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ الْمُخْتَارُ أَنْ يُوَثِّقَهُ وَيَسِيرَ بِهِ إِلَى مَهَابِيَةِ عَلِيٍّ أَنْ يَطْعِمَهُ خِرَاجَ جَوْخِي سَنَةِ فَا بِي ذَلِكَ وَقَالَ لِلْمُخْتَارِ: قَبِّحَ اللَّهُ رَأْيَكَ أَتَا عَامِلَ أَبِيهِ وَقَدْ ائْتَمَنِي وَشَرَّفَنِي، وَهَبْنِي نَسِيتُ بِلَاءَ أَبِيهِ هَلْ أَنْسَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَحْفَظُهُ فِي ابْنِ بَتَّةٍ وَحَبِيبِهِ. ثُمَّ إِنْ سَعْدُ بْنُ مَسْعُودٍ أَتَى الْحَسَنَ بِطَبِيبٍ وَقَامَ عَلَيْهِ حَتَّى بَرَأَ وَحَوَّلَهُ إِلَى أَبِيضِ الْمَدَائِنِ.

١٤ - العراقيون يبايعون معاوية سرا:

وَتَوَجَّهَ مَعَاوِيَةُ إِلَى الْعِرَاقِ وَاسْتَخْلَفَ الضُّحَّاكَ بْنَ قَيْسٍ الْفَهْرِيَّ وَجَدَّ فِي الْمَسِيرِ وَقَالَ: قَدْ أَتَيْتُنِي كَتَبَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَدْعُونَنِي إِلَى الْقُدُومِ عَلَيْهِمْ فَأَوْمَنَ بِرِيئِهِمْ وَيَدْعُونَنِي إِلَى بَغْيَتِي، وَأَتَيْتُنِي رَسَلُهُمْ فِي ذَلِكَ فَسِيرُوا إِلَيْهَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنْ كَدَرَ الْجَمَاعَةُ خَيْرٌ مِنْ صَفْوِ الْفِرْقَةِ، وَكَانُوا يَدْعُونَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلَمَّا رَأَى عَمْرُوُ جَدَّ مَعَاوِيَةَ فِي الْمَسِيرِ وَإِخْدَامَهُ إِيَّاهُ، قَالَ: قَدْ عَلِمَ مَعَاوِيَةُ وَاللَّهِ أَنَّ اللَّيْثَ عَلِيًّا قَدْ هَلَكَ وَغَالَتْهُ شُعُوبٌ.

قَالُوا: وَمَرَّ مَعَاوِيَةُ بِالرَّقَةِ ثُمَّ بَنَصِييْنِ وَهُوَ يَسْكُنُ النَّاسُ وَيُؤْمِنُ مِنْ مَرَّ بِهِ، ثُمَّ

أتى الموصل ثم صار إلى الأخنوية، فنزل بإزاء عبيد الله بن العباس، وأرسل عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس إلى عبيد الله وأصحابه أن كتب الحسن قد أتتني مع رسلة تسألني فيها الصلح وإنما جئت لذلك، وقد أمرت أصحابي بالكف عنكم فلا تعرضوا لهم حتى أفرغ مما بيني وبين الحسن، فكذبوه وشتموه. ثم بعث معاوية بعد ذلك عبد الرحمن بن سمرة إلى عبيد الله فخلا به، وحلف له أن الحسن قد سأل معاوية الصلح وجعل لعبيد الله ألف ألف درهم إن سار إليه، فلما علم عبيد الله رأى الحسن وأنه إنما قصد الصلح وحقن الدماء وسار إلى معاوية فآكرمه وبره وحفظ له مسارعتة إليه.

وقام بأمر الناس بعد عبيد الله قيس بن سعد وقال في عبيد الله قولاً قبيحاً، وذكر أخاه وماكان بينه وبين علي ونسب عبيد الله إلى الخيانة والغدر والضعف والجبن. فبايع قيساً أربعة آلاف على الموت، وظن معاوية أن مسير عبيد الله قد كسر الحسن، فأمر بسر بن أبي أرتاة وكان على مقدمته وناساً معه فصاحوا بالناس من جوانب العسكر، فوافوهم وهم على تعبئة فخرجوا إليهم فضاربوهم، واجتمع إلى بسر خلق فهزمهم قيس وأصحابه، وجاءهم بسر من الغد في الدهم فاقتتلوا فكشف بسر وأصحابه وقتل من الفريقين قتلى، وعرض معاوية على قيس مثل الذي عرضه على عبيد الله، فأباه ثم بعث إليه ثانية فقال له: على ماذا تقتل نفسك وأصحاب الحسن قد اختلفوا عليه وقد جرح في مظلم ساباط فهو لما به. فتوقف عن القتال ينتظر ما يكون من أمر الحسن.

وقال الشيخ المفيد والطبري: إن أهل العراق كتبوا إلى معاوية بالسمع والطاعة واستحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه إذا شاء عند دنوه من معسكرهم أو الفتك^(١).

١٥ - الحسن يدرك غدر العراقيين؛

وجعل وجوه أهل العراق يأتون معاوية فيبايعونه، فكان أول من أتاه خالد بن مغمر فقال: أبايعك عن ربيعة كلها ففعل، وبايعه عناق بن شرحبيل بن أبي رهم التيمي، فلذلك يقول الشاعر:

معاوى أكرم خالد بن المغمر فإنك لولا خالد لم تؤمر

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر ص ١٧٥ القسم الأول هاشم معروف الحسني، منشورات الشريف الرضي.

وبلغ ذلك الحسن، فقال: يا أهل العراق أنتم الذين أكرهتم أبى على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه، وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية فبايعوه فحسبى منكم لاتغرونى فى دينى ونفسى. لكن الحسن لما رأى تفرق الناس عنه. أرسل إلى معاوية كتابا طلب فيه الصلح^(١).

وقد دفع معاوية إلى الحسن صحيفة بيضاء ختم أسفلها؛ ليكتب ما يشاء من الشروط، فاشتراط الحسن أن يسلم إلى معاوية ولاية المسلمين على أن يعمل بكتاب الله وستة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لا يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذرائعهم، وعلى أن لا يبغي له غائلة سرا ولا علانية، وأن لا يخيف أحدا من أصحابه. وشهد على الكتاب من معسكره عبد الله بن الحارث، وعمرو بن مسلمة، وردها إلى معاوية؛ ليشهد بما فى الكتاب ويشهد عليه^(٢). وأن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف وخراج دارابجرد، كما اشتراط الحسن أن لا يشتتم والده^(٣).

وخطب الحسن فى الناس، وأبلغهم قرار مصالحته معاوية، وأكد لهم «أن الله هدى أولكم بأولنا، وحقق دماءكم بآخرنا، وكانت لى فى رقابكم بيعة تحاربون من حاربت وتسلمون من سلمت».

١٦ - حيثيات الصلح ونهاية حرب الفتنة:

سالت معاوية وبايعته فبايعوا له ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء^(٤)]. وأضاف الطبرى إلى ذلك ما قاله الحسن لأهل العراق عن الأسباب التى دفعته إلى مصالحة معاوية: «قتلكم أبى، وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى»^(٥)، وبذلك تم الصلح بين الحسن ومعاوية فى ربيع الآخر من عام ٤١ هـ^(٦).

(١) البلاذرى، أنساب ج ٣، ص ٥٠.

(٢) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٨.

(٣) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٨.

(٤) البلاذرى، الحساب ج ٣ ص ٤٣، الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٦٣.

(٥) الجاحظ رأى أبى عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ فى معاوية والأمويين، ص ١٤ أراضى آل ياسين، سر الموقف فى صلح الحسن، ص ٧ - ١٥. رياض عيسى، الحزبية السياسية ص ١٠١، ١٠٣ فضيل بنى حمد العراق فى خلافة معاوية ص ٥٢، ٧١ خير الدين يوجه سوى، الفكر السياسى، ص ٤٤.

(٦) البلاذرى، أنساب، ج ٣ ص ٤١.

قالوا: ثم قام معاوية فخطب الناس فقال في خطبته: ألا إني كنت شرطت في الفتنة شروطاً أردت بها الألفة ووضع الحرب ألا وإنها تحت قدمي.

١٧ - قواد الحسن يعاتبونه:

فقال المسيب بن نجبة الفزاري للحسن: بايعت معاوية ومعه أربعون ألفاً ولم تأخذ لنفسك ثقة، قد سمعت كلامه والله ما أراد بما قال غيرك. وقام سفيان بن ليل الهمداني إلى الحسن، فقال له: يامذل المؤمنين، وعاتبه حجر بن عدي الكندي، وقال: سودت وجوه المؤمنين، فقال له الحسن: ماكل أحد يحب ماتحب ولا رأيته رأيك. وإنما فعلت ما فعلت إبقاء عليكم، ويُقال: إنه قال له: سمعت أبي يقول: يلي هذا الأمر رجل واسع البلعوم كثير الطعم وهو معاوية.

١٨ - مكاتبات معاوية وقيس بن سعد:

قال المدائني: وكتب معاوية إلى قيس يدعوهُ إلى نفسه وهو بمسكن في عشرة آلاف، فأبى أن يجيبه، ثم كتب إليه: إنما أنت يهودي ابن يهودي إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك، وقد كان أبوك قد أوتر غير قوسه، ورمى غير غرضه فأكثر الحز وأخطأ المقصل، فخذله قومه وأدركه يومه فهلك بحوران طريداً والسلام.

فكتب إليه قيس بن سعد بن عبادة: أما بعد يامعاوية فإنما أنت وثن ابن وثن من أوثنان مكة دخلت في الإسلام كرها وخرجت منه طوعاً لم يقدم إيمانك ولم يُحدث نفاقك، وقد كان أبي أوتر قوسه ورمى غرضه فاعترض عليه من لم يبلغ كعبه ولم تشق غباره وكان أمراً مرغوباً عنه مزهوداً فيه، ونحن أنصار الدين الذي خرجت منه وأعداء الدين الذي صرت إليه.

فقال له عمرو: أجبه، فقال: أخاف أن يجيئني بما هو شر من هذا.

١٩ - رجوع أهل العراق لقتال معاوية:

حدثني عباس بن هشام عن أبيه عن أبي مخنف عن أبي الكنود عبد الرحمن بن عبيد قال:

لما بايع الحسن بن علي معاوية أقبلت الشيعة تتلاقى بإظهار الأسف والحسرة على ترك القتال فخرجوا إليه بعد ستين من يوم بايع معاوية، فقال له سليمان بن صرد الخزاعي: ما ينقضى تعبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء وهم على أبواب منازلهم ومنهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة في العقد ولا حظاً من العطية، فلو كنت إذا فعلت ما فعلت أشهدت على معاوية وجوه أهل المشرق والمغرب، وكسبت عليه كتاباً بأن الأمر لك بعده، كان الأمر علينا أيسر ولكنه أعطاك شيئاً بينك وبينه، ثم لم يف به ثم لم يلبث أن قال على رؤوس الناس: إني كنت شرط شروطاً ووعدت عدة إرادة لإطفاء نار الحرب ومداراة لقطع هذه الفتنة، فأما إذا من الله علينا الكلمة والألفة وأمننا من الفرقة فإن ذلك تحت قدمي، فوالله ما اغترنى بذلك إلا ما كان بينك وبينه وقد نقض، فإذا شئت فأعد الحرب جعدة^(١) واثذن لي في تقدمك إلى الكوفة فأخرج عنها عامله وأظهر خلعه ونَبَذَ إليه على سواء إن الله لا يحب الخائنين، وتكلم الباقر بمثل كلام سليمان^(٢).

فقال الحسن: أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالخزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أريض وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني بأساً، ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة، ولكنني أرى غير مارأيتهم، وما أردت بما فعلت إلا حقن الدماء، فارضضوا بقضاء الله وسلموا لأمره والزموا بيوتكم وأمسكوا، أو قال كفوا أيديكم، حتى يستريح بر أو يُستراح من فار.

حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي ومحمد بن حاتم المروزي قالا: ثنا أبو داود صاحب الطيالسة عن شعبة عن يزيد بن حمير عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال:

قلت للحسن: إن الناس يقولون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب يبدى يسالمون من سالت ويحاربون من حاربت، فتركها ابتغاء وجه الله، ثم أريدها بأهل الحجاز، وقال أحدهما: بأتياس الحجاز.

(١) الجذع: صغير أنساب، وإذا طفت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شتم أعدنا جعدة أي ما يتبدأ فيها - اللسان.

(٢) مقاتل الطالبين ص ٦٣.

٢٠ - رأى الحسين بن علي فيبيعة الحسن معاوية:

لما بايع أهل الكوفة الحسن أطاعوه وأحبوه أشد من جبههم لأبيه، واجتمع له خمسون ألفا فخرج بهم حتى أتى المدائن، وشرح بين يديه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عشرين ألفا فتزل بمسكن، وأقبل معاوية من الشام في جيش. ثم إن الحسن خلا ناحية الحسين، فقال: يا هذا إنني نظرت في أمري فوجدتني لا أصل إلى الأمر حتى يقتل من أهل العراق والشام من لا أحب أن أحتمل دمه، وقد رأيت أن أسلم الأمر إلى معاوية فأشاركه في إحسانه ويكون عليه إساءته.

فقال الحسين: أنشدك الله أن لا تكون أول من عاب أباك وطعن عليه ورغب عن أمره، فقال: إنني لا أرى ماتقول، ووالله لئن لم تبايعني لأشدنك في الحديد فلا تزال فيه حتى أفرغ من أمري، قال: فشأنك، فقام الحسن خطيبا فذكر رأيه في الصلح والسلام وما كره من سفك الدماء وإقامة الحرب، فوثب عليه أهل الكوفة وانتهبوا ماله وخرقوا سراجه وشتموه وعجزوه، ثم انصرفوا عنه ولحقوا بالكوفة، فبلغ الخبر قيسا، فخرج إلى أصحابه، فقال: يا قوم إن هؤلاء القوم كذبوا محمدا ﷺ وكفروا به ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فلما أخذتهم الملائكة من بين أيديهم ومن خلفهم وعن يمينهم وشمالهم دخلوا في الإسلام كرها وفي أنفسهم ما فيها من النفاق، فلما وجدوا السبيل إلى خلافه أظهروا ما في أنفسهم، وإن الحسن عجز وضعف وركن إلى صلح معاوية، فإن شئتم أن تقاتلوا بغير إمام فعلتم، وإن شئتم أن تدخلوا في الفتنة دخلتم، قالوا فإنا ندخل في الفتنة، وأعطى معاوية حسنا ما أراد في صحيفة بعث بها إليه مختومة اشترط الحسن فيها شروطا^(١).

فلما بايع معاوية لم يعطه مما كتب شيئا، فانصرف الحسن إلى المدينة ومعاوية إلى الشام.

قالوا: ولما صالح الحسن معاوية وثب حمran بن أبان فأخذ البصرة، وأراد معاوية أن يبعث إليها رسلا من أهل الشام من بلقين فكلمه عبيد الله بن عباس في ذلك فأمسك، وولى عتبة بن أبي سفيان البصرة فقال له ابن عامر: إن لى بها أموالا وودائع فإن لم تولنيها ذهبت فولاه البصرة.

(١) مقاتل الطالبين أبو الفرج الأصفهاني.

٢١ - ما جرى بين الحسن وزياد بن أبي سفيان:

حدثني أبو مسعود عن ابن عوف عن أبيه، قال:

لما دعى معاوية زيادا وولاه، طلب زياد رجلا كان قد دخل في صلح الحسن وأمانه، فكتب الحسن فيه إلى زياد ولم ينسبه إلى أب، فكتب إليه زياد: أما بعد فقد أتاني كتابك في فاسق يؤوي مثله الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وإيم الله لأطلبه ولو بين جلدك ولحمك فإن أحب لحم إلى أكله للحم أنت منه.

٢٢ - الحسن وحق الخطأ:

يعتبر الحسن بن علي أول من حل بيعته بنفسه وأول من تنازل عن حقه في البيعة لخصمه معاوية حقنا لدماء المسلمين وإطفاء لنار الحرب التي أكلت العرب أكل النار للهشيم، ولم يكن الحسن بالراغب عن الخلافة أو الكاره لها راکنا إلى الراحة والدعة إنما الأمور وفق نظره - وهو على حق فيما قرر - أنى نظرت إليها لا تأتى بخير - فمن جهة الشام فما زال معاوية يملك مقاليد الأمور في قبضته وهو في الحكم والإدارة محنك قد خبر المناورة والحرب ومعاملة شيوخ القبائل. وفي مكة ما زال ابن الزبير بجيشه متعلقا بأستار الكعبة حتى مات فيها - وجيش علي قد انقسم على نفسه وانشق عليه الخوارج بقيادة الراسبي. وقبائل خاب أملها ووقفت في مفترق الطرق بعدما غدرت بالإمام علي فلم تستطع اللحاق بمعاوية وهو حسير، لقد كان الحسن مصيبا فيما رأى وله حق الخطأ ويؤء بأجره إن أخطأه الصواب، ولا شك أن تنازله عن الخلافة لمعاوية يلقي من جانب آخر وعلي رأس قيس تفسير العجز والمهانة في قوله: وإن الحسن عجز وضعف وركن إلى صلح معاوية فلإن شتم أن تقاتلوا بغير إمام فعلمت وإن شتم أن تدخلوا في الفتنة دخلتم، قالوا فلإننا ندخل في الفتنة.

٢٣ - معاوية يتقول على الحسن بالقول بالرفض:

حوارات في الأدب السياسي: الحسن ومعاوية:

انفرد الأصفهاني في كتابه «مقاتل الطالبين» بذكر مراسلات جرت بين الحسن ومعاوية، وهي - ولاشك - لون من ألوان الأدب السياسي الرفيع.

والذى يقرأ التراسل بينهما يعلم أن الحسن ما صالح معاوية صلح المتعجل لمتاع دنياه ولا من أجل إغراء معاوية له بخزائن البصرة كما رعمت دائرة المعارف الإسلامية، وسبق مناقشته. فقد بسط فى رسائله موقف العرب من قريش، وقريش من العرب، وأن قريشا نالت الفضل بقولها: ولا يحل أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ فى الناس وحقه - فرأت العرب أن القول ماقالت قريش.

ثم يقول الحسن: ثم حاجبنا نحن قريشا بمثل ما حاجت به العرب. فلم تنصفنا لشيء إِنْصاف العرب لها.

٢٤ - تأويل معاوية لرسالة الحسن:

ثم يقول لمعاوية: فالיום فليعجب المتعجب من تويتك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل فى الدين معروف ولا أثر فى الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ.

ثم يرد عليه معاوية ما ولا خطابه تأويلا لا يحتمله نص خطاب الحسن إليه ويحمل عليه بهتاناً وزوراً أنه يتهم أبا بكر وعمر وأبا عبيدة الأمين، وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار، فحمله مسئولية الرفض والرافضة.

وذلك واضح من رد معاوية على رسالة الحسن فى قوله: وذكرت وفاة النبى ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار فكرهت ذلك لك، فإنك امرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين، ولا المسىء ولا اللثيم. وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

ويقول: واختاروا أبا بكر، كان ذلك رأى ذوى الحجى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أنوا بمخطئين.

وليس معاوية للحسن بالناصح الأمين فى قوله وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل، وإيم الحق لقد كان قوله سديداً وذكره جميلاً ولو كان معاوية ناصحاً ما عرض بالحسن تعريضاً مشيناً ولا أوله معانى لا يحتملها خطابه تحمل من السوء لأبى بكر وعمر وأبى عبيدة أمين هذه الأمة ما تحمل. . . والموعود الله وليس للحسن وهو من

ذوى الرأى أن يخوض فى صحابة رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو بكر. فالخطاب لمعاوية والتعريض لمعاوية وهو الذى خرج على اجتماع السقيفة. وذلك ما أكثر عليه الحسن فى خطابه حين قال: فادخل فى السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك.. وهاتيك المراسلات:

وكتب الحسن إلى معاوية مع جندب بن عبد الله الأردى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان، سلام عليك، إناى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإن الله - تعالى عز وجل - بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ومنة على المؤمنين، وكافة إلى الناس أجمعين ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠) [يس]، فبلغ رسالات الله، وقام على أمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان، حتى أظهر الله به الحق، ومحق به الشرك، ونصر به المؤمنين، وأعز به العرب، وشرف به قريشا خاصة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَدِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ (٤٤) [الزخرف] فلما توفى ﷺ تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ فى الناس - وحقه، فرأت العرب أن القول كما قالت قريش، وأن الحجة لهم فى ذلك على من نازعهم أمر محمد ﷺ فأنعمته^(١) لهم العرب وسلمت ذلك، ثم حاجبنا نحن قريشا بمثل ما حاجت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانصاف والاحتجاج فلما صرنا أهل بيت محمد ﷺ وأولياءه إلى حاجتهم، وطلب النصفة منهم باعدونا، واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومرامتنا، والعنت منهم لنا، فالموعد الله، وهو الولى النصير.

وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا، وسلطان نبينا ﷺ وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساد، فالיום فليعجب المتعجبون من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل فى الدين معروف، ولا أثر فى الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن

(١) أنعمت: أى قالت لهم نعم.

أعدى قريش لرسول الله ﷺ، ولكن الله خيبك وسترده فتعلم لمن عقبى الدار، تالذ لتلقين عن قليل ربك، ثم ليحزبنك بما قدمت يدك، وما الله بظلام للعبيد.

إن عليا - رضوان الله عليه - لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه - يوم قبض، ويوم من الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا - ولأنى المسلمون الأمر بعده، فأسأل الله أن لا يزيدنا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامته، وإنما حملنى على الكتاب إليك الإغذار فيما بينى وبين الله - سبحانه وتعالى - فى أمرك، ولك فى ذلك إن فعلت الحظ الجسيم، وللمسلمين فيه صلاح، فدع التماذى فى الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أبواب حفيظ، ومن له قلب منيب، واتق الله، ودع البغى، واحقن دماء المسلمين، فوالله ما لك من خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقية به، فادخل فى السلم والطاعة، ولا تنزع الأمر أهله، ومن هو أحق به منك، ليطفئ الله النائرة^(١) بذلك، وتجمع الكلمة، وتصلح ذات البين، وإن أنت أبيت إلا التماذى فى غيك نهده^(٢) إليك بالمسلمين، فحاكيتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين^(٣).

فكتب إليه معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي، سلام عليك، فلانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغنى كتابك، وفهمت ما ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله، قديمه وحديثه، وصغيره وكبيره، فقد والله بلغ فأدى، ونصح وهدى، حتى أنقذ الله به من التهلكة، وأثار به من العمى، وهدى به من الضلالة، فجزاه الله أفضل ما جزى نبيا عن أمته، وصلوات الله عليه يوم ولد ويوم قبض، ويوم يبعث حيا.

وذكرت وفاة النبى ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين، وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك، فإنك امرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين، ولا المسىء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

(١) النائرة: العداوة والبغضاء.

(٢) نهده إليه: ارتفع.

(٣) ابن أبى الحديد ١٢٤.

إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبينا لم تجهل فضلكم، ولا سابقتكم ولا قرابتكم من النبي ﷺ، ولا مكانتكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبينا، ورأى صلحاء الناس من قريش والانتصار وغيرهم من سائر الناس وعامتهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، واختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأى ذَوِي الحُجَى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا بمتهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين، ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناه أو يقوم مقامه، أو يذب عن حريم المسلمين ذبه، ماعدلوا بذلك الأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، فאלله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا.

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد النبي ﷺ. ولو علمت أنك أضبط مني للرغبة، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلا، ولكنني قد علمت أنني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة مجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سنا، فأنت أحق أن تحييني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدى، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغ ما بلغ تحمله إلى حيث أحببت ولك خراج أى كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجيها لك أمينك، ويحملها إليك في كل سنة. ولك ألا يستولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله - عز وجل - أعاننا الله وإياك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء. والسلام.

قال جندب:

فلما أتيت الحسن بن علي بكتاب معاوية قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأ أنت بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله، فلما أن تقدّر أنه يتناولك فلا والله حتى يرى يوما أعظم من يوم صفين، فقال:

أفعل، ثم قعد عن مشورتى وتناسى قولى^(١).

(١) ابن أبي الحديد ١٣٤.

قال: وكتب معاوية إلى الحسن بن علي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله - عز وجل - يفعل في عباده ما يشاء، ﴿... لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد] فاحذر أن تكون منيتك على يد رعاك من الناس، وإشس من أن تجد فينا غميمة، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وباعتني وفيت لك بما وعدت، وأجزت لك ماشرطت، وأكون في ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة.

وإن أحد أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وإيا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تحفه إن كان في المال فانيا

ثم الخلفة لك من بعدى، فأنت أولى الناس بها، والسلام.

فأجابه الحسن بن علي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، وصل إلي كتابك تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغى عليك، وبالله أعود من ذلك، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله، وعلى إثم أن أقول فأكذب، والسلام^(٢).

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه، ثم كتب إلى عماله على النواحي نسخة واحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإننى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذى كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتمكم، إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبى طالب رجلا من عباده. فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائهم، فاقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجنذكم وعددكم وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثار، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغى والعدوان، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٣).

(١) الغميمة: الطعن. (٢) ابن أبى الحديد ١٣٤.

(٣) ابن أبى الحديد ١٣٤.

قال: فاجتمعت العساكر إلى معاوية بن أبي سفيان، وسار قاصدا إلى العراق وبلغ الحسن خبر مسيره، وأنه بلغ (جسر) منب، فتحرك لذلك، ويعث حجر بن عدي يأمر - العمال والناس بالتهيؤ للمسير، ونادى النادى: الصلاة جامعة، فأقبل الناس يثوبون ويجمعون، فقال الحسن: إذا رضيت جماعة الناس فأعلمنى، وأتى سعيد بن قيس الهمداني، فقال: اخرج، فخرج الحسن - عليه السلام - فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسماه كرها^(١).

ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿...وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) [الأنفال]، فلستم أيها الناس ناثلين ما تحبون، إلا بالصبر على ماتكرهون، إنه بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، فاخرجوا - رحمكم الله - إلى معسكركم بالنخيلة (حتى ننظر وتنظروا ونرى وتروا).

٢٥ - وفاة الحسن بن علي - عليهما السلام:

قالوا: وطال مرض الحسن بعد قدومه المدينة من العراق حتى قيل إنه السل، ثم إنه شرب شربة عسل فمات منها، وقيل إنه سُم أربع دفعات فمات فى آخرهن، وأتاه الحسين وهو مريض فقال له: أخبرنى من سقاك السم، قال: لتقتله، قال: نعم، قال: ما أنا بمخبرك، إن كان صاحبى الذى أظن والله أشد له نقمة، وإلا فوالله لا يقتل بى برىء.

وقد قيل: إن معاوية دس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس وأرغبها حتى سمته وكانت شائنة له، وقال الهيثم بن عدي: دس معاوية إلى ابنة سهيل بن عمرو امرأة الحسن مائة ألف دينار على أن تسقيه شربة بعث بها إليها ففعلت.

قالوا: وكانت وفاة الحسن فى سنة تسع وأربعين، ويقال سنة خمسين لحمس خلون من شهر ربيع الأول، وزعم بعضهم أنه توفي سنة إحدى وخمسين، قالوا: ودفن الحسن بالبقيع، وصلى عليه سعيد بن العاص^١ بن أمية، وكان واليا على المدينة.

(١) قال تعالى: ﴿كَبَّ عَلَىكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهَ لَكُمْ﴾.

الفصل الثالث

الشهيد الإمام الحسين وحق العدل السياسي

١ - الحسين والحق السياسي:

وعقب موت معاوية أصبح يزيد خليفة على المسلمين . وعندئذ أعلن الحسين وهو أكبر أبناء علي المتبقين على قيد الحياة والذي كان يقيم آنئذ في المدينة المنورة مطالبته بالخلافة على أساس أن الخلافة تخص بيت النبي ﷺ وعلى أساس أنه أكبر الأعضاء الذكور في بيت النبي ﷺ . وأشار إلى أن يزيد يعتبر مغتصبا للخلافة . فوصلته رسائل تأييد مليئة بالحماسة من الكوفة التي تعتبر القلعة التي تضم مؤيدي وأنصار علي بن أبي طالب . وكانت تلك الرسائل مليئة بالعبارات التي تشجعه على المطالبة بالخلافة وإحياء المجد الذي هيمن على دار الإسلام في أثناء فترة حكم الإمام علي . ووصلت هذه الأنباء إلى يزيد بن معاوية . فسارع إلى إيفاد أحد مساعديه الموثوق بهم إلى الكوفة وهو عبيد الله بن زياد . فاستخدم ابن زياد نفس التكتيكات القديمة المتعارفة بالاستقطاب والقمع وممارسة الضغوط وتمكن من تحييد القوات العسكرية المناهضة ليزيد بن معاوية . وكان الحسين آنئذ لا تساوره أدنى شكوك في مدى إخلاص أنصاره المتواجدين بالكوفة فسافر مع عائلته برفقة ٧٢ من التابعين له : ٤٠ من الفرسان + ٣٢ من المشاة متجها إلى جنوب العراق .

وفي يوم ١ محرم ٦١ هجرية الموافق ٨ مايو ٦٨١ وعلى مسافة حوالى ثلاثين ميلا من الكوفة اعترض جنود يزيد بن معاوية سبيل الحسين ورفاقه وأسرته عند كربلاء . وعلى مدى الأيام الثمانية التالية حاول قائد قوات يزيد بن معاوية الحصول من الحسين

على التسليم غير المشروط من خلال المفاوضات معه. إلا أنه لم يفلح في هذا الشأن. إذ كان الحسين يؤمن إيمانا راسخا وكاملا بأحقية في الخلافة. ورفض التزحزح عن موقفه حتى بعد أن أدرك أن قواته تعتبر ضئيلة للغاية بالنسبة لجنود يزيد بن معاوية وأن الهزيمة والموت أمران محققان ولا مفر منهما. وهذا الاستخفاف بالبرجماتية التي تنادي بالتضحية بالمبادئ السامية الرفيعة على محراب الواقعة كان بمثابة إعلاء وإظهار للمثالية التي فجرت، أدرك أن الظلم قد وقع عليه كما كان يدرك أن استشهاد من شأنه أن يحيى مطالبة بيت النبي محمد ﷺ بالخلافة مستقبلا.

وكان يتميز بالتقوى والورع والروحانية على نحو غير عادي وأعطى استشهادا درساً في قيمة مبادئ الحق السياسى السامية. وأن المؤمن الحق ينبغي أن يتمتع عن مبايعة الحاكم القائم على الاستبداد والفساد مع استخدام القوة المسلحة إذا اقتضت الضرورة وذلك إذا أصبح نظام الحكم السائد متسماً بالظلم والطغيان حتى لو كانت فرص النجاح في الإطاحة بالحكم الفاسد ضئيلة للغاية. تلك كانت رؤية الإمام الحسين.

٢ - الشيعة: الكوفة والبصرة؛

وكان يقال: «من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) وليقل: رحم الله عثمان بن عفان»^(١). وفي غضون القرن الرابع امتد مذهب الشيعة إلى البصرة، وهى المنافس القديم للكوفة والتي كان يقال عنها فى القرن الثالث: أما البصرة وسواها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا إلا القليل، «وأما الكوفة وسواها فقد غلب عليها علي وشيعته»^(٢)، وفى البصرة اضطر أبو بكر الصولى (المتوفى عام ٣٣٠هـ - ٩٤٢م) أن يستتر وقتاً ما، لأنه روى خبراً فى علي - رضى الله عنه -، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله^(٣). وفى القرن الخامس الهجرى كان فى البصرة ما لا يقل عن ثلاثة عشر مكاناً تتصل بذكرى علي، وكان يقدها الشيعة. بل كان يوجد فى المسجد الكبير فى ذلك الوقت أثر من^(٤) آثار علي يعرض للناس، وهو قطعة من

(١) رسائل أبى بكر الخوارزمى طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٧، ص ٤٩.

(٢) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٨٢ بمكتبة باريس الأهلية ص ١٤ ب، يقول المقدسى (ص ١٢٦): إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناس فإنها سنية.

(٣) ثلاث رسائل لأبى عثمان الجاحظ طبعة فان فلوتن بليدن ١٩٠٣ ص ٩.

(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٥٠.

الخشب طولها ثلاثون ذراعا وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة أصابع، يقال إن عليا جاء بها من الهند^(١).

٣ - عبد الله بن عباس وخروج الحسين إلى الكوفة:

حين عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة تذكر رأى الحكيم للمحنك عبد الله بن عباس ورأى ابن الزبير المداهن المتعلق بأستار الكعبة.

يقول الاصفهاني: وكان مسلم قد كتب إلى الحسين بأخذ البيعة له، واجتماع الناس عليه، وانتظارهم إياه، فأرغم الشخص إلى الكوفة، ولقيه عبد الله بن الزبير في تلك الأيام ولم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجهم إلى العراق طمعا في الثوب بالحجاز، وعلموا بأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين، فقال له: على أي شيء عزمت يا أبا عبد الله، فأخبره برأيه في إتيان الكوفة، وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل إليه، فقال له ابن الزبير: فما يحبسك، فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت في شيء، وقوى عزمه، ثم انصرف. وجاءه بعده عبد الله بن عباس وقد أجمع رأيه على الخروج، وحققه، فعل يناشده في المقام، ويعظم عليه القول في ذم أهل الكوفة، وقال له: إنك تأتي قوما قتلوا أبك، وطعنوا أخاك، وما أراهم إلا خاذليك، فقال له: هذه كتبهم معي، وهذا كتاب مسلم باجتماعهم، فقال له ابن عباس: أما إذا كنت لا بد فاعلا فلا تخرج أحدا من ولدك، ولا حرمك ولا نساءك فخليق أن لا تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل ابن عفان، فأبى ذلك ولم يقبله.

قال: فذكر من حضره يوم قتل وهو يلتفت إلى حرمه وإخوته وهن يخرجن من أخبيتهن جزعا لقتل من يقتل معه ومايرينه به، ويقول: لله در ابن عباس فيما أشار علي به.

قال: فلما أبى الحسين قبول رأى ابن عباس قال له: والله لو أعلم أني إذا تشبث بك وقبضت على مجامع ثوبك، وأدخلت يدي في شعرك حتى يجتمع الناس على وعليك، كان ذلك ناعفي لفعلته، ولكن أعلم أن الله بالغ أمره، ثم أرسل عينه فبكى،

(١) ناصر خسرو ص ٨٧. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم متر. ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة.

وودع الحسين، وانصرف ومضى الحسين لوجهه، ولقى ابن عباس بعد خروجه عبد الله ابن الزبير فقال له:

يا لك من قبرة بمعر
خلا لك الجو فيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى هذا الحسين خارجا فاستبشرى^(١)
فقال: قد خرج الحسين وخلت لك الحجار.

٤ - الشيعة لم تغدربا الحسين:

من الصعب أن نقذف بمأساة الحسين على شيعته لعدة وجوه منها: أن شيعته في الكوفة لم تتمكن من الخروج منها بعد أن قطع عليها وعلى الحسين طريق تلاقيهما، عبيد الله بن زياد وإلى الكوفة والبصرة - وتختلف عنه في المدينة القرشيون والأنصار من التقاة المخلصين ولم يكن تخلفهم عنه غدرا به، إنما هو الرأي والمشورة فأشاروا عليه بعدم الخروج كما نصحه ابن عباس. . . وخرج معه وهو في طريقه إلى الكوفة أعراب لا يميزون بين الناقة والجمال الذين يرون أن في خروج الحسين مغنما من غير حرب شرسة وهم قبائل البوادي مانعو الزكاة والمرتدون أدعياء النبوة الذين انقلبوا على أعقابهم بعد وفاة الرسول ﷺ وسير لهم الخليفة الأول جيشا على رأسه أسامة بن زيد وعرفت بحروب الردة، كما كان استشهاد مسلم بن عقيل والتمثيل به أن أضعف من سير المعركة وغاب عنصر التخطيط للمعركة الفاصلة. فلم يكن هناك قائد منظم لجيش الشيعة في الكوفة ولم يكن مع الحسين جيش منظم إلا بعض رجال لا يتكاثرون مع جيش ابن زياد الذي لم يلحقه قتر ولا ذلة من عناء السفر وطول الطريق بين المدينة والكوفة وكان سواده الأعظم رعاة بدو وهمج الأعراب.

٥ - عبيد الله بن زياد يقطع الطريق على الحسين وشيعته في الكوفة:

قال أبو مخنف في حديثه خاصة عن رجاله:

إن عبيد الله بن زياد وجه الحر بن يزيد ليأخذ الطريق على الحسين، فلما صار في بعض الطريق لقيه أعرابيان من بني أسد، فسألهما عن الخبر، فقالا له: يا ابن رسول الله، إن قلوب الناس معك، وسيوفهم عليك، فارجع، وأخبره بقتل ابن عقيل وأصحابه،

(١) مقاتل الطالبين، ص ١١٠.

فاسترجع الحسين، فقال له بنو عقيل: لا نرجع والله أبداً أو ندرك ثأرنا أو نقتل بأجمعنا، فقال لمن كان لحق به من الأعراب: من كان منكم يريد الانصراف عنا فهو في حل من بيعتنا. فانصرفوا عنه، وبقي في أهل بيته، ونفر من أصحابه^(١).

ومضى حتى دنا من الحر بن يزيد، فلما عاين أصحابه العسكر من بعيد كبروا، فقال لهم الحسين: ما هذا التكبير، قالوا: رأينا النخل، فقال بعض أصحابه: ما بهذا الموضع والله نخل، ولا أحسبكم ترون إلا هودى الخيل وأطراف الرماح، فقال الحسين: وأنا والله أرى ذلك، فمضوا لوجوههم، ولحقهم الحر بن يزيد في أصحابه، فقال للحسين: إنى أمرت أن أنزلك في أى موضع لقيتك وأجمع بك، ولا أترك أن تزول من مكانك^(٢).

٦ - مسلم بن عقيل:

توفي أكبر أبناء علي من فاطمة، وهو الحسن، في سنة ٤٩ هـ. وكان قد خيب آمال أنصار أبيه بالطريقة التي تنازل بها عن الخلافة وفقد احترامهم له، فانتجبت أبصارهم إلى أخيه الأصغر: الحسين. ولما توفي معاوية وانتهت خلافته في سنة ٦٠ هـ حيث أمال الشيعة من جديد. فرفض الحسين - وكان آنذاك في منتصف الخمسين من عمره - أن يبايع يزيداً، وحتى يخلص من سلطان يزيد فر من المدينة، وهى المركز الدائم لأنصار علي، والتجأ إلى مكة (عند أواخر رجب سنة ٦٠ هـ). فدعاه أهل الكوفة إليهم للخروج تحت قيادته على سلطان بنى أمية. وأرسلوا إليه في هذا المعنى بعدة رسائل، ووصل إلى مكة رسلهم الأول في ١٠ رمضان سنة ٦٠ هـ (١٤ يونيو سنة ٦٨٠ م). وكان أصحاب هذه الرسائل^(٣) رجالاً بارزين من القبائل، ومن اليمانية على وجه الخصوص، وقد كانت اليمانية في الكوفة أكبر القبائل عدداً وأهمية. ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة التي وجهها الكثيرون.

لما بلغ أهل الكوفة نزول الحسين مكة، وأنه لم يبايع ليزيد وفد إليه وفد منهم عليهم أبو عبد الله الجدلي، وكتب إليه شيث بن ربعي، وسليمان بن صرد، والمسيب

(١) مقاتل الطالبين - ص ١١١ أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق السيد صقر.

(٢) ابن الأثير ص ١٧، ومقتل الحسين ص ٤١. والطبرى ج ٧ ص ٢١٧ وابن عساکر ج ٤ ص ٣٣١.

(٣) راجع ما يقوله الطبرى ج ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٥. وتاريخ الدولة العربية ص ٢٥٠.

ابن نجية، ووجوه أهل الكوفة يدعونه إلى بيعته، وخلع يزيد^(١)، فقال لهم: أبعث معكم أخى وابن عمى فإذا أخذ لى بيعتى، وأتانى عنهم بمثل ماكتبوا به إلى قدمت عليهم.

ودعا مسلم بن عقيل فقال: اشخص إلى الكوفة، فإن رأيت منهم اجتماعا على ماكتبوا، ورأيتهم أمرا ترى الخروج معه، فاكتب إلى برأيك. فقدم مسلم الكوفة، وأتته الشيعة، فأخذ يبعثهم للحسين. ولكنه أثر أن يبعث أولا بابن عمه مسلم بن عقيل ليتحسس الأرض ويهئ السبل أمامه. ونزل مسلم فى الكوفة أولا عند المختار بن أبى عبيد^(٢) الثقفى. ثم انتقل بعد ذلك إلى رجل بارز من بنى مراد هو هانىء بن عروة بن مذحج. وكان كسب الأنصار للحسين يتم بسرعة. ولكن مع احتياط شديد، فلم يكن يقبل كل من يظهر الرغبة فى الانضمام. وفى مدة قليلة تقدم الآلاف بالبيعة للحسين على يد مسلم بن عقيل أو من ينسبهم عنه. وتولى أبو ثمامة الصائلى جمع الأموال والسلاح. وجرى كل شىء على مايرام حتى إن مسلم بن عقيل كتب إلى الحسين يخبره بالقدوم.

٧ - موالى ابن زياد تغدر بمسلم بن عقيل:

وكان والى الكوفة لما أن قدم مسلم بن عقيل هو النعمان بن بشير الأنصارى. فاشتبه فى وجود شىء. ولكنه لم يشأ أن يتخذ إجراءات شديدة لمجرد الشبهة، فإن تقوى الله أسبق عنده من خدمة السلطان. فلما علم يزيد بن معاوية بمسلكه استبدل به بناء على مشورة مرجيوس شخصا أقل تحفظا وورعا هو عبيد الله بن زياد والى البصرة^(٣). فأسرع هذا من أقصر طريق خلال الصحارى متوجها إلى الكوفة فى نفر قليل من الرجال^(٤). وكان يلبس عمامة سوداء وعلى فمه لثام فحسب الناس أولا أنه الحسين الذى ينتظرونه^(٥).

(١) كذلك فى الدينورى ص ٢٤٥ س ٤. وابن عوسجة الوارد فى رواية الذهبى (ج ٢ ص ٢٢٨ ص ١٠) لعله خلط.

(٢) رواية عوانة فى الطبرى ج ٢ ص ٢٣٩ س ١٠ ص ٢٤٠ س ٥.

(٣) رواية عوانة فى الطبرى ج ٢ ص ٢٣٩ س ١٠ ص ٢٤٠ س ٥.

(٤) وردت فى صورة متقحة فى رواية عمر بن شبة (الطبرى ج ٢ ص ٢٤٣).

(٥) ويقول أبو مخنف: إنه غضب لذلك، ويقول عمر بن شبة: إنه لم يابه لذلك بل مضى ينقل خطته وما كلف به. الخوارج والشيعة ص ١٥٠. فلهاورن.

فلما عرفهم بنفسه أخليت له المدينة . فانتقل إلى المسجد مباشرة وخطب خطبة قصيرة . وأمر كل عريف^(١) أن يدل على الغرباء القاطنين في عرافته أو أن يضمن أنه لا يوجد فيها أحد مشتبّه فيه ، وإلا صلب على باب داره ورفع المال عن عرافته ونفى خارج الكوفة .

وكان قد علم بنية الحسين عن طريق رسالة استولى عليها . ولكن يلوح أنه لم يكن على علم^(٢) بوجود مسلم بن عقيل في الكوفة . وعلى الأقل كان يجهل مكان إقامته . وذهب وهو لا يدري إلى مغارة الأسد . أعنى إلى بيت هانئ بن عروة ، لعيادة مريض . وكاد أن يقتل هناك^(٣) . ولم يأت العرفاء بخبر أحد . وإنما أتاه بالأخبار جاسوس غير عري . بل مولى اسمه معقل ، استطاع أن ينفذ إلى ابن عوسجة الشيعي . وعرض عليه ثلاثة آلاف درهم قال إنه جمعها للشيعة ويريد أن يقدمها للشخص المتولى لأمر الشيعة . فاقتراده ابن عوسجة إلى مسلم بن عقيل وأقسم يمين الإخلاص . ومن ذلك الوقت كان في صحبة مسلم ، وكان يسمع ويرى كل شيء يجري في دار هانئ بن عروة . وينقل ذلك كله إلى عبيد الله .

٨ - عبيد الله بن زياد وهانئ بن عروة وجواسيس الموالي؛

وأرسل عبيد الله إلى هانئ رجلين شرفين صديقين لهانئ ليأتوا به إلى عبيد الله بحجة أن هذا لم يرد عنده منذ وقت طويل . فلما مثل أمامه حادثه في الأمر^(٤) . ولم

(١) هذا لقب رئيس الفصيلة الحربية ورئيس القسم في المدينة .

(٢) الأخيار الخاصة بهذا الأمر تدعو إلى الشك .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٢٤٦ وما يليها ، ص ٢٤٤ (وقارن ج ٢ ص ٥٣ ، ٤٤ وما يليها) ، الدينوري ص ٢٤٨ وما يليها .

(٤) في رواية عمر بن شبة (الطبري ج ٢ ص ٢٤٥) أن عبيد الله قال لهانئ: «يا هانئ! أما تعلم أن أبي قلم هذا البلد، فلم يترك أحدا من هذه الشيعة إلا قتله غير أبيك وغير حجر، وكان من حجر ماقد علمت ثم لم يزل يحسن صحبتك، فقال هانئ: «نعم!» قال عبيد الله: «فكان جزائي أن خبأت في بيتك رجلا ليقتلني؟» قال: «مافعلت» فأخرج عبيد الله الجاسوس، فلما رآه هانئ علم أن قد أخبره الخبر. فقال: «أيها الأمير! قد كان الذي بلغك، ولن أضيع يدك عنى فأتت آمن وأهلك فسر حيث شئت. فكبأ عبيد الله عندها، ومهران قائم على رأسه في يده معكزة، فقال: «وأذلاء! هذا العبد الحائك يؤمنك في سلطانك!» فقال: «خذ!» فطرح المعكزة وأخذ بضفيرتي هانئ ثم ألقه بوجهه. ثم أخذ عبيد الله المعكزة فضرب به وجه هانئ... وتصوير زياد بأنه قاتل جميع شيعة الكوفة تكفي للحكم على هذا الخبر. قارن الطبري ص ٢٨٤ ما يليها. الخوارج والشيعة - فلهاورن ترجمة عبد الرحمن بدوي.

يستطع الكذب بحضرة الجاسوس. ووعد بأن يصرف ضيفه (أى مسلم بن عقيل)، ولكنه لم يشأ أن يسلمه. فهدده عبيد الله بالقتل، فقال هاني: «إذن تكثر البارقة حول دارك!»، فكان رد عبيد الله أن استعرض وجهه بالقضيب فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وضربه حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه. فوثب هاني وأخذ سيف شرطى كان إلى جواره. فأمسكوا به وسجنوه. وفى تلك الأثناء أقبل بنو مذحج حتى أحاطوا بالقصر وهم يقولون: «لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة، ولكننا سمعنا أن أخانا يقتل. فقام القاضى شريح فهذا ثأرتهم بأن أكد لهم أن هانئا حى. فشكروا الله وانسحبوا وكان كل شيء كان على مايرام.

٩- القائد مسلم بن عقيل يفتقر إلى السياسة:

ولكن هذا لم يكف لإبعاد الخطر عن عبيد الله. إذ لم يكد مسلم بن عقيل يعلم بحبس هاني حتى قرر ألا ينتظر طويلا. فجمع أصحابه بسرعة^(١) وسار بهم فى اليوم نفسه إلى السوق. وأما عبيد الله فانطلق من المسجد حيث كان يقيم الصلاة وتحرز فى القصر وغلق الأبواب. ولم يكن معه إلا بعض الموالى وثلاثون رجلا من الشرطة وعشرون رجلا من أشرف الناس وأهل بيته، وكان هؤلاء الأشراف يخضعون لنفوذه وإن كان بعضهم شيعيا متحمسا أسهم فى استقدام الحسين^(٢). وكان على هؤلاء الأشراف أن يبينوا للثائرين النتائج الخطيرة التى ستترتب على خروجهم وأن يحثوهم على العودة. وكان النسوة أيضا يحثن رجالهن وأهلن على العودة قائلات: ليس لك فى هذا الأمر شيء. وعند المساء كان الناس قد انصرفوا وخلوا مسلم بن عقيل وحيدا، شريدا من الناس. ولم يكن يعرف طرقات الكوفة الضيقة المعقدة، حتى بلغ دور بنى جبلة من كتلة فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة أرمل كانت تنتظر بالباب ابنها. فالتجأ لديها.

ولما وافى المساء كان الهدوء يشمل السوق، فطلب عبيد الله من أصحابه أن ينظروا هل خلا الجو وصفا. ثم صعدوا على سوارى المسجد وأضاءوا القناديل من

(١) فى رواية هارون بن مسلم (الطبرى ج ٢١ ص ٢٧٢)- وهى رواية أقل ثقة - ورد أن من بين هؤلاء كان ييه القرشى المشهور، والمختار الثقفى المشهور أيضا.

(٢) وكان أحدهم، وهو أسماء بن خارجة القيسى (الفزارى)، والد زوجة وصليقا للحكومة، راجع عنه كتاب فهرس الأغاني، الخوارج والشيعه فلهارون.

الفتحات العليا للمسجد، فأبصروا أن ليس ثمة أحد. هناك نزل هو من القصر إلى المسجد. وأمر أن تصلى صلاة العتمة بالمسجد، فلم يكن له إلا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس، فنظمهم على هيئة جيش وأبقى عليهم في أماكنهم. أما الشرطة فقد عبث كلها وأمرت باحتلال أفواه السكك، ليفتشوا في الصباح الأحياء حيا حيا. فلما انبلج الصبح كان ابن تلك المرأة الأرملة قد دل رئيس كتلة، محمد بن الأشعث، على موضع مسلم، وقام محمد بن الأشعث فأخبر الوالي بالخبر. فأمره الوالي بإحضار مسلم، وأخذ معه بعض الشرطة وحوالي من ٦٠ إلى ٧٠ قيسيا؛ وذلك لأن اليمانية لم يكونوا ليجدوا مسلما. وبعد دفاع عنيف - وكانوا يريدون أن يأتوا بمسلم حيا - سلم مسلم نفسه لابن الأشعث واقتيد على بغل بعد أن انتزع منه سيفه. ولما دخل القصر طلب أن يشرب. فلم يجرؤ أحد على تلبية طلبه، إلى أن أخذت الشفقة بقرشى فسقاه. وبعد تبادل كلمات عنيفة بينه وبين عبيد الله صدر الأمر بقتله. فطلب مسلم أن يسمح له بأن يوصى إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص، ابن واحد من أقدم أصحاب محمد ﷺ، وقبل هذا أن يأخذ منه الوصية بعد إذن من عبيد الله. ثم صعدوا به فوق القصر فضربت عنقه وأتبع جسده رأسه. ضربها شرطي فارسي كان قد جرحه مسلم في القتال، وألقى بجثته في الموضع الذي أصبح فيما بعد موضع الجزائريين.

ثم جاء دور هانيء، ولم ينجح وعد الأشراف. جرى به إلى السوق ويدها مشدودتان إلى ظهره. ودعا بنى قومه، فلم يجبه أحد. هنالك فك قيده وبحث عن سلاح، ولكن عبثا ورفض أن يمد عنقه لتضرب قائلا: «ما أنا بها مُجد سخي، وما أنا بمعينكم على نفسي». فضربه مولى تركي لعبيد الله بن زياد، مرتين فقتله. كذلك قتل واحد أو اثنان آخران، وكان ذلك في ريع قبيلتهم إمعانا في الإذلال. وأرسل عبيد الله رأسى مسلم وهانيء إلى الخليفة يزيد ورسالة قصيرة كتبها بيده، لأنه لم يرض بأسلوب كاتبه عمرو بن نافع المسهب المنمق، وعمرو بن نافع قد أراد إدخال الأسلوب الفارسي المسهب (وكان أول من أطال في الكتب). ووافق يزيد بن معاوية على مسلك عبيد الله، ولكنه طلب منه ألا يقتل من قاتله.

لم يوفق مسلم بن عقيل حين استنفر جنده لينقذ هانيء بن عروة من أسره لاشك في أن تلك شهامة عربية تناسب البادية لكنه الآن قائد في بلد بعيد لم يستقر فيها بعد ولم ينظم جيشه ولم يحص أعوانه ولم يتحسس حصونه ولم يعاين مكان المعركة. وليس ما ثار عليه هي قضيته الأساسية وإن كانت هدفا من أهدافه. ثم في النهاية كشف

عن نفسه أمام ابن زياد الذى فر ليعيد ترتيب نفسه . فما نجا من برائن ابن زياد ولم ينج عروة بن هانئ وكانت بداية كسر الحسين .

١٠ - الحسين يللم جيشا من قبائل البدو

ففى اليوم الذى خرج فيه مسلم وقام بالثورة، كان على الحسين الانتقال من مكة، وذلك فى الثامن من ذى الحجة سنة ٦٠هـ^(١). وترقب الناس الحادث المنتظر بصبر متوتر، اغتبط ابن الزبير برحيل ابن بنت رسول الله ﷺ من مكة^(٢)، كان المخلصون ينصحونه بالعدول. ولكنه لم يستمع لنصحهم، بل مضى فى طريقه قدما، وصحبه أقرب أقربائه ومعهم الأهل والأبناء، وكذلك كان معهم أبناء عبدالله بن جعفر، ولكن لم يكن فيهم واحد من بنى العباس. «ثم إن الحسين أقبل حتى مر بالتنعيم، فلقى بها عيرا قد أقبل بها من اليمن بعث بها بحبر بن ريسان الحميرى إلى يزيد بن معاوية. وكان عامله على اليمن. وعلى العير الورس والحلل ينطلق بها إلى يزيد. فأخذها الحسين فانطلق بها»^(٣) ثم مضى فى الطريق إلى الكوفة فمر بذات عرق وبالحاجر (من بطن الرمة)، وردد والشعبية حتى انتهى إلى زبالة. وانضم إليه نفر قليل من أهل الكوفة العائدين من الحج، انضموا مكرهين لما أن دعاهم إلى ذلك، ولكنهم بقوا معه بعد ذلك مخلصين. وفى مواضع المياه التى أقام بها فى الطريق تبعه عدد كبير من البدو. وظن أنه سيستقبل فى الكوفة استقبالا حافلا، ولم يكن يعلم شيئا عن نهاية مسلم بن عقيل الأليمة. وإنما وصلته الأنباء الأولى وهو فى الشعبية، وكان يود أن يعود أدرجه لولا أن إخوة القتل طالبوا بالمضى فى الأمر ليتقموا لمقتل أخيه. وفى زبالة أنه نبأ جديد

(١) ٩ سبتمبر سنة ٦٨٠. هكذا ورد فى رواية أبى مخنف فى الطبرى ج ٢ ص ٢٧١ ص ١٧ بما ورد فى المسعودى ج ٥ ص ١٤٢، ص ٢٧٢ ص ٢٧٥، ص ٢٠، ص ٢٨٩ ص ٤. ويذكر أن اليوم كان الثلاثاء. ولكن يوم ٨ ذى الحجة لم يكن يوم الثلاثاء، بل يوم ٣ ذى الحجة هو الذى كان يوم الثلاثاء، وهو الوارد عند الدينورى ص ٢٥٦. ومع ذلك فإن يوم التروية، وهو يوافق ٨ ذى الحجة، هو الصحيح على الأقل فيما يتصل بخروج الحسين. وكذلك لا تتفق أعداد الأيام وهى صحيحة قطعا- التى تتلو فى شهر المحرم سنة ٦١ مع أسماء الأيام المذكورة قرينها. - وقد أقام مسلم بن عقيل فى الكوفة حوالى من شهر ونصف إلى شهرين. الخوارج والشيعية. ص ١٧٠.

(٢) هنا يرجع إلى الكراهية الشديدة القائمة بين آل الزبير وآل علي، وأصولها تعود إلى أمور أسبق.

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٧٧.

مروع. فقد أرسل رسوله بكتاب، «حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذ الحصين بن تميم^(١) به إلى عبيد الله بن زياد فقال له عبيد الله: اصعد القصر فصب الكذاب ابن الكذاب، فصعد ثم قال: «أيها الناس إن هذا الحسين بن علي - خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله. وأنا رسوله إليكم. وقد فارقت بالحاجر فأجيسوه. ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلى بن أبى طالب. فأمر به عبيد الله بن زياد أن يرمى من فوق القصر. فرمى به. فتقطع فمات». فلما علم الحسين بهذا الخبر قال لمن معه: «من أحب منكم الانصراف فلينصرف. ليس عليه منا ذمام. فتفرق الناس عنه تفرقا فأخذوا يميناً وشمالاً - حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة^(٢). وسار مع هؤلاء الأخيرين حتى مر بطن العقبة فتزل بها ثم ارتحل منها إلى شراف حتى بلغ ماء ذى حُسم فعسكر هناك وتحصن من الخلف بأرض مرتفعة.

١١ - الحر بن يزيد التميمي يقطع الطريق على الحسين؛

وهناك اعترض طريقه فرسان من الكوفة أرسلت من القادسية بقيادة الحر بن يزيد التميمي. تلقوا الحسين باحترام وقاموا بالصلاة وهو يؤمهم. وأبرز لهم الحسين الكتب التي جاءت من الكوفة تدعوه للقدوم، وكانت عملاً خرجين، فقال الحر: لسا من هؤلاء الذين كتبوا إليك. فأراد الحسين الرجوع إلى المدينة. فحال الحر بينهم وبين الانصراف، ولكنه لم يكن لديه أيضاً أمر بمهاجمته. «ولما كثر الكلام بينهما قال له الحر: إني لم أؤمر بقتلك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة. فإذا آبيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة. تكون بيني وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية - إن أردت أن تكتب إليه، أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت - فلعل الله إلى ذاك أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك. قال: فخذ هاهنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلاً. ثم إن الحسين سار فى أصحابه، والحر يسايره^(٣)، ولكنه لم يمنع الشيعة المخلصين القادمين من الكوفة من الانضمام إليه. وهؤلاء أخبروا الحسين بالموقف

(١) يخلط كثيراً بينه وبين الحصين بن تميم الشامي، وهو خلط لا يقع فيه المؤرخون المحدثون وحدهم، بل وقع فيه النساخ القدماء أيضاً- راجع مثلاً الطبرى ج ٢ ص ٤٠٩س ٣، والدينورى ص ٢٥٦س ٤. وكانت القادسية تغلق المدخل إلى الكوفة من ناحية الجزيرة العربية.

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٢٩٤.

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

فى الكوفة فقالوا: «أما أشرف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم: يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم فهم ألب واحد عليك. وأما سائر الناس بعد فإن أفندتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك»^(١).

واستمر الحسين فى سيره مارا بعذيب الهاجانان وقصر بنى مقاتل حتى انتهى وصحبه إلى نينوى على الفرات. وهناك جاء رسول من عبيد الله بن زياد إلى الحر بن يزيد ومعه كتاب من عبيد الله يقول فيه: «أما بعدا فجمع بالحسين حين يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى: فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء». ففعل الحر كما أمره عبيد الله. فلم يكن مسموحا للحسين بالنزول فى نينوى أو الخاضرية أو شقية. فقال زهير بن القين للحسين: «إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به. فقال له الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال. فقال له زهير بن القين: سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها، فإنها حصينة، وهى على شاطئ الفرات، فإن متعونا قاتلناهم»^(٢). وكان اسم هذه القرية العقر، فتشاءم الحسين من اسمها وقال: اللهم إنى أعوذ بك من العقر. وبقي فى موضع ليس فيه ماء غير بعيد من الفرات، فى سهل كريلاء^(٣). وكان ذلك - فيما يقول الطبرى (ج٢ ص ٣٠٨) - فى يوم الخميس، وهو اليوم الثانى من المحرم سنة ٦١هـ (= يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر سنة ٦٨٠م).

١٢ - عمر بن سعد بن أبى وقاص يحاصر الحسين فى كريلاء:

فلما كان من الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف رجل. وكان عبيد الله قد بعثه واليا على الرى ليحارب الديلم فى دستى، ولهذا الغرض جمع جيشه هذا. بيد أنه تلقى أمرا بالسير إلى الحسين حتى إذا فرغ منه سار إلى عمله الأصيل. فأراد أن يعفى من أمر الحسين، فاشتراط عليه أن يرده عن ولايته. فاضطر كارها إلى السير إلى الحسين حتى لا يفقد ولايته. ولكنه لم يتعجل السير، بل بدأ بأن أرسل إليه من يسأله ما الذى جاء به وماذا يريد؟ وكان قد سأل الكثير أن يكون رسولا إلى الحسين، ولكنهم أبوا، لأن كثيرين منهم كانوا قد كتبوا إلى الحسين يسألونه

(١) الطبرى ج ٢ ص ٣٠٣.

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٣) من الغريب أن أبا مخنف لا يذكر هذا الاسم. قارن ص ٥٤٦ س ٤، ص ١٧١ س ٨.

القدوم إلى الكوفة. فخرجوا أن يظهروا أمامه بهذه الرسالة. فلما أبلغ الحسين الرسالة قال الحسين للرسول: «كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم، فأما إذ كرهوني فأنا أنصرف عنهم»^(١) (الطبرى ج٢ ص ٣١٠). فأبلغ عمر بن سعد هذا الجواب إلى الوالى (عبيد الله بن زياد). فأجاب الوالى قائلا: على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية وأن يسلم نفسه، وإلا استعملت القوة ضده. فإن تردد عمر في ذلك، فعليه أن يسلم القيادة لشمر ابن ذى الجوشن القيسى الذى حمل هذه الرسالة من عبيد الله إلى عمر بن سعد^(٢).

وفى عشية يوم الخميس^(٣) لتسع مضمين من المحرم، استعد عمر للقتال. وفى أثناء الليل ترك الحسين فى هدوء، ولم يحاول أحد ممن كان معه أن يهتبل الفرصة للفرار، على الرغم من أنه حرضهم على الفرار؛ لأن القوم لا يريدون إلا الحسين. ثم أوصى بوصية، وجعل سيفه قائما لإخافة النساء، ورتب الأمور لحماية ظهره من الهجوم^(٤). وأمضى بقية الليل فى الصلاة. وكان أعداؤه على مقربة من معسكره، وكان يدور هنا وهناك كلام كثير مختلف ألوانه.

وفى العاشر من المحرم، يوم الأربعاء^(٥) العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠م، انتظم كل فريق بعد صلاة الفجر استعدادا للقتال. وكان مع الحسين اثنان وثلاثون فارسا^(٦) وأربعون رجلا، بما فيهم ١٨ من أبناء عمومته. وفى اللحظة الأخيرة وقع حادث مشجع له هو أن الحر بن يزيد عدل إلى الحسين وقتل معه كفارة عن مسلكه السابق. وسبق القتال كلام. وخطب الحسين فى أعدائه وهو راكب جملا، إلى أن انطلق سهم لم يصبه، فتوقف عن الخطبة. وتلا رمى السهام القتال بالسيوف، وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء فى الجنة قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحد بعد الآخر،

(١) فى رواية عمار الذهبى فى الطبرى (ج٢ ص ٢٨٢) أن الحسين خيره واحدة من ثلاث: إما أن يدعوهم فينصرف من حيث جاء، أى إلى مكة، وإما أن يدعوهم فيذهب إلى يزيد، وإما أن يدعوهم فيلحق بالثغور.

أما فى رأى أبى مخنف (الطبرى ص ٣١٤) فليس من الصحيح أن الحسين اقترح هذه الأمور الثلاثة.

(٢) راجع نسبه فى الطبرى ج١ ص ٣٣٠، والدينورى ص ٢٦٧.

(٣) ورد أن ذلك فى يوم الخميس أو الجمعة، والحقيقة أنه كان يوم الثلاثاء.

(٤) فى رواية الذهبى (الطبرى ص ٢٨١-١٧-١٨) أنه أسند ظهره إلى قصباء وخلا كى لا يقاتل إلا من وجه واحد. والخوارج والشيعية فلها وزن.

(٥) ورد أن ذلك كان فى يوم الجمعة أو السبت.

(٦) فى رواية الذهبى (ص ٢٨١) والحسين (ص ٢٨٦) يذكر عددا أكبر من ذلك.

والخوارج والشيعية ص ١٨٣.

ولم يكن من غاية لهم إلا أن يموتوا فى القتال بمشهد منه . أما الحسين فقد ظل يرقب المعركة وهو جالس أمام الخيمة الكبرى التى ضمت النساء والأطفال وكان النسوة ينحن . ويلوح أيضا أن أبناء عمه كانوا أيضا يشهدون المعركة دون أن يخوضوها إلى أن أريقت دماء الآخرين فجاء دورهم هم ، فقتلوا جميعا . أما حفيد النبى ﷺ (الحسين) فلم يجسر أحد على قتله ، إلى أن قام شمر فقضى على هذا التردد . لقد كان قائد الهجوم ، إن صح الحديث عن قيادة هنا . فأفلح أولا فى أن يبعد الحسين من معسكر النسوة والأطفال ، وهو معسكر لم يكن لأحد أن يمسه بأذى . وهنالك انتقض عليه الكثيرون طعنا وضربا حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة ، ولم يشأ أحد منهم بعد ذلك أن يكون القاتل . «وسلب ما كان عليه : فأخذ سراويله بحر بن كعب ، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته - وكانت من خز ، وكان يسمى بعد : قيس قطيفة - وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود ، وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل ابن دارم . . . ومال الناس على الورس والحلل والإبل واتهبوها . . . ومال الناس على نساء الحسين وبقله ومتاعه حتى أن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها» (الطبرى ج ٢ ص ٣٦٦) - وكان الحسين يلبس ملابس فاخرة ، لا درعا . ولم يتوقف النهب إلا لما جاء عمر بن سعد . وجاء الجن بالخير إلى المدينة ، فعرف قبل وصول الرسول .

ودفن شهداء كربلاء فى الغاضرية ، أما رؤوسهم فقد احتزت وأخذت ، وسرح بأثنين وسبعين رأسا مع شمر بن ذى الجوشن وقيس بن الأشعث وعمر بن الحجاج وعزرة بن قيس فأقبلوا حتى قدموا بها على عبد الله بن زياد ، فأرسلها هذا إلى الخليفة (يزيد) فى دمشق ، فسر بما حدث كل السرور ، ولقد له أن يمسك بقضيبي وينكت به فى ثغر رأس الحسين^(١) . أما السبايا والأطفال فقد عاملهم يزيد بشهامة وعطف ، وأظهر الصداقة لعلى بن الحسين - وكان فتى صغيرا ولكنه على قدر من العقل موفور - مما جعل عليا يعترف له بالجميل . وأذن لأسرة الحسين بالعودة إلى المدينة ، فى صحبة رجل أيدى من الرقة والاحترام نحو النسوة ، ما جعلهن يقدمن له أساورهن شكرا له على صنيعه معهن . ولما وصل ركبهن إلى المدينة ارتفع العويل والصراخ والبكاء .

(١) كنا فى روايتى أبى مخنف (الطبرى ج ٢ ص ٣٧٠ ، ص ٢٨٣) والذهبي (ص ٢٨٢ وما يليها) . ولا يثبت ما أورده الحصين (ص ٢٨٦) بعكس هذا ، وهو ينسب هذا الفعل إلى عبيد الله . وكان من المعتاد أن يحمل أصحاب السلطان قضباناً فى أيديهم ، قضباناً لم تكن مجرد رموز (ص ٢٨٢ ص ١٨ ، ص ٢٨٦ ص ٢١ ، ص ٥٢٣ ص ٢٠) . والخوارج والشيعة ص ١٣٥ .

كان ينبغي على الشيعة ومن وقف معها من أهل الكوفة حين هَمَّ الحسين بالخروج من المدينة إلى الكوفة بأهله وولده وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد وهو بالبصرة فهم إلى الكوفة كان ينبغي على الشيعة أن تنظم نفسها لتخرج من الكوفة وتبدي السلام تمويها لكنهم كشفوا أنفسهم فقاموا وقاتلوه حتى دخل قصره وأغلق بابه. فلما كان المساء قبضوا على مسلم وهاني بن عروة المرادي وكان هاني غير راغب في دخول مسلم بن عقيل داره فقال له مسلم: إني أتيتك لتجيرني وتضيفني. قال له: رحمك الله لقد كلفتني شططا - ادخل، فدخل داره فأقبلت الشيعة تختلف إليه في دار هاني بن عروة.

فلم تمكر به الشيعة إنما كان ينقصها القيادة الصارمة لتنظيم رجالها وقيادتها إنما حكمتها ثورات عصية لا يعصمها رابط التنظيم والقيادة، ولو أتيح لها القيادة الرشيدة لخرجت من الكوفة للالتحام بالحسين وجيشه. وما قصروا فيه مع الحسين أخذوا يفكرون فيه بحكمة في الفكر وروية في التنظيم من يومها. أما أشرف الكوفة ففقدوا عن مناصرته فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم وازدادوا طغيانا ورهقا وهم غير الشيعة المخلصين الذين استطاع بعضهم أن يتسللوا من الكوفة للحاق بالحسين.

أما الذين كانوا مع عمر بن سعد بن أبي وقاص فقد كان معه بعض الذين راسلوا الحسين بالكتابة إلى الكوفة فلم يكونوا رسلا صالحين للسفارة بين عمر بن سعد وبين الحسين^(١).

١٣ - استشهاد الحسين نقطة تحول في التاريخ:

وكان استشهاد الإمام الحسين بمثابة نقطة تحول في التاريخ الإسلامي وليس مجرد هزيمة نهائية لعشيرة آل هاشم على أيدي الأمويين. فهذا الصدام المسلح بين يزيد الفاسد والحسين التقى الورع كان جزءا من نفس الديالكتيك الذي جعل معاوية يتصارع مع علي ابن أبي طالب المثالي: وهو جدل ديالكتيكي لأيديولوجية قد أحرزت النجاح. والمسألة الرئيسية وفقا لما أورده المؤرخ الإسلامي ماليز روتفين Malise Ruthven كانت على النحو التالي: هل يمكن للتماسك الجديد للأمة الإسلامية المرتكز على الالتزام بما ورد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن يكون هو الأساس لنظام إسلامي جديد؟ أو ينبغي على النظام أولا أن يرسخ نفسه على أساس من النفوذ والسلطة القرشية وبخاصة

(١) البلد والتاريخ، أبو زيد أحمد بن سهل البلخي وهو لظهر بن طاهر المقدسي ج ٦ ص ٩.

النفوذ الأموي؟» وكانت الإجابة النابعة من الحياة الواقعية - مثلما يكون عليه الحال في كثير من الأحيان - هو اتخاذ خط وسط بين هذين الاتجاهين المتناقضين. إلا أن هذا الديالكتيك قد ظل مستمرا وظل بدون حسم، ويضيف هذا المؤرخ قائلا: «إن مشكلة العصور على توازن بين ما هو مثالي وما هو واقعي - أو التوازن بين النموذج الكامل للإسلام والحقائق الإنسانية والمادية للحياة قد أصبحت هي المادة العلمية للتاريخ الإسلامي ابتداء من عهد الخلفاء حتى الوقت الحاضر^(١)».

كانت نقطة الاستقطاب للقضية الشيعية سياسيا ودينا وثقافيا. فقد كان هو، على أية حال، حفيد رسول الله ﷺ، وكان دم الرسول ﷺ نفسه هو الذي خضب الثرى الذي سقط الحسين فوقه صريعا. ولقد روى استشهاد الحسين قضية الشيعة في عهد الأمويين أكثر مما رواها مصرع علي نفسه، وعجل من ثم في انهيار الحكم الأموي وسقوطه.

١٤ - تأثير حادثة كربلاء في تكتل الشيعة:

كان لفاجعة كربلاء التي قتل فيها الحسين وأصحابه سنة (٦١هـ) كما بينا سابقا أثر عميق في تطور التشيع ونموه بعمامة وفي تكتل الشيعة بخاصة. قال الطبري: «لما قتل الحسين بن علي ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ودخل الكوفة، وتلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين إلى النصر وتركهم لإجابه ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه...»^(٢).

ويقول الطبري في حوادث سنة ٦٥هـ: «وفي هذه السنة تحركت الشيعة بالكوفة وتواعدوا على الاجتماع بالنخيلة... للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي وتكاتبوا في ذلك»^(٣) وقد أوكل الشيعة قيادتهم في حركتهم المعروفة بحركة التوابين إلى سلمان بن صرد الخزاعي. قال البلاذري: بعد أن اجتمع جماعة من وجوه الشيعة قال أحد الخطباء: إذا رأيتم «ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة... سليمان بن صرد...»^(٤) ويبدو من النص السابق أن أول شيعي يتزعم جماعة دينية تسمى الشيعة، هو سليمان بن

(١) الأصوليون الإسلاميون في العصر الحديث ص ٢٠ تأليف دليب هير ترجمة عبد الحميد فهمي الجمال.

(٢) الطبري، ٤ - ٤٢٦.

(٣) أيضا، ٤ - ٤٢٧.

(٤) أنساب الأشراف، ج ٥ (القدس، ١٩٣٦) ص ٢٠٥.

صرد. و يوضح فلهاوزن أثر استشهاد الحسين فى تكتل الشيعة بالكوفة بقوله: «والكوفيون الذى جروا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلها راح ضميرهم يؤنبهم على ما اقترفت أيديهم، فشحروا بالحاجة إلى إرضاء الرب وبالكفارة عن إثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم «التوايين» وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم»^(١).

وكان لفاجعة كربلاء أثر عميق فى نفوس الشيعة، فارتفعوا بها من مصائب البشر الاعتيادية إلى أن شبهوها بمصائب الأنبياء، فروى الصدوق أن أبا عبد الله - رضى الله عنه - قال: «إن إسماعيل الذى قال الله - عز وجل - فى كتابه: واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيا من الأنبياء بعثه الله - عز وجل - إلى قومه، فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأثاءه ملك، فقال إن الله بعثنى إليك فمرنى بما شئت، فقال لى أسوة بما يصنع بالحسين - رضى الله عنه -»^(٢).

إن شيعة علي قبل فاجعة كربلاء سنة ٦١ هـ لم يكونوا الفرقة أو الفرق الشيعية، بل كانوا مجرد أنصار وموالين أو حزب. فأحاديث النبى ﷺ المذكورة، فضلا عن احتمال تسرب الشك إلى بعضها، لا تعنى الفرقة ذات العقائد المعينة لأن الفرق لم تظهر حينذاك، ويبدو أن المراد بشيعة علي الواردة فى تلك الأحاديث أنصاره وأتباعه. ويظهر أن نص النويختى سالف الذكر رغم احتوائه على كلمة «فرقة» لا يمكن أن يحمل على أن المقصود منه وجود فرقة دينية تعرف بالشيعة كانت معروفة فى عهد النبى ﷺ وبعد وفاته ﷺ لأن كلمة «فرقة» وردت فى النص مضافة إلى علي، لذلك تنصرف إلى الأنصار والجماعة لا الفرقة الدينية ذات العقائد المعينة. يضاف إلى ذلك أن النويختى نفسه يقول فى مكان آخر من كتابه السابق: إن «جميع أصول الفرق أربع فرق: الشيعة، والمعتزلة، والمرجئة، والخوارج»^(٣). ومن المعلوم أن جميع هذه الفرق ظهرت بعد النبى ﷺ بفترة غير قصيرة. ولعل المقدسى أقرب إلى التدقيق حين يقول: «إن أصل مذاهب المسلمين كلها منشعبة من أربع: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وأصل افتراقهم قتل عثمان ثم تشعبوا...»^(٤).

(١) الخوارج والشيعة، ص ١٨٩.

(٢) تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة د. عبد الله فياض.

(٣) النويختى المصدر السابق، ص ١٥.

(٤) أحسن التقاسيم (لیدن، ١٩٠٦) ص ٣٨.

ثم إن نص المسعودي الذي يشير إلى إقامة علي وشيعته في منزله بعد بيعه أبي بكر هو الآخر لا يمكن حمله على أنه يعني الفرقة الدينية؛ لأن المسعودي نفسه في موضع آخر من كتابه السابق دعا، من التف حول علي بعد السقيفة، جماعة من المسلمين^(١). ومن المعلوم أنه ليس كل مسلم شيعيا.

ونعتمد كلامنا حول وجود فرقة شيعية أو عدمه في الفترة موضوع البحث برأى سعد الأشعري الذي يبين فيه أن المقصود بكلمة «فرقة» في عهد الإمام على تعني الجماعة من الناس. وفي معرض كلامه عن عثمان يقول الأشعري: «فلما قتل (عثمان) بايع الناس عليا - رضى الله عنه - فسموا الجماعة، ثم افترقوا بعد ذلك فصاروا ثلاث فرق: فرقة أقامت على ولاية على بن أبي طالب - رضى الله عنه - وفرقة منهم اعتزلت مع سعد بن مالك، وهو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب. . . وفرقة خالفت عليا - رضى الله عنه - وهم طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وعائشة بنت أبي بكر. . .»^(٢) ويتضح من النص السابق أن الأشعري كان يقصد بالفرقة الجماعة أو الانتصار السياسيين.

إن بلدور^(٣) الفرق الشيعية أخذت تنمو باطراد بعد مقتل الحسين، وإمعان الأمويين والزبيريين في التكر للشيعية، وفشل الأمويين في كسب القراء والفقهاء إلى جانبهم، وإجحافهم بحقوق قطاعات كبيرة من سكان الإمبراطورية الإسلامية بعامة والموالي بخاصة. فظهرت الكيسانية التي سادت الإمامة إلى محمد ابن الحنفية وهو ابن لعلي من غير فاطمة بنت النبي ﷺ. ثم تفرقت الكيسانية إلى جماعات سادت إحداها الإمامة من بعد محمد إلى ابنه أبي هاشم^(٤).

وتزعم المختار الثقفي فرقة الكيسانية، قال الطبري: قد «اجتمعت رءوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد. . . فكان المختار إذا دعاهم لنفسه أو إلى الطلب بدم الحسين قالت له الشيعة: هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه فأخذ يقول للشيعة: قد جئكم من قبل المهدي محمد بن علي ابن الحنفية. فوالله ما زال بالشيعة حتى انشعبت إليه طائفة كانت تعظمه وتجيئه»^(٥).

(١) المسعودي، الرصية، ص ١٢١.

(٢) كتاب المقالات والفرق ص ٥.

(٣) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٥٤.

(٤) انظر عن الكيسانية وفرقها الأشعري (مقالات ج١ ص ٨٩ وما بعدها).

(٥) التاريخ، ٤ - ٤٣٤.

وقد أورد فيها تفصيلات عن حركة المختار وصلتها بالموالى وغير ذلك مما له صلة بالموضوع^(١).

وبالرغم من أن الكيسانية أول من قالت بفكرة الإمام المهدي التي أصبحت فيما بعد محور عقيدة الإمامية، كما أن رعيهما أول من طبقها في حيز العمل، كما أن الزعيم المذكور انتصف للشيعة من أعدائهم حين أخذ بثأر الحسين، فإن ظهور تلك الفرقة يعد أول انشقاق عقدي حصل في صفوف الشيعة؛ ذلك لأن الكيسانية أخرجت الإمامة من أبناء فاطمة إلى محمد ابن الحنفية وهو ابن علي من غير زوجته فاطمة. ولما كانت الإمامة كما يعتقد القائلون بالنص والتعيين، منصبا إلهيا ليس للبشر أن يمنحوه لأى أحد من المسلمين بما فيهم أبناء على من غير فاطمة، نجد الشيخ المفيد يدل على إمامة علي ابن الحسين المعاصر لمحمد ابن الحنفية إمام الكيسانية بوجه أهمها: أولا: إن علي بن الحسين «كان أفضل خلق الله بعد أبيه علما وعملا والإمامة للأفضل دون المفضول بدليل العقول.....».

ثانيا: إن عليا كان «أولى بأبيه الحسين - عليه السلام - وأحق بمقامه من بعده بالفضل والنسب والأولى بالإمامة الماضى أحق بمقامه من غيره بدلالة آية ذوى الأرحام وقصة زكريا عليه السلام.

ثالثا: وجوب الإمامة عقلا في كل زمان، وفساد دعوى كل مدعى للإمامة في أيام علي بن الحسين - عليهما السلام - أو مدعى لها سواء ثبت فيه لخلو الزمان من الإمام.

رابعا: «ثبوت الإمامة أيضا في الفترة وبخاصة بالنظر والخبر من النبي ﷺ وفساد قول من ادعاهما لمحمد ابن الحنفية - رضى الله عنه - بتعزية من النص عليه، فثبت أنها في على بن الحسين - عليهما السلام - إذ لا مرعى له الإمامة من العشرة سوى محمد - رضى الله عنه - وخروجه عنهما بما ذكرناه.

خامسا: نص رسول الله ﷺ بالإمامة عليه فيما روى من حديث اللوح الذي رواه جابر عن النبي ﷺ...»^(٢).

إن أدلة إبطال إمامة محمد ابن الحنفية التي أوردتها عن المفيد في أعلاه تصلح

(١) الخوارج والشيعة، ص ١٨٧ وما بعدها - تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٥٥.

(٢) المفيد، الإرشاد، (طهران، ١٣٧٧) ص ٢٣٧.

لإبطال إمامة أى علوى من أئمة الكيسانية والزيدية^(١)، والإسماعيلية^(٢)، حسب مقاييس الشيعة الذين عرفوا فيما بعد بالإمامية والذين يعترفون باثنى عشر إماما وردت أسماؤهم فى حديث اللوح الذى أشار إليه المفيد فى أدلته السابقة.

والحق أن ميتة الشهداء التى ماتها الحسين، والتى لم يكن لها أثر سياسى، قد عجلت فى التطور الدينى للشيعة، حزب علي، الذى أصبح فيما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب (الشعوية).

واليوم لا يزال ضريح الحسين فى كربلاء أقدس محجة عند الشيعة، وبخاصة الفرس الذين ما فتئوا يعتبرون الثواء الأخير فى جواره غاية ما يطمعون فيه.

(١) انظر عن الزيدية «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعرى (١٢٩ وما بعدها)، والنويختى (فرق الشيعة) ص ٥٠.

(٢) انظر عن الإسماعيلية «فرق الشيعة» للنويختى ص ٥٧ - ٥٨.
- تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٥٦.

الباب الرابع

.....

الصراع السياسي بين الشيعة العربية بعد الحسن والحسين

الفصل الأول

سليمان بن صرد واضع ميثاق حركة الشيعة المعتدلة

الفصل الثاني

المختار الثقفي - واضع مبادئ الشيعة الغالية

الفصل الأول

سليمان بن صرد واضع ميثاق حركة الشيعة المعتدلة

١ - الزعيم السياسي الأول للشيعة، واضع ميثاق حركة التوابين:

سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون بن عنقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس ابن حرام بن حُبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو لُحى الخزاعي وولد عمرو هم خزاعة^(١).

كان اسمه في الجاهلية يسارا فسماه رسول الله ﷺ سليمان، يكنى أبا المطرف. وكان خيرا فاضلا له دين وعبادة، سكن الكوفة. أول ما نزلها المسلمون وكان له قدر وشرف في قومه.

شهد مع علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - مشاهدته كلها، وهو الذى قتل حوشبا ذا ظليم الالهانى بصفين مبارزة.

وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي - رضى الله عنهما - بعد موت معاوية يسأله القدوم إلى الكوفة فلما قدمها ترك القتال معه.

فلما قتل الحسين ندم هو والمسيب بن نجبة الفزارى وجميع من خذله ولم يقاتل معه وقالوا: ما لنا توبة إلا أن نطلب بدمه.

فخرجوا من الكوفة مستهل ربيع الآخر من سنة خمس وستين وولوا أمرهم سليمان بن صرد وسموه أمير التوابين.

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٢/٢٩٧ ط دار الفكر بيروت.

وساروا إلى عبيد الله بن زياد، وكان قد سار من الشام في جيش كبير يريد العراق فالتقوا بعين الوردية، من أرض الجزيرة وهي رأس عين، فقتل سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة وكثير ممن معهما.

وحمل رأس سليمان والمسيب إلى مروان بن الحكم بالشام.

وكان عمر سليمان حين قتل ثلاثا وتسعين سنة.

روى عنه أبو إسحاق السبيعي وعدى بن ثابت وعبد الله بن يسار وغيرهم:

أخبرنا يحيى بن محمود بن سعد بإسناده إلى أبي بكر بن أبي عاصم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أخبرنا حفص بن غياث، عن الأعمش، عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد أن رجلين تلاحيا فاشتد غضب أحدهما فقال النبي ﷺ: إني لأعرف كلمة لو قالها لسكن عنه غضبه «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أخرجه الثلاثة.

٢ - ميثاق الشيعة العربية بعد الحسين:

بعد استشهاد الحسين - حيل بين الحسين وشيعته كما قدمنا - كاد أمر الشيعة أن ينفلت بعد أن بدد أمرها أشراف الكوفة والممالقون للنظام السياسي الأموي وبطش ابن زياد وأكثرهم من الأعراب المرتدين وعلى رأسهم شيب بن ربيع الذي كان يصبح مع الأشراف تارة ومع الحسين أخرى ويمسى جاسوسا لابن زياد، كاد أمر الشيعة أن يذهب مع أشلاء كربلاء في أدراج الرياح لولا أن قيض الله لها خمسة نفر: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبة الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نقيّل الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي. وكان المختار على ما يذهب المسعودي يثبط الناس عن الخروج معهم.

واتفقوا على عدة مبادئ جمعت بينهم:

* الإحساس بالذنب.

* التوبة بالنصيحة والفداء بالثأر للحسين.

* قتل من قتله أو القتل فيه.

* التباكي والتلاوم.

* تجديد ذكرى كربلاء.

حول هذه المبادئ تجمعت الشيعة العربية للمرة الأولى تجمعها آصرة وجدانية إيمانية بعد كربلاء تحت قيادة هؤلاء الخمسة ثم دانوا لسليمان بن صرد فأعاد تنظيمها وجمعها وخطط لها تحت مبادئ سياسيين:

المبدأ السياسى الأول: مبدأ التقية وتحت شعاره بدأ التخطيط السرى للتجمع الشيعى فى الكوفة حاضرة الإمام علي.

المبدأ السياسى الثانى: هل تجب طاعة أولى الأمر الغاصبين أو الخروج عليهم؟ وذلك ما اختاره الإمام زيد وجعله أصلا من أصول الزيدية واختارته الإمامية مع القول بالتقية فلم يعدموا أن يقدموا الإجابة التى يطمنون إليها مهما كانت تحمل جدلا واسعا. ولا شك أن الجدل الفكرى حول هذه النقطة مهما اتسعت دوائره وعلت فقائجه، فإن تطور المذهب الشيعى أو الفرق الشيعية قد أغنانا عن التمداد فى الجدل؛ إذ لا يحسن أن تستقل فرقة سياسيا من غير أن تلتبس شرعيتها فى الخروج عن التاريخ العام إلى تاريخ خاص. فكان القول بالعهد وبالعصمة والتقية والبراءة وتلك مواصفات للخليفة المنتظر وهى بلا شك مواصفات لا يتمتع بها أى خليفة آخر خرج عن الدائرة الشيعية.

٣ - ظهور فكرة التشيع الروحى:

لكن الدكتور عبد الله فياض يرتب فاصلا زمنيا بين ظهور التشيع الروحى وظهور التشيع السياسى فيجعل التشيع الروحى الذى يتضمن القول بإمامة علي، وإنها بوصية من النبى ﷺ وبإرادة من الله، وبين التشيع لعلي، بمعناه العام وهو القول بحقه بالخلافة والعمل على استرداد الحق المذكور دون الالتزام كلية بقضية النص على إمامته^(١). سابقا على السياسى.

ولا شك أن محاولة الدكتور فياض وإن كانت تحمل جهدا فكريا إلا أنها فى الحقيقة تحمل من الغموض ما تحمل ولا طائل من وراء هذا التجزؤ. وأنكرها عليه صاحب المقدمة السيد محمد باقر الصدر فيقول: ويعتقد (فياض) أن التشيع الروحى أقدم عهدا من التشيع السياسى وأن أئمة الشيعة الإمامية من أبناء الحسين قد اعتزلوا بعد مذبحة كربلاء السياسة وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة فيقول:

(١) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة مقدمة باقر الصدر.

والرأى عندى أن التشيع لعلي بمعناه الروحى زرعت بذرتة فى عهد النبى ﷺ
ونمت قبل توليه الخلافة والأدلة على ذلك كثيرة أهمها:

أولاً: من كنت مولاه فعلي مولاه...

ثانياً: وصية النبى ﷺ لعلي بالإمامة والخلافة. وردت إشارات عديدة بهذا الخصوص يظهر منها أن النبى ﷺ أوصى لعلي بإمامة المسلمين والخلافة عليهم. روى الطبرى أن النبى ﷺ كان فى مجلس ضم جماعة من بنى هاشم بمكة، فقال مشيراً إلى علي: «إن هذا أخى ووصى خليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا...»^(١).

يقول السيد محمد باقر الصدر فى مقدمته لكتاب فياض: والحقيقة أن التشيع لم يكن فى يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحى بحث وإنما ولد التشيع فى أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلة الإمام علي لقيادة النبى ﷺ الفكرية وقيادته السياسية... فالتشيع إذن لا يمكن أن يجرأ إلا إذا فقد معناه كأطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبى ﷺ وهو مستقبل بحاجة إلى المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة الإسلامية معاً^(٢).

ثم يتابع فياض شرح وجهة نظره فى تمييز نوعين من التشيع الروحى والسياسى
لكننا ننكر عليه ذلك التجزؤ لنوعين مترابطين كالكتلة الواحدة.

إن التشيع عقيدة ترى على الأفضلية فى الإمامة والوصية بأحقية الإمام... إلخ.
معنى ذلك أن ثمة عقيدة تخالف الوجدان الشيعى ثم كانت الدعوة التى ربطت بين وجدانية العقيدة والعمل السياسى. من هنا نستطيع أن نعرف القول الذى يحمل التجزؤ إلى الوحدة الكلية الجامعة للدلول عقيدة التشيع.

ومن الأدلة على وجود من يقول بالتشيع الروحى لعلي قبل توليه الخلافة، هو ما رواه سعد الأشعرى عن وجود جماعة من الشيعة ظهرت بعد وفاة النبى ﷺ قالت بالنص على إمامة علي وقالوا: «إنه لا بد مع ذلك من أن تكون الإمامة دائمة جارية فى عقبه إلى يوم القيامة... فلم تزل هذه الفرقة قادمة لازمة لإمامته وولايته... إلى أن قتل... وكانت إمامته ثلاثين سنة، وخلافته أربع سنين وتسعة أشهر».

(١) التاريخ ج ٢ - ٦٣، وابن الاثير، الكامل ج ٢ (القاهرة ١٢٩٠) ص ٢٢.

(٢) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٣٨ تقديم محمد باقر الصدر.

ويرى الأستاذ «وات» أن التشيع الروحي لم يظهر إلا في سنة ٦٥٨م / ٣٧هـ وذلك حين جدد جماعة من أنصار علي بيعتهم له، كما أسلفنا وأن تلك الجماعة «أصبحت تعتقد أن الحاكم يحكم بتفويض إلهي ليس للبشر يد فيه. وأصبح الفرق بين الخوارج والشيعة نتيجة لذلك، هو أن الخوارج أرادوا سيادة قانون غير شخصي في الدولة، بينما أوكل الشيعة السلطة في تلك الدولة إلى قائد يتمتع بصفات روحية».

ونرى أن ما أخذه د. فياض على رأي وات ينصرف إليه أيضا؛ إذ لا خلاف بينهم إلا في تاريخ النشأة^(١).

من هنا كان سليمان بن صرد وهو مؤسس الشيعة العربية وهو صحابي جليل قد أسسها على مبادئ قابلة للشرح والتأويل والزيادة ثم أخيرا لأنها الفرق بالشرح والتأويل! حتى ظهر التجسيد. ونجت الشيعة الزيدية والاثني عشرية الإمامية من عقيدة التجسيد.

٤ - الصراع القبلي في الكوفة يميز الأشراف والشيعة والموالي؛

أخذ التشيع في الكوفة آنذاك يرتدى ثوبا جديدا. وقد عرفنا من قبل المعنى الذي كان يدل عليه في الأصل. لقد كان تعبيرا عن الاتجاه السياسي العام لمعارضة العراق لسلطان الشام. وفي بادئ الأمر كان الأشراف صفا واحدا مع سائر الناس ويتولون قيادتهم. ولكن حينما أهدق الخطر تراجعوا واستلنوا لإغراء الحكومة (حكومة الأمويين في الشام) ثم استخدموا للقضاء على الثورات الشيعية. وبهذا انفصلوا عن الشيعة، فتحدد نطاق التشيع واتخذ شيئا فشيئا صورة فرقة دينية في تعاوض مع الأشراف ونظام العشائر، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالي خيالي. وكان أنصار سليمان بن صرد يرمون إلى الثورة على أرستقراطية العشائر في الكوفة. ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عمليا فيما بعد. وإلى هذه الحركة اجتذب الموالى أيضا. وهؤلاء كان اجتذابهم سهلا؛ لأنهم كانوا ذوي نزعة واضحة إلى الحكم الديني، لا القومي الشعوبي، وإن كان العرب هم الذين كانوا يتولونه حتى ذلك الحين. كما كانوا - أعنى الموالى - يكرهون المتعصبين لسيادة العرب^(٢).

وهكذا نشهد قيام تيارين ما لبثا أن التقيا لإغراق خلافة دمشق: (١) كره الشيعة

(١) تاريخ الإمامية وأسلانهم من الشيعة ص ٤٩.

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٨٠ فلهاورن.

للأمويين بسبب مصرع الحسين واغتصاب الخلافة بالقوة. (٢) ونقمة الموالي وغير المسلمين بسبب الضرائب التي فرضت عليهم لمصلحة الأرستقراطية العربية المتبذلة.

وكان كل هم الأشراف مقصورا على الاحتفاظ بمراكزهم وعلى صيانة المنافع المحدودة لمدينتهم وقبائلهم. وعلى الرغم من أن ميولهم كانت ضد حكومة الأمويين. فقد وضعوا نفوذهم تحت إمرتها لتوطيد الهدوء في القبائل^(١).

وفي هذا السبيل قام عمرو بن الحجاج الزبيرى ومحمد بن الأشعث الكندى خصوصا بدور الشرطة. وتوج شيث بن ربيع التميمى قدرته على القلب التى اكتسبها منذ شبابه بأن حارب ضد الحسين بعد أن كان هو أحد الذين دعوه إلى الكوفة. ولم يكن جمهور أهل الكوفة حريصا على مساعدة الحكومة، ولكنه مع ذلك لم ينضم إلى صف أعدائها. وحتى أولئك الذين بعثوا بالكتب إلى الحسين وأقسموا على الإخلاص له تخلوا عنه فى المحنة ولم يقدموا له يد المعونة، وقصارى ما فعلوه أنهم راقبوا المعركة من بعيد ومصرعه الأخير ثم بكوا. وقليلون جدا هم أولئك الذين تجاسروا على اللحاق به ومشاركته فى مصيره، مثل أبى ثمامة الصائدى خازن بيت المال، وابن عوسجة. وعدا هذا فإن بعض الذين شاركوه فى مصرعه إما أنهم كانوا من أولئك الذين التقطهم عرضا فى الطريق أو من أولئك الذين دفعتهم الحمية الإنسانية فى اللحظة الأخيرة إلى الانضمام إليه وإن لم يكن لهم من قبل شأن به أو لم يكونوا من شيعته. وقد أبرر المؤرخون هذا التعارض بين المكلفين، الذين لم يعملوا شيئا، وبين غير المكلفين الذين أحجلوا الأولين، أبرزوه وعرضوه أحيانا عرضا دراميا^(٢). وما هو جدير بالاعتبار أن الانتصار أيضا، لا القرشين وحدهم، قد تخلوا عن الحسين. فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ولم يكن منهم بين شيعة الكوفة إلا أفراد قلائل جدا. والثورة التى قامت فى المدينة سنة ٦٣هـ لم تكن من أجل آل علي، كما أن علي بن الحسين نفى يديه منها، وفى مقابل الجسنة وغير المخلصين كان أعداء الشيعة الصرحاء وهم أتباع حكومة بنى أمية وموظفوها.

٥ - ظهور قضايا دينية وسياسية: الطاعة لولى الأمر أم الثورة؟

كان عثمان يرى أن الخلافة جلاب كما يقول: جلابيها الله. . أى لا يخلعها ولا

(١) السيادة العربية ص ٥٩ فلهارون.

(٢) بين رهبر بن القين وعزرة بن قيس (الطبرى ج ٢ ص ٣١٨ وما يليها).

يتركها. وعجز أهل الحل والعقد الذين عقدوا له لواء الخلافة أن يصلحوا من شأن سياسته أو يحلوه ومن آتئذ وأهل الحل والعقد عجزوا عن حل الإمام وبقي الأمر هكذا حتى اليوم. وورثت الأمة الإسلامية ميراث العقد وانتهى عنها: الحل. . وبقيت الخلافة بفهمها العثماني جلياب الله لا ينضو عنها إلا بالموت.

ويعد شهادة الحسين نشأ جدل ديني سياسي حول ذات القضية نفسها هل تجب الطاعة لولى الأمر أو الثورة عليه والانضمام إلى الحسين؟

وليس بمنكر أن «أهل الطاعة» كانوا يحسبون مسلكتهم هو الصحيح، ولكن كان ثم من يستنكر موقفهم ولا يعترف بالحجج التي يتعللون بها. وكانت الأهواء الحزبية تعبر عن نفسها بالوسائل البيانية والمبالغات التصويرية السهلة التمييز أكثر منه عن طريق التضييل وتزييف الوقائع، فعمرب بن سعد يراجع ضميره فى مسلكه بإزاء الحسين. ولهذا ينظر إليه بنوع من الرقة، بينما نحن نراه شخصا يثير السخط؛ لأنه تجاوز اعتبارات ضميره لا لشيء إلا ليحتفظ بما وعد به من ولاية. أما شمر فلا ضمير له، ينظر إلى الحسين على أنه مثير للفتنة والاضطراب، لهذا انقضض عليه بغير تردد قاسية قلبه تكشف عن أنه كان مجرد لف أو أهلى صريح وقلبه للإمام الحسين ملئ بالكرهية لآل بيت الرسول ﷺ.

٦ - آل البيت والتاريخ المظلوم:

ترجم أبو الفرج الأصفهاني فى كتابه (مقاتل الطالبين) للشهداء من ذرية أبى طالب منذ عصر رسول الله ﷺ إلى الوقت الذى شرع فيه يؤلف كتابه سنة ٣١٣هـ وهو كما قال: سواء كان المترجم له قتل الحرب أو صريح السم فى السلم، وسواء كان مهلكه فى السجن أو فى مهربه أثناء تواريه من السلطان أو كما يقول:

من احتيل فى قتله منهم بسم سقيهم وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه على السياق لتواريه مقاتل من قتل منهم وفاة من توفى بهذه الأحوال.

فلماذا لا يكون تاريخ آل البيت مظلوما. فإنه إذا كان مقتل الحسين جريمة. فالمجرم الأكبر فيها يزيد؛ لأنه هو الذى بعث عبيد الله للقيام بإجراءات قاسية. وكانت النتيجة مرضية ليزيد واغتبط لها أيما اغتباط. فلإن كان قد غضب على خادمه

(عبيدالله)^(١) من بعيد. فما كان ذلك إلا تطبيقا لامتيار الحاكم الأعلى. أعنى أن يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التي اصططنعها لنفسه في جريمته، حقا إن المودة التي أبدلها نحو من بقى من آل الحسين ليست مما يعيه. وإن كانت مودة تنطوى على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص.

والحاسم في الحكم على هؤلاء الأشخاص جميعا هو موقف كل منهم تجاه الحسين. فالحسين مركز الدائرة. وكل الاهتمام يدور حوله. فلم يهمل ذكر شيء يتصل به.

يقول فلهارون^(٢): والتقاطيع الدقيقة تضيء على صورته العطف الحزين. فهو موضوع الأحاديث العديدة. وهو يعظ غيره ويعظ نفسه. فليس بعيب أن تكون خاتمة هكذا^(٣). «آمين! آمين!» معزات ولعنات وأحلام وتنبؤات وعناصر روحانية أخرى - كل هذه تشابك في مرأى الرواية عن مأساته. ثم تسبق الرواية المستقبل فتحدث عن العذاب الأليم الذي سيلقاه قتلة العادل (الحسين) على يد الجبار المتقم. وفي هذا التصوير يخفى الإحساس بانعدام البطل. وما كان مثله إلا كمثل آتية من الفخار اصطدمت بحديد هو عبيد الله. لقد مضى الحسين كما مضى المسيح في طريق مرسوم؛ ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام. ومد يده كالطفل ليأخذ القمر. ادعى أعرض الدعاوى. ولكنه لم يذل شيئا في سبيل تحقيق أذناها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء. وفي الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة، إنما قدم القوم رؤوسهم يائسين. ولم يكذب بطلهم بأول مقاومة حتى انهيار، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخرا فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون في القتال من أنه. وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة.

ولكن الحسين ليس بالشخصية التي تختفى وكيف وأمام هذه الواقعة دم النبي ﷺ يجرى في عروقه وأنه من أهل البيت فلم يكن عليه أن يهد نفسه؛ لأن ولاية الأمر فيه بطبعه. واقتارعه إلى الصفات المعنوية تعوض عنه - وتزيد - القداسة الكائنة في لحمه ودمه. وهذا ما أعطى لشخصه أهميته، ولتاريخه طابع التاريخ الإسلامي الملىء بالمبادئ

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٣٥ وما يليها.

(٢) الطبري ج ٢ ص ٣٥٣ ص ٤.

(٣) الخوارج والشيعه ص ١٤٠.

والاستشهاد فى سبيلها . فلقد افتتح استشهادة عصرا جديدا لدى الشيعة . بل نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد أبيه؛ لأن أباه لم يكن ابن بنت النبى . وإن ثمة من الأحداث ما يسبب آثارا هائلة لا بذاته ولا بانتسابه بل بذكره فى قلوب الناس .

٧ - سليمان بن صرد يطبق الميثاق:

التباكى والتلاوم والفتائج

وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا، بدعاء الحسين إياهم ولم يجيئوه، ولقتله إلى جانبهم فلم ينصروه، ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم: سليمان بن صرد الخزاعى، والمسيب بن نجبة الفزارى، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى، وعبد الله بن وال التميمى، ورفاعة بن شداد البجلي، فعسكروا بالنخيلة، بعد أن كان لهم مع المختار بن أبى عبيد الثقفى خطب طويل بتشيطه الناس عنهم ممن أرادوا الخروج معهم، ففى ذلك يقول عبد الله بن الأحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات^(١):

صحوت وودعت الصبا والغوانيا وقلت لأصحابي: أجيئوا المناديا

وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى وقبل الدعاء: ليك ليك داعيا

فى شعر طويل يحث فيه على الخروج، ويرثى الحسين ومن قتل معه، ويلوم شيعة بتخلفهم عنه، ويذكر أنهم قد تابوا إلى الله (وأنا بوا إليه) من الكبائر التى ارتكبوها إذ لم ينصروه، ويقول أيضا فى هذا الشعر:

الأوانع خير الناس جدا والدا حسينا لأهل الدين إن كنت ناعيا

ليك حسينا مرمل ذو خصاصة عديم وأيتام تشتكى المواليا

فأضحى حسين للرماح دريئة وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته فضايرت عند الشانين الأعاديا

(١) مروج الذهب - السعوى جـ ٣ ص ٨٥.

سقى الله قبراً ضمن المد والتقى بغربية الطف الغمام الغوايا
 فيها أمة تاهت وضلت سفاهة أنبوا فأرضوا الواحد المتعالي
 ثم ساروا يقدمهم من سمينا من الرؤساء وعبد الله بن الأحمر يقول:
 خرن يلمعن بنا أرسالا عوابسا يحملنا أبطالا
 نريد أن نلقى بها الأقبالا القاسطين الغدر الضلالا
 وقد رفضنا الولد والأموالا والخفرات البيض والحجالا
 نرضى بهم ذا النعم المفضالا

٨ - حركة التوابين الشيعية الكوفية والتخطيط السري:

والكوفيون الذين جروا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلها راح ضميرهم يؤنبهم على ما اقترفت أيديهم. فشحروا بالحاجة إلى إرضاء الرب وبالكفارة عن إثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم «التوابين» وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم. فتكونت بعد مقتل الحسين بقليل منظمة انضمت إليها حوالي مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون الستين من عمره، كانوا إذن مدفوعين بدافع الضمير الديني، لا العواطف. وولوا أمرهم سليمان بن صرد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي ﷺ^(١)، وكان على رأس الشيعة المتحمسين الذين كتبوا إلى الحسين بالقدوم وكان معه رؤساء أربعة آخرون من قبائل: فزارة، والأزد، ويكر، وبيجة^(٢). وكانوا يجتمعون في كل يوم جمعة في منزل سليمان ويسمعون منه في كل مرة نفس الخطبة: «كونوا كالآل من بني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: ﴿...إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة]. فما فعل القوم، جثوا على الركب ومدوا الأعناق ورضوا بالقضاء، حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل - فكيف بكم لو قد دعيتم إلي مثل ما دعى القوم إليه، اشحذوا السيوف، واركبوا الأسته، ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ... (٦٠)﴾ [الأنفال] حتى تدعوا وتستنفروا...^(٣).

(١) ولكن اسمه، سليمان، ينهض دليلاً على عكس هذا.

(٢) لم يكن أحد من الرؤساء من اليمانية الحقيقيين (من همدان أو مذحج أو كنة).

(٣) الطبري ج ٢ ص ٥٠٠ - ٥٠١.

٩- التخطيط السرى الشيعى ومبدأ التقية:

وبقيت هذه الحركة سرية حتى وفاة يزيد بن معاوية. فلما توفي انطلقت هنالك وثار أهل الكوفة على عبيد الله - وكان يقيم فى البصرة - فطردوا نائبه فى الكوفة عمرو ابن حريث المخزومى. وكان زعماء هذا الانتفاض من الأشراف، لا من الشيعة، وعلى رأسهم يزيد بن رويم الشيبانى الذى اكتسب بذلك مكانة بارزة^(١).

وفى هذه الفترة الخالية من الحاكم الرسمى ولى أولا عمر بن سعد أميرا على الكوفة، وخلفه قرشى آخر. وكان ابن الزبير قد استطاع أن يوطد لنفسه فى العراق، حتى بايعه أشراف الكوفة خليفة، وإن لم يكونوا بقلوبهم معه (الطبرى ج ٢ ص ٥٣١) فأرسل إليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى واليا على الكوفة، وذلك فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من رمضان سنة ٦٤ هـ (الجمعة ١٣ مايو سنة ٦٨٤).

(ولقد كان لهذا التغيير أثره المفيد عند الشيعة، على الرغم من أنهم كانوا يكرهون ابن الزبير الذى استولى على ميراث الحسين). ومن ثم صاروا أكثر جرأة وانتشروا فى أوساط أوسع. وكانت عواطف الجماهير معهم، وإن كان الأشراف لا يريدون الاعتراف لهم بشيء^(٢). وكان همهم كله إبعاد المغامرين عن الكوفة وتجنب أنفسهم - وهم فى مركز المسئولين - كل خطر.

وبرز فى مقدمة «دعاة»^(٣) عبيد الله بن عبد الله المرى الذى لم يمل من تكرار مايقوله حتى يوقع اليقين فى نفوس السامعين. «... ابن أول المسلمين إسلاما وابن بنت رسول رب العالمين ﷺ: قلة حماته، وكثرة أعدائه له، فقتله عدوه. وخلذه وليه. فويل للقاتل، وملامة للخاذل! إن الله لم يجعل لقاتله حجة. ولا لحاذله معذرة - إلا أن ينصح الله فى التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيّل العثرة. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المضلّين والمارقين. فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا رددنا إلى أهل بيت نبينا ﷺ»^(٤). فزاد الأنصار عددا حتى بلغوا ١٦٠٠٠ رجل أقسموا على

(١) الطبرى ٥٠٩٢.

(٢) الطبرى ٥٣١٢.

(٣) المترجم: (ميراث الخلافة).

(٤) ومن ثم سيصبح «الدعاة» ظاهرة مميزة للشيعة. الخوارج والشيعة ص ١٧٥.

الولاء وإن لم يكونوا أعضاء في هذا الحزب. كذلك تمت اتصالات بالمكاتبات مع المدائن والبصرة. ولم يهمل القوم أن يجمعوا إلى جانب ذلك - المال والسلاح.

١٠ - الشيعة ترفع شعار الثأر للحسين:

وكانت شعاراتهم هي: الثأر للحسين! لم يكن أمامهم هدف ثابت معين، بل ترددوا في أى الوسائل أنسب للتضحية بحياتهم. وأقرب هدف أمامهم كان أن يستولوا على الكوفة ويطردوا الأشراف، فهؤلاء تقع على عواتقهم المسؤولية الكبرى في مقتل الحسين بسبب تواطؤهم مع السلطة وطاعتهم لها، ولذا كانوا في خوف شديد. وكانت غالبية الشيعة من هذا الرأي أى وجوب طرد الأشراف، ولكن سليمان كان على غير هذا الرأي. إذ وجد من الحكمة ألا يجعل هذه هؤلاء الأشراف ذوى النفوذ الكبير. فوجه القوم ضد الأعداء الحقيقيين المباشرين والمستبدين. ضد حكومة بنى أمية وخصوصا ضد عبيد الله بن زياد. الذى ارتحل إلى الشام واستعد هناك (سنة ٦٥هـ) بجيش عظيم من أهل الشام، ليكسب العراق لحكم مروان. وعملت على الوصول إلى هذا القرار حكمة وإلى الكوفة عبيد الله بن يزيد. كان الأشراف قد ألحوا عليه فى أن يهاجم جميع الشيعة. ولكنه قال: «الله بيننا وبينهم! إن هم قاتلونا قاتلناهم. وإن تركونا لم نطلبهم... فليخرجوا وليتشرروا ظاهرين؛ ليسيروا إلى من قاتل الحسين. فقد أقبل إليهم، وأنا لهم على قاتله ظهير. هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأمائلكم قد توه إليكم. عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجمعوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضا ويسفك بعضكم دماء بعض فيلقاتكم ذلك العدو غدا وقد رققتكم، وتلك والله أمنية عدوكم»^(١). فأصبح فى وسع الشيعة آنذاك أن يظهروا ثورتهم علنا على ابن زياد. فقرروا أن يتجمعوا إلى أول ربيع الثانى سنة ٦٥هـ (١٥ نوفمبر سنة ٦٨٤) فى معسكر النخيلة (قرب الكوفة) ودعوا كذلك أنصارهم فى المدائن والبصرة. وهكذا لم يصل الاتفاق بينهم وبين الوالى إلى حد قبوله ما اقترحه من أن يتفقوا معه ومع رؤساء القبائل فى الكوفة على أن يكونوا جبهة واحدة ضد أهل الشام..

ولم يتجمع من بين الـ ١٦٠٠٠ رجل الذين وعدوا بالذهاب، إلا ٤٠٠ فى الموعد المحدد فى النخيلة، ولكن هذا العدد كان كافيا للقتال.

(١) الخوارج والشيعة ص ١٧٧. الطبرى ج ٢ ص ٥١٠ - ٥١١.

وكان فيهم عرب من كل القبائل وكثير من القراء . ولكن لم يكن فيهم أحد من الموالى . ومع أنه كان فيهم معدومون فقد كانوا جميعا راكبين ومسلحين جيدا .

١١ - الشيعة وتجدد ذكرى كربلاء

وفى يوم الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ (السبت^(١)) ١٩ نوفمبر سنة ٦٨٤م) مضوا إلى كربلاء وهناك بقوا يوما وليلة عند قبر الحسين واعترفوا بخطيئتهم وأخذوا العهود على أنفسهم وهم سيكونون .

وكان الزحام على القبر أشد منه عند الحجر الأسود فى مكة^(٢) . ثم ساروا عبر الفرات فأخذوا على الحصاصة ثم على الأنبار ثم على الصدود (أو صندودة) ثم على القبارة وهبت، وخرجوا من هبت حتى انتهوا إلى قرقيسيا، وبها رفر بن الحارث الكلابى على رأس بنى قيس يعارض حكم الأمويين . فوضع لهم سوقا فتسوقوا منها . ثم أخبرهم بتحركات عبيد الله وكان آنذاك فى الرقة، ونصحهم قائلا: «إنى للقوم (أصحاب عبيد الله والأمويين عامة) عدو وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأنا لكم وإد أحب أن يحوطكم الله بالعافية . إن القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة فى ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة فى أيديكم . وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم له آمنون»^(٣) (الطبرى ٢-٥٥٤) . ففعلوا كما أشار زفر . (فانتهوا إلى عين الوردة فزلوا فى غريبها وعسكروا واستراحوا . تحمى ظهورهم المدينة) . وأقاموا هناك خمسة أيام قبل أن تهاجمهم فرقتان من فرق جيش الشام الخمس (وبدأت المعركة فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ (يوم الأربعاء ٤ يناير سنة ٦٨٥) واستمرت حتى يوم الجمعة^(٤) . وقاتل الشيعة قتال الأسود، ولكن رمى

(١) يبدأ من مساء اليوم السابق .

(٢) تقديس الشهداء إذن يرجع إلى أصل عربى لا فارسى .

(٣) إن الطريق البرى من الشام إلى العراق يمر بمنجج أو الرقة ويجتاز نهر الفرات ثم يمر برأس عين (عين الوردة) حتى يصل إلى الدجلة (الطبرى ج ٢ ص ٥٥٤ ص ٥، ص ٣٨٧ ص ١٦) أما الطريق المائى فيمتد من الأنبار ويمر بنهر ملكة إلى المدائن .

(٤) فى الطبرى ج ٢ ص ٥٧٦ ص ٢ أن المعركة وقعت فى ربيع الآخر، ويؤيد هذا كلام المختار (ص ٥٧٩ ص ٧) بهذا تطول المعركة إلى أكثر من عشرة أيام ولكن أقل من شهر، إلى أن قضى نهائيا على سليمان . ولكن التواريخ الدقيقة التى يقدمها أبو مخنف تستحق الترجيح لأن الشيعة احتفظوا جيدا بتواريخ أيام شهدائهم . الخوارج والشيعة ص ١٧٦ .

النبال قضى عليهم) فلم ينج منهم إلا قليل أنبهم ضميرهم؛ لأنهم لم يبلغوا هدفهم. ولم يطاردتهم في انسحابهم أحد. والتقوا في الطريق بإخوانهم من أهل البصرة والمدائن الذين لم يصلوا إلى الميدان في الوقت المناسب فقرروا العودة إذ كان الأوان قد فات. فبكى الجميع ومضوا بعد ذلك في طريقهم.

١٢ - الشعور بالذنب والخطيئة في حق الحسين:

وكان الشعور بالخطيئة - أكثر من واجب الانتقام - هو الذي دفع هؤلاء الشيعة إلى القتال والموت. ولو كانوا قد بذلوا للحسين وهو حي نصف ما بذلوا وهو ميت فلعل مجرى الأمور أن يكون قد تغير). وراوى أخبار «التوايين» هو أبو مخنف، وينقل خصوصاً عن حميد بن مسلم الأزدى الذي كان قد اشترك في قتل الحسين ثم عاد فأصبح من أشد أنصاره حماسة. والشاهد الشاعر لدى أبي مخنف هو أعشى همدان (الطبرى ج٢ ص ٥٧٢ ومايليها). وتشغل الخطب مساحة واسعة. وليست مصنوعة بل منقولة تناقلها الرواة. وفي موضع من المواضع يذكر أن استهلال إحدى خطب سليمان قد نسبة الراوى. وفي مرتين يذكر أن الراوى سمع خطبة الداعى الشيعى عدة مرات حتى حفظها عن ظهر قلب. ونص إحدى الروايات منقول عن ذاكرة الراوى. قرأ الأصل في أيام خلافة سليمان وسرعان ما استظهره^(١).

١٣ - الشيعة الغالية والمختار الثقفى (٦٧هـ-٦٢٢-٦٨٧م)

ظهر في تلك الأوقات رجل أراد أن يتففع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً في البلاد العراقية، مستعينا بما تضره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى. فذهب إلى الكوفة لابسا ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن علي وداعياً إلى الإمام المهدي وهو محمد بن علي الذي صار بعد أخويه أكبر أبناء علي - رضى الله عنه -، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الأكاذيب التي تؤثر عادة في أنفس الغوغاء. وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة، وأرسل إلى محمد بن علي وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا. واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية: لواء لابن

(١) الحوارج والشيعة فلهوازن.

الزبير، ولواء لبنى أمية، ولواء للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن علي، إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضاً^(١).

المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، أبو إسحاق: من زعماء الثائرين على بنى أمية، وأحد الشجعان الأفاضل من أهل الطائف. انتقل منها إلى المدينة مع أبيه في زمن عمر. وتوجه أبوه إلى العراق فاستشهد يوم الجسر، وبقي المختار في المدينة منقطعاً إلى بنى هاشم. وتزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب أخته «صفية بنت أبي عبيد» ثم كان مع علي بالعراق، وسكن البصرة بعد علي. ولما قتل «الحسين» سنة ٦١هـ، انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد (أمير البصرة) فقبض عليه ابن زياد وجلده وجبسه، ونفاه بشفاة ابن عمر إلى الطائف. ولما مات يزيد بن معاوية (سنة ٦٤) وقام عبد الله بن الزبير في المدينة بطلب الخلافة، ذهب إليه المختار، وعاهده، وشهد معه بداية حرب الحسين بن عمر، ثم استأذنه في التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به، وأرسله، ووصى عليه، غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا «الحسين» وقتلوه، فدعا إلى إمامة «محمد ابن الحنفية» وقال: إنه استخلفه، فبايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سرا، فخرج بهم على والي الكوفة عبد الله بن مطيع، فغلب عليها، واستولى على الموصل، وعظم شأنه. وتبع قتلة الحسين، فقتل منهم شمر بن ذي الجوشن الذي باشر قتل الحسين، وخولى بن يزيد الذي سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي حاربه. وأرسل إبراهيم بن الأشتر في عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد، الذي جهز الجيش لحرب الحسين، فقتل ابن زياد، وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع في تلك الجريمة. وكان يرسل بعض المال إلى صهره ابن عمر وإلى ابن عباس وإلى ابن الحنفية، فيقبلونه. وشاعت في الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة ونزول الوحي عليه، وأنه كان لا يوقف له على مذهب، ونقلوا عنه أسجاعاً، قيل: كان يزعم أنها من الإلهام، منها: «أما والذي شرع الأديان، وحجب الإيمان، وكره العصيان، لأقتلن أرد عمان، وحل قيس عيلان، ونمينا أولياء الشيطان، حاشا النجيب ابن ظبيان!» وقد يكون هذا من اختراع أصحاب القصص، وقد نقله الثعالبي. وعلم المختار بأن عبد الله بن الزبير اشتد على ابن الحنفية وابن عباس لامتناعهما عن بيعته (في المدينة) وأنه حصرهما ومن كان معهما في «الشعب» بمكة، فأرسل المختار عسكراً هاجم

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، ص ٥٠، محمد إبراهيم الفيومي.

مكة وأخرجهما من الشعب، فانصرفا إلى الطائف، وحمد الناس له عمله. ورويت عنه آيات قالها في ذلك، أولها:

تسريلت من همدان درعا حصينة ترد العوالى بالأنوف الرواغم

وعمل مصعب بن الزبير، وهو أمير البصرة بالنيابة عن أخيه عبد الله، على حصد شوكة المختار، فقاتله، ونشبت وقائع انتهت بحصر المختار في قصر الكوفة، وقتله ومن كان معه. ومدة إمارته ستة عشر شهرا. وفي «الإصابة» وهو من غريب المصادفات: أن عبد الملك بن عمر ذكر أنه رأى عبيد الله بن زياد وقد جرى إليه برأس الحسين، ثم رأى المختار وقد جرى برأس عبيد الله بن زياد، ثم رأى مصعب بن الزبير وقد أتى برأس المختار، ثم رأى عبد الملك بن مروان وقد حمل إليه رأس مصعب. ومما كتب في سيرته «أخبار المختار- ط» ويسمى «أخذ الثار» لأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي. وسمى صاحب كتاب «الغدير» واحدا وعشرين مصنفا في أخباره^(١).

١٤ - الصراع على زعامة الشيعة بين سليمان بن صرد والمختار الثقفي

كان اندحار سليمان بن صرد وجماعته في عين الوردة نقطة تحول حاسم في التاريخ الداخلي للشيعة. وبدأ ظهور المنحني البياني الحقيقي لظهور أفكار الشيعة الغالية وذلك حين لم يجد عونا ونصيرا من القيادات العربية بعد أن خطب ودعا فلم يجد فيها غير التكران والتقليل من شأنه فوجد نصرته من الموالي ومن آئذ وحركات التغيير الاجتماعية والسياسية وتيارات المذاهب لم يقف تياراتها. والفضل في هذا التحول إنما يرجع إلى المختار بن أبي عبيد، وهو ثقفي كالمغيرة وزباد وعبيد الله والحجاج. ولا يقل عن هؤلاء شأنا. وإن كان من طبيعة أخرى مخالفة لطبائعهم تمام المخالفة^(٢). كان من أسرة كريمة. وقاد أبوه المعركة ضد الفرس عند البويب (النخيلة) وقتل في هذه المعركة

(١) الإصابة: ت ٨٥٤٧ والفرق بين الفرق ٣١-٣٧ وابن الأثير ٤: ٨٢-١٠٨. والطبري ٧: ١٤٦ والحور العين ١٨٢ وثمار القلوب ٧٠ وفرق الشيعة ٢٣٣٣ والمرزباتي ٤٠٨ والأخبار الطوال ٢٨٢-٣٣٠. والذريعة ١: ٣٤٨، ٣٤٩ وانظر منتخبات في أخبار اليمن ٣٢ والفاطميون في مصر، ٣٤-٣٨ وفيه بحث عن علاقة المختار بالكبائية. وفي التاج ٤: ٢٣٣٨ والقاموس: كيسان.

(٢) كتب عنه فان خلدر van Gelder رسالة مفصلة قيعة جدا، طبعت في لندن سنة ١٨٨٨ عند برل Brill. تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية - فلهاورن السيادة العربية - فان فلوتن، الخوارج والشيعة فلهاورن.

البائسة. وتزوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب ذو المكانة البارزة المرموقة. كما تزوج بنت النعمان بن بشير الأنصاري ذي المكانة الرفيعة كذلك. وكان له في الكوفة بيت. وكان له بالقرب منها ضيعة. (أما ماضيه فيحيط به الغموض، ولم يظهر على المسرح العام إلا بعد أن بلغ الستين من عمره فكان شيعيا غيورا. قدم من ضيعة في خطرته مع مواليه إلى الكوفة لما أن اضطرب الأمر بوفاة معاوية (وآوى مسلم بن عقيل واشترك في حركته التي كانت قبل أوانها. وخلص من يد عبيد الله بعد مشورة بعد أن تشفع لديه فيه بعض الأصدقاء الاخيار، ولكنه نفى خارج الكوفة.

الفصل الثاني

المختار الثقفي واضع مبادئ الشيعة الغالية

١ - المختار الثقفي زعيما لشيعة الكوفة غير مرغوب فيه:

المختار وابن الزبير

بعدما أبرم معاوية بن يزيد الوصية لمن يخلفه حين حضرته الوفاة زال الأمر عن آل حرب فلم يكن فيهم من يرومها، ولا يتشوف نحوها، ولا يرتجى أحد منهم لها. وبإيع أهل العراق عبد الله بن الزبير، فاستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوي.

فقال المختار بن أبي عبيد الثقفي لابن الزبير: إني لأعرف قوما لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتي لاستخرج لك منهم ندا تغلب بهم أهل الشام، فقال: من هم قال: شيعة بنى هاشم بالكوفة، قال: كن أنت ذلك الرجل، فتوجه إلى الكوفة، ثم نزل ناحية منها، وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم، ويظهر الحنين لهم، ويحث على أخذ الثأر لهم، والمطالبة بدمائهم، فمالت الشيعة إليه، وانضافوا إلى جملته، وسار إلى قصر الإمارة فأخرج ابن مطيع منه، وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه دارا، واتخذ بستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة.

وكتب إلى ابن الزبير (يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها، ويساوم ابن الزبير أن يحسب له بما أنفقه من بيت المال، فأبى ابن الزبير ذلك عليه، فخلع المختار طاعته، ووجد بيعته.

٢ - حوار المختار مع ابن الزبير:

(فذهب إلى الحجاز) وفي الطريق لقي ابن العرق فذكر له كيف أن عبيد الله ضربه على عينيه وقال: «قتلني الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضائه إربا إربا... يا ابن العرق! إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكأن قد انبعثت فوطئت في خطامها، فإذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل: إن المختار في عصائيه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف سيد المسلمين وابن سيدها، الحسين بن علي، فوريك لأقتلن بقتله عدة القتل التي قتلت على دم يحيى بن زكريا. قال (أى ابن العرق): فقلت له (أى للمختار): سبحان الله! وهذه أعجوبة مع الأحداث الأولى. فقال (المختار): هو ما أقول لك فاحفظه عني حتى ترى مصداقها. ثم حرك راحلته فمضى^(١). ثم سأله عن ابن الزبير فعلم أن هذا الأخير لم يظهر الثورة علنا بعد ولكنه سيفعل ذلك قطعا حينما يشعر بأن لديه قوة كافية. (فمضى إلى ابن الزبير وطلب منه أن يطلب مبايعته علنا وعرض عليه المساعدة). ولكنه قال ذلك علنا حتى أن ابن الزبير تركه يذهب؛ إذ غضب أن يكلمه في المسجد بصوت عال فيذيع السر. «فهذا الكلام لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مرخاة والأبواب دونه مغلقة»^(٢). فخرج المختار من المسجد وظل لا يرى حولا في مكة^(٣) (إلى أن ظهر من جديد فجأة في مكة ودخل المسجد وتبدى في مظهر الرجل الخطير. هنالك أحسن ابن الزبير معاملته. وفي مستهل سنة ٦٤ قاتل في صفوف خوارج اليمامة ضد أهل الشام قتال الشجعان).

ولكنه لم يجد في مكة ما قدر له. وبعد طرد عبيد الله من العراق اتجهت أنظار المختار إلى الكوفة. وكان لا يقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلا سألوه عن حال الناس وهيئتهم. فأخبر أن الناس في الكوفة في «صلوات واتساق على طاعة ابن الزبير. إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما. فقال المختار: أنا أبو إسحاق. أنا والله لهم. أنا أجمعهم على مر الحق وأنفى بهم ركب الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد»^(٤). ولم ينقد لتحذير من حذرته

(١) الطبري ج ٢ ص ٥٢٤.

(٢) الطبري ج ٢ ص ٥٢٧ س ١١ - ١٢.

(٣) تمثل بصورة الغريب في مدينة الطائف، وهي بلدة الأصلية (الطبري ج ٢ ص ٥٢٦ س ٨) ويفترض فإن جلد (ص ٢٩) أنه كان آنذاك على اتصال بابن الحنفية في المدينة.

(٤) الطبري ج ٢ ص ٥٣١.

من قيام حرب أهلية بين الناس ومن عذاب يوم القيامة. بل كان موقنا بالنصر تمام اليقين.

(فبعد وفاة يزيد بن معاوية بخمسة أشهر وبضعة أيام خرج في الطريق إلى الكوفة) حتى انتهى إلى بحر الحيرة فتزل فاعتسل فيه وادهن دهنا يسيرا ولبس ثيابه واعتنق سيفه. ثم ركب راحلة فمر بمسجد السكون ببنى كندة، لا يمر بمجلس إلا سلم على أهله وقال: «أبشروا بالنصر والفرج. أناكم ما تحبون»^(١) (وظل يسير في شوارع الكوفة وفي المسجد وهو يقول نفس الكلام: أبشروا بالنصر واليسر والفرج، وكان بصحبة اثنين من بنى كندة) وكان الوقت وقت صلاة الجمعة في يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٤ هـ (٦ مايو سنة ٦٨٤)، فصلى مع الناس ثم ركن إلى سارية مدة طويلة وصلى ما بين الجمعة والعصر، فلما صلى العصر مع الناس انصرف.

٣ - نهاية زعيم حركة التوابين:

كان ينو أن يتزعم الشيعة، ولكنه لم يستطع أن ينال هذه الزعامة من سليمان ابن صرد (على الرغم مما صادفه من بعض النجاح. ولكنه تخلص من سليمان بما وقع لهذا الأخير في حملته المشنومة ضد أهل الشام. هنالك استطاع أن يرث زعامته وهو مرتاح الضمير؛ لأنه طالما حذر من القيام بتلك المغامرة وتنبأ بالمصير السيئ الذي آلت إليه، وراح في خطبه يعلن مقدما هذا الإخفاق. فأخذ يمسك بزمام الأمر بيد قوية وأراد أولا أن يبدأ بامتلاك ناصية الكوفة فوجه الشيعة في هذا الاتجاه. هنالك شعر الأشراف بأن ثمة خطرا يتهدهم فلفتوا نظر السوالي، عبيد الله بن يزيد، إلى حركات هذا الرجل الخطير. فأودع السجن). وكان ذلك قبل معركة عين الورد (ومن سجنه كتب إلى أولئك الذين نجوا من الهزيمة يقول: لم يكن سليمان الزعيم الحق، بل أنا، أنا، أنا وأرادوا إنقاذه من السجن)، فقال لهم. . . لاداعى لذلك لأنه سيخرج منه قريبا. والواقع أنه أطلق سراحه بشفاعته صهره عبد الله بن عمر، ولكن بعد أن أخذ على نفسه ميثاقا غليظا وذلك بأن حلفه عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، «ألا يغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ومما يليه كلهم: ذكرهم وأثامهم أحرار. فحلف لهما بذلك ثم خرج فجاء

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٣٢.

داره فترلها»^(١). ولكنه راح يسخر من هذا الحلف قائلا: إنه يفضل أن يدفع هذه الكفارة وأن يضحي بكل ما يملك على أن يتخلى عن طلب السلطان. على أنه لم يحتج حتى إلى الحث في يمينه؛ إذ قدم الكوفة في يوم الخميس ٢٤ رمضان سنة ٦٥هـ (١٤ مايو سنة ٦٨٥م) وال جديد لم يكن قد حلف له، هو عبد الله بن مطيع القرشي وكان أشد أنصار ابن الزبير حماسة^(٢).

وكان على هذا الأخير أن يشد العنان في الكوفة أكثر مما فعل سلفه اللين. فانتهاز أول فرصة ليعرض من فوق المنبر برنامجه السياسي. فقال: «أما بعد! فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم. وأمرني بجباية فيثكم وأن لا أحمل فضل فيثكم عنكم إلا برضى منكم بوصية عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته. ويسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين. فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا. وخذوا على أيدي سفهاكم. وإلا تفعلوا فلو مواتكم ولا تلو مني. فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي. ولأقيم من الأضرع المرتاب» (الطبري ج ٢ ص ٦٠٣). ولكنه بهذا إنما مس قرحا فيهم؛ لأن أهل الكوفة جميعا لم يرضوا أن يؤخذ فضل الفيء. بل طالبوا بالإبقاء عليه في الكوفة وتوريعة. عملا بما فعله علي؛ وكانت الكوفة في عهده عاصمة الخلافة ومركز بيت المال المركزي. لا كما فعل عمر بن الخطاب أو كما فعل عثمان على الأقل. هنالك اعترض عليه أحد الشيعة في المسجد. واستغل هذا الشيعة الفرصة ليذكر الناس بعظمة الكوفة في عهد علي. فأسقط في يد الوالي وقال: «نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها. ثم نزل»^(٣). وجاء إياس بن مضارب - وكان على رأس الشرطة وعليهما بأحوال الناس - إلى ابن مطيع ونبهه إلى خطورة هذا الحادث وقال له: إن هذا الذي اعترض عليك من رءوس أصحاب المختار، ولست آمن المختار. فابعث إليه فليأتك. فإذا جاءك فاحبسه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس فإن عيوني قد أتني فخبيرتنى أن أمره قد استجمع له وكأنه قد وثب بالمصر» (الموضع نفسه). ولكن أحد الرسلين اللذين بعث بهما ابن مطيع - وكان من أهل بلده - أومأ إليه بما سيلقاه في مقابلته للوالي، ففهم واعتل عن الذهاب بوعكة أصابته. وراح يستعد للخروج في مستهل العام الجديد. عام ٦٦هـ. ولكن الأمور لم تمض بهذه السرعة التي قدرها^(٤).

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٠٠.

(٢) الأغاني ج ١٣ ص ١٦٨ وما يليها.

(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٠٤.

(٤) الخوارج والشيعة ص ٢٠١.

٤ - المختار يكتب إلى علي زين العابدين:

وكتب المختار كتابا إلى علي بن الحسين السجاد يريد به على أن يبايع له، ويقول بإمامته، ويظهر دعوته، وأنفذ إليه مالا كثيرا، فأبى علي أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه، وسبه على رءوس الملأ في مسجد النبي ﷺ، وأظهر كذبه وملقه، ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبي طالب.

٥ - المختار ومحمد ابن الحنفية:

وكان يعيش في المدينة أحد أبناء علي بن أبي طالب. واسمه محمد، وأمه ليست فاطمة بنت الرسول ﷺ، بل من بنى حنيفة^(١). ولهذا سمى محمد ابن الحنفية - قام المختار يدعوه باسم محمد ابن الحنفية. ويسميه «المهدى».

فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى عمه محمد ابن الحنفية يريد به على مثل ذلك، فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك، فإن الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إليهم بحبهم، وباطنه مخالف لظاهره في الميل إليهم، والتولي لهم، والبراءة من أعدائهم، بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم، والواجب عليه أن يشهر أمره، ويظهر كذبه، على حسب ما فعل هو وأظهر (ما) من القول في مسجد رسول الله ﷺ، فأبى ابن الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك، فقال له ابن عباس: لاتفعل، فإنك لاتدرى ما أنت عليه من ابن الزبير، فاطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار.

وادعى المختار أنه «أمينه» و«وزيره». فشك نفر من الشيعة في صحة هذه الدعوى، فراحوا إلى المدينة ليستينوا جلية الأمر من محمد ابن الحنفية. فقال لهم هذا: «وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه»^(٢). بيد أن هذه الإجابة العامة المجملة كفت أولئك السريعي التصديق والإيمان. فعادوا بعد شهر وأخبروا المختار بجواب ابن الحنفية. فشر المختار بأنه استراح من هم ثقيل. ودعا في الحال إلى اجتماع للشيعة صال فيه وجال وسخر من المرتابين.

(١) مروج الذهب: للمسعودي، الجزء الثالث: ذكر معاوية بن يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم ٨٥.

(٢) الطبري ٦٠٧٢.

ولكن كان عليه أن يكسب رجلا آخر في الكوفة نفسها، لا يستطيع من دونه أن يلقي رؤساء الشيعة نجاحا ضد الأشراف والوالى. هذا الرجل هو إبراهيم بن الأشتر زعيم قبيلة النخع من مذحج. وكان بارعا مأكرا مستقل الرأى. وكان كأبيه مخلصا لعلوي. وكان على اتصال بابن الحنفية. ولكنه لم يكن يؤمن بالتشيع على الصورة التى استحال إليها فى ذلك العهد. لم يشأ الانضمام إلى سليمان بن صرد كما لم يرغب فى أن يعرف شيئا عن المختار. ولم تفلح المحاولات فى اكتسابه. وأخيرا وصله كتاب يطلب فيه ابن الحنفية نفسه منه أن يعترف بالمختار بن أبى عبيد. ولكنه تضايق من كون ابن الحنفية يلقب نفسه فى هذا الكتاب بقلب «المهدى» وهو أمر لم يعهد منه، فحاك فى صدره الشك فى صحته. ولكن الذين قدموا بالكتاب، والمختار نفسه أكدوا صحة الكتاب، إلا اثنين لفتا نظره بتحفظهم، وهما: عامر بن شراحيل الشعبى الراوى الفقيه المحدث الكبير. وأبوه شراحيل. فانتحى بعامر ناحية وسأله هل يشك فى أمانة هؤلاء الشهود على صحة الكتاب؟ فقال عامر الشعبى: معاذ الله فإنهم «سادة القراء ومشية مصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقا»^(١). فسأله ابن الأشتر أن يكتب له أسماءهم وكتب محضرا سوريا بما وقع. فلما اطمأن قلبه بهذا امثل لما ورد فى الكتاب ووضع نفسه فى خدمة المختار بن أبى عبيد^(٢).

ومنذ هذه اللحظة صار يحضر الاجتماعات التى كانت تعقد للتشاور فى المساء فى بيت المختار بانتظام.

كان المختار قد نظم أتباعه، ونزل فى ظهر دير هند مما يلى بستان رائدة فى السبخة. وهناك أقام صلاة الصبح معهم، وما كان ثم إمام يحسن الوعظ مثله. وكان فى جيشه كثير من الموالى وكانوا له مخلصين! كل الإخلاص.

وحشد الوالى أيضا رجاله خلال الليل. وكان القائد فى منطقة السبخة شبت بن ربيعى المتقلب زعيم حرب الردة ومعه يزيد بن رويم، هزم فصيلة صغيرة أرسلت لمهاجمته. ثم تقدم ناحية المختار. ولكن جيشه تراجع فى البدء أمام العدو. فصاح فيهم شبت بن ربيعى: «يا حماة السوء! بش فرسان الحقائق أنتم! أمن عبيدكم تهريون!»^(٣).

(١) الطبرى ٦١٢٢.

(٢) كنا يروى عامر الشعبى (نسبة إلى قبيلة شعبان، بطن من همدان) فيما يقوله أبو مخنف نفسه.

(٣) الطبرى ج ١ ص ٦٢٣٣.

وكان لهذا الكلام أثره فقد هز فيهم وتر الشرف وأثار فيهم الحفيظة على الموالى، الذين كانوا يحاربون فى صفوف المختار.

هنالك فر الأشراف والوالى - ابن مطيع - إلى القصر فحوصروا فيه . وبعد هذا النصر زاد عدد الشيعة زيادة كبيرة. وبعد ثلاثة أيام تسلل ابن مطيع من القصر هاريا واستتر، أما الأشراف فأذعنوا وباعوا المختار. وفى صباح اليوم التالى جاء المختار من القصر بعد أن بات فيه، فتلقى البيعة من الأشراف وغيرهم، وهو يقول: «تبايعونى على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقاتل من قاتلنا وسلم من سألنا والدفاع ببيعتنا، لاتقبلكم ولا نستقبلكم»^(١).

٦ - ابن الزبير يعادى بنى هاشم:

إن مما أضعف حركة ابن الزبير وشد من حركة المختار الثقفى، معاداة ابن الزبير لبنى هاشم وإضرار النار عليهم ثم تعقب محمد ابن الحنفية وحبس ابنه الحسن بن محمد ابن الحنفية مع شحه ويخله عن مواليه وجنده. قال المسعودى:

وأظهر ابن الزبير الزهد فى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة، وقال: إنما بطنى شبر، فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا، وأنا العائد بالبيت، والمستجير بالرب، وكثرت أذيته لبني هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس، ففى ذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير:

إن المولى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزونا أى الملوكة على ما حولنا غلبا

٧ - ابن الزبير وآل بيت الرسول ﷺ:

وحدث النوفلى علي بن سليمان، عن فضيل بن عبد الوهاب الكوفى، عن أبى عمران الرازى، عن فطر بن خليفة، عن الديال بن حرملة، قال: كنت فىمن استغفره أبو عبد الله الجدللى من (أهل) الكوفة من قبل المختار، ففترنا معه فى أربعة آلاف فارس، فقال أبو عبد الله: هذه خيل عظيمة، وأخاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيحمل على بنى هاشم، فيأتى عليهم، فانتدبوا معى، فانتدبنا (معه) فى ثمانمائة فارس، فما شعر ابن

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٣ .

الزبير إلا والرايات تخفق على رأسه، قال: فجئنا إلى بنى هاشم، فإذا هم فى الشعب، فاستخرجناهم، فقال لنا ابن الحنفية: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم، فلما رأى ابن الزبير تحملنا له وإقدامنا عليه لاذ بأستار الكعبة، وقال: أنا عائذ بالله.

وحدث النوفلى فى كتابه فى الأخبار، عن ابن عائشة، عن أبيه، عن حماد بن سلمة، قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بنى هاشم وحصره إياهم فى الشعب وجمعه (لهم) الحطب لتحريقهم، ويقول: إنما أراد بذلك إرهابهم (ليدخلوا فى طاعته) إذ هم أبو البيعة فيما سلف، وهذا خبر لا يحتمل ذكره هنا، وقد أتينا على ذكره فى كتابنا مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب «حداائق الأذهان».

٨ - ابن الزبير يضطهد ابن الحنفية:

وخطب ابن الزبير فقال: قد بايعنى الناس، ولم يتخلف (عن بيعتى) إلا هذا الغلام محمد ابن الحنفية، والموعد بينى وبينه أن تغرب الشمس، ثم أضرم داره عليه نارا، فدخل ابن العباس على ابن الحنفية فقال: يا ابن عم، إنى لا آمنه عليك فبايعه، فقال: سيمنعه عنى حجاب قوى، فجعل ابن عباس ينظر إلى الشمس، ويفكر فى كلام ابن الحنفية، وقد كادت الشمس أن تغرب، فوفاهم أبو عبد الله الجدلى فيما ذكرنا من الخيل، وقالوا لابن الحنفية: ائذن لنا فيه، فأبى، وخرج إلى أيلة فأقام بها سنين، ثم قتل ابن الزبير، كذلك حدث عمر بن شبة النميرى.

٩ - ابن الزبير يحبس الحسن بن محمد ابن الحنفية:

وحبس عبد الله بن الزبير الحسن بن محمد ابن الحنفية فى الحبس المعروف بحبس عارم، وهو حبس موحش مظلم، وأراد قتله، فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد ابن الحنفية ففى ذلك يقول كثير:

تخبر من لا قيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم
ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى نبي الله وابن وصيه وفكاك أغلال وفاضى مغارم

وقد كان ابن الزبير عمد إلى من بمكة من بنى هاشم فحصرهم فى الشعب، وجمع لهم خطبا عظيما لو وقعت فيه شرارة من نار لم يسلم من الموت أحد. وفى القوم محمد ابن الحنفية.

وحدث التوفلى فى كتابه فى الأخبار عن الوليد بن هشام المخزومى، قال: خطب ابن الزبير فنال من علي، فبلغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفية (فجاء) حتى وضع له كرسيًا قدامه، فعلاه، وقال: يامعشر قريش، شأهت الوجوه! أيتقص علي وأنتم حضور، إن عليا كان سهما صادقا أحد مراى الله على أعدائه يقتلهم لكفرهم ويهوعهم مآكلهم، فنقل عليهم، فرموه بقرفة الأباطيل، وإنا معشر له على ثيغ من أمره بنو النخبة من الأنصار، فإن تكن لنا فى الأيام ذلة ننشر عظامهم ونحسر عن أجسادهم، والأبدان يومئذ بالية، ﴿... وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧) [الشعراء]، فعاد ابن الزبير إلى خطبته، وقال: عذرت بنى الفواطم يتكلمون، فما بال ابن الحنفية، فقال محمد: يا ابن أم رومان، ومالى لا أتكلم، أليست فاطمة بنت محمد حليمة أبى وأم إخوتى، أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى، أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى، أما والله لولا خديجة بنت خويلد ماترت فى بنى أسد عظما إلا هشمته، وإن نالتتى فيه المصائب صبرت.

حمق ابن الزبير:

ولما هلك يزيد بن معاوية ووليها معاوية بن يزيد نعى ذلك إلى الحصين بن نمير ومن معه فى الجيش من أهل الشام، وهو على حرب ابن الزبير، فهادنوا ابن الزبير، ونزلوا مكة، فلقى الحصين عبد الله فى المسجد، فقال له: هل لك يا ابن الزبير أن أحملك إلى الشام وأبايع لك بالخلافة، فقال عبد الله رافعا صوته: أبعد قتل أهل الحرة، لا والله حتى أقتل بكل رجل خمسة من أهل الشام، فقال الحصين: من زعم يا ابن الزبير أنك داهية فهو أحقق، أكلمك سرا وتكلمنى علانية، أدعوك إلى أنى أستخلفك فترفع الحرب وترغم أنك تقاتلنا، فستعلم أننا المقتول، وانصرف أهل الشام إلى بلادهم مع الحصين، فلما صاروا إلى المدينة جعل أهلها يهتفون بهم، ويتوعدونهم، ويذكرون قتلاهم بالحرة، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهياجها سعد روح بن زنباع الجذامى على منبر رسول الله ﷺ، وكان فى ذلك الجيش، فقال: يا أهل المدينة، ما هذا الإيعاد الذى توعدوننا، إنا والله مادعوناكم إلى كلب لمبايعة رجل منهم، ولا إلى

رجل... ابن معاوية، وعلى طاعته قاتلناكم، فإيانا توعدون، أما والله إنا لأبناء الطعن والطاعنون، وفضلات الموت والمنون، فما شئتم، ومضى القوم إلى الشام.

١٠ - بوادر ظهور أفكار الشيعة الغالية:

١ - شيعة المختار الكيسانية وعصبيته الموالي:

استولى المختار إذن على الكوفة دون إراقة كثير دماء. فسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة في النفوس والصلح بين الأحزاب. وفي أول الأمر تولى بنفسه القضاء بحماسة ومهارة، حتى أزهقه المنصب فعين قضاة. ووفى بعهده للأشراف بالأمان. ومع ذلك كانت العناية «بالمستضعفين» نقطة رئيسية في برنامجه. وكان يفهم من هذا الاسم البسيط الكثير الورود في اللغة الروحية أنه يقصد به المسلمون غير العرب، أعنى الموالي، وكانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة وفي أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة، وترك لهم العرب المشغولون بالحرب والقتال مرافق الحياة المدنية^(١). وكانت غالبيتهم - من حيث الأصل واللغة - من الفرس، جاءوا أسرى إلى الكوفة، واعتنقوا الإسلام هناك ثم اعتنقهم سادتهم وانتسبوا إلى القبائل العربية موالي فيها بحيث كانوا في وضع هجين: فلم يعودوا عبيدا، ولكنهم بقوا مع ذلك على ولائهم لسادتهم وفي حاجة إلى حمايتهم. وقد أعطاهم الإسلام من الحقوق أكثر مما سمح به سادتهم العرب.

أيقظ المختار هذا الأمل فيهم واجتذبهم إليه وزاد بهم مواليه الخصوصيين.

على أنه في بادئ الأمر لم يعين في المراكز الرئيسية إلا العرب، وكانوا في الأصل يؤلفون الأغلبية الكبرى في جيش الشيعة ويتكون منهم الفرسان.

الموالي والدفاع عن مصالحهم... لا ساداتهم:

(١) وكانوا كذلك يعملون في الضياع المجاورة للكوفة، مثل ضيعة المختار. وقد أتى بهم منها. ولعلمهم اختلطوا بالفلاحين الآراميين هناك. وعبد الله بن الزبير بينهم في البيت الوارد في «الأغاني» (ج٣ ص ٣٧ س ٢٧٧): «مجوس القرى ويهود القرى». ولكن هذا التعبير التحقيري يجب ألا يوقف عنده كثيرا. أما العرب للخصون بالقتال فكانوا محتمين في المدن (الكوفة والبصرة)، وغير العرب لم يكونوا يتسبون إليهم. والذي كان يهتم به المختار هو الوضع الاجتماعي للموالي، لا قوميتهم، ولم يخطر بباله قط أن يدافع عن الفرس بوصفهم فرسا، على أنه كان من الأهمية بمكان عظيم أن معظم الموالي كانوا من الفرس.

أما الموالي فكانت جمهرتهم العظمى من غير الفرسان وجرت العادة ألا يحملوا سيوفاً، بل كان سلاحهم هراوات خشبية^(١).

وهالهم أن يكافح الموالي في سبيل مصالحهم لا في سبيل سادتهم! وفتحت الكراهية بصائرهم. وأصبح هذا علامة مميزة منذ ذلك الحين على الحركة الشيعية الجديدة.

ولم يفلح المختار في اجتياز هذا المضيق. فلم يستطع كسب حزب العصية العربية إلى جانبه، وكان في خطر أن يزعج الموالي.

لم يكن جادا في سياسة التوفيق والمصالحة التي سلكها، ابتغاء المزج بين العرب والموالي في بوتقة الإسلام.

١١ - المختار يضربه حليفه:

قوت الأحداث الخارجية مركزه أولا. فالعمال الذين أرسلهم إلى المقاطعات التابعة للكوفة قوبلوا بغير مقاومة. ولم يشذ إلا المتمرد الورع عبيد الله بن الحر الجعفي الذي حصن في المدائن وأرض جوحى ورفض الطاعة له. ومن جهة أخرى أخفقت الحركة التي قام بها شيعة البصرة لنصرتهم^(٢). وظن المختار أنه يستطيع أن يتجنب العداءة السافرة بينه وبين ابن الزبير. على الرغم مما قام به من معارك ضد حكومة ابن الزبير في العراق. وحتى بعد أن منع المختار دخول الموالي الجديد إلى الكوفة بقوة السلاح. وهو الموالي الذي أرسله ابن الزبير محل ابن مطيع المطرود. فعرض المختار على ابن الزبير أن يتعاونوا ضد العدو المشترك، وهو أهل الشام الذين رحفوا على الجزيرة العربية سنة ٦٦هـ حتى وصلوا إلى وادي القري، وظفر بموافقة ابن الزبير على إرسال جيش قوامه ثلاثة آلاف من الموالي إلى المدينة تحت إمرة شرحبيل بن ورس الهمداني. عليهم أن يعملوا مع جيش ابن الزبير المؤلف من ألفي جندي والذي رحف من مكة ضد أهل الشام - بقيادة عياش بن سهل الأنصاري^(٣). ولكن عياشا تخلص من حلفائه المزعجين هؤلاء - فقد كانوا جميعا من الموالي - عن طريق قتلهم غدرا واغتيالاً جبانا، ولا شك أنه فعل ذلك

(١) كتاب المختار إلى الأحنف بن قيس في الطبري ٦٨٥٢.

(٢) بعكس ما يقوله الطبري ج ٢ ص ٦٨٩ س ١٢ قارن ج ٢ ص ٥٧٩ س ١.

(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٦٧ ص ٧. واسم اليوم الوارد هنا (٢٢ يوليو سنة ٦٨٦) كان يوم أحد لا أربعاء.

بأمر صريح من سيده (ابن الزبير) الذى كان ينشده نظيره فى القسوة والغدر. وهى علاقة تكاد تكون من طرف واحد- نقول: إنه جدد علاقته بابن الحنفية وعرض عليه أن يرسل إليه جنودا إلى المدينة لمحاربة ابن الزبير. إذا أعلن صراحة تأييده للمختار. ثم أصبح ابن الحنفية بعد ذلك فى موقف حمله على إعلان تأييده للمختار بل ودعوته إليه لمساعدته؛ ذلك أنه حدث فى أثناء الحج سنة ٦٦ أن جاء ابن الحنفية إلى مكة وهناك حاصره ابن الزبير فى داخل الحرم هو ومن معه من أصحابه وهدده ابن الزبير بالموت إذا لم يبايع ابن الزبير فى خلال مدة محددة. فلجأ ابن الحنفية إلى المختار واستطاع أن يبعث إليه برسالة يشرح له فيها ماوقع له وطلب منه النجدة. فقرأ المختار الرسالة علنا والسروور يغمره وأرسل فى الحال جنودا متطوعين إلى المدينة.

١٢ - الكوفة والصراع بين الشيعة والأشراف:

انتشرت فى الكوفة إشاعة تقول: إن الشيعة هزمهم أهل الشام. فأمر المختار إبراهيم بن الأشتر بالمسير بجيش مؤلف من سبعة آلاف رجل إلى ميدان المعركة بأسرع ما استطاع. وفى هذه الظروف ازدادت جرأة الأشراف على المختار، وهم قادة حزب العصبية العربية. وأخذوا يعتبون على المختار أنه تأمر عليهم بغير رضى منهم ولا يأذن من ابن الحنفية، وأنه أظهر هو وسبايته (يبدع ابتدعها فى الإسلام) البراءة من أسلافهم الصالحين، وأنه أدنى مواليتهم فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم من فيثهم، فسلبهم بذلك حقوقهم؛ لأنهم أعتقوا عبيدهم على أمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر، فلم يرض المختار لهم بذلك حتى جعلهم شركاءهم فى الفىء، وأخذ هؤلاء العبيد فحارب بهم يتيهم وأراملهم. وكان شيث بن ريعى التميمى - الشيخ العجوز - هو الذى يتحدث باسمهم، فذهب إلى المختار يكلمه فى هذه الأمور. فوعده المختار بالنظر فيها وإرضائهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، ثم سأل شيئا: «إن أنا تركت لكم مواليتكم وجعلت فيكم فيكم - أتقاتلون معى بنى أمية وابن الزبير، وتعطوننى على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما أطمئن له من الأيمان»، (الطبرى ٦٥٠٢) - فلم يوافقته الأشراف على ذلك، بل قرروا أن يهتبلوا هذه الفرصة السانحة للقضاء على مغتصب السلطة (المختار)، وإن كانوا بذلك يخونون العراق لصالح أهل الشام.

وحتى يفسد عليهم تدبيرهم اقترح عليهم أن يبعثوا من قبلهم وفدا إلى ابن الحنفية ويرسل هو من قبله وفدا إليه لسؤاله فى تأييد ابن الحنفية له. ولكن لم ينجح فى هذا التدبير.

بيد أنه وجد الوسيلة والسبيل إلى إنباء إبراهيم بن الأشتر بما يجرى وأمره بالعودة حالاً.

يا لثارات عثمان يا لثارات الحسين،

وفى صباح اليوم التالي، يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦ استؤنف القتال الذى وقع من قبل فى شهر ربيع. وتداخلت الأضداد بين الأحزاب كلما اتصل الأمر بالعرب. فكثير من الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت فى صف المختار، انفصلوا عنه وانحازوا إلى صفوف الأشراف. نخص بالذكر القارئ الشهير رفاعه بن شداد الفتياي، وهو صديق قديم لسليمان بن صُرد، بيد أنه انزعج انزعاجاً شديداً حينما سمع صيحة الأشراف: «يا لثارات عثمان!» ترن إلى جانبه، وفى مقابل صيحة الشيعة «يا لثارات الحسين!». فاندفع يائساً إلى هوة الموت^(١).

١٣ - الشيعة تثار من قتل الحسين،

ونادى منادى المختار: بعد أن تم له الانتصار، أنه من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلاً اشترك فى دم آل محمد، فاستثنى من الأمان من اشتركوا فى قتل الحسين، وأطلق العنان للشيعة ليتقموا من قتلة الحسين بعد أن كان قد منع من هذا الانتقام. فتوالى القتل فى الأسرى أولاً ثم فى المسؤولين الرئيسيين عن مأساة كربلاء فاستخرجوا من مكائهم وقتلوا، بدعوى أن ذلك بأمر من ابن الحنفية، هذا الشيخ المقيم فى المدينة. وكان العبيد والموالي كالكلاب البوليسية وراء سادتهم القدمات، وكانت النسوة يخبرن عن أزواجهن. فقتل شمر بن ذى الجوشن، كما قتل عمر بن سعد ونفر كثير من أهل قريش. ومن استطاع من الأشراف أن يهرب هرب إلى البصرة عند مصعب بن الزبير. وهدمت بيوتهم فى الكوفة. ولكن المختار ضمن حماية من خلفوا من النساء والأبناء والحرم^(٢). أما المختار نفسه فلم يكن أشد القوم تنكيلاً بهم، بل قد قتل كثيرون دون علم منه وعلى عكس ما أمر به. وخلقى عن سراقه بن مرداس لا شئ إلا لأنه قال شعراً ذكر فيه أن أعداء المختار شاهدوا الملائكة تحارب فى صف المختار وأنهم هربوا من هؤلاء الملائكة. ثم ألزمه المختار أن يعلن هذه الأكذوبة الشعرية من فوق المنبر وأن يحلف بصحة ما رأى. ثم طرده خارج الكوفة.

(١) هرب أسماء بن خارجة الفزاري، أبو روجة عبيد الله بن زياد إلى الشام، راجع «الأغاني» ج ١، ١٢ ص ٣٦ ومايليها فى ص ٣٧ (٣٦) كما ورد خطأ فى نص المؤلف) س ٢١ اقرأ: عبيدها.
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٧١٩.

وبعد أن قضى المختار على هذه الفتنة عاد بعد يومين فأرسل إبراهيم بن الأشتر ضد أهل الشام وأمره بأن يهاجمهم متى لقيهم. وصحب بنفسه الجيش إلى الفرات ووعدهم بالنصر. والتقى الفريقان عند نهر خزر الذى يصب فى الدجلة من خلال الزاب الكبير. ولم تذكر الروايات - وهذا أمر غريب! - تاريخ هذه المعركة. ولكن لاشك فى أنها وقعت فى الشهر الأول من سنة ٦٧هـ (أغسطس سنة ٦٨٦)^(١). فانتصر الشيعة على عدوهم الذى كان يبلغ عشرة أضعافهم. بفضل مهارة قائدهم ويفضل شجاعتهم هم. ولم تطلق حمائم بيض^(٢)، وخيانة القيسيين فى جيش أهل الشام - إن صح الكلام عن خيانة وقعت - إنما حدثت بعد أن تقرر مصير المعركة^(٣). وقتل عبيد الله بن زياد. وقتل الحصين بن نمير السكوني. وقتل شرحبيل بن ذى الكلاع - انتقاما للمدن المقدسة وللحسين ومالك بن الأشتر. وغرق معظم الهاريين من أهل الشام فى الماء، ونهبه عسكرهم. وبينما كانت الحملة الأولى التى أرسلها المختار. تحت قيادة بريدة بن أنس من الفرسان. لم يكن فى الحملة الثانية إلا قليل جدا من الفرسان^(٤)، أى أنها كانت تتألف من الموالى. وكانوا يضربون بالعمد على الخوذ والدروع التى يحملها جنود أهل الشام حتى كانت ترن رنين مباحن قصارى دار الوليد بن عقبة بن أبى معيط - كما يقول راو قديم. وخلت الروايات العربية من ذكر أسماء هؤلاء الأبطال. وبقي إبراهيم يرقب حركات أهل الشام فى الموصل. بينما غزا أخوه لأمه نصيبين ودارا وسنجار.

يقول المسعودى:

واشتد أمر المختار بالكوفة، وكثر رجاله، ومال الناس إليه، وأقبل يدعو الناس على طبقاتهم ومقاديرهم فى أنفسهم وعقولهم، فمنهم من يخاطبه بإمامة محمد ابن

(١) قضى على الفتنة فى الكوفة - حسب رواية الطبرى ج ٢ ص ٦٦٧ - فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٦٦هـ، وبحسب الطبرى ج ٢ ص ٧٠١ س ١ سار إبراهيم بجيشه بعد ذلك بيومين، أى فى ٢٦ ذى الحجة، فلا يمكن أن يكون قد بلغ منطقة الموصل قبل العام الجديد. ولكن بحسب الطبرى - ٢ ص ٧٠ س ٣ أن إبراهيم خرج يوم ٢٢ من ذى الحجة سنة ٦٦. فالحوادث التى وقعت بالكوفة، والتى بدأت بعد المعركة التى جرت عند الموصل فى ٩ ذى الحجة بيومين، قد تدافعت على نحو أسرع مما جرى عليه الأمر فى الواقع.

(٢) هذه الخرافة وردت فى الكامل ص ٥٩٨ ومايليها. ولعل هذه الحمامات إنما نشأت عن الملائكة الذين أشرنا إليهم سابقا وقلنا: إن سراقه زعم للمختار أنهم شوهوا يحاربون فى صف المختار.

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٧١٢ وما يليها.

(٤) الطبرى ج ١ - ٢ ص ٧٠٩ س ٥، ص ٧٢١ س ١١ وما يليه.

الحنفية، ومنهم من يدفعه عن هذا فيخاطبه بأن الملك يأتيه بالوحي ويخبره بالغيب، وتبع قتلة الحسين فقتلهم: قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري، وهو الذي تولى حرب الحسين يوم كربلاء وقتله ومن معه، فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له.

١٤ - الموالي يتشيعون للمختار وشيعة العرب ينكرونه:

وكان المختار قد شارك في ثورة مسلم بن عقيل فقبض عليه وألقى في غياهب السجن، حتى إذا أطلق سراحه التحق بابن الزبير في مكة. وبعد ثلاث سنوات ظهر من جديد في العراق وأخذ يدعو في ما يظهر، لأحد أبناء علي الصغار، محمد المعروف بابن الحنفية، نسبة إلى أمه. وإذا كان محمد هذا لا يستطيع أن يدعى الحق في الخلافة وأن يتصدر لها، فقد سارع المختار إلى انتهاز سبيل آخر طفق يشر بوحى من الملك جبريل على ما زعم، وبشر غامض مسجوع يطبع على غرار القرآن، بظهور المهدي، فجأة، عند انتهاء العالم ليملا الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا. ولقد وفق إلى أن يجتذب إليه الموالي من الأراميين والفرس الذين اعتنقوا الإسلام، والذين كان العرب ينظرون إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية.

كان المختار في الدروة. وكان أيضا أمام الهاوية. فالشيعة العرب من الجيل القديم كانوا لا يثقون به. حتى اعتزلوه جانبا. فلم يكن أمامه إلا المتعصبون والموالي. فأنحاز إلى جانبهم ضد حرب العصبية العربية. لقد كان المتعصبون والموالي شديدي الإعجاب بقوة شعوره بذاته والصورة الرائعة التي ظهر عليها هذا الشعور.

فقد تدافع غلاة الشيعة عند الجسر الذي أراد المرور عليه.

وكانوا قد أعدوا له كرسيًا مقدسا يحمل على بغل ويقوم على سداته سادن. وحول هذا الكرسي كانوا يتراقصون ويتواثبون بحماسة وجنون، وهم يسألون الله النصر.

ويبدو أن المختار نفسه لم يكن مستولا عن ذلك. ولكنه لم يشأ أن يفسد على هؤلاء لذتهم؛ إذ لم يكن في وسعه الاستغناء عن مساعدتهم. فهم الذين كانوا يخوضون النار من أجله.

١٥ - الأشراف يغدرون بالموالى؛

انهزم أهل الشام. وشلت سواعدهم سنوات. ولكن الخطر جاء الآن من البصرة حيث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قبل أخيه الأكبر. الخليفة في مكة (عبد الله ابن الزبير) - منذ نهاية سنة ٦٦هـ أو مستهل سنة ٦٧هـ^(١). لقد حرصه الأشراف الهاربون من الكوفة. وخصوصا منهم شيب بن ربيع التميمي ومحمد بن الأشعث الكندي، حرصوه ضد المختار. وكانت جيوش البصرة تحارب آنذاك في الميدان ضد الخوارج. وقائدها المهلب لم يكن على استعداد تام للتحول عن الحوار إلى موالى الكوفة يقاتلهم. وأخيرا رضى المهلب وتولى قيادة جيش كبير خرج من البصرة قبل منتصف سنة ٦٧هـ، واشترك في الحملة أيضا أحد أبناء علي. وهو عبد الله، فبعث المختار بجيشه إلى المذار على الدجلة. وهناك ينتظرون العدو. وعلى أساس نبوءة هناك بالنصر. ولكنهم منوا بهزيمة منكرة. ولم يظهر الظافرون أية رحمة، وكان أشدهم قسوة الكوفيون الهاربون إلى البصرة فقد كانوا أشد الناس على أبناء بلدهم. وأعملوا السيوف وخصوصا بين الموالى. وقاتل الموالى بكل شجاعة. ولكن رملاءهم العرب من بجيلة وخثعم تخلوا عنهم بصورة مزرة. ولم يستطع الموالى الفرار؛ لأنهم لم يكونوا راكبين. وقليل من الفرسان هم الذين استطاعوا النجاة.

١٦ - نهاية المختار وصحوة الموالى؛

^١ كان لهذه الهزيمة تأثير في الكوفة بالغ المدى، فتزعزعت مكانة المختار، لقد كذب هذه المرة، هكذا قال الموالى. وقال المختار (لما جاءه خبر الهزيمة): «قُتلت والله العبيد قتلة ما سمعت بمثلها قط»^(٢) أما المختار فلم يهن بل امتلأ عزما وتصميما. وذهب حتى نزل السيلحين^(٣). «ونظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيرة. ونهر السيلحين. ونهر القادسية. ونهر يوسف - فسكن الفرات على مجتمع الأنهار. فذهب ماء الفرات كله في هذه الأنهار، وبقيت سفن أهل البصرة في الطين. فلما رأوا ذلك خرجوا من السفن يمشون وأقبلت خيلهم تركض حتى أتوا ذلك السكر فكسروه وصمدوا صمد الكوفة»^(٤). وزحف المهلب من الأنبار قاصدا الكوفة فالتقى بالمختار وأصحابه في

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ٦٨٨ س ١٧ (وكذلك ص ٦٦٥ س ٧، ص ٧١٦ س ١٥) وقارنه بما ورد في ج ٢ ص ٧١٧ س ١.

(٢) الطبرى ٢ - ٧٢٤. (٣) الطبرى ٢ - ٧٢٥.

(٤) راجع عن هذا الموضوع الطبرى ج ٢ ص ٩٢١ س ٨.

حروراء. وحمى وطيس القتال. فسقط محمد بن الأشعث. قائد الكوفيين في جيش أهل البصرة. سقط قتيلًا هو ومن معه. كذلك قتل عبد الله بن علي بسيف من قتلوا أسرته. وأبقى المهلب على رجاله من الأزد وتميم احتياطا. ولم يرجع إلى مصعب حينما طلبه ليكلمه في هذا الأمر. فلما بدا له الوقت مناسباً. نزل بهم إلى المعركة وكان هجومهم فاصلاً فيها. فامتلاً ميدان المعركة بجثث أكبر نبلاء شيعة الكوفة. وقاتل المختار طوال الليل وهو مترجل. حتى كاد أن يكون وحده في الميدان. وهناك أذعن لرأى القلة التي بقيت معه والتي كانت تحته على العودة، فعاد إلى قصره^(١).

وكان إبراهيم بن الأشتر قد بقى في الموصل، وإن لم يكن ثم حاجة كبيرة إليه هناك ضد أهل الشام. ولعله كانت لدى المختار أسباب تدعوه إلى عدم دعوة إبراهيم. ذلك أنه لم يكن نصيراً مخلصاً كل الإخلاص. ولكن لو كان إبراهيم هناك لاتخذت الأمور مجرى آخر بسهولة. فالجنود الشيعة كانوا أكفأ لقتال البصريين. ولكن كان يتقصهم القائد. وإبراهيم كان قادراً على المهلب. ولكنه بدلاً من ذلك صالح مصعب بن الزبير، وظل له مخلصاً حتى الممات.

وفي غداة المعركة رحف جيش البصرة حتى دخل (من المدخل الرئيسى للسبخة) إلى مشارف الكوفة، ثم ضيقوا الخناق على المختار شيئاً فشيئاً وقطعوا عنه المؤنة^(٢). وكان المختار يسيطر على القصر والمدينة الداخلية وكان معه عدة آلاف من الموالى وبنات قليلة من العرب. أما غالبية العرب فقد تسللوا إلى أسرهم. وكانت النسوة يحملن إليه الماء. ولكن بدأت هيبتة في الزوال، وكان يلقي عليه الماء النجس حينما يمر خلال الطرقات. وأخيراً رأى نفسه محصوراً في القصر دون ماء ولا زاد. وبعد استمرار الحصار أربعة أشهر^(٣) - والحصار هنا يقصد به القتال في الشوارع - طلب من أصحابه

(١) لم يذكر تاريخ المعركة، إذ لا محل لاستنتاج شيء مما يرد في «الأغانى» ج٣ ص ٢٨ ص ١ قارن ص ١٦٧ ص ١٦ - «السبعين»، ص ٢٦. ولكن يمكن استخلاصه من كون المختار قد قتل (في رمضان سنة ٦٧) بعد ذلك بأربعة أشهر، على هذا يكون تاريخها في منتصف جمادى الأولى سنة ٦٧ (أوائل ديسمبر سنة ٦٨٦). ويؤيد هذا أن القمر قد بزغ. ففي رواية الواقدي التي نقلها الطبري (ج٢ ص ٧٤٨ ومايليها) أن القتال بدأ حينما طلع القمر، ودفع البصريون متقهقرين حتى معسكرهم، وهناك دافعوا بشجاعة، وكان أصحاب المختار ينضمون إلى البصريين واحداً بعد واحد، حتى وجد نفسه في الصباح وحيداً.

(٢) كانت المدينة مفتوحة، ولم يكن محصناً غير القلعة، ولكن الدروب الضيقة سهلت عملية الدفاع.

(٣) الواقدي فيما ينقله الطبري ج ٢ ص ٧٤٩.

أن يشقوا طريقهم بالقوة. ولكن عبثاً. لقد رفضوا، وفضلوا أن يسلموا أنفسهم لرحمة العدو أو بطشه. هنالك خرج المختار في تسعة عشر رجلاً، فضارب بسيفه حتى قتل. وذلك في ١٤ من رمضان سنة ٦٧هـ (٣ من أبريل سنة ٦٨٧م)، وكان عمره إذ ذاك سبعة وستين سنة.

والواقع أن المختار كان في حال من الخطر الشديد عندما تداركه جيشه، بعد أن سمع بأنباء الكوفة، وأنقذه من أهلها. فما كان منه إلا أن أنزل عقوبة وحشية بجميع خصومه بحجة أنهم شركاء في الجريمة التي انتهت باستشهاد الحسين. وبعد يومين، هزم ابن الأشتر الجيش السورى - وكان يقوده عبيد الله بن زياد الذى أنفذ مجزرة كربلاء - فى خازر حيث قتل ابن زياد نفسه. ولكن المختار لم يهنأ بهذا الظفر العظيم الذى احتفل به احتفالاً غريباً، بعد أن نصب عرشاً فارغاً، وسجد أمامه سجوده أمام عرش الله، إذ تلا هذا الظفر سقوطه؛ ذلك أن مصعباً الذى كان حتى الآن مستقراً فى البصرة أثناء حرب الخوارج ما لبث أن هاجمه واضطره بعد معركتين داميتين، إلى أن يعتصم فى قلعة الكوفة. وخرب مصعب الحصار على القلعة فدافع المختار وجنوده عن أنفسهم دفاعاً دام أربعة أشهر، قتل بعدها المختار فى هجوم قام به فى ٤ نيسان سنة ٦٨٧. وعاشت تعاليمه فى عقائد الشيعة، المتصلة بشئون الآخرة، على الرغم من أن مصعب ابن الزبير أباد أتباعه فى وحشية بالغة^(١)، وتراوح عددهم فيما يذكرون بين الستة والثمانية آلاف. لقد أطلق مصعب العنان لانتقام أشرف الكوفة الذين أرادوا الثأر لدماء آبائهم وأقربائهم من الموالى، فاستحق من أجل ذلك أن يلقب بلقب «الجزار». ويروى أن مصعب لقي عبد الله بن عمر فسلم عليه وقال له أنا ابن أخيك. مصعب. فقال له ابن عمر: نعم! أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة! عش ما استطعت! فقال مصعب: إنهم كانوا كفرة سحرة. فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً! (الطبرى ج ٢ ص ٧٤٥). ولكن أفطع أمر أثار السخط على مصعب هو قتله لزوجة المختار، عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارى وقد أبت حتى اللحظة الأخيرة أن تنكر زوجها، بل قالت: إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين^(٢). ثم إن مصعباً أمر بكف المختار فقطعت ثم سمرت بمسمار حديد إلى جنب المسجد^(٣).

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٩٠ كارل بروكلمان.

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٧٤٥. (٣) الطبرى ج ٢ ص ٧٤٤.

١٧ - المختار والكيسانية ومحمد ابن الحنفية:

وهؤلاء الذين وردوا إلى ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد ابن الحنفية، وقد تنازعت الكيسانية بعد قولهم بإمامة محمد ابن الحنفية: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي في جبال (رضوى)، وقد تنازع كل فريق من هؤلاء أيضا، وإنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرة، (وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك، ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة) هو غير المختار، وقد أتينا على أقاويل فرق الكيسانية وغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الأمة في كتابنا في «المقالات في أصول الديانات» وذكرنا قول كل فريق منهم، وما أيد به مذهبه، وقول من ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل إلى شعب رضوى في جماعة من أصحابه فلم يعرف لهم خبر إلى هذه الغاية.

وقد ذكر جماعة من الأخباريين أن كثيرا الشاعر كان كيسانيا، ويقول: إن محمد ابن الحنفية هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت (شرا وجورا)^(١).

وحكي الزبير بن بكار في كتابه «أنساب قريش» في أنساب آل أبي طالب وأخبارهم منه قال: أخبرني عمي، قال: قال كثير أبياتا له يذكر ابن الحنفية - رضى الله عنه - وأولها:

هو المهدي خبرناه كعب	أخو الأخبار في الحقب الخوالي
أقر الله عينى إذ دعانى	أمين الله يلف في السؤال
وأثنى في هواى على خيرا	وساءل عن بنى وكيف حالى

وفيه يقول أيضا كثير:

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وير	ومسبط غيته كبرلاء
ومسبط لاتراه العين حتى	يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا	برضوى عنده غسل وماء

(١) راجع الطبرى - ٣ ص ٤٦٨ م ٥: البلاذرى ص ٣٠٨، ص ٣٦٦.

وفيه يقول السيد الحميرى، وكان كيسانيا:

ألا قل للوصى فدتك نفسى أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا مغنيك عنهم سبعين عامما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض عظاما
لقد أمسى بملرف شعب رضوى تراجع الملائكة الكلاما

وفيه يقول السيد أيضا:

يا شعب رضوى ما لمن بك لا يرى وبنا إليه من الصبابة أولق
حتى متى وإلى متى وكم المدى يا ابن الرسول وأنت حتى ترزق

١٨ - المختار شخصية محيرة:

كان المختار ينعت بأنه سحار^(١). وأنه «الدال». ويوصف عادة بـ «الكذاب»^(٢). وهذا الوصف لا لأنه زعم أنه مكلف من قبل ابن الحنفية، بل لأنه تبدى على أنه نبي. حقا إنه لم يسم نفسه بهذا الاسم. ولكنه أتى أفعالا من شأنها أن تعطى عنه هذه الفكرة. فكرة أنه نبي. وكان يتكلم وكأنه النبي في الحضرة الإلهية، يعلم الغيب، ويسجع سجع الكهان بطلاقة ومهارة. ويريد أن يفرض شخصيته على الناس. وأفلح في هذا أيضا وإن كان نجاحه لدى الخاصة والعقلاء أقل منه لدى العامة والدهماء. وطالما حالفه النصر واتسعت دوائر المؤمنين به. فلما منى بالهزيمة أدبرت عنه الدنيا. وراحت الروايات تطلق سهامها على ذكره بعد مقتله. في البدء كانت تذمه دون أن تشوه صورته. ولكنها راحت بعد ذلك في مرحلة متأخرة تنعته بنعوت أملاها الحقد. وهذه النعوت نفسها هي التي تسود الصورة التي كونتها عنه الأجيال التالية. ودوزى لا يستخدم غيرها لرسم الصورة التي عملها للمختار في كتابه «مقالة في تاريخ الإسلام»: فيقول عنه إنه هو الذي أمر بإطلاق الحمام البيض، وأنه كان خارجيا ثم زيريا ثم شيعيا، وأنه ابتدع القول بالبداء في الله كيما يبرز تقلبه هو من مذهب إلى مذهب. ولكن لا يحق

(١) الطبرى ج ٢ ص ٧٣٠ س ١٣.

(٢) الطبرى ص ٦٨٦ س ٧.

للمرء أن يجعله معرضا للسخرية من غير أن يفهمه على حقيقته. ولحسن الحظ كان لنشر «تاريخ» الطبرى الفضل فى وضع حد لهذا النحو من تصوير الرجل.

فإن كان لابد من الإجابة على السؤال: هل كان المختار نبيا صادقا أو متبنا كاذبا فلا مناص من تعديله إلى هذه الصيغة: أكان المختار مخلصا أم غير مخلص، قد يأخذ عليه المرء أنه استعان بالتنبؤ للوصول إلى الحكم. ولكن هذا المأخذ عينه قد يؤخذ على محمد، وعلى المرء أن يلاحظ أن الإسلام دين سياسى وأن أى إنسان مثله له طموحه السياسى لابد أن يسعى إلى الحكم. ولكن ما هو أشد من ذلك المأخذ خطرا وأكبر وزنا هو أنه تستر وراء شبح وناطور خيالى (هو محمد ابن الحنفية) لم يعرف عن أمره شيئا ولم يشأ أيضا أن يعلم عن أمره شيئا. فلم يكن ضميره نقيا من هذه الناحية. ولكن الظروف فى ذلك الحين لم تسمح له بوصفه مسلما وشيعيا - أن يظهر باسمه هو الخاص. بل كان عليه أن يخلق لنفسه مركزا «أمينا» للمهدى المستتر، وبهذا أعطى نموذجا لما سنراه فى المستقبل. وأمثال هذه الطبائع الجنية تكون دائما حافلة بالغموض والأسرار والمشاكل، والوضوح التام لا يكاد أن يكون صفة مدوحة فيها. فالمسألة عن إخلاصه لاتعدى السؤال عما إذا كان هو نفسه مؤمنا بنفسه. ويلوح أن الأمر كان كذلك فى البداية. ثم استيقظت فى الشيخ فجأة مشاعر الضمير الأعلى، فتحالت فيه الأثرة مع الثقة الدينية الثابتة كالطود الراسخ. وهو حينما لم يكن بعد شيئا وكان يعرض نفسه لأعظم الأخطار.

كان ييهر العالم بما اتصف به من ثقة ظافرة بالنفس ووضوح بارز فى تحديد أهدافه. أما أن ذلك كان آنذاك مجرد تمثيل مسرحى، فهذا أمر لانكاد نملك افتراضه، بل الأخرى أن يقال: إنه كان شديد الإيمان بنفسه. وعن هذا الطريق أوجد الإيمان به فى نفوس الآخرين وحرك الجماهير. حقا إنه اضطر بعد ذلك إلى النفخ فى الرماد لضمان اشتعال النار، ولكنه كان قد كون فكرته وراح من بعد يخاطر بنفسه، وقد دفعه أنصاره العمى إلى ما تجاوز نطاق إرادته. وقد كان فى حاجة إلى تعصبهم ولم يكن فى استطاعته كبح جماحهم حتى لو حاول ذلك. والحاسم دائما هو البداية، والحماصة لاتبقى أبدا صافية على حالها. وما أسهل أن يستحيل «النبى» إلى «متنبى»! ومن الإفك الصراح أن يقال: إنه فى محنته الأخيرة قد اعترف - مستهزئا - بنفاقه وأنه سخر من أنصاره المخلصين. إذ يكفى لتفنيد ذلك أن روجته، وهى عربية نبيلة من المدينة، استشهدت فى سبيله بعد مقتله، لأنها لم تشأ إنكار إيمانها به. وكان ثمة آخرون ظلوا

على الإخلاص لذكراه بعد مصرعه. وعند دير الجائلين لما أثنى مصعب بن الزبير بالرمي نظر إليه رائدة بن قدامة ثم شد عليه فطعنه وقال: «يا لثارات المختار!» وصرع مصعباً. سفاك الدماء.

على أن التاريخ، في نهاية الأمر، ليس من شأنه أن يسير القلوب. بل شأنه أن يقدر أعمال الناس. وأيا ما كان الأمر في شأن طبيعة المختار، فإنه قد أحدث آثاراً لا يبالغ في تقديرها بسهولة.

١٩ - مآخذ الشيعة العربية على المختار الثقفي:

يأخذ شيعة الكوفة على المختار الثقفي مأخذ تصيبه في صميم الصميم منها أنه نازع الصحابي الجليل سليمان بن صرد الذي قاتل مع الإمام علي وناشد الإمام الحسين على زعامة الشيعة. وأنه تأمر عليهم بغير رضى منهم، ولا بإذن محمد ابن الحنفية، وأنه يتفوه بعبارات غامضة قابلة للتفسير دون قاعدة تحكمها وأنه أظهر بدعا في الإسلام على سبيل المثال:

أنه ابتدع البراءة من الأسلاف الصالحين.

وأنه أدنى مواليتهم. وحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم من فيثهم فسلبهم من حقوقهم. وأخذهم فحارب بهم يتيهم وأراملهم.

حمل تلك المآخذ شيب بن ربيع التميمي وحدثه باسمهم، فوعده المختار بالنظر فيها، ثم سأله شيئا: إن أنا تركت لكم مواليتكم وجعلت فيكم فياكم - أتقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطونني على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما أطمئن له من الأيمان، فلم يوافقهم الأشراف على ذلك.

يرى البلاذري^(١):

قال ابن الزبير لابن عباس: لم يبلغك قتل الكذاب؟ قال: ومن الكذاب؟ قال: ابن أبي عبيد، قال: بلغني قتل المختار، قال كأنك تكره تسميته كذابا وتتوجع له؟ فقال: ذلك رجل قتل قتلنا وطلب بدمائنا وشفى غليل صدورنا، وليس جزاؤه منا الشتم والسماتة، فقال ابن الزبير: لست أدري أأنت معنا أم علينا؟

(١) أنساب الأشراف ص ٥٦٦ ج ٢ تحقيق محمود الفردوس العظم قراءة صبحي نديم المارديني.

ومما أخذوه عليه توسعه في مفهوم الشيعة السياسي بحيث أفسح مكانا للموالى في التشيع فتشيعت الموالى للمختار الثقفى أو مولاه كيسان أو كما تسمون بالشيعة الغلاة حين أعدوا كرسيا مقدسا يحمل على بغل ويقوم على سدنته سادن وحول هذا الكرسي كانوا يتراقصون ويتواثبون بحماسة وجنون. ومن هنا بدأت الشيعة الشعبية تجد الخط الفاصل بينها وبين الشيعة العربية وحاج الحسين في مبايعته لمعاوية وناشد الحسين وحثه على الحضور إلى الكوفة، وهو الذى جمع الشيعة بعد موقعة كربلاء وقما تخلف المختار الثقفى وحث شيعة علي على عدم الخروج مع سليمان بن صرد.

وما كادت تنتهى حياة المختار الثقفى حتى قامت الشيعة الكيسانية وهى التى ربطت بين المختار وبين محمد ابن الحنفية وذلك كان أمله فى حياته. وإن كانت الروايات التاريخية كما قدمنا ربطت بينهما وذلك ما دعم موقفه فى نهاية حياته، ومهما قيل عنه فإنه قائد جريء ولكن ضيعه قومه وشوش عليه أشراف الكوفة وابن الزبير والبيت الأموى وتشككت فيه الشيعة وحين قيل لابن عباس: قتل المختار، لم يقل شيئا وسكت فقليل له لماذا سكت فقال ماذا أقول عن رجل قتل أعداءنا، وإذا كان للموالى فضل فى بناء الدولة العباسية فالفضل يرجع أولا للمختار الثقفى فهو الذى جعل لهم حقا معلوما فى الحرب وفى القيادة وعلى يديه عرفوا طريق فتح خراسان. ولم تكد تنتهى الشيعة العربية فى الكوفة إلا وقد بصمت بصماتها على وجه التاريخ الشيعى منها.

نشأت حركة التوايين على يد سليمان بن صرد وتباكت على الحسين.

وحركة المختار ذلك الزعيم سبى الحظ الذى تولى الشيعة وقامت الحركة الكيسانية ووصيها كما ادعت محمد ابن الحنفية وكانت هذه الكيسانية الشيعية أول نبت أو فسيلة حملها الموالى وانشقوا بها نحو محمد ابن الحنفية وأثاروا غضب الخليفة بما ابتدعوه من عند أنفسهم فزادوا شقاء الشيعة على شقائهم.

من هنا بدأت الشيعة الغالية تنحو نحو خراسان وفق ما رسمه لها محمد الإمام.

لم يطل حبل المختار بالكوفة فإن عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار إليه، وماله أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب، إلا أن ذلك لم يقض على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيرة ليتنفذ منه.

أما محمد بن علي فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره، حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته، وقال إنه تغيب وسيرجع، وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري:

ولاة الحق أربعة سواء	إلا إن الأئمة من قريش
هم الأسباط ليس بها خفاء	على والأئمة من بنيه
وسبط غيبتهم كربلاء	فسبط سبط إيمان وير
يقود الخيل يقدمها اللواء	وسبط لا يلزق الموت حتى

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي: فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا. ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم، ويقال لهذا الفريق والذي قبله الكيسانية، ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبي عبيد.

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو من بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه - قال هؤلاء: إن الخلافة محصورة في أولاد علي من فاطمة - رضى الله عنها -، ولما كان الحسين هو الذي قتل دون الخلافة فهى في عقبه، وعلي هو الذي بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون إن عليا هو الوصى أوصى إليه رسول الله ﷺ بالخلافة، ثم الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم علي، وهكذا لا بد للأمة من إمام منصوب عليه، ويقال لهؤلاء: الشيعة الإمامية.

كان أكبر ولد العباس في ذلك الوقت علي بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه العباسيون. وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أمية والتي أنزله بها الوليد بن عبد الملك. وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس من علي هذا، ويقال: إن السبب في ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده وأوصى أوليائه به فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس^(١).

(١) السيادة العربية ص ٢٥٠، والفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى.

أما بقية الشيعة فإنهم بعد وفاة علي زين العابدين افترقت بهم الطرق: فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال: إن الخلافة حق لكل فاطمي وليست الفاطمية البربرية التي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى.

وكانت وفاة علي بن عبد الله ومحمد الباقر في زمن متقارب بالحقيقة، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس؛ لأن أباه أوصى إليه. وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئا ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم.

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصير زيد بن علي فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالبا الخلافة، إلا أن بنى أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التي أودت بحياتهم بعد، فسرعان ما انتصروا على زيد وأطلقوا ثورته وقتلوه وصلبوه. وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه.

٢٠ - الشيعة العربية وتلاقيها مع السبئية:

تربط روايات الطبرى بين ابن سبأ وأبى ذر الغفارى ثم بين أبى ذر وبين خلافة مع معاوية حول قضايا اجتماعية. فأما عن ابن سبأ فهو رجل يهودى أبرزت الروايات حقه على الإسلام، بعد أن ظهر فجأة بين المسلمين، وعاث فسادا بينهم فى حين كان أبو ذر رجلا شديد العفة، معتدا برأيه، فقيها علما بقواعد الإسلام من قدماء الصحابة الذين لهم دور كبير فى انتشاره وانتصاره^(١). والسؤال الذى يمكن طرحه: كيف يتأثر أبو ذر بهذه السرعة برأى رجل طارئ مطاردا، يرد دمشق، وهو مغضوب عليه مطعون فى دينه، ويتحسس له، ويأخذ بمقالته.

إن التساؤل السابق يأخذ عمقا أكبر حين تتم مقارنته بما أورده الطبرى عن موقف

(١) انظر حول أبى ذر ابن هشام السيرة النبوية ج ١ ص ٣٥٥ ج ٢ ص ٦٩١-٧٦٠، ٩٨٨٦، ٧٦٠-٧٦١، ٧٠٤، ٧٠٤، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٨، ٥٧١، ٦٣٧، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٩٦، ١٠٠١ ابن معين التاريخ ج ٢ ص ٧٠٤، خليفة الطبقات ص ٣١: ابن سعد الطبقات ج ٤ ص ٢١٩-٢٣٧، الذهبى سير ج ٢ ص ٤٦-٧٨.

أبى ذر مع كعب الأحبار، الشخصية اليهودية التي أسلمت في خلافة أبي بكر، وقيل عمر، واشتهرت بسعة علمها ومعرفتها^(١)، فقد أشار إلى دخول أبي ذر على عثمان وقوله، لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يذلوا المعروف، وقد ينبغي للمؤدى الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان، ويصل القرابات فقال كعب: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه، فرفع أبو ذر محجته فضربه فشجه، وقال له: «يا ابن اليهودية ما أنت وما ها هنا، والله لتسمعن منى أو لأدخل عليك» في حين أكد البلاذري أن الخلاف الذى نشأ بين أبي ذر وكعب الأحبار يرجع إلى إجازة الأخير للخليفة عثمان بأخذ الأموال من بيت مال المسلمين فإذا «أيسر قضى»، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى خبر التقاء أبي ذر بابن سبأ فهل يعقل بعد ذلك أن يأخذ أبو ذر عن ابن سبأ وهو رجل حديث الدخول في الإسلام، لم يشتهر بعلم أو مال أو منصب بينما يرفض الأخذ عن كعب الأحبار، وهو المشهور بعلمه ومعرفته، يضاف إلى ذلك أن المواقف المتشددة لأبى ذر من كثر الفضة والذهب والمال سبقت لقاءه المزعوم مع ابن سبأ، وسبقت ذهابه إلى دمشق أيضاً.

ولم تكن سيرة عبد الله بن سبأ محمودة أو أخفاها عن الناس، ولقد أشار إلى خبثه أبو الدرداء وعبادة بن الصامت اللذان أخذهما إلى معاوية وأخبراه بدوره في تحريض أبي ذر ضده.

لكننا نرى اضطراباً في الروايات التي تتحدث عن لقائه بأبى ذر عام ٣٣٠ هـ في دمشق وروايات الطبري تشكك في هذا التاريخ على أنه غادر دمشق إلى المدينة عام ٣٠ هـ. حيث أقام فيها عدة أيام قبل ذهابه إلى الرينة، التي توفي فيها عام ٣١ هـ. وقيل عام ٣٢ هـ، أشار في رواية أخرى إلى ظهور ابن سبأ في البصرة عام ٣٢ هـ أو ٣٣ هـ متقللاً بين بلدان المسلمين «يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة ثم الشام، والسؤال: متى كان ابن سبأ في الشام، هل كان فيها عام ٣٠ هـ أم بعد عام ٣٣ هـ، أم قبل عام ٣٥ هـ؟ ومعنى هذا أن ذهاب أبي ذر إلى الشام وخروجه منها كان قبل مجيء ابن السوداء إلى البصرة، وأن سنة وفاته كانت قبل ذلك، ومعنى هذا أيضاً نفى التقاء ابن السوداء بأبى ذر في دمشق ونفى أخذه نظريته في المال عن ابن السوداء.

(١) انظر حول كعب الأحبار ابن سعد، الطبقات ج ٧ ص ٤٤٥، ٤٤٦ خليفة، الطبقات ص ٣٠٨ ابن قتيبة، المعارف ص ٤٣٠، ٤٣٩: الفسوى، المعرفة ج ١ ص ٧٥١ الذهبي، تاريخ ج ٣ ص ٣٩٧. المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان ملح.

أما موقف أبي ذر من عثمان فهي بسبب نقده الشديد للخليفة عثمان ولعاقبة عامله على الشام ولقریش بعامة. بسبب إرائهم فى عهدى عمر وعثمان. إن التدقیق فى روايات الطبرى حول طبیعة العلاقات بین أبى ذر وعثمان توضیح؛ لأنها كانت تتسم بالاحترام والتقدير. بسبب قوله للخليفة: إن تأدية المسلمين لزكاة أموالهم یسقط عنهم واجب الزیادة فى توزیعها طلباً للمعروف. ویبدو أن الهدف العام من هذه الرواية هو إبراز الدور الكبير الذى لعبه ابن سبأ فى إحداث الفتنة، وإدانة الذين حرصوا على الخليفة وشاركوا فى قتله واتهامهم بالتأثر بأفكار ومخططات ابن سبأ^(١).

هدف الطبرى من عرضه لهاتین الروایتین التأكيد مجدداً على الدور التأمري الذى لعبه ابن سبأ فى الفتنة، وذلك فى محاولة منه لإلقاء تبعاتها المؤلمة عليه. ودوره التخريبي فى المجتمع الإسلامى.

٢١ - مبادئ عبد الله بن سبأ:

أما مبادئ ابن سبأ فإنها تستند إلى مبادئ.

أ- الرجعة: أكد ابن سبأ على رجعة الرسول ﷺ بعد الموت.

ب- الوصية: أشار ابن سبأ إلى أن لكل نبي وصياً، ووصى النبي محمد ﷺ هو على «محمد خاتم الأنبياء ﷺ»، وعلي خاتم الأوصياء» ووفقاً لهذه العقيدة فإن أبا بكر وعمر وعثمان تجاوزوا وصية الرسول ﷺ بالإمامة لعلي من بعده، واغتصبوا حقه فى ذلك^(٢).

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين حول تاريخ التشيع فى الإسلام، وتساولهم عما إذا ظهر فى حياة الرسول ﷺ كما يشير علماء الشيعة، أو بعد وفاته مباشرة، بسبب الاختلافات حول من يخلفه فى الإمامة والخلافة^(٣). فإن من الصعب التصديق بأن الأفكار الشيعية التى طرحها ابن سبأ جرى تداولها فى الفترة الأولى من عمر المجتمع الإسلامى الذى حافظ إلى حد كبير على وحدة وتماسك بناء العقيدة على تعاليم القرآن وسنة الرسول ﷺ واجتهاد الخلفاء والصحابة ولذلك «إذا نظرنا إلى التشيع

(١) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان ملحم.

(٢) انظر آراء الطبرى الراضة لفكرة الوصية الفصل الأول ص ٦٤.

(٣) عرفان عبد الحميد، دراسات فى الفرق والعقائد الإسلامية ص ٢٥-٢٦.

كمصطلح مرادف للقول بالنص والتعيين أمكننا أن نقول: إن ظهوره الديني والفكري كمذهب في الإمامة والسياسة تأخر إلى نهاية القرن الأول للهجرة^(١).

فهل أورد الطبري رواية سيف بن عمر لإدانة غلاة الشيعة الذين هاجموا وكفروا كبار الصحابة، مثل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة، وطلحة، والزبير بحجة أنهم ظلموا علياً وتآمروا عليه، وغصبوه حقه في الإمامة^(٢). وهل أراد النيل من الشيعة بإبراز علاقتهم مع السبئية التي لعبت دوراً كبيراً في إثارة المشكلات داخل المجتمع الإسلامي خلال الفتنة.

وشكل عرض الطبري لهذه الرواية إدانة غير مباشرة لأفكار الشيعة، استخدمها بهدف خلق انطباع عام بوجود قاسم مشترك بين الدور التآمري لكل من ابن سبأ والشيعة، ومن جانب آخر لم يلجأ الطبري إلى عرض العديد من الروايات التي عرضتها المصادر المختلفة عن دور ابن سبأ الصريح في بلورة هذه الأفكار، كما تجاهل ردود الفعل على الرافضة لهذا الدور. ويبدو أن السبب الرئيسي لإحجام الطبري عن عرض مثل هذه الروايات هو عدم وجود علاقة لها بالدور الذي لعبه ابن سبأ في إحداث الفتنة نفسها، والذي تجاهلته معظم هذه المصادر^(٣).

أما عن علاقة السبئية بعلي، فهي من ناحية تشير إلى علاقتها القوية مع شيعته ودعمها الكبير لهم، ومن ناحية أخرى تشير إلى عدم انصياعها لأوامر علي على الرغم من أنها عرفت بولائها الشديد لعلي، وعملت من خلال زعيمها اليهودي عبد الله بن سبأ، على ضرب الإسلام، بإثارة الصراع بين المسلمين فكانت سبب ماحداث من فتنة أوضحنها فيما سبق.

واتهم الطبري القبائل التي هاجرت إلى الأمصار بعد الفتح - الروادف - بدعم وتأيد السبئية. إذ استطاعت خلال مدة قصيرة لاتبلغ خمسة أعوام تكوين الأتباع في الكوفة، والبصرة، ومصر والحجاز، لكنها فشلت فشلاً ذريعاً في الشام، نتيجة لاختلافه

(١) ن. م. ص ٢٧.

(٢) عبد العزيز الهلاي، عبد الله بن سبأ، ص ٢٦.

(٣) ابن سعد الطبقات ج ٣ ص ٢٩، الجاحظ البيان ج ٢ ص ١٨١، ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص ٧٢. ابن عبد ربه، العقد ج ٢ ص ٤٠٥، أبو الحسن الأشعري مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٨٥ الناشئ الأكبر، مسائل الإمامة ص ٢٢-٣٣، ابن حبان المجروحين. ج ٢ ص ٢٥٣، المقدسي البدء ج ٥ ص ١٢٩، التريخى فرق الشيعة ص ٣٣، الرازي الزينة في الكلمات الإسلامية ص ٢٠٥.

عن الأقاليم الأخرى من حيث الطبيعة القبلية، فالقبائل العراقية والمصرية أكثرها قبائل بدوية أو شبه رحالة، أما القبائل الشامية فهي قبائل متحضرة عرفت طبيعة الاستقرار، كما أن الشام لم تتعرض لضغط الروادف مثلما تعرضت له العراق ومصر، ومن هنا كان المجال واسعا لتصاعد الأحداث في هذين الإقليمين ضد السلطة المركزية في المدينة.

وأبرز الطبرى الآثار الخطيرة للحركة الشعبية على المجتمع العربى والإسلامى من خلال اختلاق السبئية والصاقها برجل يهودى دخل الإسلام حديثا بهدف تنفيذ مخططاته ودسائسه لضرب أسس استقرار المجتمع الإسلامى، حيث نجح فى ذلك بإشعاله لفتنة أول ضحاياها عثمان بن عفان الخليفة العربى المسلم، ويجدر التذكير هنا بأن الحركة الشعبية برزت بشكل كبير خلال الدولة العباسية، وذلك فى الفترة التى عاصرها كل من سيف بن عمر والطبرى. وفى عهد الرشيد ظهر سيف بن عمر الأسدى، أيضا. ولقد صرف همهته فى تأريخه للفتوح ولارتداد العرب (بعيد وفاة الرسول ﷺ) ولوقعة الجمل إلى تمجيد قبيلته، تميم، وكان مولعا بالخوض فى المصنعات والتزويق الخيالية. ومهما يكن من شىء، فقد أعجب الطبرى إعجابا شديدا بتاريخ سيف بن عمر هذا - وليس محل ثقة فى التفاصيل على الإطلاق - حتى لقد اعتمده من دون سواء تقريبا، وبذلك أفضل المؤرخين الذين جاءوا من بعده واعتمدوه فى تأليفهم^(١).

وألغى الطبرى تبعة أحداث الفتنة ونتائجها المختلفة على شخصية يهودية ادعت الإسلام، ويرأ جمهور الصحابة بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام من هذه المسئولية الخطيرة، فالمجتمع الإسلامى هو مجتمع متماسك، لا يمكن لأفراجه أن يرفعوا السلاح بعضهم فى وجوه بعض، وإذا تم ذلك - كما حصل فى الفتنة - فهو نتيجة مؤامرة فاضحة خططها ودبرها يهودى حاقد على الإسلام والمسلمين، وساعده فى تنفيذها أصحاب المصالح الخاصة الذين غرر بهم - ولقد شكل هذا الهدف السبب الرئيسى الذى دفع الطبرى لعرض قصة السبئية على الرغم من نقاط ضعفها الواضحة للعيان، والتى لا بد أن تكون قد أثارت انتباهه، وهو المؤرخ والفقير، الذى عرف عنه حرصه ودقته فى عمله وعلمه.

إن اسم عبد الله بن سبأ ولفظة السبئية حقيقتان أكدت عليهما مختلف المصادر بأشكال شتى، على الرغم من المآخذ التاريخية الكثيرة التى يمكن مناقشتها فى مجال

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان.

آخر بعيدا عن هذه الدراسة. إلا أن السبئية ودورها الرئيسى فى مجريات الفتنة، كما عكستها روايات سيف بن عمر فى الطبرى هى قصة موضوعة للأسباب السابقة الذكر

وكان الكيسانية من الشيعة الغلاة. يقول سعد الأشعرى: «إن الكيسانية قالوا فى علي قولا عظيما شنيعا...»^(١) وكانوا يقولون بإمامة ابن علي المعروف بابن الحنفية، وزعموا أن علي بن أبى طالب نص على إمامة ابنه محمد ابن الحنفية؛ لأنه دفع إليه الراية بالبصرة^(٢). وقالوا بالتناسخ ويزعمون أن الإمامة جرت فى علي ثم فى الحسن، ثم فى الحسين ثم فى ابن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت فى النبى ﷺ، وروح النبى ﷺ صارت فى علي، وروح الحسين صارت فى محمد ابن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت فى ابنه أبى هاشم...^(٣) ويعتقدون فى ابن الحنفية «اعتقادا فوق حده ودرجته، من: إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من (السيدى) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن، وعلم الآفاق والأنفس»^(٤) ويجمع الكيسانية «القول بأن الدين طاعة رجل»^(٥).

وقالت فرقة من الكيسانية: «إن محمد ابن الحنفية هو المهدي سماه أبوه علي مهديا، ولا يجوز أن يكون مهديان: مهدي فى أيام ابن الحنفية ومهدي بعد ذلك، وقالوا: إن ابن الحنفية غاب فلا يدرى أين هو وسيرجع ويملك الأرض، ولا إمام بعد غيبته إلى رجوعه...»^(٦).

ويركز د. فياض على استبعاد الحنفية لأولاد علي من فاطمة فيقول:

نفيد من النصوص السابقة ما يأتى:

أولا - إن الكيسانية خرجوا بالإمامة من أولاد علي من فاطمة إلى ولد محمد ابن الحنفية. وبذلك مهدوا لخروج الإمامة لا من ولد فاطمة فحسب بل من ولد علي كافة. فظهر جماعة منهم «يتسمون المعاوية»^(٧) ويزعمون أن الأرواح تتناسخ وأن روح الله

(١) الأشعرى أبو الحسن، مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٩٠.

(٢) الأشعرى، سعد، المقالات والفرق، ص ٢٦ - ٧.

(٣) الشهرستاني الملل والنحل، ج ١ ص ١٣١ وقصد الشهرستاني بالسيدى الحسن والحسين - رضى الله عنهما -

(٤) السابق، ١: ١٣١.

(٥) الأشعرى، المقالات، ص ٢٧.

(٦) تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص ١١١

(٧) نسبة إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب.

«صارت في محمد ﷺ، ثم في علي، ثم في محمد ابن الحنفية ثم في ابنه أبي هاشم، ثم في (عبد الله بن معاوية)»^(١). وقد توفي عبد الله بن معاوية هذا في سجن أبي مسلم في خراسان سنة ١٣٠ هـ بعد فشل ثورته التي سبق أن قام بها ضد الأمويين.

وبذا أخرجت «المعاوية» الإمامة من ولد علي إلى شخص غير علوي من ذرية جعفر بن أبي طالب وتوسعت قضية إخراج الإمامة، مع الزمن، على يد فرق الكيسانية ولم تعد تلك الإمامة مقتصرة على آل أبي طالب، بل يصح أن نعتها سلفا للراوندية التي جعلت الإمامة في ولد العباس قال سعد الأشعري: إن الكيسانية افتقرت بعد موت أبي هاشم فقالت فرقة: إن أبا هاشم أوصى «إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس». فهو الإمام وهو الله وهو العالم بكل شيء، فمن عرفه فليصنع ما شاء، وهم غلاة الراوندية (الراوندية)^(٢).

وأرجح أن وصية أبي هاشم إلى محمد بن علي العباسي موضوعة، وأن «الهاشمية» جماعة أبي هاشم، وأسلاف الراوندية قالوا بإمامة محمد بن علي العباسي مباشرة، وذلك أنه بعد أن جاز إخراج الإمامة من ولد علي من فاطمة إلى ابن الحنفية، ثم إلى ولد جعفر بن أبي طالب^(٣) أصبح من الممكن تقليدها لبني العباس، وقد استفاد العباسيون ودعاتهم^(٤) من الغلو ووجهوا تدمير الغلاة الذين كان جلهم من الموالي في عصر الأمويين لمصلحتهم فاستعملوه للتشهير ببني أمية أولا ثم في إسقاط حكمهم يوم حان الوقت.

ثانيا - وقد انحط مركز الإمامة كثيرا على يد فرق من الكيسانية وذلك حين أباحت تلك الفرق لأفراد من الناس لا يمتون للعلويين ولا للهاشميين بصلة أن يتقدموا الإمامة قال سعد الأشعري: إن حمزة بن عمارة البربري الذي كان يتنمى إلى أصحاب ابن حرب من الكيسانية ثم فارقهم، «ادعى أنه نبي وأن محمد ابن الحنفية هو الله...»^(٥) وقال الأشعري أيضا: إن فرقة من الكيسانية خرجت «إلى القول بإمامة بيان بن سمعان

(١) الأشعري، سعد، المقالات، ص ٤٢. قال الأشعري (ص ٤٣). إن أبا مسلم قتل عبد الله هذا.

(٢) المقالات والفرق، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٢.

(٤) روى الشهرستاني (الملل والنحل، ١: ١٣٧) أن أبا مسلم صاحب الدولة كان كيسانيا وأنه اقتبس من

دعاتهم العلوم التي اختصوا بها.

(٥) الفرق والمقالات، ص ٢٨ - ٣٢.

النهدى، وادعى بيان أن أبا هاشم أوصى إليه فاستجابت له طائفة من قال بإمامة ابن الحنفية^(١) ثم إن طائفة «ادعت أن إمامة عبد الله بن عمرو بن الحرب الكندي الشامي بعد أبي هاشم، وأنه أوصى إليه، وأن روح أبي هاشم انتسخت فيه...»^(٢) وهكذا أصبحت الإمامة بفعل فرق من الكيسانية الغلاة تتقل من أصحابها الشرعيين، وهم حسب عقيدة الإمامية، الأئمة الاثنا عشر المعصومون، إلى أبناء علي من غير فاطمة ثم إلى أحد ولد جعفر بن أبي طالب، ثم إلى العباسيين وأخيرا إلى رجل بربري آخر نهدي وثالث كندي.

وقد نفت الشيخ المفيد أحد فقهاء الشيعة الإمامية إلى خطر ذلك الاتجاه فتقدم بأدلة ثقيلة وأخرى عقلية^(٣) على إبطال إمامة محمد ابن الحنفية وإثبات إمامة معاصره علي بن الحسين المعروف بزین العابدين.

واعتقد أن من بين الأسباب التي أدت إلى انحطاط مركز الإمامة، وسهل للغلاة أن يلصقوا أفكارهم الغريبة عن الإسلام فيها، هو الاتجاه الذي تبناه بعد مقتل الحسين - رضي الله عنهم - الأئمة المعصومون حين أجلوا الخروج بالسيف على ظلم معاصريهم (من الحكام انتظارا لخروج المهدي صاحب الزمان) لسلطين الوقت دون غيرهم الذين لا يرون الخروج عليهم.

ولا يعتقدون أنهم يقومون بالسيف ويزيلون الدول، بل كان المعلوم من حالهم أنهم يتظنون مهديا لهم، وليس يضر السلطان اعتقاد من يعتقد إمامتهم إذا آمنوهم على مملكتهم ولم يخافوا جانبهم...^(٤) وقد رأى جماعات من المعارضين وبخاصة الموالي، الذين كانت أكثريتهم غلاة، والذين آلمهم التمييز العنصري وأثقلت الضرائب كاهلهم، أن العدل الذي يعم الأرض بعد خروج المهدي الغائب بعيد المنال، وأن فيهم حاجة ملحة إلى قيادة حاضرة تقودهم نحو النصر على حكامهم الظالمين. ولما عجز هؤلاء عن وجود تلك القيادة في المرشحين الشرعيين للإمامة، انصرفوا عنهم للآخرين من ذوى الطموح السياسى، وربما من ذوى الرغبة فى الإصلاح الاجتماعى أمثال المختار وزيد بن علي وعبد الله بن معاوية وأخيرا بنى العباس^(٥).

(١) السابق، ص ٣٥. (٢) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٣.

(٣) المفيد، الإرشاد، ص ٢٣٧ - ٨.

(٤) الفقيه (النجف، ١٣٨٥) ص ٣٠٠.

(٥) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٤.

ثالثا - كان الكيسانية أول من رسخوا فكرة المهدي الغائب وطرحوها في حيز العمل. نسب الكيسانية القول بفكرة مهدي محمد ابن الحنفية إلى أبيه علي - رضى الله عنهم - كما يظهر من نص سابق أوردناه في صدر هذا البحث.

ويبدو أن فكرة مهدي ابن الحنفية كانت شائعة في عصره. قال ابن سعد «فلما اتسق الأمر للمختار كتب لمحمد بن علي المهدي من المختار. . .»^(١).

وفي محادثة مع إبراهيم بن الأشتر قال المختار لإبراهيم: «وقد كتب إليك المهدي. . .»^(٢) وذات مرة جاء رجل إلى ابن الحنفية وقال: «السلام عليك يا مهدي. . .».

وجرى حديث بين محمد والرجل عن أمر آل محمد فقال الرجل: «كانت تبلغنا عنك أحاديث من وراءك فأحييت أن أشافهك الكلام. . .»^(٣).

والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذي قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدي المنتظر، وروى ابن سعد حديثا رفعه إلى أبي العريان المجاشعي قال: «بعثنا المختار في ألفي فارس إلى محمد ابن الحنفية. . . قال فبلغ محمدا أنهم يقولون: إن عندهم شيئا أى من العلم. قال فقام فينا وقال: إنا والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحين: ثم قال: اللهم خلا وهذه الصحيفة في ذؤابة سيفي فالت وما كان في الصحيفة؟ قال: من أحدث حدثا أو آوى محدثا. . .»^(٤) وقال محمد للرجل الذي قابله وسأله عن أشياء سرية نمت إلى الرجل عن محمد: «أما بعد فإياكم وهذه الأحاديث فإنها عيب عليكم، وعليكم بكتاب الله. . . فإنه به هدى أولكم وبه يهتدى آخركم. . .»^(٥).

ويظهر أن المختار هو الذي روّج فكرة مهدي محمد لأسباب سياسية أى أنه أراد أن يحكم باسمه دون إشراكه بالسلطة الفعلية. وعندما هم ابن الحنفية أن يقدم إلى الكوفة وبلغ ذلك المختار فثقل عليه قدومه فقال: «إن في المهدي علامة، يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل في السوق بالسيف لم تضره. . . فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام. . .»^(٦).

(١) الطبقات، ج ٥، ص ٧٣.

(٢) السابق، ج ٥ ص ٧٢.

(٣) السابق، ج ٥ ص ٧٠.

(٤) السابق، ج ٥، ص ٧٧.

(٥) أيضا، ج ٥، ص ٧٠.

(٦) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٥.

رأينا أن منشأ السبئية يرجع إلى زمان علي والحسن، وتنسب إلى عبد الله بن سبأ وكما يتضح من اسمه الغريب، فإنه كان أيضا يمنيا، والواقع أنه من العاصمة صنعاء. ويقال أيضا: إنه كان يهوديا. وهذا يقود إلى القول بأصل يهودى لفرقة السبئية. والمسلمون يطلقون «اليهودى» على ما ليس فى الواقع كذلك. بيد أنه يلوح أن مذهب الشيعة، الذى ينسب إلى عبد الله بن سبأ أنه مؤسسه، إنما يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الإيرانيين^(١).

٢٢ - تقييم مبادئ الكيسانية والسبئية:

الوصية:

إن الفكرة القائلة بأن النبى ﷺ ملك يمثل سلطان الله على الأرض قد انتقلت من اليهودية إلى الإسلام. ولكن الإسلام يقول: إن محمدا ﷺ خاتم النبيين، ويعد وفاته حلت محل الشريعة وهى أثر مجرد غير مشخص، ومعوّض عنه أقل قيمة بكثير جدا. فكان ذلك نقضا ملموسا، فمن هنا تبدأ نظريات الشيعة. وكان المبدأ الأساسى الذى بدأ منه مذهبهم هو: أن النبوة، وهى المعرض الشخصى الحى للسلطة الإلهية، تنتسب بالضرورة إلى الخلافة وتستمر تمّحيا فيها^(٢). وقبل محمد ﷺ وجدت سلسلة طويلة متصلة من الأنبياء الذين يتلو بعضهم بعضا، على نحو ما يقول اليهود «سلسلة دقيقة من الأنبياء».

وكما ورد فى إصحاح ١٨ من سفر «ثنية الاشتراع» من أنه لم يخل الزمان أبدا من نبي يخلف موسى ومن نوعه. وهذه السلسلة لا تقف عند محمد ﷺ. ولكل نبي خليفته إلى جانبه يعيش فى أثناء حياته هذا الـ (الزميل الثانى) هو أيضا (فكرة يهودية) فكما كان لموسى خليفة هو يوشع، وكذلك لمحمد خليفة هو علي، وبه يستمر الأمر. على أن كلمة «نبي» لم تطلق على علي وبنيه - بل أطلق عليهم أسماء «الوصى» أو

(١) سنعتمد هنا على ماورد فى الطبرى ج ١ ص ٢٩٤٢ على مذهب ابن سبأ، وعلى اشعار شعراء الشيعة الأقدمين: كثير والسيد الحميرى فى كتاب «الأغاني». وأما ماورد فى كتب تاريخ العقائد (الملل والنحل) المتأخرة فلا تختلف جوهريا عن هذا. وكل ما فيها هو التمييز بين السبئية والكيسانية والمختارية إلخ. . . وهى تمييزات لا مبرر لها، ولا خلاف إلا فى الاسماء.

(٢) الطبرى ٢-١٩٦١.

«المهدي» أو «الإمام» عامة^(١). ولكن إن لم يطلق الاسم فلإن الحقيقة الفعلية كانت مقصودة بوصفهم عارفين بالغيوب وتجسيدات الخلافة عن الله. ثم إن السلسلة بعد محمد ﷺ لم تصور على أنها طويلة؛ لأن الناس كانوا يترقبون نهاية الدنيا وختام التاريخ على الأرض في زمان قصير. يقول السيد الحميري^(٢):

ألا إن الأئمة من قريش ولالة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنيهِ هم أسباطه والأوصياء

وكذلك بمثله يقول كثير^(٣). والآخر، وهو محمد ابن الحنفية، سيظل حيا حتى يملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا، فهو ميت في الظاهر، ولكنه في الحقيقة مستور في كهف جبل رضوى (قرب المدينة) حيث الغزلان والأسود تحيا معا في سلام مع بعضها بعضا، ويتغذى هناك بعسل وماء. ويلتصم منه الظهور عزاء لأصحابه. بعد أن تركهم ينتظرون عودته بعد ستين عاما^(٤). وبعد موت الحسن والحسين آل ميراث الخلافة إلى محمد ابن الحنفية، ويبيع مدة. ومن بايعه إبراهيم بن الأشتر. وطاب للمختار أن يتخذ منه صورة مظهرية يعمل من ورائها. وأكثر من هذا أنه استغل كشيخ للجبل، فكان شبحا باسمه يعمل كل مايراد عمله دون أن يكون مسئولاً عنه. وكان تمجيده - وظل كذلك - علامة على غلاة الشيعة^(٥)، وهم المعروفون بـ«الغلاة» أو «المفرطين». ثم إن العباسيين بنوا شرعية حقهم في الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد ابن الحنفية ورثه. وهو أبو هاشم. قد تنازل عن حقه للعباسيين. كما أنهم استخدموا غلاة الشيعة في الكوفة وخراسان أداة لهم. وقد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمية نسبة إلى أبي هاشم المذكور. وقد دخلت الهاشمية بعد ذلك في الراوندية. وهؤلاء الآخرون كانوا يمجّدون ابن الحنفية على أنه الإمام الحق^(٦).

(١) الحوارج والشيعة ص ١ فلهاورن ترجمة د عبد الرحمن بدوي، العرب والإسلام والخلافة العربية سيف د. أنيس فريجة.

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٩ وما يليها.

(٣) الأغاني ج ٨١ ص ٣٢.

(٤) الأغاني ج ٧١ ص ١٠، ج ٨ ص ٣٢.

(٥) الأغاني ج ٧١ ص ٤. ص ٥.

(٦) المسعودي ج ٦ ص ٤. ص ٥.

٢٣ - الرجعة:

واقم تأليه آل بيت الرسول ﷺ على أساس فلسفى بواسطة مذهب «الرجعة» أو «تناسخ الأرواح». فالأرواح تنتقل بالموت من جسم إلى جسم. وثمة بعث مستمر فى المجرى الطبيعى للحياة الدنيا، وهذا فى تناقض حاد مع القول ببعث واحد عند زوال الدنيا. ويستفيد هذا المذهب أهمية عملية وخصوصا عن طريق رفعه إلى روح الله التى تحمل فى نفوس الأنبياء. فهذه الروح تنتقل من نبي إلى نبي آخر بعد وفاة السابق. ولا يوجد فى الوقت الواحد غير نبي واحد، ويتتابعون حتى يبلغوا ألف نبي. وتبعا لهذا فإن الأنبياء جميعا واحد بما يبعث فى كل منهم من روح الله. والحق أن النبي الصادق الحق واحد يعود أبدا من جديد. وبهذا المعنى قالوا: إن محمدا ﷺ يبعث فى علي وآل علي. وينون ذلك على الآية ٨٥ من السورة ٢٨ والآية ٨ من السورة ٨٢. وهذا يذكر كثيرا بالفكرة المحتمل جدا أنها يهودية. وإن كانت من البدع اليهودية التى وردت فى المواعظ المنحولة على كليمانس، فروح الله تتحد فى آدم مع شخص إنسان يظهر بصفة النبي الصادق فى صور متعددة وقد قدر له السيادة على الملكوت الدائم.

لكن المتأخرين قد فهموا - فيما يبدو - «الرجعة» على نحو آخر. فقد تصوروها على نحو جدلى. فقالوا بفترة «غيبية» دورية للإمام الصادق. ثم سموها - فى مقابل ذلك - ظهوره من جديد «رجعة». والمعنى الأصيل للرجعة يظهر جليا من مرادفتها لتناسخ الأرواح. والسيد الحميرى يؤمن أيضا برجعته هو نفسه. ومن أجل ذلك كانوا يسخرون منه ويشنعون عليه («الأغانى» ج ٧ ص ٨). كما يتضح أيضا من كون كثير كان يعد جميع أبناء الحسن والحسين أنبياء صغارا؛ لأنه يؤمن بالرجعة (الأغانى ٨-٣٤). وكذلك من كون محمد ﷺ كان ينظر إليه على أنه يرجع. وخصوصا فى ورثة دمه (آله) ونبوته. والمؤرخون المحدثون لم يتبهاوا إلى هذا ولم يعرفوه. ولعل العقيدة القديمة كانت تذهب إلى حد القول بأن الإمام الصادق حى دائما على الأرض. وإن لم يكن دائما فى عزته وسلطانه.

ومما هو جدير بالذكر والتنويه ما قاله أبو حمزة^(١) الخارجى (سنة ١٣٠هـ) فى

(١) الطبرى ج ١ ص ٢٩٤٢ - إن الموازنة بين رجعة محمد ورجعة عيسى خطأ وسوء فهم؛ لأن محمدا ﷺ لا يرجع إلى يوم الحساب، فإن هذا الاعتقاد خاص بعيسى وحده، ويقوم على أساس مختلف تماما، ولا يتعلق بالدهر (الأيون) الحالى، بل بالدهر المقبل، راجع كذلك ابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ س ٢ وما يليها، «الأغانى» ج ٣ ص ٢٤ س ٩، ص ١٨٨ س ٩ وما يليها، ج ٤ ص ٤٢ س ٢٨، ج ١١ ص ٤٦ س ٦.

خطبة له على المنبر بالمدينة عن الشيعة (الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٧)، قال: «شيعة أوزرت بكتاب الله وأعلنت القرية على الله، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن، ولا عقل بالغ في الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب. قد قلدوا أمرهم أهواءهم، وجعلوا دينهم عصبية لحزب لزموه وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم: غيا كان أو رشدًا، أو ضلالة أو هدى ينتظرون الدول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدعون علم الغيب لمخلوق لا يعلم أحدهم ما في داخل نيته، لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه. ينقمون المعاصي على أهلها، ويعملون إذا ظهوروا بها، ولا يعرفون المخرج منها. جفاة في الدين، قليلة عقولهم، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة»^(١). ويقول مشابه لهذا يقول الخليفة هشام في كتابه إلى يوسف بن عمر^(٢): «إن عبادة الشيعة لله كانت عبادة لبنى الإنسان. والنتيجة لذلك قيصرية بابوية معا. كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، ولكن إمامتهم الشرعية القائمة على ذم الرسول ﷺ (ذرية آل البيت) لم تكن أفضل منها؛ إذ كانت تفضي إلى إهدار القانون وكسر الشريعة. فالإمام عندهم كان فوق النصوص الحرفية وكان يعلم الغيب، فمن اتبعوه وأطاعوه سقطت عنه التكاليف وخلا من المسؤولية. تلك أمور أخذها عليهم الخوارج خصوصاً وأبرزوها؛ إذ كان الخوارج يضعون الشريعة المقررة فوق كل إنسان ويتشددون على هذا أكثر جداً من سائر الفرق؛ ولذلك كانوا يحكمون على صلاح الإمام أو فساده بحسب تمسكه بأحكام الشريعة.

٢٤ - التقارب إلى تراث فارس:

وكان تحول الموالى إلى شيعة غلاة حادثاً ذا أهمية كبرى في التاريخ العالى الإسلامى. ولعل المختار كان قد وجد الموالى من قبل وقد أصبحوا شيعة، ولكن الفضل يرجع إليه فى كونه هو الذى دفع بهم إلى الميدان والعمل. ولم يكن يرمى فى بداية الأمر إلى إثارتهم ضد العرب، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق، كانت الشيعة كلها من ورائه حتى استطاع أن يجتذب إليه الأرستقراطية العربية المعادية. وشاء القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى والمسلمين من الطبقة الثانية، فمن يأخذ عليه

(١) كان السيد الحميرى يشرب الخمر ولا يقلع عن ذلك، ولكنه كان يعتقد أن من يتشيع لعل سيختر له

شرب الخمر

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٦٨٢ ص ٥ وما يليه

ذلك، لا يكن له الحق فى أن يأخذ على الحجاج أنه عمل العكس فأكد هذه الفوارق بكل قوة وأعادها إلى ما كانت عليه. والحق أن المختار خليف بالمديح؛ لكونه كان أسبق من غيره فى إدراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هى؛ إذ لم يكن الإسلام بل العنصر العربى هو الذى يعطى الحقوق المدنية الكاملة فى الحكومة الدينية، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلى لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية. ولكن العرب لم يشاءوا الحد من امتيازاتهم عن طيب خاطر. ومن هنا اضطر المختار إلى خوض الكفاح ضدهم وإلى الارتقاء بكلية فى أحضان الموالى والسبئية. ولكن هذا النضال انتهى إلى القضاء عليه، ففضى على الموالى بوصفهم قوة سياسية. وعلى الرغم من ذلك فإن ذكرى سلطانهم (الذى كان كالحلم) فى سنة ٦٦ - ٦٧ لم تنطفىء، وظلت بقية من حزبهم تعمل فى الخفاء. وهذه البقية عقدت بعد ذلك بزمان طويل صلات مع خراسان، حيث مركز العصية الشعبية الإيرانية التى أثارت العاطفة التى أطاحت فيما بعد بالسيادة العربية. وهكذا كان المختار سلفاً لأبى مسلم الخراسانى. والأرواح التى حضرها تمت وإزداد عددها أكثر مما كان يتصور. ولهذا فإن أثره - على الرغم من إخفاقه - كان كبيراً جداً، ولكنه لم يكن يقصد إليه قصداً. والقول بأنه خان بنى قومه لحساب الفرس فأطاحوا برأسه جزاء وفاقاً لخيانته هذه قول مع الحكم بالهوى وخطأ من عدة نواح. وبالجمل، فإن المختار ظاهرة حافلة بالمأساة لا يحق لنا أن نشعرنحوها بنفس النفور الذى شعر به نحوها معاصروها.

٢٥ - البحث عن الشعار الشرعى الحقيقى؛

ألزمت السلطة الحاكمة الموالى حدودهم، وأثار المختار الروع والتشكك فى نفوس العرب وكان أهل الكوفة جميعاً من الشيعة بالقدر الذى كانوا به يعارضون حكم الأمويين، ولم يكن تشيعهم عن تفان فى آل علي وحرص على أن يكون الأمر لهم^(١). والثورة التى قام بها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد قصد بها إلى امتلاك العراق بحكم نفسه ضد سيادة الشام والأمر نفسه يقال عن ثورة يزيد بن المهلب. أما الشيعة الحقيقون فقد اعتصموا بالهدوء وقتاً طويلاً.

وأحفاد النبى ﷺ وهم أبناء علي من فاطمة وأحفادهم، قد عاشوا فى المدينة، بلد الأرستقراطية التى تعيش على بيت المال فى الإسلام. وكانوا أبرز الناس فى المجتمع

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٢٥٨ وما يليها

المدنى المنحل وأكثرهم شعبية . وكان بنو أمية يدللونهم طالما ظلوا ملتزمين الدعة والهدوء . أما بنو الزبير وأحلافهم من بنى مخزوم فكانوا يبغضونهم . وكان يود كل امرئ أن يزوجهم بناته ، واستغلوا الفرصة لإكثار الدم الطاهر (يقصد دم النبى ﷺ - أعنى نسله) . فعاشوا بمعزل عن كل هم فى المدينة .

حقا ، إنهم لم يطلقوا دعواهم للخلافة ولكنهم لم يلاحقوا الدعوى بانتظام واستمرار ، ولم يشاءوا استغلال ذوى النزعات الثائرة والأحلام الهادفة إلى القضاء على سلطان العرب والمتآمرين ، بل تركت هؤلاء للعباسيين الذين عرفوا كيف يستغلونهم ، ولم يكن بين أحفاد علي وهؤلاء رجال بالمعنى الحقيقى ، أما النسوة فكان من بينهن اللواتى يحملن طابع الذرية والأصالة ، وخصوصا سكينه بنت الحسين . وكان نسل الحسين - وهو الأحمد - هو النسل الرئيسى لا نسل الحسن ؛ لأن الحسن باع حقه فى ميراث الخلافة ببيعة وكس وخزى .

بينما الحسين أراق دمه فداء لحقه . وكان خليفة الحسين هو علي بن الحسين الذى أنقذ فى كربلاء فكان يخاف النار . ثم ظهر من أبنائه زيد ومحمد ، ثم ابن هذا الأخير وهو جعفر .

٢٦ - تفجير الصراع بين آل بيت علي والخليفة هشام؛

ثورة زيد بن علي؛

وقرب نهاية خلافة هشام وقع الحسينون فى خصومة مع الحسينيين بشأن بعض الأوقاف التى حبسها على أو النبى محمد ﷺ لنفسه على ذريته . فاحتكم زعيم الحسينيين - وهو زيد بن علي - إلى الخليفة ، وذهب بنفسه ومعه بعض بنى قرابته إلى هشام فى الرصافة . وكان يوسف بن عمر ، والى الكوفة ، قد أرغم يزيد بن خالد القسرى - ابن سلفه - على الكشف عن مصادر ثروته ، وانتزع منه بالتعذيب اعترافا بأنه يدين زيد بن علي بمبلغ كبير من المال . فسأل هشام زيدا وصحبه عن هذه المسألة ، فأنكروا هذه الواقعة ، فرأى هشام ضرورة مواجهتهم بيزيد وكان يزيد محبوسا . فكان عليهم الذهاب إلى الكوفة ، وهكذا سقطت الشرارة فى برميل البارود . فقد سحب يزيد الاعتراف الذى انتزع منه بالتعذيب حينما ووجه بهم ، وعادوا من الكوفة إلى المدينة ولكن زيدا لم يعد معهم ، فآلح عليه الوالى فى الرحيل فارتحل ، ثم عاد إلى الكوفة بعد

أن وصل إلى أول مرحلة في الطريق إلى المدينة فعلى الرغم من نصيح أحد أقاربه الفطنين له بعدم العودة وتوسله إليه في ذلك. فتعلق الشيعة بزيد بن الحسين وقالوا له: إن الوقت مؤات، وإن سيطرة الأمويين على الكوفة لا تستند إلا إلى عدد قليل من جنود الكوفة، بل ولا على بنى مذحج أو همدان أو بكر أو تميم وحدهم. فاستجاب لرأيهم، ولكنه تذرع ببعد النظر والحيلة فكان يغير مركز إقامته باستمرار. وتزوج من أسرتين بينهما. واستمر مقامه حوالى شهرين فى المجموع، كان خلاله يقوم بالاستعدادات للتودة وباكتساب الانصار فى البصرة والموصل أيضا، وبلغ عدد جنوده فى الكوفة ١٥٠٠ رجل. وكانت البيعة له تتضمن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومقاومة الحكام الجائرين ونصر المستضعفين ورد الفئ إلى من حرّموا منه، وتوزيع الخراج بالعدل على مستحقه، ورد الحقوق إلى أهلها، وإعادة من أرسلوا إلى القتال فى أماكن نائية إلى ديارهم، والدفاع عن آل البيت ضد أعدائهم الذين اغتصبوا حقوقهم. ولكن الكثيرين رأوا أن زيدا لم يكن متمسكا بحقوقه كما يجب. إذ إنه كان يتولى الشيعين: أبا بكر وعمر فيرى أنهما خليفتان شرعيان - وهذا القول ميزة جيدة له ولغالبية أنصاره من الكوفة - أو على الأقل امتنع من القول بأنهما مغتصبان للخلافة. قال الذين أخذوا عليه هذا الموقف: إنه بذلك يمكنه ألا ينكر بنى أمية. ولهذا انفصل عنه غلاة الشيعة، ولذلك سمي هؤلاء باسم «الرافضة»^(١).

وهؤلاء الرافضة بايعوا أخا زيد وهو محمد بن علي، وبايعوا بعده ابنه جعفر على أنهما الإمامان الحقيقيان، والواقع أن هذين لم يشاءا من هذه البيعة شيئا^(٢).

(١) هم أنفسهم يقولون: إن هذا لم يكن زيد أول من أطلقه عليهم، بل أطلقه من قبل المغيرة بن شعبة (الطبرى ج ٢ ص ١٧٠٠). قارن الطبرى ٣ ٥٦١، «الكامل» ص ٥٤٨ س ١٠، «الأغانى» ج ٣ ص ٢٤٤ س ١٩، ج ١٢ ص ٢٣ س ٢٠، ج ١٨ ص ٥٩ س ٤ وما يليه. والسببية هو الاسم الأقدم، والرافضة الاسم الحداثى لشيء واحد بعينه.

(٢) ورد فى «الأغانى» ج ١٥ ص ١٢١، ج ١٩ ص ٥٨ أن بعض مجانين الشيعة الذين ثلروا فى ولاية خالد القسرى كانوا يصيحون: «ليكن جعفر» وهذه الصيحة تتضمن عبادة تآليه جعفر الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. أما فى الطبرى ص ١٦٣٠ فلم يرد شيء من هذا ولا يسمون هناك باسم «الجعفرية» بل «الوصفاء» (العديد، الموالى). وكانوا ثمانية رجال فقط ولم يكونوا عربا، وكان على رأسهم المغيرة بن يعبد الرجل العجوز، وكان يقال إنه كان ساحرا. وقد كان لحبر ثورتهم وقع شديد على خالد القسرى، وكان على المنبر ساعته، حتى طلب أن يأتوه معهم بماء - مما أثار السخرية الشديدة منه. فلما أتى بهم موثقين إليه، أمر بإحراقهم بطريقة هى الغاية فى القسوة والبشاعة.

وكان الوالى - يوسف بن عمر - لا يقيم فى الكوفة، بل فى الحيرة، وفى الحيرة كان القسم الأكبر من جنود الشام. واستطاع أخيراً الحصول على معلومات دقيقة عن حركات زيد بن علي بواسطة اثنين من أنصاره حبسهما يوسف بن عمر. ثم عرف أن زيدا سيضطر إلى الإسراع بالثورة - بعد حبس هذين - وأنه حدد يوم الأربعاء غرة صفر سنة ١٢٢ (٦ يناير سنة ٧٤٠) للقيام بحركته^(١). فأمر يوسف بدعوة الناس يوم الثلاثاء (السابق على يوم بدء الثورة) إلى المسجد، وهناك حبسهم وقام بعض جنود الشام بحراستهم. ويبدو أن هؤلاء المحبوسين فى المسجد كانوا راضين بهذه الحماية من عدم حذرهم. فلما أراد إطلاق سراحهم - وكان معه ٢١٨ رجلاً - جمعهم فى ليلة الأربعاء وكان البرد قارساً، لم يحركوا ساكناً، واضطر زيد إلى الانسحاب من المسجد؛ لأن ألفين من جنود الشام قد تحركوا من الحيرة متجهين إليه. فهزمهم يوم الأربعاء وكان مسيطراً على ميدان المعركة يوم الخميس، إلى أن جاءتهم النجدة فى المساء بثلاثمائة من القواسين القيقانية^(٢) والبخارية، فأوقع هؤلاء بحشود جنود الكوفة خسائر بالغة، فلما كان الليل انسحب أهل الكوفة إلى المدينة وتفرقوا فى دورهم. وأصاب زيدا نفسه سهم ومات لما نزع منه السهم، فى دار بشارع البريد. ودفن فى قاع قناة حبس عنها الماء ثم أطلق ثانية. ولكن المكان اكتشف فيما بعد وانتزعت الجثة، ثم أخذت إلى الكوفة وصلبت^(٣)، وبقيت مصلوبة هناك إلى موت هشام، أما الرأس فقد أرسل إلى دمشق ومن ثم إلى المدينة^(٤).

٢٧ - يحيى بن زيد وتجديد ذكرى كربلاء:

أما يحيى، الابن الصغير لجدا لزيد بن علي، فقد اختفى فى نينوى (على الفرات عند كربلاء) عند مولى لبشر بن بشر بن مروان. ومن هناك فر إلى خراسان. وظل مختفياً فى دار عربى نبيل فى بل إلى أن مات هشام. ثم دل عليه وسلم. وأمر الوليد الثانى بإطلاق سراحه. ولكن بأمر الوالى نصر دفع من مكان إلى مكان حتى مدينة الحدود الغربية بيهق. ولو أنه استمر فى المسير لأصبح فى منطقة ولاية يوسف بن عمر.

(١) الواقدي فى الطبرى ج ٢ ص ١٦٦٧ سنة ١٢١هـ.. ولكن سنة ١٢٢ التى يذكرها أبو مخنف يؤيدها

يوم الأسبوع: لأنه فى سنة ١٢٢ وحدها كان أول صفر هو يوم أربعا.

(٢) مر كبرت: «أيرر أشهر» ص ٥٠ Eranschahr: marpuart

(٣) صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة شهد، لم نرد مهديا على الجذع يصلب («الكامل» ص ٧١٠).

(٤) (أبو مخنف فى الطبرى ج ١ ص ١٦٧٦ - ١٦٧٧، ص ١٦٧٨، ص ١٧١١).

فلم يشأ أن يقع فى قبضة يد هذا. فمضى ناحية المشرق عائدا. واستطاع أن يصل هو والسبعون رجلا الذين معه إلى هراة. وإن كان عمال نصر قد أمروا بالآلا يدعوه يمر. ومن هراة ارتحل إلى جوزجان. ولكن فاجأه مطارده الذين بعث بهم فى إثره نصر. فسقط فى القتال مع صاحبه عند الأنبار (ياقوت ١ ٣٧٠). وبأمر الخليفة أحرق فتى العراق (يحيى بن زيد بن علي) وألقى برماده فى الماء^(١). بعد ذلك ظهر أبو مسلم الخراسانى مطالبا بالثار ليحيى وقتل قتلته (أبو مخنف فى الطبرانى ج ٢ ص ١٧٧٠ - ١٧٧٤). وهكذا كان مصير زيد كمصير جده الحسين. كذلك أحدث مصرعه تغيرا عند أولئك - أو عند بعضهم - الذين وعدوه بالإخلاص ولم يفوا بوعدهم، فقد أصبحوا له أنصارا صادقين وسموا أنفسهم باسمه: «الزيدية». ويتميزون من الرافضة بأنهم يتولون سلالة الحسين. وآخر ثورة قامت بها الشيعة فى عهد الأمويين هى تلك التى قام بها عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن حفيد أخى علي بن أبى طالب: جعفر. وهو لهذا لا يعد حقا من آل البيت. جاء سنة ١٢٦هـ مع إخوة إلى الكوفة ليطلب العطاء من الوالى من قبل يزيد الثالث، وهو ابن عمر. فأقام هناك مدة وتزوج بانية حفيد شيب بن ربيع التميمى. ويموت يزيد الثالث واضطراب شئون الخلافة فى الشام تزعزعت سلطة ابن عمر وسائر الولاة عامة. فانتهز الشيعة فى الكوفة هذه الظروف ويايعوا عبد الله بن معاوية بن جعفر واقتادوه إلى القصر. كذلك بايعه سائر أهل الكوفة. ثم خرجوا بعد ذلك معه لقتال أهل الشام الذين كانوا مع ابن عمر فى الحيرة، وذلك فى شهر المحرم سنة ١٢٧هـ (أكتوبر - نوفمبر سنة ٧٤٤)، ولكنهم فروا حينما نشب القتال. ولم يثبت للقتال غير ربيعة والزيدية فقاتلوا بشجاعة، وتابعوا القتال عدة أيام فى شوارع الكوفة إلى أن أعطوا الأمان وأعطى عبد الله بن معاوية الإذن بالانسحاب (الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٨). فارتحل ابن معاوية مارا بالمدائن إلى إقليم ميديا، وازداد عدد أتباعه، وانضم إليه كثير من الموالى والعبيد من الكوفة وغيره من المواضع. فاستقر به المقام أولا فى أصفهان، ثم ارتحل منها فى سنة ١٢٨ إلى إصطخر فى إقليم فارس، ومن هناك سيطر على منطقته شاسعة جدا: فالمنطقة الشرقية كانت فى ذلك الحين بلا سلطان، ومن هنا استتب له الملك. فتجمع حوله جماعة مختلفة كل الاختلاف، وكان من بينهم أيضا عباسيون (عبد الله بن علي) وأمويون، كانوا يأملون أن يظفروا منه بوظيفة أو

(١) راجع سفر الخروج من التوراة أصحاح- ٣٢ (فى نص المؤلف: «أحرق عجل العراق...» والإشارة إلى عجل بنى إسرائيل المذكور فى سفر الخروج فى الإصحاح المذكور المترجم).

عطية وأعجب ما فى الأمر أن الخوارج الذين طردهم مروان الثانى من الموصل، برئاسة شيان ابن عبد العزيز وسليمان بن هشام، قد فروا إلى عبد الله بن معاوية (بهاية سنة ١٢٩ وبداية سنة ١٣)^(١) ولكنه هزم جميع هؤلاء عند مرو والشاذان، هزمتهم جيوش مروان الثانى، وبهذا انهارت دولته، أعنى دولة عبد الله بن معاوية (فى بهايه سنة ١٣) ففر إلى كرما ثم سجستان حتى بلغ هراة، على أن يجد ترحيبا لدى أبى مسلم الخراسانى، ولكن أبا مسلم أمر بالقبض عليه وخنقوه بالأغطى وكان له بعد ذلك بزمان قبر معروف فى هراة يزار (المدائنى فى الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٦ وما يليها، (ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٤، ما يليها)

وفى تلك السنوات الأخيرة لدولة الأمويين اختلطت الحدود وامتزجت بين القوى المتباينة المتعارضة فيما بينها ولكنها تعاونت وتساندت فى بضالها ضد الدولة المتداعية، دولة الأمويين، حتى كان الشيعة والخوارج يقاتلون تحت لواء واحد، على أن تشيع عبدالله بن معاوية قد بدا بطبعه منذ البداية متهمًا مشكوكًا فيه - لقد كان - فيما يقوله صاحب «الأغانى»^(٢) سخيا ذكيا وشاعرا موهوبا، ولكنه كان فى الوقت نفسه عديم الضمير ماجنا، كان يحيط نفسه بالمللحين، ومن هؤلاء من صلب فيما بعد؛ لأنه أنكر البعث والحساب وكان يقول: إن الناس كالأعشاب. ولقد كان بينه وبين الشيعة والمجان صلات قديمة، أما فوائد الثورات الفاشلة التى قام بها الشيعة فقد جناها العباسيون فبعد أن قام غيرهم بالإعداد لهم وسفكوا دماءهم، جاءت ساعتهم بعد انتظار طويل

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص ١٩٧٨، س ٤)

(٢) الأغانى ج ١١ ص ٧٥، وما يليها

الباب الخامس

.....

الإمام زيد والزيدية

مقدمة

الفصل الأول

فرق الشيعة الثلاث

الفصل الثاني

الدولة الزيدية

الفصل الثالث

الزيدية والمعتزلة

مقدمة

الإمام زين العابدين وردود فعل موقفه السلبي،

وبلغ الاضطهاد الأموي درجة لا تطاق وانتشر الاستياء في طول البلاد وعرضها فلم يبق إلا القليل ممن يقنع بفكرة كون الإمام زعيما روحيا فحسب. وكان الموقف السلبي الذي وقفه الإمام زين العابدين والذي وقف مثله الإمام محمد الباقر جعل فرق الشيعة الأخرى ترى في ذلك دليلا على أنه لا فائدة من انتظار أى إرشاد أو مساعدة من الشيعة الإمامية. فكان الكيسانية، وهم أبناء من قالوا بإمامة ابن الحنفية، يميلون جُلَّ الميل إلى حركة إيجابية ضد مضطهديهم. وكان ميل زيد أخى الإمام محمد الباقر وميلهم عما جعله يستمع إلى دعوة أهل الكوفة له للظهور.

وكان السبب في اضطراب خراسان الاستياء السائد في البلاد كافة من الأمويين ورغبة العناصر الناقمة من غير العرب في انتقال الحكم إلى أسرة جديدة. وكانت الدعوة لآل البيت شديدة في خراسان، ولم تكن هذه الدعوة للأئمة العلويين الذين اتبعوا سياسة عدم المقاومة في الأيام الأخيرة بل إلى فرع آخر من بنى هاشم له نفوذ أقوى وسياسة إيجابية أشد. ولقراءة العباسيين من النبى ﷺ من جهة عمه العباس جدهم الأعلى كانوا أشد ميلا إليهم.

الفصل الأول

فرق الشيعة الثلاث

الشيعة حزب سياسى يمثل - مع الخوارج - جانب المعارضة لنظام الحكم فى تاريخ الإسلام، ويجعل كتاب الفرق من الشيعة فرقا كثيرة تزيد على العشرين، وفضلا عما فى هذا التقسيم من تعسف^(١) فإن أهمها وأبقاها إلى يوم الناس هذا ثلاث: الزيدية، والاثنا عشرية، والإسماعيلية.

الاختلاف بين هذه الفرق الثلاث له وجهان: وجه ظاهرى يتصل باختلافهم فى تحديد أشخاص الأئمة بعد النبى ﷺ أو بالأحرى بعد الحسين، ووجه حقيقى يتصل بأسلوب المعارضة السياسية للنظام القائم.

الجو العام لتاريخ الشيعة:

إن مذاهب منحرفة كانت قد ظهرت فى أفق التشيع كالبينية نسبة إلى بيان بن سميعان التميمى (ت ١١٩) والمغيرة نسبة إلى المغيرة بن سعيد (ت ١١٩هـ) مما حتم أن تكون آراء زيد السياسية والدينية لا تقبل الغموض ولا التأويل.

وهكذا جاء خروج زيد مشابها لحركة الحسين ثم استكملتها بالإفصاح السياسى والكلامى عن مبررات الخروج، ومعاداة الحكام الظالمين.

(١) تكلف كتاب الفرق فى تقسيم فرق الشيعة كما تكلفوا فى قسمة سائر فرق المسلمين من أجل أن يكون جميعها ثلاثا وسبعين وفقا للحديث المنسوب إلى النبى ﷺ: وستفرق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار ما عدا واحدة..

والواقع أن زيدا قد جمع بين النظر والعمل على نحو متكامل، كان في النظر غاية في الفصاحة والبلاغة والبراعة حتى شبه بالإمام علي، وكان في العمل زاهدا شجاعا مقواما لا يتردد في تطبيق ما يؤمن به، يؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤمن بعدم السكوت على حكم قام على الغلبة وبخاصة إذا كان الحاكم فاسقا متجبرا، ولا يفوته في دعوته إلى الخروج أن ينصح أتباعه بمراعاة حدود الله^(١).

الموقف الشيعي من الإمامة:

إن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة: فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ وهؤلاء إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق.

وفرقة ترى أن إمام المسلمين يكون من بنى فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا الاسم وهؤلاء إمامية ريدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى^(٢). وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببني فاطمة وهم الذين نصروا بني العباس وكانت الفرقتان الأوليان متشترتين في كثير من الأقاليم العربية، والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة؛ لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبي ﷺ فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعائها نافس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بني أمية من قبلهم. وأعظمهم في ذلك رجلان أحدهما: جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة؛ لأنه لم ير فرصة معقولة.

وثانيهما: محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهذا كان أطمع في الأمر؛ لما زعموه من أن بني هاشم انتخبوه للخلافة ويابعوه لها في أواخر عهد بني أمية، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبي العباس ولا لأبي جعفر، ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه حضره بالمدينة بنو

(١) حميد المحلى: الحلائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية، مخطوط بالمكتبة الغربية للجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ٧٥. والزيدية ص ٦٣ على بن عبد الكريم شرف الدين.

(٢) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية الشيخ محمد الحضرى.

هاشم جميعا إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما؟ فقال له زياد بن عبد الله الحارثي أمير المدينة: ما يهمك من أمرهما أنا أتيتك بهما فضمنتهما لياهما وأبقاه عاملا على المدينة. ثم إنه دعا بني هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن ابن زيد بن حسن بن علي فإنه أخبره خبره وقال: والله ما آمن وثوبه عليك فأريك فأيقظ بقوله من لا ينأى^(١).

الزيدية والرافضة:

زيد: هو زيد بن علي بن الحسين السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضى الله عنهم - ويكنى زيد بأبي الحسين، وأم زيد أم ولد كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قد أهداها إلى علي بن الحسين بن علي، فولدت لعلي: زيدا هذا، وعمر بن علي وعلي بن علي، وخديجة بنت علي، وقد قال خصيب الوابشي: كنت إذا رأيت زيد بن علي رأيت أسارير النور في وجهه، وكان المرجئة وأهل النسك لا يعدلون بزید أحدا.

والزيدية فرقة إسلامية ظهرت ظهورا واضحا في بداية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضى الله عنهم^(٢)، وهى من أهم فرق الشيعة. إذ تضم الشيعة فرقتين رئيسيتين هما: الإمامية^(٣)، والزيدية وتدعى الإمامية بالرافضة^(٤)، وإلى هذا يشير الجاحظ موضحا حين يقول^(٥): «اعلم - رحمك الله - أن الشيعة رجلان: زيدى ورافضى، وبقيتهم بدد لا نظام لهم، وفي الأخبار عنهما غنى عما سواهما».

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الشيخ محمد الحضرى ص ١٣٠.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص ٢٣ (تحقيق: د. ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م).

(٣) الإمامية: قالوا بإمامة محمد بن علي (الباقى) نصا عليه، ثم بإمامة جعفر بن محمد، وأهم فرق الإمامية (الأثنا عشرية) وسميت بذلك؛ لأنها تقول باثنى عشر إماما.

(٤) الأشعرى: المصدر السابق والجزء والصفحة، المقدسى: البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤ (طبعة ١٨٩٩م، مطبعة برطرن، أعادت طبعه بالأوفست مطبعة المثني ببغداد).

(٥) رسائل الجاحظ ج ٤ ص ١١٢ (تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

ويقول ابن تيمية^(١): (ومن زمن خروج زيد بن علي افرقت الشيعة إلى رافضة وزيدية)، ويضيف المقدسي قوله^(٢): (إن الشيعة يجمعهم كلهم الزيدية والإمامية ولقبهم المذموم الرافضة).

وتروى المصادر^(٣) أن الذي أطلق عليهم هذا الاسم هو زيد بن علي، وذلك لرفضهم له؛ لأنه في عرفهم مخالف مذهب آبائه في الأصول، وفي التبرى والتولى. ورفضهم إمامة أبي بكر وعمر^(٤)، ولخوفهم من وإلى الكوفة الذي طلب من بايع زيدا لمعاقبته^(٥).

وقد تبرأ زيد بن علي من هؤلاء الرافضة^(٦)، وأنكر عليهم الطعن في أبي بكر وعمر^(٧).

ويرى النووي حتى^(٨) أن الذي أطلق عليهم اسم الرافضة هو المغيرة بن سعيد العجلي^(٩)؛ لأنهم تبرأوا منه ورفضوه.

وسواء أطلق عليهم هذا اللقب زيد بن علي أو المغيرة بن سعيد فإنه يشير إلى أتباع جعفر الصادق^(١٠)، وهم الشيعة الإمامية.

- (١) منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٨ (دار الكتب العلمية، بيروت). (٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤.
- (٣) الزبيرى: نسب قريش ج ٢ ص ٦٠، ابن حبيب: للحبر ص ٤٨٣ (تصحیح إيلزة ليحسنت شتير، طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م)، الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٨٠ - ١٨١ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٧٦م).
- (٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٥ (تحقيق عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م).
- (٥) يحيى بن الحسين: رسائل العدل والتوحيد ج ٢ ص ٨١ (تحقيق د/محمد عمارة، طبع دار الهلال، ١٩٧١م).
- (٦) يحيى بن الحسين: المصدر السابق والجزء والصفحة، أبو القاسم البلخي: فضل الاعتزال ص ٢٢٨ (تحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية للطباعة، ١٩٧٤م)، ابن عساکر: المصدر السابق والجزء ص ٢١.
- (٧) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ص ١٠٥، الحميري: المصدر السابق ص ٢٣٩.
- (٨) فرق الشيعة ص ٦٣ (دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م).
- (٩) هو المغيرة بن سعيد العجلي، خرج بظاهر الكوفة في إمارة خالد بن عبد الله القسري، له فرقة تسمى المغيرة، يقول إمامة محمد بن عبد الله بن الحسن، وكان يدعى أنه نبي، وأنه يعلم اسم الله الأكبر، وقد برئت منه الجعفرية، قتله خالد بن عبد الله القسري وصلبه؛ لأنه كان ينظر في السحر.
- (١٠) هو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب سمي بالصادق لصدقه، وهو سادس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية، ولد سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩م بالمدينة وتوفي سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥م.

وكانت الإمامية والزيدية في بدء أمرهما حزبا واحدا ثم اختلفا، والسبب في اختلافهما لم يكن أصلا من أصول الدين، وإنما كان حول «الإمامة»، وهو يبين وجهة نظر كل منهما، فيقول البغدادي^(١): (وسبب افتراقهما، أن زيد بن علي قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة، وخرج بهم على وإلى العراق وهو يوسف بن عمر الثقفي^(٢) عامل هشام بن عبد الملك، فلما استحر القتال بينه وبين يوسف بن عمر، قالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي بن أبي طالب، فقال زيد: أنا لا أقول فيهما إلا خيرا، وما سمعت أبي يقول فيهما إلا خيرا، وإنما خرجت على بني أمية الذين قاتلوا جدي الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا البيت بحجر المنجنيق والنار، ففارقوه عند ذلك، حتى قال لهم: رفضتموني، ومن يومئذ سماوا رافضة).

وقد تحملت الزيدية عبء الجهاد في الوقت الذي اتجهت فيه الإمامية إلى البحوث العلمية لتكون فقه الشيعة وأصول عقائدها^(٣).

التعريف بالإمام زيد بن علي

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ ٦٩٩^(٤)، وقتل سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م^(٥)، وكان يكنى أبا الحسين^(٦)، وهو ينتسب من

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٥، والحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي، أحمد شوقي إبراهيم المعرجي.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن عمر بن محمد بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي، كان حسن القراءة فصيحاً جواداً، وكان مع ذلك أحمق سيئ الخلق والسيرة، معجبا بنفسه، ولأه هشام بن عبد الملك اليمن ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م، ثم ولأه العراق سنة ١٢ هـ / ٧٣٧ م، ولما ولي يزيد بن عبد الملك حبه وبقي في السجن إلى أن قتل سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م، والذي تولى قتله يزيد بن عبد الله القسري (الاشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٧٥ هامش ٢).

(٣) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية ص ٥٧ (دار التراث، القاهرة، الطبعة السادسة ١٩٧٩ م).

(٤) العسقلاني: تقريب التهذيب ج ١ ص ٢٧٦ (تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م).

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٠، البستي: مشاهير علماء الأمصار ص ٦٤، ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٢٤٠، المقرئ: الخطط ج ٢ ص ٤٤٠، العسقلاني: المصدر السابق والجزم والصفحة، الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي، أحمد شوقي إبراهيم المعرجي.

(٦) ابن قتيبة: المعارف ص ٢١٦، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ١٢٢، الذهبي: سير أعلام=

قبل أبيه إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ، وإلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فهو بهذا صاحب نسب رفيع لا يدانيه نسب، وهو من رجال الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين^(١).

ووالدته جارية سندية، وكانت أم ولد، وتذكر المصادر^(٢) أن: المختار بن أبي عبيدة الثقفي^(٣) اشتراها واستحسنها ووجدها لا تليق إلا بعلي بن الحسين وليس هناك أحد أحق بها منه فأهداها إليه.

وقد مدحها زيد بقوله: «لقد صبرت بعد وفاة سيدها إذا لم يصبر غيرها»، وقالت عنها فاطمة بنت الحسين: «أما والله لنعم دخيلة القوم كانت»^(٤)، ويروى ابن قتيبة^(٥) أن اسمها حيدان.

وأبوه علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وهو من رجال الطبقة الثانية من التابعين^(٦)، ومن كبارهم وساداتهم ديناً وعلماً^(٧)، ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بني هاشم وعباد المدينة^(٨)، وكان يسمى علياً الأصغر^(٩).

=النبل ج ٥ ص ٣٨٩، ابن شاذان الكتي: فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٢، المقرئ: المصدر السابق والجزء ٤٣٦، العسقلاني: المصدر السابق والجزء والصفحة.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢١١، الزبير: نسب قريش ج ٢ ص ٦٠، ابن قتيبة: المصدر السابق والصفحة، الطبري: المصدر السابق والجزء ١٦٣، ابن عسار: تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٠، الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥، ص ٣٣.

(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٢٧ (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م)، لعله الخلي: الخلائق الوردية ج ١ ص ١٣٧ (مخطوط) بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨٦٧) تاريخ.

(٣) كان المختار بن أبي عبيدة الثقفي من الخوارج ثم صار شيعياً وكيسانياً، قال بإمامة محمد ابن الحنفية، وأخذ بشار الحسين بن علي (البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٣١، الإسفرائيني: التبصير في الدين ص ١٩، الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٥).

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٤، ابن الأثير: الكامل ج ٤، ص ٢٤٠، المقرئ: الخطط ج ٢ ص ٤٣٧.

(٥) المعارف ص ٣٦٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٧ ص ١٦٤، النسائي كتاب الضعفاء والمتروكين ص ٣١١ (المطبعة الأثرية، باكستان، سانكله هل، بدون تاريخ).

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٦٧، ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج ٢ ص ١٢٣.

(٨) البستي: مشاهير علماء الأمصار ص ٦٣، ابن الجوزي: المصدر السابق والجزء ١٠٢.

(٩) ابن سعد: المصدر السابق والجزء والصفحة، الزبير: نسب قريش ج ٢ ص ٥٨، المنتخب ص ٦٢٩ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف).

وهو الابن الذكر الذي بقى من أولاد الحسين، فقد قتل أخ له فى المعركة التى شنها يزيد بن معاوية^(١) وعماله على الحسين بن علي، ولم يحضر المعركة على هذا^(٢) لأنه كان مريضاً، وبقيت ذرية الحسين من بعده فى عقب علي هذا، وكان يلقب بالسجاد لكثرة سجوده^(٣)، وكان يصوم نهاره ويقوم ليله ويتلو القرآن ويكى كثيراً خوفاً من الله^(٤).

نشأ زيد بن علي فى المدينة المنورة، وكان العصر الأموى حافلاً بالأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية التى أثرت فى حياته وفكره، فقد تحولت الخلافة فى عصر الأمويين إلى ملك موروث^(٥)، واستطاع الخليفة معاوية بن أبى سفيان أن يخالف بفعله هذا ما تعارف عليه الناس منذ نشأ منصب الخلافة^(٦).

ونتيجة لسياسة القهر هذه فقد ظهرت المعارضات الحازمة ضد الأمويين لتعلن فى غير حرج أو مواربة أنهم مختصون للسلطة من أيدي أصحابها العلويين أو من أيدي أمة المسلمين.

فى هذا العصر الملئ بالقلق والاضطرابات السياسية ولد زيد بن علي ونشأ فى المدينة وكان ناقماً على الأمويين^(٧)، روى أنه دخل مسجد الرسول ﷺ بالمدينة فرأى جماعة من قريش فيهم: سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، فقال لهم: أى قوم أنتم أضعف من أهل الحرة؟ فقالوا: لا، فقال لهم: فأنأ أشهد أن يزيد ليس شراً من هشام فما لكم^(٨)،^(٩).

(١) الزبيرى: نسب قريش ج ٢ ص ٥٨، الطبرى: المنتخب ص ٦٣٠، الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٢٠ - ١٢١، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٥٢ تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر.
(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٢١١، الطبرى: المنتخب ٦٢٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٣) المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٧٩ - ٨٠.

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج ٢ ص ١١٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٥٠٦، المقرئى: النزاع والنخاصم ص ٦٨ - ٧١ (طبعة دار المعارف، مصر، تحقيق: دكتور حسين مؤنس).

(٦) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٣٠١ - ٣٠٤، على حبيبة: دولة الأمويين ص ٦٣ (مكتبة الشباب مصر ١٩٧٨ م).

(٧) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥.

(٨) ابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٤، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥، ص ٣٤.

(٩) الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى. أحمد شوقى إبراهيم المعرجى.

ولد عام ٨٠ هـ على أنه ورد في مقدمة كتاب المجموع أنه لما ولد عام ٧٥ هـ أخذ أبوه علي زين العابدين المصحف وفتح ونظر فيه فخرج أول سطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾ (١١١) ﴿[التوبة] فأطبقه وفتح ثانياً فخرج: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...﴾ (١٦٩) ﴿[آل عمران] فأطبقه ثم فتح الثالثة فخرج: ﴿...وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ...﴾ (٩٥) ﴿[النساء: ٩٥] فأطبقه وقال: عزيت عن هذا المولود وأنه لمن الشهداء غير أن المؤرخين أجمعوا على أن سنه كانت لا تتجاوز الثانية والأربعين يوم مقتله عام ١٢٢ هـ.

— من أم سندية أهداها المختار الثقفي إلى أبيه.

— أخذ علوم الدين عن أبيه ثم أخيه محمد الباقر: ثم سافر إلى البصرة حيث التقى بواصل بن عطاء وأخذ عنه أصول الدين وعلم الكلام، فكان لقاء مؤسسي الفرقتين مظهراً لالتقاء الزيدية بالمعتزلة منذ البدء^(١).

صفات الإمام زيد:

ولقد كان محباً للمعروف^(٢) صبوراً، والصبر يتضمن تحمل الشدائد ويقتضى ضبط النفس وعدم الاندفاع، وكانت هذه الحصا من أخص ما يتحلى به زيد، فهو يضبط نفسه عندما يسمع كلام السفهاء فلا يجادلهم^(٣)، وكان شعاره الصبر وضبط النفس دائماً، حتى لا يتزلزل فيما لا تحمد عاقبته، كان نقش خاتمه كما يروى الأصفهاني^(٤): «اصبر تؤجر وتوق تنج»، وقد ذكر المقرئ^(٥) أن نقش خاتمه كان: «اصبر تؤجر واصلق تنج».

وكان يتمتع بالشجاعة الأدبية التي دفعته أن يقول الحق ولا يخشى فيه لومة لائم

(١) وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣١٥ السبب في خروج زيد، وذكر أقوالاً متعددة في هذه المسألة ابن الأثير في تاريخه الكامل ج ٥ ص ٩٠ ومقاتل الطالبين ص ١٢٧ لأبي الفرج الأصفهاني تحقيق السيد صقر، ومروج الذهب ج ٣ ص ٢١٨ للسعودي تحقيق محيى الدين عبد الحميد.

(٢) قال زيد بن علي: ما شيء أفضل من المعروف ولا ثوابه، ولا كل من رغب فيه يقدّر عليه، ولا كل من قدر عليه يؤذّن له فيه، فإذا تمت الرغبة والقدرة والإذن تمت السعادة للطالب والمطلوب منه. (ابن عبد البر: بهجة الجالس وأنس المجالس ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣، تحقيق: محمد مرسى الخولي، مراجعة الدكتور عبد القادر القط، للدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ).

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٤) مقاتل الطالبين ص ١٣٢. (٥) الخطط ج ٢ ص ٤٣٧.

حتى فى الأوقات وأشدّها حاجة إلى المدارة، حين جاء من يريد أن ينال من أبى بكر وعمر، فكان جوابه لهم: رحمهما الله وغفر لهما، وقد عدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة^(١)، وهما وزيراً جدى محمد ﷺ^(٢)، وأعلن براءته ممن ييسرأ منهما^(٣)، وقال: الرافضة حربى وحرب أبى، مرقت علينا الرافضة كما مرقت الخوارج على علي^(٤).

ولقد دفعته شجاعته الأدبية لرفض مبدأ التقيّة^(٥) الذى اشتهر آل البيت بالأخذ به^(٦)، وعندما خرج من عند هشام بن عبد الملك حينما أمره بالخروج، قال: أخرج ثم لا ترانى إلا حيث تكره^(٧).

وكان محباً لخير المسلمين ووحدتهم، فقد قال لأحد أصحابه: (أما ترى هذه الشرا، أترى أحداً ينالها؟ قال صاحبه: لا، قال: والله لوددت أن يدى ملصقة بها فأقع على الأرض، أو حيث أقع، فأنقطع قطعة قطعة، وأن الله يجمع بين أمة محمد ﷺ^(٨)).

من أجل هذا لم يضمن بالفداء، وتقدم للميدان عندما رأى السنة تموت، والبدعة تحيا، والباطل يسود والحق يغلب، وما خرج إلا وهو يريد الإصلاح بين أمة محمد ﷺ^(٩).

(١) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٨٠ - ١٨١، ابن الأثير: (الكامل ج ٤ ص ٤٦) ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٩٩.

(٢) ابن حزم: الفصل ج ١ ص ٨٨ (مطبعة صبيح، القاهرة ١٣٤٨ هـ)، المقرئى: المصدر السابق والجزء ص ٣٥١.

(٣) عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٢٨ (تحقيق: فؤاد السيد، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م، تونس)، ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢١ - ٢٢، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥، ص ٣٤، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج ١ ص ١٥٨.

(٤) الصفدى: المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٥) التقيّة: لغة الخوف والحذر والكتمان وهى أن يخفى الإنسان ما يعتقد دفعاً للأذى، وكان الشيعة أكثر المسلمين أخذاً بهذا المبدأ (ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج ٣ ص ٢٥٩، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥ ص ٣٦٠. الحياة السياسية والفكرية للزيدية، ص ٢٥).

(٦) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥٠.

(٧) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٦٥، المسعودى مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٨، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٩٨.

(٨) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٢٩.

(٩) ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٤ - ١٠٥، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٩٨، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٢٠٠ (الطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٠ م).

وكيفما كان الأمر حرص زيد على الإصلاح بين المسلمين فقتل وصلب ثم أحرقه الأمويون.

قال عنه الإمام أبو حنيفة: «شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله. فما رأيت في زمانه أفاقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً، ولا أبين قولاً، لقد كان منقطع النظر^(١).

* رأيت جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب ويسوى ثيابه على السرج. ص ١٢٦.

* كان بين زيد بن علي وعبد الله بن الحسن مناظرة في صدقات علي فكانا يتحاكمان إلى قاض من القضاء؛ فإذا قاما من عنده أسرع عبد الله إلى زيد فأمسك له الركاب.

* عن أبي الجارود قال: قدمت المدينة فجعلت كلما سألت عن زيد بن علي قيل لي ذاك حليف القرآن.

* قال: سألت الحسن بن يحيى كم كانت سن زيد بن علي يوم قتل؟ قال: اثنتان وأربعون سنة^(٢).

وقد اتفق علماء الإسلام على فضله ونبله وسمو مقامه كما اتفقت معظم الروايات على ذلك سوى روايات قليلة لا تصلح للمعارضة. وقال ابن أبي الحديد في شرح النهج: «ومن تقبل مذاهب الآلاف في إباء الضيم وكراهية الذل واختار القتل على ذلك وأن يموت كريماً أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب - رضى الله عنهم -^(٣).

وهو إمام الزيدية الذين ينسبون إليه لاجتماع الإمامة عندهم فيه وهو أن يكون من ولد علي وفاطمة عالماً شجاعاً كريماً ويخرج بالسيف، وكان سبب اعتقادهم ذلك خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فظنوه يريد بذلك لنفسه، لم يكن

(١) المقرئى: الخط ج ٢ ص ٤٣٦.

(٢) نصوص من مقاتل الطالبين، أبو فرج الأصفهاني، تحقيق السيد أحمد صقر.

(٣) شرح النهج ج ١ ص ٣١٥.

يريدها له لمعرفة باستحقاق أخيه - الباقر - رضى الله عنه - للإمامة من قبله ووصيته عند مدحه وفضله ذكروها فى كتب التراجم والتواريخ والسير^(١).

فقد ورد عن أئمة أهل البيت روايات كثيرة فى مدحه، ذكر الصدوق بإسناده عن محمد بن يزيد النحوى عن ابن عبدون عن أبيه قال: لما حمل زيد بن موسى بن جعفر إلى المأمون، وكان قد خرج بالبصرة وأحرق دور بنى العباس وهب المأمون جرمه لأخيه على بن موسى الرضا - رضى الله عنه - وقال: يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل لقد خرج من قبل زيد بن علي فقتل ولولا مكانك لقتلته فليس ما أتاه بصغير. فقال الرضا - رضى الله عنه -: يا أمير المؤمنين لا تقس أخى زيدا على زيد بن علي فإنه كان من علماء آل محمد ﷺ غضب لله عز وجل فجاهد أعداءه حتى قتل فى سبيله، ولقد حدثنى أبو موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: رحم الله عمى زيدا إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارنى فى خروجه فقلت له يا عمى إن رضيت أن تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشانك. فلما ولى قال جعفر بن محمد: ويل لمن سمع داعيته فلم يعجبه، فقال المأمون: يا أبا الحسين أليس قد جاء فيمن ادعى الإمامة بغير حقها ما جاء؟ فقال الرضا - رضى الله عنه - إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق وإنه كان أتقى لله من ذاك، إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد ﷺ وإنما جاء فيمن يدعى أن الله نص عليه ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم، وكان زيد بن علي والله ممن خطب بهذه الآية: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ...﴾ (٧٨) [الحج] وعلى كل تقدير فإن زيدا بن علي فضائل كثيرة عن غير الرضا - رضى الله عنه - ولكن المجال لا يتسع لذكرها.

أساتذته وشيوخه:

ومن شيوخ زيد بن علي الذين روى عنهم الحديث أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م)^(٢). وهو من فقهاء المدينة وكبار التابعين، قال عنه حمص بن شعيب: (ما رأيت أعلم بحديث ولا أفقه منه)^(٣).

(١) بداية الفرق نهاية الملوك، الشيخ محمد رضا الحكيمى، توثيق وتعليق شاکر الإبراهيمى.

(٢) ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٧، ابن شاکر الکتبى: فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٥.

(٣) الزبيرى: نسب قريش ج ٤ ص ١١٠، ابن النديم: الفهرست ص ٤٥، العسقلانى: المصدر السابق.

وتلقى العلم أيضا عن عروة بن الزبير بن العوام^(١)، الذى روى عن أبيه الزبير ابن العوام وأمه أسماء بنت أبى بكر وأخيه عبد الله بن الزبير وخالته عائشة وعلي بن أبى طالب^(٢).

ومن شيوخ زيد بن علي أيضا عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ^(٣)، وروى عن أبيه وأم سلمة وعن علي بن أبى طالب^(٤).

وتشير كثرة من المصادر^(٥) إلى تلمذة زيد بن علي على واصل بن عطاء^(٦)، فيقول ابن خلدون^(٧): «نشأ زيد بن علي وقرأ على واصل إمام المعتزلة فى وقته».

وتوضح المصادر^(٨) النتيجة التى تربت على تلمذة زيد بن علي على يد واصل ابن عطاء، بأنه اقتبس من واصل علم الاعتزال، وصارت الزيدية جميعا معتزلة المذهب والاعتقاد، فيقول الشهرستاني^(٩): (إن الزيدية يرون رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت).

وقد كانت العلاقة حميمة بين واصل بن عطاء وزيد بن علي، فقد دخل واصل ابن عطاء المدينة فسارع إليه زيد وابنه يحيى وعبد الله بن الحسن وإخوته وغيرهم من أهل المدينة، ولكن جعفر الصادق رفض أن ينضم إليه مما أدى إلى تصدى زيد له وقال:

(١) الذمى سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ١١٠ العسقلاني: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٢) العسقلاني: المصدر السابق ج ٧ ص ١٠.

(٣) الذمى: سير أعلام النبلاء ص ٢٨٩، العسقلاني: السابق ج ١ ص ٤١٩.

(٤) العسقلاني: المصدر السابق ج ٣ ص ١٨٥.

(٥) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٣٥ - ١٦٦، ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٧. الصفدى: المصدر السابق الجزء ص ٣٥، ابن خلدون. العبر ج ٣ ص ١٧٢، المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٣٥٢.

(٦) هو أبو حذيفة، واصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ / ٧٤٨ م) أحد الأئمة البلغاء فى علم الكلام، وكان يلقب بالغزال ولم يكن غزالا، بل كان يلزم الغزالين ليعرف المتعفات من النساء فيجعل صدقته لهن، وكان ألثغ الرأى يجعلها غينا، لذا كان يسقطها من كلامه، وهو شيخ المعتزلة وإمامهم (الشريف المرتضى أمالى المرتضى ج ١ ص ١٤ - ١٦٣)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى).

(٧) العبر ج ٣ ص ١٧٢.

(٨) الشهرستاني. الملل والنحل ج ١ ص ٣٣ - ١٦٠، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥ ص ٣٥، ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٧.

(٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٢.

ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا^(١). وقد جرت مناقشة بين زيد بن علي وبين أخيه الأكبر الباقر يعتب فيها على أخيه أن يأخذ العلم عن واصل بن عطاء وهو ممن يجوز الخطأ على جده الأكبر علي بن أبي طالب^(٢) في قتال الناكثين والقاسطين من أهل الشام^(٣)، وعن يتكلم في القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت، ومن حيث إن زيدا كان يشترط الخروج شرطا في كون الإمام إماما^(٤).

وسواء أصبحت تلمذة زيد بن علي لواصل بن عطاء أو أن العلاقة بينهما كانت للمدارسة والمذاكرة وليس لتلقى علم أو تلمذة فإن آراء المعتزلة^(٥) كانت هي المرحلة الحاسمة في تفكير زيد بن علي حيث خرج على السلطة في عصره، ورفض سياسة التقية التي كان الأئمة من أهل البيت يسرون عليها^(٦).

خروج زيد وأسبابه:

كان هشام بن عبد الملك ينظر إلى العلويين نظرة الحريص المتيقظ، والعدو المترص، عرف حب الناس لهم، وتأثيرهم فيهم، من وقت أن رأى عليا زين العابدين والد زيد، في الطواف بالكعبة، والجماهير تنشق صفوفًا ليمر ويستلم الحجر الأسود، وهو لا يستطيع مع أنه من بيت الإمامة، وإن لم يكن في ذلك الوقت أميرًا

(١) القاضي عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٣٩، (تحقيق: فواد السيد، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م، تونس)، ابن المرتضى: المصدر السابق والجزء ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) قال واصل بن عطاء: أحد الفريقين المتخاصمين في الجمل وفي صفين مخطئ لكن لا يمكن تعيينه بعينه كالتلاعنين، فإن أحدهما فاسق لا محالة، وأقل درجات الفريقين أنه لا تقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة التلاعنين، وبناء على ذلك فإنه لم يحكم بشهادة رجلين أحدهما من أصحاب علي والآخر من أصحاب الجمل، قال لو شهدت عندي عائشة وعلي وطلحة والزبير على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم، وقبل شهادة رجلين من أصحاب علي وشهادة رجلين من أصحاب طلحة والزبير.

(٣) البغدادى: المصدر السابق والصفحة، الشهرستاني: المصدر السابق والجزء ص ١٦١، ابن شاذان الكشي: فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٧، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ١٧٢، ابن المرتضى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٤) الشهرستاني: المصدر السابق الجزء والصفحة، الصقلي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ٣٥.

(٥) يرى المعتزلة ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليدين وبالسيف بعد ذلك (الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٣٧، ج ٢ ص ١٤١ - ١٤٢).

(٦) الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص ٤٠ - ٤٢، أحمد شوقي إبراهيم المعرجي.

للمؤمنين^(١)، لذا اتجه إلى إحراج زيد بن علي وبعض الظاهرين من آل علي والتشيع عليهم^(٢)، واندفع عامل هشام بن عبد الملك على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث في عداوته ومؤامراته لأهل البيت، بل كان يدفع أعوانه لسب فاطمة الزهراء في مسجد أبيها بالمدينة، بل بعضا من آل البيت لانتقاص ابن عمهم زيد بن علي^(٣).

ومجمل القول: كان هشام بن عبد الملك وولاته يعملون على إحراج زيد بن علي مرة بإثارة النزاع بينه وبين أسرته، ومرة بادعاء أشياء لم تحدث وذلك لإهانته والتحقيق من شأنه وهو شيخ العلويين وكبيرهم بعد وفاة أخيه.

أما عن العباسيين في هذه الفترة فقد عاشوا في الحميمية^(٤) منذ سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م، وكان زعيمهم علي بن عبد الله بن العباس^(٥) يتطلع إلى الزعامة السياسية بعد أن خلا المجال من العناصر العلوية القوية^(٦) والواقع أن الموت أذهب جيلا من العلويين فإن عليا زين العابدين توفي في المدينة المنورة سنة (٦٤ هـ / ٧١٢)^(٧)، وكذلك توفي أبو هاشم بن محمد ابن الحنفية سنة (٦٨ هـ / ٧١٦ م)، وكان ابنا علي زين العابدين وهما محمد الباقر وزيد لا يزالان في أول شبابهما غير ظاهرين، على حين لم يعقب أبو هاشم من بعده من يخلفه. وتذكر المصادر^(٨) أن أبا هاشم قد أوصى بالعهد من بعده إلى علي ابن عبد الله بن العباس، بينما يذكر بعض المؤرخين^(٩) أن أبا هاشم أوصى بالعهد لمحمد

(١) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء ج ٣ ص ١٣٩، الحصري: زهر الآداب ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٥، ابن الجوزي: صفة الصفوة ج ٢ ص ٩٨.

(٢) ابن تقي الدين: عيون الأخبار ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٣، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ١١٧ الحصري: المصدر السابق والجزء ص ١١٨.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٥ - ١٦٦، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٠، المقرئ: الخطط ج ٢ ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٤) الحميمية: بلد من أرض الشراة من أعمال عمان في أطراف الشام كان منزل بني العباس (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٣٠٧، ج ٣ ص ٣٣٢).

(٥) هو علي بن عبد الله بن عبد المطلب، ولد سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م ليلة قتل علي بن أبي طالب وتسمى باسمه وكان أصغر ولد عبد الله سنا توفي سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م وكنيته أبو محمد.

(٦) ابن تقي الدين: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٣١.

(٧) الزبير: نسب قريش ج ٢ ص ١٠٢، الطبري: المنتخب ص ٦٣١.

(٨) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٢٦.

(٩) النويختي: فرق الشيعة ص ٣٣، المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٣٥٤، المقرئ: الخطط ج ٢ ص ٥٣٥.

ابن علي بن عبد الله بن العباس. ويبدو أن هذه الوصية كانت لعلي بن عبد الله بن العباس، وأن عليا هذا أوصى إلى ابنه محمد ثم انتقلت في البيت العباسي وبذلك صار علي بن عبد الله بن العباس وهو شيخ آل محمد قادرا على أن يتكلم باسمهم دون أن ينازعه أحد أو يشك في نواياه، وكان من الطبيعي أن ينتظر آل البيت بعين الرضا لكل تنظيم يدعو إلى آل محمد ﷺ.

وقد تلقف العباسيون هذه الوصية وكانهم كانوا على موعد معها؛ لأنها خدمت بعض حاجاتهم العاجلة، وكانت لها ضرورتها في بعض مواقفهم. إذ كان ينقصهم أمام الكثيرين من حولهم أن يمنحوا مثل هذا التبريك ممن كان يملكه^(١). نشطت الدعوة السرية لبني العباس وصادفت لمجاحا في هذا الوقت، وقد نظم الدعوة من البيت العباسي ثلاثة لم يقدر لهم أن ينالوا ثمرة كفاحهم، أولهم: علي بن عبد الله بن عباس (ت ١١٨ هـ / ٨٣٦ م)، ثم ابنه محمد (ت ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م)^(٢)، ثم ابنه إبراهيم بن محمد (ت ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م)، ثم ولي الخلافة من هؤلاء العباسيين اثنان هما: أبو العباس عبد الله بن محمد (ت ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م)، ثم أبو جعفر المنصور بن محمد (ت ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م)^(٣).

ومجمل القول: أن زيد بن علي كان يهدف من مطالبته بالإمامة إلى وضع أمر المسلمين في يد أمينة بدلا من خلفاء بني أمية الذين كانوا يتصفون بظلم الناس، وكانت حياتهم يغمرها الترف والمجون والاهتمام بأمور الدنيا^(٤)، ولكنه خرج جهرا ففشلت دعوته وقتل في الوقت الذي لمجج فيه العباسيون في دعوتهم؛ لأنهم خرجوا سرا.

كانت الأوضاع في الكوفة ملائمة للخروج على الأمويين، وقد أدرك زيد ذلك فقال لداود بن علي حينما حاول أن يمنعه من الاطمئنان إلى أهل الكوفة، ذكرا له

(١) ابن قتيبة الدينوري: المصدر السابق والجزء ص ١٣١ - ١٣٢، الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٤ - ٩٥، الإسفراييني: التبصير في الدين ص ١٩، الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٥٦، ابن الطقطقي: الفخرى في الآداب السلطانية ص ١١٢.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٥٦ - ٢٥٧ (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، بدون تاريخ).

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ٤٢١، ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٤) الجاحظ: رسالة في بني أمية ص ١٣٠ - ١٣١ (طبعة دار المعارف، تحقيق: د. حسين مؤنس، ١٩٨٨ م ضمن كتاب النزاع والتخاصم للمقريزي)، ابن البزاة: مناقب الإمام أبي حنيفة ج ١ ص ٢٥٥ (حيدر آباد الدكن، ١٣٢١ هـ).

موافقهم من الإمام علي وأولاده: إن عليا كان يقاتله معاوية ظلماً^(١)، وأن الحسين قاتله يزيد بن معاوية والأمر عليهم مقبل^(٢).

كتب أهل الكوفة إلى زيد بن علي فقدم إليهم، وحملوه على الخروج وحشوه عليه^(٣)، ولكن يوسف بن عمر أخرجه، فخرج حتى إذا كان بالقادسية^(٤)، لحقته الشيعة، فسألوه الرجوع معهم والخروج^(٥)، وقالوا له: أين تخرج عنا^(٦)، فنحن أربعون، إن رجعت إلى الكوفة لم يتخلف عنك أحد، وأعطوه المواثيق والأيمان المغلظة فجعل يقول: إني أخاف أن تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي فيحلفون له^(٧).

وكان شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوي الذي يخلصهم من الأمويين وظلمهم حتى ظهر بينهم زيد بن علي، فأسرعت إليه الشيعة وقالوا: إنا نلجأ أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذي تهلك فيه بني أمية، وظلوا يبايعونه على الخروج؛ لتخليص حقوق أهل البيت ورفع الظلم عن الناس^(٨).

ولقد روى عنه بعض معاصريه أنه قال: أردت الخروج إلى الحج، فمررت بالمدينة فقلت: لو دخلت على زيد بن علي، فدخلت فسلمت عليه، ثم خرجت من عنده ومضيت فقضيت حاجتي ثم انصرفت إلى الكوفة فبلغني قدومه فأتيته فسلمت عليه وسألته عما قدم به، فأخبرني عمن كتب إليه يسأله القدوم عليهم، فأشرت عليه بالانصراف فلحقه القوم فردوه^(٩).

زيد بن علي في الكوفة:

نصح كثيرون زيد بن علي بالألا يركن لأهل الكوفة، ولم تفده تلك النصائح

(١) المقرئ: الخطط ج ٢ ص ٤٣٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٨، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٢، المقرئ: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٣) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٣٥، ابن الطقطقي: الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠٤.

(٤) القادسية: بينها وبين الكوفة عشرة فراسخ (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢).

(٥) الزبير: نسب قريش ج ٢ ص ٦١. (٦) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٣٥.

(٧) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٨) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ١٦٦، المقدسي: البلد والتاريخ ج ٦ ص ٤٩ - ٥٠. ابن الأثير:

الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٢٤٢.

(٩) الأصفهاني: المصدر السابق والصفحة، ابن الطقطقي: المصدر السابق ص ١٠٤.

شيئا^(١)، ودخل الكوفة وأقام بها بضعة عشر شهرا^(٢)، وأقبلت الشيعة وغيرهم يختلفون إليه ويبايعونه حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة، سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والري وجرجان^(٣)، والجزيرة^(٤) العربية، وقيل أربعون ألف رجل^(٥)

وكان فيمن بايعه من أهل الكوفة مسلمة بن كهيل، وتصبر بن خزيمة العبسي، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري^(٦)، وحجة بن الأجلح الكندي^(٧)، وبايعه أيضا منصور بن المعتمر^(٨)، وقد بعثه زيد يدعو الناس إليه فقتل زيد وهو غائب^(٩).

ولم يكن لزيد بن علي في الكوفة منزل خاص به... يأوى إليه وإنما كان يتحرى في ذلك مقتضيات الظروف والأحوال، ومن هنا نشاهده ينزل تارة دار امرأته بالأزد^(١٠)، وأخرى في أصحابه السلميين، وثالثة في بني عبس، عند نصر بن خزيمة العبسي، ورابعة في بني غبر، وتارة في بني تغلب وغيرهم^(١١)

ثم أمر زيد بن علي أصحابه بالاستعداد للخروج وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهز، فشاع أمره بين الناس^(١٢).

(١) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٦٨، المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٦٤، ٦٦، الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ٩، ١، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٢

(٢) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ١٧١، الأصفهاني: المصدر السابق ص ١٣٥

(٣) الأصفهاني: المصدر السابق الجزء والصفحة للمحلى: الخدائق الوردية ج ١ ص ١٤٤ (مخطوط)، ابن الطقطقي: الفخري في الأدب السلطانية ص ١٠٤.

(٤) ابن الطقطقي: المصدر السابق والصفحة، القرظي: المصدر السابق والجزء ص ٤٣٨

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٢، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٩٨ - ٩٩

(٦) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ١٦٧، ابن دريد: الاشتقاق ص ٢٧٨، ٤٣٩ تحقيق عبدالسلام هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة السنة الحمديدية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨ م.

(٧) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الأصفهاني: المصدر السابق ص ١٤٨، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج ١ ص ١٥٨.

(٩) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٤٥

(١٠) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٧١ - ١٧٢، ابن إياس: تاريخ الموصل ص ٤٤، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٢.

(١١) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ١٧٢، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(١٢) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٣٥، ابن الأثير: المصدر السابق والجزء ص ٢٤٥.

ولما تمت البيعة لزيد وخففت الالوية على رأسه، قال: «الحمد لله الذى أكمل لى دينى، والله إني كنت أستحي من رسول الله ﷺ أن أرد عليه الحوض غدا ولم أمر بالمعروف ولم أنه عن منكر^(١)، والله ما أبالي إذا أقمت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حتى أجمت لى نار وقذفت فيها ثم صرت بعد ذلك إلى رحمة الله، والله لا ينصرنى أحد إلا كان فى الرفيق مع محمد ﷺ وعلى فاطمة والحسن والحسين^(٢)».

وجاء جماعة من الرؤساء وأهل الحل والعقد إلى زيد بن علي وقالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جددك على بن أبى طالب^(٣)، وطلبوا منه أن يسب أبى بكر وعمر حتى يقوموا معه وينصروه^(٤)، فأجابهم زيد ابن علي بعد أن قرأ على صفحات وجوههم الغدر والخذلان، قائلا: ما سمعت أحدا من آبائى تبرأ منهم، ولا يقول فيهما إلا خيرا^(٥)، فلم يقتنع القوم منه بهذا، بعد أن كان غرضهم عدم الالتزام بالمعهود والمواثيق الصادرة منهم، واعتبروا عدم تبرى زيد من الخلفاء ذنبا يستوجب به عدم النصرة بهم، وقالوا له: فلم تطلب إذا بدم أهل هذا البيت؟ إلا وثبا على سلطانكم فتزعه من أيديكم^(٦)، فقال لهم زيد: إن أشد ما أقول فيما ذكرتم، إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإن القوم استأثروا علينا ودفنونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا، قد ولوا فعدلوا فى الناس، وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم يظلمك هؤلاء، وإن كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظالمون لى ولكم لأنفسهم^(٧)، لا أنالنى الله شفاعة جدى إن لم أؤمن براءة من أبى بكر وعمر^(٨)، البراءة من علي، وقد

(١) الهارونى: كتاب فى نصره المذاهب الزيدية ص ٧٣ (مخطوط) بمعهد المخطوطات ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٥.

(٢) الحميمى: الروض النضير ج ١ ص ٧٣.

(٣) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٨٠، الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٣٧، المقدسى البدء والتاريخ ج ٦ ص ٥٠.

(٤) ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٦، الذهبى: سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٩٠، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥ ص ٣٣.

(٥) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٨٠ - ١٨١، البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٥.

(٦) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٩٩.

(٧) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٨١، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الإسفرائينى: التبصير فى الدين ص ١٨، ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢١، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥ ص ٣٣.

أثنى عليهما جلدى علي وقال فيهما حسنا^(١)، ففترق عنه الذين بايعوه^(٢)، ونكثوا بيعته^(٣).

ويبدو أن هذه مؤامرة. الأمويون فيها ضالعون، فقد اتخذ أهل الكوفة هذه المسألة سببا في عدم الوفاء بالبيعة لزيد بن علي، وكانوا يعرفون سلفا رأيه في أبي بكر وعمر

نهاية زيد بن علي واستشهاده:

استطاع زيد بن علي مقاومة جند الشام رغم قلة عدد جنده، حتى جاءت نجدة من الشام مكونة من القيقانية^(٤)، والبخارية^(٥)، فأوقعت بجنده خسائر فادحة، ولما كان الليل انسحب أهل الكوفة وتفرقوا، وثبت زيد بن علي ومن معه، وقد رمى بهم فأصاب جانب جبهته اليسرى^(٦)، فرجع ومعه أصحابه فدخلوا به الكوفة، ثم نزعوا منه السهم ففارق الحياة^(٧).

ولما بلغ يوسف بن عمر نبأ قتل زيد، أقبل إلى الكوفة ورقى المنبر وقال لأهلها: أبشروا يا أهل الكوفة بالصغار والسهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق، ولقد هممت أن أضرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أموالكم، أما والله ما علوت منبري إلا أسمعتم ما تكرهون عليه، فإنكم أهل بغى وخلاف، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسييت ذرايركم^(٨).

لما قتل زيد بن علي اختلف أصحابه في دفنه ومواراته بصورة تخفى على الأعداء خوفا من إخراجهم والتمثيل به، فقال بعضهم: نلبسه درعه ونطرحه في الماء^(٩)، وأشار

(١) الإسفرايينى المصدر السابق والصفحة

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج ٢ ص ١٥٠.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٢٠٠، الصفدى. المصدر السابق والجزء ص ٥.

(٤) القيقانية: نسبة إلى القيقان من بلاد السند مما يلي خراسان (ياقوت الحموى. معجم البلدان ج ٤ ص ٢١٧)

(٥) البخارية: نسبة إلى بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر (ياقوت: المصدر السابق ج ١ ص ٥١٧).

(٦) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٨٥ - ١٨٦، الأصفهاني. مقاتل الطالبين ص ١٤ - ١٤١

(٧) المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٩، الأصفهاني: المصدر السابق ص ١٤١، ابن الأثير المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٩١، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣١.

(٩) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٩١، الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٤٢، ابن كثير البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٣٠.

بعض من حضر من أصحابه بدفنه في العباسية^(١)، ورأى آخرون جز رأسه وإلقائه بين القتلى حتى لا يعرف، فلم يوافق ابنه يحيى على هذا الرأي، وقال لا والله، لا تأكل لحم أبي الكلاب^(٢)

قال سلمة بن ثابت: لما كثر الخلاف بين أصحابه أشرت عليهم أن ننطلق به إلى الحصرة التي نأخذ منها الطين فندفنه فيها فقبلوا الرأي، حتى إذا مكنا له دفناه^(٣)، ووصعنا عليه الحشيش والتراب وأجرى عليه الماء^(٤)

دخل يوسف بن عمر الكوفة بعد قتل زيد وتطلب مكان دفنه، ونادى مناديه: ألا من أخبر بمكان دفنه فله الجائزة، فجاءه الطبيب الذي أخرج السهم وكان حاضرا دفنه فأعلمه بمكانه^(٥)، وقيل: إن مملوكا سنديا لزيد بن علي أخبر بمكان دفنه^(٦)

ويروى الأصفهاني^(٧): نبطيا كان يسقى زرعاً له بتلك الناحية وآهم حين دفنوه فأخبر به.

استخرج جسد زيد بن علي وقطع رأسه وألقى به أمام الوالي، ثم صلب الجسد^(٨) كما تروى المصادر^(٩) بسوق الكناسة^(١٠)، وأمر بحراسة جسد زيد لثلاثين يوماً، وكان فيمن يحرسه زهير بن معاوية أبو خيثمة^(١١)، وصلب معه أصحابه وفيهم:

(١) الطبري. المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهاني المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن كثير: المصدر السابق والجزء ص ٣٣١.

(٢) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهاني. المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٧، ابن كثير المصدر السابق الجزء والصفحة، القرطبي. الخطط ص ٤٤

(٣) الطبري. المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهاني المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن كثير المصدر السابق الجزء والصفحة

(٤) الطبري. المصدر السابق الجزء ١٨٦، المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٩، المحلى الحقائق الوردية ج ص ١٤٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١١

(٥) المسعودي: المصدر السابق الجزء ص ٢١٨ - ٢١٩، ابن خلكان: المصدر السابق الجزء والصفحة

(٦) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ١٨٧، الأصفهاني. المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن عساکر: تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٦

(٧) مقاتل الطالبين ص ١٤٢ (٨) الأصفهاني. المصدر السابق ص ١٤٣، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٤٨

(٩) ابن حبيب كتاب المخبر ص ٤٨٣، ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٥ ص ٢٢٥

(١٠) الكناسة: محلة بالكوفة عندها واقع يوسف بن عمر الثقفي زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ياقوت الحموي. معجم البلدان ج ٤ ص ٤٨١)

(١١) الطبري. تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٨٩

معاوية بن إسحاق الأنصاري ونصر بن خزيمة العبسي^(١)، وزباد النهدي^(٢)، ويعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك فنصب على باب دمشق^(٣) ثم أرسل إلى المدينة^(٤)، حيث نصب عند قبر النبي ﷺ يوما وليلة^(٥)، وكلف آل أبي طالب البراءة من زيد^(٦)، ومنها إلى مصر حيث دفن كما تروى المصادر فيها^(٧)

ومجمل القول. تعجل زيد بن علي في الخروج على الأمويين، وذلك بعد علمه بانتشار الدعوة العباسية السرية في خراسان والتي كانت تدعو للرضا من آل محمد ﷺ وأدى هذا التعجل إلى قتله، فيروى عن الوليد بن محمد الموقري، قال كنت مع الزهري بالرصافة، فسمعنا جلبة، فنظرنا فإذا رأس زيد بن علي يطاف بها بيد اللعابين، فقال الزهري: أهلك أهل هذا البيت العجلة^(٨)

(١) ابن حبيب المصدر السابق الجزء والصفحة، الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٣١١ - ٣١٢ (تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخالجي بالقاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م)

(٢) ابن الأثير المصدر السابق الجزء والصفحة

(٣) الطبري المصدر السابق الجزء ص ١٨٩، ابن الأثير المصدر السابق الجزء والصفحة

(٤) الطبري المصدر السابق الجزء والصفحة، المحلى الحلائق الوردية ج ١ ص ١٤٨ (محطوط) ندار الكتب، المرقري الخطط ج ٤ ص ٤٤

(٥) ابن عتبة عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ٢٥٨ (المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف ١٣٨ هـ / ١٩٦٦م).

(٦) الحصري زهر الآداب ج ١٢

(٧) يقول ياقوت الحموي. ويمصر من المشاهد والمزارات على باب الكورتين مشهد فيه مدفن رأس زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قتل بالكوفة وأحرق وحمل رأسه فطيف به الشام ثم حمل إلى مصر فدفن هناك (معجم البلدان ج ٥ ص ١٤٢ - ١٤٣)، ويروى المرقري أن هذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر يتبرك الناس بزيارته ويقصدونه لاسيما في يوم عاشوراء، والعامه تسميه زين العابدين وهو وهم، وإنما زين العابدين أبوه، وليس قبره بمصر بل قبره بالقيع (الخطط ج ٢ ص ٤٤)

(٨) الأصفهاني مقاتل الطالبين ص ١٤٣، ابن عساکر تاريخ دمشق ج ٦ ص ٢٦، الصفدي الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ١٣

الفصل الثاني

الدولة الزيدية

كان الحسن بن زيد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب مع يحيى بن عمر حين خرج في أيام المتوكل والمستعين، ولما قتل يحيى بن عمر فر الحسن ابن زيد مع أصحابه إلى طبرستان ومنها إلى الري، وكان يلقب بالداعي الكبير^(١). استطاع الحسن بن زيد إقامة دولة للزيدية في طبرستان استمرت نحو قرن من الزمان^(٢).

كان ابن زيد فقيها عالما بالعربية^(٣) وكان رجلا فاضلا^(٤)، يكره المدح والتفاق^(٥)، ويقول الشعر^(٦)، ويتذوقه^(٧)، وقد وصفه

(١) الطبري: تاريخ الطبري ج ٩ ص ٢٦٦ - ٢٧١، ابن حزم. جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٤.

(٢) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦ - ١٦١، المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥٥.

(٤) بخواندمير: روضة الصفا في مسيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ص ٥١ (ترجمة د. أحمد عبدالقادر الشاذلي، مراجعة: د. السباعي محمد السباعي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، طبعة الدار المصرية للكتاب).

(٥) مدح شاعر الحسن بن زيد فقال له: الله فرد وابن زيد فرد، فنهه الحسن بن زيد وقال: هلا قلت: الله فرد وابن زيد عبد، ثم نزل من مكانه، وخر ساجدا، وألقى على خده التراب (ابن الأثير المصدر السابق، الجزء والصفحة).

(٦) لما حبس الصفار أخاه محمد بن زيد بنيسابور قال الحسن بن زيد:

نصفى أسير لدى الأعداء مرتين يرجو النجاة بإقبالى وإدبارى

الصدفى المصدر السابق والجزء ص ٢١.

(٧) مدحه الشاعر بقوله:

الصفدي^(١) بقوله: إن له في التواريخ وقائع مشهودة وسيرا مشكورة، وكان مهيبا عظيم الخلق. وله من الكتب: كتاب الجامع في الفقه وكتاب البيان وكتاب الحجة في الإمامة^(٢).

وكان السبب المباشر الذي فجر الموقف بين أهل طبرستان والعباسيين أن الخليفة المستعين كافأ محمد بن عبد الله بن طاهر على قتل يحيى بن عمر فأعطاه ثغرا كلار^(٣) وسالوس^(٤) وكانت بجوارهما أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعى مواشيهم^(٥).

وأرسل محمد بن عبد الله بن طاهر رجلا نصرانيا يدعى جابر بن هارون لحيازة ما أعطاه الخليفة من أرض، وكان في تلك الناحية رجلان معروفان بالبأس والشجاعة هما محمد وجعفر ابنا رستم، فاستنهضا الناس لمنع جابر من حيازة الأرض، وتعاقدوا جميعا على محاربة سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس، وكل من قصدهم بحرب، وأدى ذلك إلى سخط الأهالي على طاهر والخلافة العباسية^(٦)، وقد أرسل أبناء رستم إلى رجل من الطالبين المقيمين بطبرستان يقال له: محمد بن إبراهيم يدعونه إلى البيعة فأبى وامتنع عليهم، وقال لهم: لكني أدلكم على رجل منا هو أقوم بما دعوتوه إليه منى، فقالوا: من هو: فأخبرهم أنه الحسن بن زيد، ودلهم على منزله بالرى، فأرسلوا إليه، فلما وافاهم بايع له ابنا رستم وجماعة من أهل الثغور ورؤساء الديلم، فركب فيهم ودخل آمل^(٧)، وأخذها قهرا وجبى خراجها واستفحل أمره^(٨).

= لا تقل بشرى ولكن بشريان غره الداعي ويوم المهرجان
فقال له الحسن بن زيد: كان الواجب أن تفتح الأبيات بغير لا، فإن الشاعر المجيد يتخير لأول قصيدته ما يعجب السامع، ويبرك به، فقال له الشاعر: ليس في الدنيا أفضل من قول لا إله إلا الله وأولها - لا - فقال له الحسن بن زيد: أصبت وأجازه.

ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٥٥.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٢ ص ٢٠.

(٢) ابن التميمي: الفهرست ص ٢٧٤.

(٣) كلار: مدينة في جبال طبرستان، وكانت في ثغورها (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ٢٧٤).

(٤) سالوس: يقول عنها ياقوت: هي في الإقليم الرابع (المصدر السابق ج ٢٣ ص ١٧٢).

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ج ٩ ص ٢٧١، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٢٨٥.

(٦) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ٢٧٣، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٢٨٦.

(٧) آمل: أكبر مدينة بطبرستان (ياقوت الحموي: المصدر السابق ج ١ ص ٥٧).

(٨) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ٢٧٣ - ٢٧٤، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٢٨٦، الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ٢٠٦.

وحدث صدام بين الحسن بن زيد والدولة الصفارية^(١)، في هذه البلاد فدخل يعقوب بن الليث طبرستان واستولى على سارية ثم تقدم إلى آمل، وجبى من أهلها خراج سنة ثم اتجه إلى الشرر^(٢) في طلب الحسن بن زيد^(٣)، وأرسل يعقوب إلى الخليفة العباسي هدايا عنوانا على طاعته، كما أرسل أصناما أخذها كابل دليلا على جهاده في سبيل الإسلام^(٤) وكاد يعقوب بن الليث أن يقضى على نفوذ الحسن بن زيد في هذه البلاد، وأن يحل محله فيها لولا هطول الأمطار، ووعورة الجبال، الأمر الذي أدى إلى تقهقر يعقوب بعد هلاك عدد كبير من رجاله، وفشل في تحقيق أطماعه في طبرستان^(٥)، يقول الطبري^(٦): إنه لما شخص عن حدود طبرستان مرض رجاله ففقد منهم أربعين ألفا، وانصرف عنها وقد ذهب أكثر ما كان معه من الخيل والإبل والأثقال.

سار الحسن بن زيد إلى الشرر ومعه الديلم^(٧)، ثم رحل إلى طبرستان، وأحرق شالوس^(٨)، وذلك لتواطؤ أهلها مع يعقوب بن الليث^(٩)، وبعد رحيل الصفاري من طبرستان توفي الحسن بن زيد سنة (٢٧٠هـ / ٨٨٣ م)^(١٠)، ثم قام بالأمر بعده أخوه

(١) الدولة الصفارية: قامت على أنقاض الدولة الطاهرية في شرق الدولة الإسلامية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) (٨٦٧ - ٩٠٣ م)، وقد استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يؤسس ملكا عريضا يشمل على معظم أرجاء فارس، بالإضافة إلى سجستان، وقد اشتهر يعقوب باليقظة وحسن التدبير، وعمل على التقرب إلى الخلافة العباسية، ولكن العباسيين خافوا من هذه الدولة وعملوا على التخلص منها (الطبري: تاريخ الطبري ج ٩ ص ٣٨٢ - ٣٨٦).

(٢) الشرر: جبل في بلاد الديلم (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٣٣٤).

(٣) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ٥٠٩ - ٥١٠، المسعودي: المصدر السابق الجزء ص ٢٠٤، بخواندمير: المصدر السابق ص ٥١، ٥٨.

(٤) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ٥٠٩، المسعودي: المصدر السابق الجزء ص ٢٠٤، بخواندمير المصدر السابق ص ٥٨ - ٥٩.

(٥) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ٥٠٩، بخواندمير: المصدر السابق ص ٥٨.

(٦) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٧) الطبري: تاريخ الطبري ج ٩ ص ٥١٠.

(٨) شالوس: مدينة بمدينة طبرستان (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٢١١).

(٩) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ٥١٢.

(١٠) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ٦٦٦، ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٤، ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٥٥.

محمد بن زيد^(١)، الذي رعى للرضا من آل محمد ﷺ^(٢)، وعرف بالداعى إلى الحق^(٣).

كان محمد بن زيد فاضلا فى أخلاقه، عارفا بالأدب والشعر والتاريخ^(٤)، وكان يرسل كل عام بأموال كثيرة، وذلك لتوزع على أهله ببغداد والكوفة ومكة والمدينة سرا، فسعى به عند الخليفة المعتضد^(٥)، ولما علم الخليفة المعتضد بذلك طلب من محمد بن زيد أن يرسل هذه الأموال ويوزعها ظاهرا، وتقدم بمعونته على ما يريد من ذلك^(٦).

كانت الحرب بين محمد بن زيد وبين العباسيين سجالا، تلاحقه جيوش العباسيين فى الطالقان^(٧) تارة ويحتل هو نيسابور^(٨) تارة أخرى، فبعد أن قام الخليفة المعتضد بعزل رافع بن هرثمة عن خراسان، وأعاد إليها عمرو بن الليث، وخرج رافع ابن هرثمة على الخلافة فى نيسابور وانضم إلى محمد بن زيد وخطب الخطبة باسمه^(٩)، فكانت بين رافع بن هرثمة وعمرو بن الليث حرب انهزم فيها رافع وأصحابه سنة (٢٨٣هـ / ٨٩٦ م)، وقتل وحمل رأسه إلى الخليفة المعتضد فى بغداد^(١٠).

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦١، المسعودى: مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٣، ابن النديم: المصدر السابق والصفحة، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٣٥٩.

(٢) المسعودى: المصدر السابق والجزء ص ٢٦٦.

(٣) الطبرى: المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٤، المسعودى: المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ٦٩٣، ابن النديم: المصدر السابق والصفحة.

(٤) الصفدى: المصدر السابق ج ٣ ص ٨١، الزركلى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٥) هو أبو العباس أحمد بن الموفق بن طلحة بن المتوكل، بويع سنة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) وتوفى سنة (٢٨٩هـ / ٩٠١م) وكان شهيدا عاقلا محسنا إلى بنى عمه من آل أبي طالب (الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ٣٠ وما بعدها، المسعودى: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣١ وما بعدها، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٦٨).

(٦) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٤١ - ٤٢، المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٢٧٠.

(٧) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو والروذ وبلخ، والأخرى بين قزوین وأبهر، وإليها ينسب الصاحب بن عباد الطالقاني، ويقول عنها الإصطخرى: هي أكبر مدينة بطخارستان (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج ٤ ص ٦ - ٧).

(٨) نيسابور: مدينة عظيمة خارجة من الإقليم الرابع فى الإقليم الخامس، وقد خرج منها الكثير من أهل العلماء (ياقوت الحموى: المصدر السابق ج ٥ ص ٣٣١ - ٣٣٣).

(٩) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ٤٤، ٥٠، المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ١٥٣، بخواندمير: روضة الصفا ص ٦١.

(١٠) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٥٠، بخواندمير: المصدر السابق والصفحة.

واحتدم الصراع بين محمد بن زيد والأمير إسماعيل بن أحمد الساماني^(١)، حيث قصد محمد بن زيد جرجان^(٢)، بعد هزيمة عمرو بن الليث الصفار، فحذره الأمير الساماني، وكتب إليه يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له، فرفض محمد بن زيد^(٣).

التقى محمد بن زيد مع جيش السامانيين بقيادة محمد بن هارون. عند باب جرجان، وهزم محمد بن زيد وأصيب بجراح ومات متأثراً بها سنة (٢٨٧هـ / ٩٠٠م) وأسر ولده وغيره من أصحابه^(٤).

وملك طبرستان زيد بن محمد بن زيد ثم من بعده ابنه الحسن بن زيد^(٥)، ثم صارت طبرستان في ملك بني سامان إلى أن ظهر الناصر الأطروش، وهو أبو محمد الحسن بن علي بن عمر بن علي زين العابدين^(٦)، واستطاع أن يعيد للدولة الزيدية عهداً الأول في هذه البلاد، فاسترد كل ممتلكاتها من عامل السامانيين موحداً الديالة، ناشراً الأمن والأمان في ربوع البلاد فلقب بذلك بالناصر^(٧).

بني بويه والزيدية:

اتخذ الناصر الأطروش قواداً من الديالة كان منهم وليلى بن النعمان، وأسفار ابن

(١) إسماعيل بن أحمد الساماني، تولى حكم بلاد ما وراء النهر بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد الساماني سنة (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، وقد فوضه الخليفة العباسي المعتضد بذلك، ولكنه تأمر عليه سرا وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفار يحرضه على التخلص من الأمير الساماني، واستمرت الحرب سنين عديدة انتهت بانتصار السامانيين.

(٢) جرجان مدينة عظيمة ومشهورة بين طبرستان وخراسان (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ١١٩).
(٣) الطبري: المصدر السابق الجزء ص ٨١، الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ٦٩٣، الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٨١، بخواتمير: المصدر السابق ص ٨٣.

(٤) الطبري: المصدر السابق والجزء ص ٨١، ٨٢، ٩٣، الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦١، المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٦٦، الأصفهاني: المصدر السابق والصفحة، الأمير قابوس: كتاب النصيحة أو قابوس نامه، المقدمة ص ١١.

(٥) التويري: نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٢٩، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥ - ٢٦.
(٦) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٥٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٤٦، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٢٥، بخواتمير: المصدر السابق ص ٥٨.

(٧) الطبري: تاريخ الطبري ج ١٠ ص ١٤٩، الكرديزي: زين الأخبار ص ١٣١ (الطبعة الأولى، ترجمة: عفاف السيد زيدان، ١٩٨٢م)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٤٦، الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٢ ص ١١١، ابن خلدون المقدمة ص ٢٠٠، العبر ج ٣ ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

شيوخه، ومرداويج بن زبار، وماكان بن كالى، وكان بنو بويه^(١)، وهم علي والحسن وأحمد من قوادى ماكان بن كالى^(٢)، وقد اشترك علي بن بويه مع ماكان بن كالى فى الاستيلاء على نواحي آمل وطبرستان ونيسابور، ذلك عند انصراف (السعيد نصر بن أحمد الساماني) - صاحب خراسان - عنها، واشتغاله بأخويه الخارجين عليه^(٣)، وتروى المصادر^(٤) أن خلافا وقع بين ماكان بن كالى ومرداويج، واستطاع مرداويج إنزال الهزيمة بماكان بن كالى، وانتزع منه طبرستان وجرجان، فانضم بنو بويه إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم وولى علي بن بويه على الكرج.

تطلع البويهيون الزيدية إلى المسير إلى بغداد والاستيلاء عليها، فلما ساد الاضطراب نواحي العراق فى عهد الخليفة المستكفي (٣٣٣ / ٣٣٤ هـ) - (٩٤٤ / ٩٤٥ م) أرسل بعض قوادى بغداد من الأتراك إلى أحمد بن بويه يطلبون منه المسير إليهم^(٥)، فرحل قاصدا بغداد سنة (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) وقابل الخليفة المستكفي الذى احتفى بقدمه وخلع عليه وعقد له لواء إمرة الأمراء ولقبه (معز الدولة) ولقب أخاه عليا (عماد الدولة)، كما لقب أخاه الحسن (ركن الدولة)^(٦).

(١) البويهيون: عنصر من العناصر الفارسية، أقاموا فى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين، وينسبون إلى جدهم بويه بن قتا خسرو، الملقب بأبى شجاع، ويرى بعض المؤرخين أنهم ينسبون إلى كسرى فارس بهرام جور، وهناك من ينسبهم إلى العرب، وأن جدهم الأعلى هو بهرام بن الضحاك، وقد كان بويه الذى يتسب إليه البويهيون كبيرا ويعمل صيادا للسمك، وكان مغزلا وكان يحتطب على رأسه (البيروني: الآثار الباقية من القرون الخالية ص ٣٨ - ٣٩ (طبعة بغداد ١٩٢٣ م).

(٢) المسعودى: مروج الذهب ج ٤ ص ٣٧٣، هلال الصابى: المنتزع من التاجى ص ٦١، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٣٩٤ - ٣٩٥، مسكويه: المصدر السابق الجزء ص ٢٧٥، بخواندمير: المصدر السابق ص ١٨٢.

(٣) مسكويه: المصدر السابق الجزء ص ٢٧٥.
(٤) الهمداني: تكملة تاريخ الطبرى ص ٢٩١ وما بعدها، ابن الطقطقى: المصدر السابق ص ٢٢٥، ابن خلدون: المصدر السابق ص ٣٩٤ - ٣٩٥، مسكويه: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٧، بخواندمير: المصدر السابق والجزء، السيوطى: المصدر السابق ص ٣٨٦ - ٣٨٧.

(٥) المسعودى: مروج الذهب ج ٤ ص ٣٨٥، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٣٤٠، مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٨٥، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٤٢٠، بخواندمير: روضة الصفا ص ١٨٦، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٩٧.

(٦) المسعودى: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن الجوزى: المنتظم فى أخبار الملوك ج ٦ ص ٣٤٠، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء والصفحة، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ص ٢٧٨، ابن خلدون: المصدر السابق الجزء والصفحة.

استفحل أمر البويهيين الزيدية في خلافة العباسيين قرناً من الزمان، سيطروا على مقاليد السياسة، وكانوا يولون الخلفاء ويعزلونهم كيفما شاءوا، وكانت لهم في بغداد قصور عظيمة أطلق عليها دار المملكة^(١).

ثم بدأ البويهيون بحملة إرهاب على الخلفاء؛ إذ دخل معز الدولة على المستكنى وتقدم اثنان من أهل الديلم منه، وظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يده، ولكنهما جذباه من السرير وطرحاه أرضاً، ثم سيق إلى السجن، حيث سملت عيناه وانتهبت دار الخلافة، وعين معز الدولة المطيع لله خليفة بعد أن حجر عليه تماماً، وقرر له مائة دينار نفقة يومية، ولم يكن للخليفة إلا الخطبة والسكة^(٢).

وكان البويهيون يرون في التدابير المذهبية ما يفرق بين الناس ومعايشهم، فبعد أن سيطر عضد الدولة على أمور الدولة^(٣)، أقام المساجد وعين لها الأئمة، وأسقط النفقات التي كانت تؤخذ من الحجاج في هذه الفترة، وأعاد الآبار التي كانت محفورة من بغداد إلى مكة إلى حالتها الأولى^(٤)، كما أعاد الاطمئنان إلى أهل الذمة، وأذن لوزيره نصر ابن هارون النصراني في عمارة البيع والكنائس، وأن يرفع فقراء هذه الطائفة، ويطلق الأموال لهم^(٥).

وأقرب فرق الزيدية إلى البويهيين هي فرقة السليمانية وهم الذين ساروا بالمذهب الزيدي نحو التسامح، ونحو اتساع المذهب لكل مقالة وميل، فقد كان سليمان بن جرير يقول: «إن الإمامة شورى فيما بين الخلق»^(٦)، وقد طبق البويهيون قول السليمانية في الإمامة الذين قالوا: «إن الإمامة من مصالح الدين، ليس يحتاج إليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل، لكنه يحتاج إليها لإقامة الحدود والقضاء بين المتحاكمين، وولاية اليتامى والأيتام، وحفظ البيضة، وإعلاء الكلمة، ونصب القتال مع

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٣٧١، الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص ٣٥٤ - ٣٥٥، ابن

الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٤٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣١٥.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٠٨.

(٤) بخواندمير: المصدر السابق ص ١٩١.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٩٥، بخواندمير: روضة الصفا ص ١٩١.

(٦) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٣، ٢٤، الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٦٤، الصفدي: الوافي

بالوفيات ج ١٥ ص ٣٦٠.

أعداء الدين، وحتى يكون للمسلمين جماعة، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة. فلا يشترط فيها أن يكون الإمام أفضل الأمة علماً، وأقدمهم رأياً وحكمة؛ إذ الحاجة تفسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل^(١).

لم يبق من مظهر ريدي للبويهيين غير الاحتفالات الرسمية للمراسم الشيعية، ففي سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٣ م) ألزم معز الدولة الناس يوم عاشوراء^(٢) بغلق الأسواق، ومنع الطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع، ويقمن المآتم على الحسين بن علي، واستمر ذلك سنين^(٣).

وفي ثامن عشر من ذي الحجة احتفل بعيد غدیر خم^(٤)، وضربت الدبابات^(٥)، وأشعلت النار في الأسواق، وبكر التشيعون إلى مقابر قريش^(٦)، وصلوا هناك^(٧) وقد سجن في أيام معز الدولة قوم من التناسخية^(٨)، فيهم شاب يزعم أن روح علي بن أبي طالب انتقلت إليه، وامراته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، فأمر معز الدولة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٦٥.

(٢) بعث أهل العراق إلى الحسين بن علي الرسل والكتب.. يدعوونه إليهم، فخرج من مكة إلى العراق ومعه طائفة من أهل بيته، فكتب يزيد بن معاوية بن أبي سفيان إلى واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بقتاله، فوجه إليه يزيد جيشاً بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص، وخلد أهل الكوفة الحسين بن علي وقتل في (١٠ محرم ٦١ هـ / ٦٨٠ م) في موقعة كربلاء بالقرب من الكوفة (المسعودي: مروج الذهب ج ٣ ص ٧٠ - ٧١).

(٣) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص ٣٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٤٢٥، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٠١.

(٤) غدیر خم: هو بئر ماء بين مكة والمدينة، تزعم الشيعة أن النبي ﷺ عهد فيه إلى علي بن أبي طالب بالخلافة والإمامة.

(٥) الهمداني: تكملة تاريخ الطبري ص ٤٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٤٢٥، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٠١.

(٦) مقابر قريش هي مقبرة مشهورة ببغداد فيها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان الخليفة المنصور أول من جعلها مقبرة.

(٧) الهمداني: المصدر السابق والصفحة.

(٨) التناسخية: قالوا: إن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص، وذلك النور في شخص يكون نبوة، وفي شخص آخر يكون إمامة، وربما تتناسخ الإمامة فتصير نبوة، وقالوا: بتناسخ الأرواح وقت الموت، وقالوا: بتناسخ روح الإله في الأئمة، وأن علياً صار إليها حين حمل روح الإله فيه (البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٥٤، الشهرستاني: الملل والنحل ج ٢ ص ١٣).

بإطلاقهم، وذلك ليله لأهل البيت، ويعلق السيوطي^(١) على ذلك بقوله: «فكان هذا من أفعاله الملعونة».

بعد أن استأثر البويهيون بالأمر في خلافة العباسيين قرنا من الزمان، ضعف أمرهم واستجد الخليفة بالسلاجقة^(٢)، حيث قبض طغرل بك السلجوقي سلطان السلاجقة (ت ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) على الملك الرحيم آخر الأمراء البويهيين سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) وأرسله إلى إحدى قلاع فارس. حيث ظل سجيناً بها إلى أن توفي سنة (٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)^(٣)، وبدخول طغرل بك بغداد وقبضه على الملك الرحيم، أسدل الستار على الدولة البويهية التي سيطرت على الخلافة العباسية وحكمت باسمها ١١٣ سنة، وحلت محلها في السيطرة وفي الحكم باسم الخلافة الدولة السلجوقية.

الزيدية في نظر الشهرستاني:

أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضى الله عنهم - ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة - رضى الله عنها - ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل: فاطمي، عالماً، زاهداً، شجاعاً، سخيّاً، خرج بالإمامة وأن يكون - إماماً واجب الطاعة؛ سواء كان من أولاد الحسن، أو كان من أولاد الحسين - رضى الله عنهما - وعن هذا جوز قوم منهم: إمامة محمد وإبراهيم الإمامين ابني عبدالله بن الحسن بن الحسن اللذين خرجا في أيام المنصور وقتلا على ذلك؛ وجوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة.

(١) الهمداني: المصدر السابق ص ٣٩٩.

(٢) السلاجقة: مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم (الغز) كانت تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم وفي الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون، وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة إلى رجل منها تزعمها «سلجوق بن دقاق» ولم يكن لهذه القبائل اسم خاص تعرف به قبل تولي سلجوق هذا رئاستها، ويبدو أنه هو الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته، ثم قادها ونزل بها أرض الإسلام، فأسلمت معه فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده (عبد النعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ١٧، القاهرة ١٩٥٩م).

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٧١ - ٧٢، ابن الجوزي: المنتظم ج ٨ ص ١٦٤، الراوندى: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٠٦ (نقله إلى العربية: إبراهيم أمين الشاورى، وعبد النعم حسنين، وفؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة ١٩٦٠م).

وريد بن علي - لما كان مذهبه هذا المذهب - أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم، فتعلم في الأصول لواصل بن عطاء الغزالي الأثني رأس المعتزلة ورئيسهم، مع اعتقاد واصل: أن جده علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ما كان على يقين من الصواب، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه. فاقبس منه الاعتزال، وصارت أصحابه كلهم: معتزلة. وكان من مذهبه: جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، فقال: كان علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - أفضل الصحابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها، وقاعدة دينية راعوها: من تسكين نائرة الفتنة، وتطبيب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا، وسيف أمير المؤمنين علي عن دماء المشركين من قرش وغيرهم لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي.. فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه: باللين، والتؤدة والتقدم بالسن، والسبق في الإسلام، والقرب من رسول الله ﷺ. ألا ترى أنه لما أراد في مرضه الذي مات فيه تقليد الأمر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لشدة وصلابته، وغلظته في الدين، وفظاظته على الأعداء.. حتى سكتهم أبو بكر بقوله: «لو سألتني ربي لقلت: «وليت عليهم خيرهم لهم»». وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماما والأفضل قائما، فيرجع إليه في الأحكام، ويحكم بحكمه في القضايا.

ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، عرفوا أنه لا يثبرا من الشيخين: رفضوه حتى أتى قدره عليه، فسميت رافضة.

وجرت بينه وبين أخيه الباقر: محمد بن علي مناظرات لا من هذا الوجه، بل: من حيث كان يتلمذ لواصل بن عطاء، ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده في قتال الناكثين، والقاسطين، والمارقين، ومن حيث إنه يتكلم في القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت، ومن حيث إنه كان يشترط الخروج شرطا كون الإمام إماما، حتى قال له يوما: على مقتضى مذهبك: والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قط، ولا تعرض للخروج.

ولما قتل زيد بن علي وصلب قام بالإمامة بعده يحيى بن زيد، ومضى إلى خراسان، واجتمعت عليه جماعة كثيرة. وقد وصل إليه الخبر من الصادق جعفر بن محمد بأنه يقتل كما قتل أبوه، ويصلب كما صلب أبوه، فجرى عليه الأمر كما أخبر.

وقد فوض الأمر بعده إلى محمد وإبراهيم الإمامين، وخرجا بالمدينة، ومضى إبراهيم إلى البصرة، واجتمع الناس عليهما، وقتلا أيضا. وأخبرهم الصادق بجميع ما تم عليهم، وعرفهم أن آباءه - رضى الله عنهم - أخبروه بذلك كله وأن بنى أمية يتطاولون على الناس، حتى لو طاولتهم الجبال لعلوا عليها، وهم يستشعرون بغض أهل البيت. ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم، وكان يشير إلى أبى العباس، وإلى أبى جعفر: ابنى محمد بن علي وأشار إلى المنصور. فزيد ابن علي قتل بكناسة الكوفة، قتله هشام بن عبد الملك، ويحيى بن زيد قتل بجوزجان خراسان، قتله أميرها، ومحمد الإمام قتل بالمدينة، قتله عيسى بن ماهان، وإبراهيم الإمام قتل بالبصرة. أمر بقتلهما المنصور. ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان صاحبهم: ناصر الأطروش، فطلب مكانه، ليقتل، فاخفى واعتزل الأمر، وصار إلى بلاد السديلم والجبل ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد، فدعا الناس دعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، فدانوا بذلك، ونشأوا عليه، وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرين. وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ولى أمرهم. وخالفوا بنى أعمامهم من الموسوية فى مسائل الأصول، ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضل، وطعن فى الصحابة طعن الإمامية. وهم أصناف ثلاثة: جارودية، وسليمانية، وبترية، والصاحلية منهم والبترية على مذهب واحد.

الزيدية بعد الإمام زيد:

الزيدية منذ مقتل زيد بن علي حتى قيام الدولة العباسية (١٣٢هـ / ٧٤٩م):

لم يكن استشهاد زيد بن علي فى الكوفة نهاية المطاف للحركة الزيدية. بل كان داعيا إلى حركة استشهاد أخرى كانت العامل الأكبر فى القضاء على الدولة الأموية ونجاح الدعوة العباسية وقيام دولتها، فقد حارب يحيى بن زيد مع أبيه وأوصاه أبوه حين أصيب بمواصلة الجهاد ضد الأمويين، وتعهد يحيى بذلك^(١).

خطب يوسف بن عمر بعد مقتل زيد بالكوفة قائلا: «يا أهل الكوفة، إن يحيى ابن زيد ينتقل فى حجاب نسائك كما كان يفعل أبوه، والله لو أبدى لى صفحته لعرفت

(١) ابن عنية: عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ص ٢٥٧ (المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م).

خصيتيه كما عرفت خصيتى أبيه^(١)، وقد أتى يحيى بن زيد أناس من المحكمة^(٢)، يسألونه يخرج معهم، ولكن أصحابه نهوه عن ذلك وقالوا له: كيف تقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك، وهم يبرأون من علي وأهل بيته؟ فلم يطمئن إليهم، غير أنه قال لهم قولاً جميلاً^(٣).. وجاء إليه رجل من بنى أسد وقال له: قد قتل أبوك، وأهل خراسان لكم شيعة، فالرأى أن تخرج إليها^(٤)، وقد توارى يحيى في الكوفة حتى سكن الطلب له ثم خرج في نفر من الزيدية إلى خراسان^(٥).

فرق الزيدية:

تعددت الفرق الزيدية بعد استشهاد زيد بن علي، فقد تناول أتباعه وتلاميذه آراءه في الإمامة بالتفسير وختلفوا عليها، وقد قسم مؤرخو الفرق الزيدية إلى فرق متعددة، فينسب القاضي عبد الجبار لهم ست فرق هي: الجارودية، والسليمانية، والبترية، واليمانية، والصباحية، والعقبية^(٦).

أما الرازي فيذكر للزيدية ثلاث فرق هي: الجارودية، والسليمانية، والصالحية^(٧)، بينما يعد الأشعري لهم ست فرق هي: الجارودية والبترية، والعقبية والنعمية، ولا يذكر اسم الفرقة الخامسة، بل يقول عنها: «والفرقة الخامسة من الزيدية يتبرءون من أبي بكر وعمر، ولا ينكرون رجعة الأموات يوم القيامة»، ثم يعقوبية^(٨).

(١) الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٨٩.

(٢) المحكمة: هم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب حين جرى أمر الحكمين، واجتمعوا بهجروا من ناحية الكوفة، وقالوا: لا حكم إلا لله (الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ٢٠٧، البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٥٦ - ٥٧، الإسفراييني: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة ص ٢٦ - ٢٧، الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٦، المقرئ: الخطوط ج ٢ ص ٣٥٤).

(٣) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص ١٥٤.

(٤) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن الأثير: الكامل ج ٤ ص ٢٤٨.

(٥) الزبيدي: نسب قريش ج ٢ ص ٦٦، الطبري: تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٨٩، الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢.

(٦) المغني في أبواب التوحيد والعدل ج ٢٠ القسم الثاني ص ١٨٤ - ١٨٥ (تحقيق: د. عبد الحليم محمود، وسليمان دنيا، مراجعة أ. د. إبراهيم مدكور، إشراف: د. طه حسين، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٠ م ١٩٦٥ م).

(٧) اعتقاد فرق المسلمين والمشركين ص ٥٢ - ٥٣.

(٨) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٤٠ - ١٤٥.

والنوبختي يقسم الزيدية إلى قسمين هما: الضعفاء والاقوياء^(١)، أما المسعودي فيذكر لهم ثمانى فرق^(٢).

ويذكر صاحب الخطط للزيدية خمس فرق هي: الجارودية، والجريرية، والبترية واليعقوبية، والصباحية^(٣)، ولا يذكر كل من ابن تيمية^(٤)، والبغدادي^(٥)، والإسفرائيني^(٦)، والشهرستاني^(٧) غير ثلاث فرق هي: الجارودية والسليمانية والبترية. وانفرد ابن النديم بذكر فرقة القاسمية من فرق الزيدية^(٨). أما الملطي فهو أقدم مؤرخى الفرق (ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) فقد اعتبر الزيدية من جملة الروافض، وعلل ذلك بطعنهم فى عثمان بن عفان، وإن كانوا يتولون الشيخين، ثم قسمهم إلى أربع فرق^(٩).

١- الجارودية، السرحوبية:

أصحاب أبى الجارود: زياد بن أبى زياد، زعموا أن النبى ﷺ نص على «علي» - رضى الله عنه - بالوصف دون التسمية، وهو الإمام بعده. والناس قصرُوا، حيث لم يعرفوا الوصف، ولم يطلبوا الموصوف، وأنهم نصبوا أبا بكر باختيارهم، فكفروا بذلك. وقد خالف أبو الجارود فى هذه المقالة إمامه: زيد بن علي، فإنه لم يعتقد هذا الاعتقاد. واختلفت الجارودية فى التوقف، والسوق.

فساق بعضهم الإمامة من علي إلى الحسن، ثم إلى الحسين، ثم إلى علي بن الحسين: زين العابدين، ثم إلى ابنه: زيد بن علي، ثم منه إلى الإمام: محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب، وقالوا بإمامته. وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته، ومن جملة شيعته، حتى رفع الأمر إلى المنصور، فحبسه حبس الأبد، حتى مات فى الحبس. وقيل: إنه إنما بايع محمد بن عبد الله الإمام فى أيام

(١) فرق الشيعة ص ٥٧ - ٥٨ (منشورات دار الاضواء، بيروت، لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٠.

(٣) منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٢٦٥.

(٤) الفرق بين الفرق ص ١٦.

(٥) التبصير فى الدين ص ١٦ - ١٧.

(٦) الملل والنحل ج ١ ص ١٦٣ وما بعدها.

(٧) الفهرست ص ٢٧٤.

(٨) التنبيه والرد ص ٣٨ - ٣٩، ١٥٦.

(٩) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٤٦ - ١٥٠.

المنصور، ولما قتل محمد بالمدينة، بقى الإمام أبو حنيفة على تلك البيعة، يعتقد موالاة أهل البيت، فرفع حاله إلى المنصور... فتم عليه ماتم.

والذين قالوا بإمامة محمد بن عبد الله الإمام: اختلفوا: فمنهم من قال: إنه لم يقتل وهو بعد حى، وسيخرج فيملاً الأرض عدلاً، ومنهم من أقر بموته، وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن علي (بن عمر بن علي)^(١) بن الحسين بن علي صاحب الطالقان، وقد أسر فى أيام المعتصم وحمل إليه، فحبسه فى داره حتى مات، ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر صاحب الكوفة، فخرج ودعا الناس، واجتمع عليه خلق كثير، وقتل فى أيام المستعين، وحمل رأسه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر. حتى قال فيه بعض العلوية:

قتلت أعز من ركب المطايا وجئتك أستلينك فى الكلام

وعز على أن ألقاك إلا وفيما بيننا حد الحسام

وهو: يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي.

وأما أبو الجارود فكان يسمى: سرحوب، سماه بذلك أبو جعفر محمد بن علي الباقر. وسرحوب: شيطان أعمى يسكن البحر، قاله الباقر: تفسيراً.

ومن أصحاب أبى الجارود: فضيل الرسان، وأبو خالد الواسطى. وهم مختلفون فى الأحكام والسير، فبعضهم يزعم أن علم ولد الحسن والحسين - رضى الله عنهما - كعلم النبى ﷺ فيحصل لهم العلم قبل التعلم: فطرة، وضرورة. وبعضهم يزعم أن العلم مشترك فيهم وفى غيرهم، وجائز أن يؤخذ عنهم، وعن غيرهم من العامة.

٢- السليمانية، والرافضة:

أصحاب سليمان بن جرير، وكان يقول: إن الإمامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنها تصح فى المفضول، مع وجود الأفضل.

وأثبت إمامة أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - حقاً باختيار الأمة حقاً اجتهادياً.

(١) وإنما اضطربنا إلى زيادة (بن عمر بن علي): تحقيقاً للاسم، وجبراً لسهو النساخ، أو غفلتهم أو سبق قلمهم. راجع كتابى: «الحور العين»، و«مقاتل الطالبين».

وربما كان يقول: إن الأمة أخطأت في البيعة لهما مع وجود علي - رضى الله عنه - خطأ لا يبلغ درجة الفسق، وذلك الخطأ خطأ اجتهدى، غير أنه طعن في عثمان - رضى الله عنه - للأحداث التي أحدثها، وأكفره بذلك، وأكفر عائشة، والزبير، وطلحة - رضى الله عنهم - بإقدامهم على قتال علي - رضى الله عنه - ثم إنه طعن في الرفض، فقال: إن أئمة الرفض قد وضعوا مقالاتين لشيعتهم، حتى لا يظهر أحد قط عليهم: إحداهما: القول بالبداء، فإذا أظهر قولاً: أنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهوراً. ثم لا يكون الأمر على ما أظهره. قالوا: بدا لله تعالى في ذلك.

والثانية: التقية، فكل ما أرادوه تكلموا به، فإذا قيل لهم في ذلك: إنه ليس بحق، وظهر لهم البطلان قالوا: إنما قلناه: تقية، وفعلناه: تقية. وتابعه على القول بجواز إمامة المفضول، مع قيام الأفضل قوم من المعتزلة، منهم: جعفر بن مبشر، وجعفر بن حرب، وكثير النوى، وهو من أصحاب الحديث. قالوا: الإمامة من مصالح الدين؛ ليس يحتاج إليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل، لكن يحتاج إليها لإقامة الحدود، والقضاء بين المتحاكمين، وولاية اليتامى، وحفظ البيعة إعلاء الكلمة، ونصب القتال مع أعداء الدين، وحتى يكون للمسلمين جماعة، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة، فلا يشترط فيها أن يكون الإمام أفضل الأمة علماً، وأقدمهم عهداً، وأسدهم رأياً وحكمة؛ إذ الحاجة تنسد بقيام المفضول، مع وجود الفاضل والأفضل. ومالت جماعة من أهل السنة إلى ذلك، حتى جوزوا أن يكون الإمام غير مجتهد، ولا خبيراً بمواقع الاجتهاد، ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيرجعه في الأحكام، ويستفتى منه في الحلال والحرام، ويجب أن يكون في الجملة ذا رأى متين، وبصر في الحوادث نافذ.

٣ - الصالحية والبترية وموافقة المعتزلة،

الصالحية: أصحاب الحسن بن صالح بن حى.

والبترية: أصحاب كثير النوى الأبتري.

وهما متفقان في المذهب. وقولهم في الإمامة كقول السليمانية، إلا أنهم توقفوا في أمر عثمان؛ أهو مؤمن أم كافر؟ قالوا: إذا سمعنا الأخبار الواردة في حقه، وكونه من العشرة المبشرين بالجنة قلنا: يجب أن نحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة، وإذا رأينا الأحداث التي أحدثها من استهتاره بتيرية بنى أمية وبنى مروان،

واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة . . . قلنا: يجب أن نحكم بكفره، فتحيرنا في أمره، وتوقفنا في حاله ووكلناه إلى أحكم الحاكمين.

وأما «علي» فهو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة، لكنه سلم الأمر لهم راضيا، وفوض الأمر إليهم طائعا، وترك حقه راغبا. فتحن راضون بما رضى، مسلمون لما سلم، لا يحل لنا غير ذلك، ولو لم يرض «علي» لكان أبو بكر هالكا. وهم الذين جوزوا إمامة المفضل، وتأخير الفاضل والأفضل، إذا كان الأفضل راضيا بذلك.

وقالوا: من شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين - رضى الله عنهما - وكان: عالما، زاهدا، شجاعا، فهو الإمام، وشرط بعضهم صباحة الوجه. ولهم خلط عظيم في إمامين وجدت فيهما هذه الشرائط، وشهرا سيفيهما؛ ينظر إلى الأفضل والأزهد، وإن تساويا؛ ينظر إلى الأمتن رأيا، والأحزم أمرا، وإن تساويا تقابلا، فينقلب الأمر عليهم كيلا، ويعود الطلب جذعا، والإمام مأموما، والأمير مأمورا. ولو كانا في قطرين انفرد كل واحد منهما بقطره، ويكون واجب الطاعة في قومه. ولو أفتى أحدهما بخلاف ما يفتى الآخر كان كل واحد منهما مصيبا، وإن أفتى باستحلال دم الإمام الآخر.

وأكثرهم - في زماننا - مقلدون، لا يرجعون إلى رأى ولا إلى اجتهاد، أما في الأصول، فيرون رأى المعتزلة حذو القلدة بالقلدة، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت. وأما في الفروع، فهم على مذهب أبى حنيفة، إلا في مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى - رحمه الله - والشيعة.

٤- رجال الزيدية:

أبو الجارود: زياد بن المنذر العبدى، لعنه جعفر بن محمد الصادق - رضى الله عنه - والحسن بن صالح بن حى، ومقاتل بن سليمان، والداعى ناصر الحق: الحسن بن على بن الحسن بن زيد بن عمر بن الحسين بن علي، والداعى الآخر صاحب طبرستان: الحسين بن زيد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، ومحمد بن نصر. وصفوة القول أنه أظهرت ثورة يحيى بن عمرو آثار الزيدية في نفوس الناس

وميلهم إلى العلويين، ولكن الزيدية لم يتمكنوا من الاستفادة من ذلك الميل؛ لأنهم لم يكن لهم تدبير منظم ولا استعانة بذوى التدبير والحيل من رجال الحزب^(١).

ولقد كان ما أصاب العلويين من العباسيين أشد وأقوى مما أصابهم من الأمويين إلا أن العباسيين ظلوا في نسبتهم لأهل البيت يحيطون أنفسهم بنوع من القداسة، ويدت الخلافة وكأنها جماع السلطين الزمنية والدينية.

فيذكر الشهرستاني أنه^(٢): «لم يتنظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاخفى واعتزل إلى بلاد الديلم، والجبل^(٣)، لم يتحلوا بدين الإسلام بعد، فدعا الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، فدانوا بذلك ونشأوا عليه، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرة، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة».

وكان ناصر الأطروش إماما في الفقه والدين^(٤)، وقد أجمعت المصادر على مدحه والثناء عليه^(٥)، فيقول الطبري^(٦): «إنه لم ير الناس مثل عدله وحسن سيرته وإقامته للحق، أما ابن خلدون فيصفه بقوله^(٧): «إنه كان عادلا حسن السيرة لم ير مثله في أيامه، ويضيف ابن حزم قوله^(٨): كان فاضلا حسن المذهب عادلا في أحكامه».

وفي سنة (٣٠٤ هـ / ٩١٦ م) توفي الناصر الأطروش، وتولى الحسن بن القاسم قيادة الزيدية ولقب بالداعي، وكان قائدا لجيوشه (ماكان بن كالي)، وظهر في عهده (أسفار بن شيرويه الديلمي)^(٩)، الذي اتصف بأنه سيئ الخلق، صعب العشرة، فطرده

(١) الطبري: المصدر السابق والجزء من ٢٦٨، الأصفهاني: المصدر السابق ص ٦٤٢.

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٦٢.

(٣) الجبل: هم أهل جيلان، وجيلان اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان (ياقوت الحموي: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٤٦، المحلى: الحقائق الوردية ص ٣٠ - ٣١ (مخطوط).

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ج ١٢ ص ١٤٩، ابن التميمي: الفهرست ص ٢٧٣ - ٢٧٤، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٥٤، المحلى: الحقائق الوردية ج ٢ ص ٢٨ - ٤١، ابن خلدون: العبر ج ٣ ص ٣٥٧.

(٦) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة. (٧) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الطبري: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٩) القرطبي: جملة تاريخ القرطبي ص ١١٩ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٢ م)، المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٣٧٣ - ٣٧٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٤٦.

(ماكان) من جيشه فقام بالاتصال بالسامانيين^(١)، وقد ازداد نفوذ (أسفار) نتيجة لمناصرة السامانيين له ودخوله في طاعتهم^(٢)، فأساء معاملة الأئمة الزيديين وأتباعهم، وذلك بعد تمكنه من الاستيلاء على طبرستان وجرجان، وإنزال الهزيمة بالقائد (ماكان بن كالي) ثم جمع الزيدية في مدينة آمل وأمر بقتلهم^(٣)، والتقى (ماكان) و(أسفار بن شيرويه).

وبدأت أملاك الدولة الزيدية تنقلص في طبرستان حتى انتهت دولتهم، في الوقت الذي تطلع (أسفار بن شيرويه) بعد أن اتسعت ممتلكاته إلى الاستقلال بما تحت يديه، فبدأ في خلع طاعة السامانيين^(٤)، وفي الوقت نفسه استدعى أحد أنصاره من بلاد الجبل وهو (مرداويج بن زيار الديلمي) حيث أسند إليه قيادة جيوشه^(٥)، وقام (مرداويج) بالقبض على (أسفار بن شيرويه) لما حل بالناس من بلاء وعسف على يديه^(٦)، وتم قتله في قلعة الموت على يد (مرداويج)^(٧) وقد اتسع ملك (مرداويج بن زيار) وتمكن من تأسيس دولة قوية توارثها أفراد أسرته من بعده، أطلق عليها اسم الدولة الزيارية^(٨).

أهل البيت والزيدية:

يرى بعض شيوخ الزيدية أن أهل البيت - عليهم السلام - من بعد الإمام الأعظم زيد بن علي - عليهما السلام - انتسبوا إليه وتسموا زيدية أولهم وآخرهم وسابقهم ولاحقهم هذا مجمع عليه بينهم لا يعلم فيه نزاع ولا خلاف.

وقد أوضحت في شرح الزلف ولوامع الأنوار^(٩) والجوابات المهمة ما قد يشكل

-
- (١) ابن الأثير: المصدر السابق الجزء ص ١٨٩، بخواندمير: المصدر السابق ص ٨٩.
 (٢) هلال الصابي: المنتزع من التاجي ص ٦٢، ابن خلدون: المصدر السابق الجزء ص ٣٨٢، بخواندمير: المصدر السابق الجزء والصفحة.
 (٣) المسعودي: المصدر السابق الجزء ص ٣٧٣ - ٣٨١، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء ص ١٠٦.
 (٤) الكرديزي: زين الأخبار ص ١٣٢، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٤ ص ٤٢٣، بخواندمير: المصدر السابق والصفحة.
 (٥) المسعودي: المصدر السابق الجزء ص ٣٧٧، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء ص ١٨٩.
 (٦) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٣٧٧، هلال الصابي: المنتزع من التاجي ص ٦٥، مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٦٢، بخواندمير: روضة الصفا ص ٨٩.
 (٧) المسعودي: المصدر السابق الجزء ص ٣٧٨.
 (٨) الحياة السياسية والفكرية ص ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠.
 (٩) لأبي الحسين مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي.

على من لم يفهم أو لم يرد أن يفهم الموجب لتخصيص الانتساب إلى الإمام الأعظم - عليه السلام - وملخصه: أنها لما عظمت الفتنة واشتدت المحنة وتفرقت الأمة واستحكمت الظلمة لاسيما على أهل بيت النبوة وأوليائهم وظهر الفساد وتعطل الجهاد بعد استشهاد سيد شباب أهل الجنة سبط رسول الله ﷺ اثنين وستين عاما وقام بحجة رب العالمين وتجديد شريعة سيد المرسلين - عليه الصلاة والتسليم - وفتح باب الجهاد والاجتهاد ودعا إلى ما فيه حياة العباد والبلاد إمام الأئمة الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي - عليهم السلام - واتبعه على ذلك أئمة الهدى من أهل بيت النبوة وأوليائهم، اختاروه علما بينهم وبين الأمة بعد أمير المؤمنين ولديه السبطين - عليهم السلام - انتسبوا إليه لتمييزوا بذلك ويعرف منهم فريقيهم ولم يمكن التمييز بالانتساب إلى من فوقه. أما الرسول ﷺ أو أتباع الكتاب والسنة فتلك دعوى مشتركة بين جميع المسلمين والانتساب إلى أمير المؤمنين - عليه السلام - وإن ميزهم عن أكثر الفرق لا يكفي؛ لأن ثمة من يتنسب إليه من سائر الطوائف المدعية للتشيع وبينهم خلاف كبير فلم يمكن التمييز كل التمييز إلا بالانتساب إليه - عليه السلام - وقد أوضح ذلك كل الإيضاح كامل أهل البيت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي - عليهم السلام - في عصره حيث قال: العلم بيننا وبين الناس علي بن أبي طالب، والعلم بيننا وبين الشيعة زيد بن علي، وقد جعلت كلامه وكلام ولده الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية دليلا على أن أهل البيت في عصره انتسبوا إليه وجعلوه علما لهم وهو دليل صريح على أنهم هم الذين نسبوا أنفسهم إليه لا أعداؤهم كما ذكر. وقد أوردت كلامهما في شرح الزلف وفي الجوابات المهمة، وهذا معلوم مجمع عليه لا ريب فيه. قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة - عليه السلام - في الشافي، واختصت الفرقة هذه من العترة وشيعتهم بالزيدية والا فالأصل علي - عليه السلام - والتشيع له لخروج زيد بن علي على أئمة الظلمة وقتالهم في الدين فمن صوبهم من الشيعة وصوبه وحذا حذوه من العترة فهو زيدى بغير خلاف بين أهل الإسلام، وقال - عليه السلام، وزيد بن علي - عليه السلام - أضاف أهل البيت مذهبهم إليه قالوا نحن زيدية إلى آخره^(١).

وأن أهل البيت هم الذين أضافوا مذهبهم إليه وقالوا هم زيدية لا أعداؤهم من

(١) الزيدية نظرية وتطبيق. مع مقدمة كتبها أبو الحسين مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدى، على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين.

الأمويين ولا العباسيين وهل بهذا الشأن من هذا الإمام ولا ينبثق مثل خير. وروى - عليه السلام - بسنده في الشافعي إلى الإمام زيد بن علي - عليهما السلام - أنه قال: الأئمة المفترضة منا طاعتهم على بن أبي طالب والحسن والحسين - عليهما السلام - والقائم بالسيف يدعو إلى كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ قال الإمام - عليه السلام: فهذا أيها الفقيه هو الذي ذكرنا لك أنا سمينا زيدية لاتباعنا زيد بن علي في القيام بالسيف على أئمة الضلال وحزب الشيطان، فأما سائر الأصول الدينية فرأى آبائنا - عليهم السلام - فيها واحداً، كذلك الخروج على أئمة الجور والدعاة إلى الله - سبحانه - ولكن زيد بن علي - عليه السلام - اعتقد وقال وفعل ومن كان في أيامه لم يفعلوا فكان أولى بذلك عليه السلام ففتح باب الجهاد فمن حذا حذوه فله فضل التقدم وهو زيدى عندنا أهل البيت وعند شيعتنا - رضى الله عنهم -

الزيدية ليست رافضة:

إنه قد اشتهر وظهر عند الأمة أن الإمام الأعظم زيد بن علي - عليهما السلام - سمى من تابعوه وناصروه زيدية كما أنه سمى الذين رفضوه رافضة^(١)، وبذلك اتضح للأمة بالإجماع الفرقة الرافضة التي وردت بها الأخبار النبوية التي رواها هو - عليه السلام - ورواها أئمة آل محمد - عليهم السلام - وغيرهم منهم الإمام الهادي إلى الحق المبين بالسند المسلسل النبوي عن آبائه عن رسول الله ﷺ كما اتضحت الفرقة الباغية الداعية إلى النار بقتل عمار - رضوان الله عليه - وفرق الناكثين والمارقين بقتالهم أمير المؤمنين وسيد المسلمين - عليه السلام - وتمييزه لهم وتسميته وتعيينه وقد اعترف بتسمية الإمام - عليه السلام - للزيدية والرافضة الموافق والمخالف.

بين رأيين: بينما يذهب الشيخ المؤيدى إلى أن آل البيت هم الذين انتسبوا إليه وتسموا باسم الزيدية أولهم وآخرهم وسابقتهم ولحقهم وهذا الجمع ينكرون تسميته بالرافض وأتباعه بالرافضة ويغلبون نسبتهم إلى الزيدية.

نجد توجيهها آخر في نفس كتاب «الزيدية نظرية وتطبيق» يقول:

«يطلق هذا الاسم في عرف الزيدية الأتباع على أئمة أهل البيت النبوي ومن تابعهم في العدل والتوحيد، وهذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على أتباعه ولا أطلقها

(١) مقالات الإسلاميين ص ١٥٥ للأشعري بعدها الزيدية ورجالها قال انتهى الكلام عن الروافض وراجع ما كتبه عن الرافضة والغلاة.

فى البداية أتباعه على أنفسهم، وإنما أطلقها حكام بنى أمية على كل نائر عليهم بعد الإمام زيد من أهل البيت النبوى الشريف.. ثم يقول علي بن عبدالكريم صاحب كتاب الزيدية: وإذا فالتسمية هذه تسمية سياسية فى الأصل ولا دخل لها فيما تعارف عليه الناس... (١).

هذه التوجيهات ترفع شأن النسبة إلى الزيدية فهى أرومة الأئمة ورأى ينفىها من وجه ويشبتها من وجه آخر. ينفىها إذا ترادفت مع الرفض؛ لأنها تحمل معنى الحرم السياسى ويشبتها على معنى المنهج والفكر. برأى لأن كل رأى له سنده ولا تناقض فإن ما تعرض له الإمام زيد من القتل والتمثيل به ونش قبره ثم صلبه ليجعل المؤرخ يبحث عن الرأى الذى يعلى شأنه ويرفع فضله جزاء وفاقا لما قدم. وإذا كان الله لا يعذب العبد مرتين، قاعدة فقهية. فمن الصعب أن يلقي الإمام زيداً اضطهاداً وقد خرج ضد الظلم والفجور ثم يضطهد بعد وفاته فهى آراء تغذيها العاطفة ولا يمانع فيها التاريخ.

الزيدية فكر ومنهج الأئمة:

فى هذا المدخل يحسن الوقوف قليلاً لتعرف على الزيدية الطائفة قبل التعرف على الزيدية الفكر والمنهج. فمن هى الزيدية الطائفة؟

يطلق هذا الاسم فى عرف الزيدية على أئمة أهل البيت النبوى الشريف ومن تابعهم فى العدل والتوحيد، والقول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب - رضوان الله عليهم - ووجوب الخروج - الثورة - على الظلمة، واستحقاق الإمامة بالفضل والطلب لا بالوراثة، مع القول بتفضيل الإمام علي - كرم الله وجهه - وأولويته بالإمامة، وقصرها من بعده فى البطين الحسن والحسين (٢).

ولا يوجد اليوم فى اليمن من الفرق الزيدية إلا هذه الفرقة التابعة لأئمة أهل البيت النبوى الشريف ومن وافقهم من الفقهاء المجتهدين من غيرهم، أما بقية الفرق الزيدية كالجارودية والسلمانية والصالحية والبترية فلا توجد اليوم إلا فى بطون الكتب والمؤلفات فى الفرق الإسلامية كالملا والنحل ونحوها. ومعظمها إنما كان عائشاً فى العراق حيث ظهوره ومولده فيه.

(١) الزيدية ص ١١ على بن عبدالكريم الفضل شرف الدين.

(٢) الملل والنحل للإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى ج ١، ص ٤ من البحر الزخار

ونسبة الزيدى إلى الزيدية تعنى النسبة إلى الفكر الزيدى وهى نسبة انتماء، واعتزاز، وقد اعتقد بعضهم أن النسبة نسبة مذهبية إلى الإمام زيد بن علي - رحمه الله - كنسبة الشافعى أو الحنفى مثلا إلى الأئمة أبى حنيفة والشافعى - رحمهما الله - . واعتقد لذلك أن الزيدية مقلدون للإمام زيد فى الفروع، وربما اعتقد أنهم مقلدون له فى الأصول ولا يخرجون من قوله . وهذا الاعتقاد خطأ ومغلوط؛ لأن النسبة نسبة انتماء واعتزاز ولم تكن نسبة مذهبية على النحو المعروف فى النسبة الشافعية أو الحنفية مثلا - ! وذلك لما يلى :

١ - لأن المذهب الزيدى يحرم التقليد على كل متمكن من أخذ الحكم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أو غيرهما من الأدلة الشرعية، ولا يبيحه فى الفروع إلا لغير المتمكن من الاجتهاد. لقوله تعالى: ﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٢)﴾ [النحل].

٢ - لأن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على أتباعه، ولا أطلقها فى البداية أتباعه على أنفسهم، وإنما أطلقها حكام بنى أمية على كل ثائر عليهم بعد الإمام زيد من أهل البيت النبوى الشريف، كما أطلقت الدولة العباسية من بعدهم اسم العلوية وأحيانا الطالبية على أى ثائر عليهم من أهل البيت أيضا. وكثيرا ما ينسب الفريق المعارض إلى قائد المعارضة، أو إلى كبير أسرته، أو إلى صفة مميزة للجانب المعارض. كما يقال مثلا: زيدية، عباسية، أموية، عثمانية، صوفية وأشعرية. . ولا يراد من وراء ذلك إلا التمييز للفريق المعارض أو لفكرة المعارضة. كما أطلق الإمام زيد - رضوان الله عليه - اسم الرافضة على الفريق المعارض له والرافض دخوله مع الإمام زيد فى الثورة على هشام بن عبد الملك الأموى.

وإذاً فالتسمية هذه تسمية سياسية فى الأصل ولا دخل لها فيما تعارف عليه الناس فى النسبة المذهبية إلى أئمة المذاهب الإسلامية - رحمهم الله .

ولكن الزيدية الطائفة قبلتها ورضيت بها لأنها شعار الحرية وعزة وكرامة وجهاد وتضحية فى سبيل الله ورفع المستضعفين من عباد الله ثم صارت لديهم اسما لأئمة أهل البيت ومن تابعهم فى الاعتقاد المذكور سابقا.

هذا رأى. ورأى آخر لشيخنا العلامة مسجد الدين بن محمد المؤيدى دامت بركاته وهو: أن الذى أطلق اسم الزيدية على أتباع الإمام زيد - رحمه الله - هو الإمام زيد نفسه. مستدلاً بقول الإمام محمد بن عبد الله ذى النفس الزكية - رضوان الله عليهم: أما والله لقد أحيا زيد بن علي ما اندثر من سنن المرسلين، وأقام عمود الدين إذا اعوج، ولن ننحو إلا أثره، ولن نقبّس إلا من نوره. - ولكنه لا يوجد فى هذا القول ما يدل على التسمية وإنما يوجد فيه ما يدل بوضوح على اتباع أثره فى الثورة على الظالمين إحياء لما اندثر من السنن وإقامة لعمود الدين الذى قد اعوج فى حينه. وقد فعل كسائر أمثاله من أئمة أهل البيت - عليهم السلام - السابق له منهم واللاحق. وإذا كان الإمام زيد - عليه السلام - علماً من الأعلام المميزة للزيدية من سائر فرق الشيعة. كما قال عبد الله الكامل بن الحسن - رحمه الله: العلم بيننا وبين الناس علي بن أبى طالب، والعلم بيننا وبين الشيعة زيد بن علي - رضوان الله عليهم جميعاً -^(١).

٣ - لأن الزيدية لا تعتقد بأن الإمام زيد بن علي أولى بالتقليد من غيره كالإمام جعفر الصادق مثلاً، ولا أنهما أولى بالتقليد من الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين، ولا أنهم جميعاً أولى بالتقليد من آبائهم وأجدادهم؛ ولذا فالزيدية لا يتسبون نسبة مذهبية إلى واحد بعينه منهم. وإنما يتمسكون بمذهب أهل البيت النبوى عموماً؛ للأحاديث الواردة فى ذلك كحديث التمسك بالثقلين المروى فى صحيح مسلم وغيره ثم ما أجمع عليه أهل البيت فهو حجة عند العالم منهم والجاهل. وهذا هو مذهب الكثير من العلماء ومنهم الشيخ ابن تيمية كما هو مذكور فى فتاويه^(٢). وما اختلفوا فيه - ولم يكن اختلافهم إلا فى المسائل الفرعية، فالعالم يعمل بما أدى إليه اجتهاده. والمقلد المميز يعمل بمذهب إمامه الذى قد ارتضاه لنفسه أو التزم باتباع أقواله. أما الجاهل الصرف فمذهبه مذهب أهل جهته، وفيما قد عمله معتقداً صحته ولم يخرق الاجتهاد. فمذهبه فيه مذهب من وافقه من الأئمة المتبوعين. ولا يجوز على كل حال تتبع الرخص والرغبات.

(١) الزيدية ص ١٢ على بن عبد الكريم الفضل شرف الدين
(٢) ج ٢٨ - ص ٤٩٣ طبع مكتبة المعارف - المغرب ولعلها الطبعة الأولى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المغرضين الحاقدين قد جعل من اختلاف أئمة أهل البيت - عليهم السلام - فى بعض المسائل الفرعية مثار تشكيك للمقلدين، متناسين أن مثل ذلك الاختلاف فى فروع المسائل قد كان شائعاً بين الصحابة والتابعين، وشاع كذلك بين الأئمة الأربعة؛ ولهذا تميزت مذاهبهم بعضها عن بعض، بل لقد شاع بين علماء المذهب الواحد ولم ينكر أحد من العلماء والأئمة ولا أحد من الصحابة والتابعين.

وقد أجاب الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين عن سبب اختلاف أئمة أهل البيت فى بعض المسائل الفرعية فأجاب - عليه السلام - بما يشفى الغليل^(١) وقال: إن اختلاف آل رسول الله ﷺ لم يقع إلا من وجهين^(٢):

أما أحدهما فمن طريق النسيان أو الغلط فى الرواية وهذا قليل، والناسى والغالط يرجع إلى القول الثابت عند الملاقاة والمناظرة.

وثانيهما وهو أصعبهما: أن يكون من يؤثر عنه الخلاف قد تلقى علمه عن غير آبائه عند الجميع: وهو المحكم من كتاب الله، والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وهما اللذان جعلاً لكل قول ميزاناً، ولكل حق برهاناً لا يضل من اتبعهما، ولا يغوى من قصدهما. فمن كان قوله بقولهما وحكمه فى كل نازلة بهما دون غيرهما فهو المصيب فى قوله والمعتمد عليه فى علمه. والواجب على جميع المسلمين من آل رسول الله ﷺ وغيرهم أن يرجعوا إلى قوله ويتبعوا من كان كذلك فى علمه. وهذا القول هو مذهب كل أئمة أهل البيت - عليهم السلام -.

ويظهر من قرائن الأحوال أن مثل هذه التساؤلات لا يكبر شأنها إلا فى ظروف خاصة ولغرض غير نزيه. وهى مع ذلك واردة على كل مذهب من المذاهب الإسلامية.

والحقيقة هى أن المذهب الفقهى المعروف بالمذهب الزيدى فى اليمن؛ نسبة إلى الإمام زيد كما أسلفنا، أو المذهب الهادوى كما يروق لبعض الناس اليوم أن يسميه وينسبه إلى الإمام الهادى يحيى بن الحسين - ولا فرق بين الإمامين إلا فى مسائل يسيرة جداً نتيجة الاجتهاد المفتوح بابه فى المذهب الزيدى حتى اليوم وإلى الأبد - إن شاء الله -

(١) ذكره الإمام القاسم بن محمد فى كتابه الإرشاد (خ) عن كتاب القياس (خ) للإمام الهادى - عليه السلام.

(٢) الزيدية ص ١٣.

هذا فى كل مجالات الفقه الإسلامى العظيم، وجهود مفضية استمرت فى البحث والتقيب والتصفية أكثر من سبعة قرون. وقام بتلك الأبحاث والدراسات أئمة أعلام من أهل البيت النبوى الشريف ومن تابعهم من الفقهاء المجتهدين معتمدين فى كل ذلك على المحكم من كتاب الله، والصحيح من سنة رسول الله ﷺ، وعلى القياس، والإجماع وأحيانا على الاستصحاب، والاستحسان، والمناسب المرسل - المصالح المرسل - وهى التى تتفق مع المقاصد الشرعية فيما لا يوجد له نص فى الكتاب أو السنة إثباتا أو نفيا مع دسائس الملحدون وأفكار المنكسرين، كما تعاركوا مع جبابرة الأهواء السياسية والأحقاد العنصرية، جاعلين الإخلاص رائدهم، والحق مقصدهم، ورضوان الله غايتهم.

أما أئمة المذاهب الإسلامية وأمثالهم فقد تعايشوا معهم، وتآزروا وتناصروا، غير مفرقين بين أحد منهم حقيقيا كان أو مالكيا أو حنبليا أو غير هؤلاء فالكل من رسول الله ﷺ مقتبس. وكل مجتهد مصيب.

وقد قام الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى بجمع ثمار تلك الأبحاث والدراسات فى كتيب سماه متن الأزهار - وقام بشرحه والتعليق عليه الكثير من العلماء ولكل طريقتة وأسلوبه^(١)، أما القاضى إبراهيم بن يحيى السحولى - رحمه الله فقد قام بنظم السلسلة الذهبية لرجال المذهب فى أرجوزة عدد أبياتها ٣٠٨ بيتا وسماها (الطراز المذهب فى إسناد المذهب)^(٢)، كل ذلك الجهد الشاق التزيه من الأئمة وشيعتهم من مجتهدى الفقهاء الصالحين قد بلغ درجة من الإتقان والصحة يمكن القول معه: بأن المذهب الزيدى قد خلص من كل شائبة، وصفى معينه من كل كدر، وتقررت أصوله، وتأسست قواعده المستمدة من الأدلة الشرعية والعقلية وأصبح فى حال من القدرة يتمكن معها على مسايرة أحداث العصر الحديث، والانتفاع بأحسن ما فيه من حضارة وتقديم، وفى حال من القوة يعتصم بها عن مفاصد الحضارة وانحرافات ماديتها - كما يعرف ذلك كل مطلع عليه بوعى وإخلاص ونزاهة^(٣).

(١) متن الأزهار وشرحه متداول مشهور باليمن (ط) ١١١.

(٢) الزيدية وجدلتها ونسختها بخطى فى المتحف البريطانى بلندن برقم ١٢٢٧ - فهرس ٨٤٦ والنسخة مخطوطة.

(٣) الزيدية ص ١٥.

اليمن تحتضن الزيدية:

إن معظم القبائل العربية التي سكنت الكوفة أيام الفتوحات كانت من اليمن. روى البلاذري أن الشعبي قال: «كان - يعني أهل اليمن - اثني عشر ألفاً، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنا أكثر أهل الكوفة، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي»^(١). وقول فلهاوزن: كانت اليمانية في الكوفة أكبر القبائل عدداً وأهمية^(٢).

ومن الجدير بالذكر أن معظم القبائل اليمانية وبخاصة همدان مالت إلى التشيع لآل علي. يقول ماسنيون: إن همدان القبيلة العظيمة الخطيرة ذات الشوكة والقوة كانت شديدة التشيع^(٣).

ويعزو وات (watt) تشيع اليمانيين إلى أسباب عديدة أهمها:

أولاً - أن أكثرية القبائل اليمانية قبل الإسلام كانت تعتق المسيحية على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح «المونوفوستية» وذلك لتأثرها بالأجاش الذين كانوا يعتنقون المذهب المذكور. ويرى المونوفوستيون أن للمسيح، بكونه قائداً روحياً، طبيعة لاهوتية مضافة إلى طبيعته الناسوتية، وبعد أن اعتنقت القبائل اليمانية الإسلام تأثرت بتقاليد الديانة السابقة فمالت نحو التشيع الذي يحتل فيه الإمام، بكونه القائد الروحي للشعبة، مركز المسيح بالنسبة للمونوفوستيين.

ثانياً - عاشت القبائل اليمانية لعشرين قرناً خلعت، في بلاد سبق أن تكونت فيها دول ذات مدنية عريقة. وبعد أن سقطت الدولة الحميرية سنة ٥٢٥م، خضعت اليمن، في الفترة التي سبقت خضوعها للإسلام لدولتي الأجاش والفرس. وقد ورثت القبائل اليمانية من حكوماتها العربية السابقة تقاليداً يتمتع الحاكم بموجبه بصفات روحية مضافة «Charismatic» إلى سلطاته السياسية. وبقي الأمراء العرب، الذين احتفظوا بسلطات محلية على السكان الحضريين الذين كانوا ممتزجين مع السكان البدو في معظم تلك المناطق، يتمتعون بالصفات المذكورة للحكام.

(١) فتوح البلدان (القاهرة: ١٩٣٢)، ص ٢٧٦.

(٢) الخوارج والشيعة، ص ١٦٠. تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص ٦١.

(٣) خطط الكوفة - ترجمة تقي المصعبي (صيدا، ١٢٩٣٩).

وبعد أن أسلم عرب الجنوب، قبل معظمهم فكرة القائد الذى يتمتع بصفات شبه الإلهية. ويمكن أن نعزو انجذاب هؤلاء نحو الإسلام إلى أنهم رأوا توفر الصفة المذكورة بمحمد ﷺ. واعتقد هؤلاء أن خلاص الفرد يتحقق عندما يكون عضواً فى مجتمع يقوده فرد يتمتع بصفات شبه إلهية. ونتيجة لذلك كان جماعة من أنصار علي الأول يردون على نقد الخوارج قائلين بأن علياً إمام الحق والإرشاد. وكانت العبارة الأخيرة، دون شك ذات محتوى ديني، أى أن التوجيه المذكور يرشد الإنسان نحو الله أى نحو الجنة. وفى الوقت الذى نجد فيه الخوارج يقبلون شكلاً من الإسلام تغلب عليه النزعة البدوية، نجد الشيعة يقبلون شكلاً آخر من الإسلام اتخذ مملكة يحكمها قائد شبه إلهي^(١).

وبالرغم من وجاهة الأسباب التى قدمها «وات» لقبول أكثرية القبائل اليمانية فى الكوفة للتشيع لآل علي، فإن عقيدة الشيعة الإمامية - الذين يهنا بحث أحوالهم فى هذا الكتاب - ترفض من آرائه كل فكرة قد تقول بأن الأئمة الاثني عشر - رضى الله عنهم - يتمتعون بصفات شبه إلهية. إذ يعتقد الإمامية بصورة قاطعة أن أئمتهم بشر ولكنهم معصومون من الخطأ والخطيئة والنسيان كما سنفصل فى حينه^(٢).

أما الشيعة الذين سكنوا المناطق الشرقية من البلاد الإسلامية أمثال خراسان والرى وأصفهان وجرجان فيبدو أنهم كانوا فى الغالب خلال القرنين الأول والثانى للهجرة من الغلاة أو من الزيدية.

وعندما ثار زيد بن علي فى الكوفة انضم إليه جماعات من الشيعة الساكنين فى عدد من المناطق الإيرانية. ذكر الأصفهاني: «إن الشيعة لقوا زيدا فقالوا له أين تخرج عنا. . . معك مائة ألف سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان. . .».

«وأقبلت الشيعة وغيرهم يختلفون إليه (زيد) ويتابعون حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة، سوى أهل المدائن. . . وخراسان والرى وجرجان»^(٣). وكان لفشل ثورة زيد أثر كبير فى تكتل الشيعة وهياجهم ضد حكم بنى أمية. قال يعقوبى: «ولما قتل زيد وكان من أمره ما كان تحركت الشيعة بخراسان وظهر أمرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم، وجعلوا يذكرون للناس فعل بنى أمية، وما نالوا

(١) يراجع ما سبق تراث الفرس العرفاني.

(٢) تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص ٦٣.

(٣) مقاتل الطالبين، ص ٩٦.

من آل رسول الله ﷺ حتى لم يبق بلد إلا فشا فيه هذا الخبر وظهرت
الدعاة^(١).

وقبل مقتل يحيى بن زيد قابله متوكل بن هارون فأودعه صحيفة دعاء وقال هي:
«أمانة لى عندك حتى توصلها إلى ابني عمى محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن
الحسن بن علي - رضى الله عنهم - فإنهما القائمان في هذا الأمر بعدى...»^(٢). ومحمد
وإبراهيم هذان هما اللذان ثارا في عهد المنصور العباسي وقتلا بأمر منه^(٣).

أما الشيعة أسلاف الإمامية فيبدو أن عددهم كان ضئيلا جدا في الأقسام الشرقية
من البلاد الإيرانية. وقد وفد المذهب المذكور من الكوفة على يد جماعة من العرب
سكنوا في مدينة اسمها «قم». وقد تكلم الحسن بن محمد القمي (ت: ٣٧٨هـ) عن
تأسيس قم على يد جماعة من عرب الكوفة يعرفون بالأشعرين. وعن جهودهم في
إدخال المذهب الشيعي، الذي عرف فيما بعد بالمذهب الجعفري إلى إيران في كتابه
الموسوم بـ(تاريخ قم)^(٤) وقد أورد ياقوت الحموي تفصيلات عن قم، وقال: إنها «مدينة
مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص
الأشعري... وأهلها كلهم شيعة إمامية وكان بدء تمصيرها في أيام الحجاج بن يوسف
سنة ٨٣ هـ... فلما انهزم ابن الأشعث ورجع إلى كابل منهزما كان في جملة إخوة
يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن وإسحاق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن
عامر الأشعري... وكان متقدما هؤلاء الإخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربي
في الكوفة فانتقل منها إلى قم وكان إماميا^(٥) وهو الذي نقل التشيع إلى أهلها فلا يوجد
بها سني قط»^(٦).

وقد نفى الصادق، وهو إمام الشيعة أسلاف الإمامية، وجود شيعة له في خراسان
بعد نجاح الدعوة العباسية بقليل. ذكر المسعودي أن الإمام الصادق قال لعبد الله بن

(١) التاريخ، ج ٣ (النجف، ١٣٥٨ هـ) ص ٦٥.

(٢) الصحيفة السجادية (النجف، ١٣٥٢) ص ٨.

(٣) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ج ٢، ص ١٩٢ وما بعدها.

(٤) طبع الكتاب المذكور بترجمته الفارسية في طهران سنة ١٣٥٣ هـ. وتاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة
ص ٦٤.

(٥) أصبح الشيعي من أسلاف الإمامية والشيعي الإمامي يعني شيئا واحدا في عهد الحموي.

(٦) معجم البلدان، ج ٧ (القاهرة، ١٩٠٦) ص ١٥٩.

الحسن حين كلمه بأمر رسالة بعثها له أبو سلمة الخلال أول وزير لبنى العباس يدعو فيها لتسلم الخلافة «يا أبا محمد؟ أمر ما أتى بك قال: نعم، وهو أجل من أن يوصف، فقال: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فقال له أبو عبدالله: يا أبا محمد ومتى كان أهل خراسان شيعتك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان وأنت أمرته بلبس السود، وهل الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم، وهل تعرف منهم أحدا؟»^(١).

ويبدو أن الشيعة أسلاف الإمامية، فضلا عن ندرتهم في خراسان حينذاك، لم يسهموا إسهاما فعالا في جهد بنى هاشم المشترك ضد بنى أمية؛ لأن أئمتهم بعد الحسين لا يرون القيام بالسيف في وجه الظلم قبل ظهور المهدي صاحب الزمان.

ويروى أن أبا مسلم كتب إلى الصادق قائلا: «إني قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن موالاة بنى أمية إلى موالاة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك». فكتب إليه الصادق «ما أنت من رجالى ولا الزمان زمانى»^(٢).

ويبدو أن الزيدية والكيسانية هم الذين أسهموا في كفاح بنى هاشم المشترك ضد بنى أمية.

ويقول يحيى بن زيد مقارنا بين نفسه وأبيه وبين أئمة الشيعة أسلاف الإمامية. «إن الله - عز وجل - أيد هذا الأمر بنا وحمل العلم والسيف فجمعنا لنا وخص بنو عمنا (يقصد الإمامين الباقر وابنه الصادق) بالعلم وحده»^(٣).

ب - الأقوام التي قالت بالتشيع خلال القرنين الأول والثاني للهجرة: يبدو أن التشيع في الفترة المذكورة نما في بيئة عربية في الغالب وهي الكوفة وسوادها، كما بينا سابقا، وكانت غالبية مؤيديه حينذاك من سكانها التي كانت أكثرتهم من العرب. يقول جولدتسيهر إن: «التشيع كالإسلام عربى في نشأته وفي أصوله التي نبت فيها»^(٤).

إن النتيجة التي توصل إليها جولدتسيهر لها ما يستند لها في الحديث والتاريخ، أما

(١) المسعودى، مروج الذهب، ج ٣ (القاهرة، لا.ت) ص ١٨٤. تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص ٦٥.

(٢) الملل والنحل، ص ٣٠ - ١.

(٣) الصحيفة السجادية، ص ٥.

(٤) العقيدة والشرعية في الإسلام - ترجمة محمد يوسف - (القاهرة ١٩٤٦) ص ٢٠٥.

في الحديث فإن أبا ذر قال: رأيت رسول الله ﷺ وقد ضرب كف علي بيده وقال: «يا علي من أحبنا فهو العربى ومن أبغضنا فهو العلج، فشيعتنا أهل البيوتات والمعادن»^(١). وقال الإمام الصادق: «نحن بنو هاشم وشيعتنا العرب وسائر الأعراب». وقال أيضا: «نحن قريش وشيعتنا العرب وسائر الناس علوج الروم»^(٢).

كانت سياسة التمييز في الحقوق بين العرب وغيرهم من سكان الإمبراطورية التي اتبعها الأمويون، الذين كانوا يمثلون سيادة العرب لا سيادة الإسلام، من العوامل التي دفعت الموالي للانضمام تحت راية الأحزاب المعارضة من خوارج وشيعة. وحاولت أحزاب المعارضة من جانبها أن تجد في الموالي حلفاء على بنى أمية، فاستعان بهم المختار، كما أسلفنا، كما استعان بهم عبد الرحمن بن الأشعث في حركته ضد الأمويين، واستعان الخوارج والشيعة بالموالي، ولكن الشيعة كانوا أكثر نجاحا من الخوارج في ضم الموالي إلى صفوفهم في كفاحهم مع بنى أمية^(٣).

وكان جل الموالي الذين انضموا إلى التشيع خلال المراحل الأولى من تاريخه هم من الغلاة كما سنيين في الفصل الثالث من هذا الكتاب. أما الفرق الشيعية المعتدلة التي جمعتها عقيدة الإمامية الاثني عشرية فيما بعد، فيظهر أنها لم تجد تربة خصبة في إيران خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

وتركز التشيع المعتدل في الفترة موضوع البحث في مدينة قم كما أسلفنا، وسبق أن بينا أن الإمام محمدا الصادق أنكر وجود شيعة له في إيران عند قيام الدولة العباسية. كما أن معظم البيوتات المهمة ذات الأصل الإيراني أو التي اتخذت من إيران مراكز لحكمها كالبرامكة وبنى طاهر الإيراني لم يكونوا من الشيعة. يضاف إلى ذلك أن أمثلة وردت يتبين منها أن الشيعة في النصف الأول من القرن الثالث كانوا مضطهدين في خراسان. روى الكشي أن محمد بن طاهر (ت: ٢٢٦هـ) غضب على أبي يحيى الجرجاني، وهو من الشيعة «فأمر بقطع لسانه ويديه ورجليه، ويضربه ألف سوط ويصلبه... وسعى بذلك محمد بن الرازي... بحديث روى محمد بن يحيى... لعمر بن الخطاب. فقال أبو يحيى: ليس هو عمر بن الخطاب هو عمر بن الشاكر...»^(٤).

(١) الديلمي، إرشاد القلوب، ج ٢، ص ٤٧.

(٢) الكليني، الكافي، ج ٨، ص ١٦٦.

(٣) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص ٦٨.

(٤) الرجال، ص ٤٤٧.

ويبدو أن غالبية الإيرانيين استمرت على رفضها للتشيع خاصة المعتدل منه إلى ما بعد الفترة التي حددناها في صدر هذا البحث. فالمقدسى حين يتكلم عن السواد الأعظم من المسلمين يقول: «ولم أر السواد الأعظم إلا من أربعة مذاهب: أصحاب الشافعي بالشاش وخزائن نيسابور، وأصحاب الحديث بالشام... وبقيّة الأقاليم ممترجون...».

ويقول أيضا: «الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة... وبالكوفة للشيعة إلا الكناسة فإنها سنية... وأكثر أهل البصرة قدرية وشيعة... وفي الموصل حنابلة وجلبة للشيعة...»^(١).

ويبدو من النص السابق أن مركز الشيعة الرئيسي في القرن الرابع الهجري الكوفة بخاصة والعراق بعامة وأن الشعوب الإيرانية كانت منقسمة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي^(٢).

ولعل انتشار المذاهب السنية في إيران حينذاك يفسر لنا كيف أن معظم قادة الفكر السني في الفترة موضوع البحث كانوا من الإيرانيين أو عاشوا بأرض إيرانية، وذلك أمثال أبي حنيفة والشيخ معروف الكرخي والبخاري والغزالي ونظام الملك الذي عرف بمقاومته للتشيع حين أنشأ المدارس النظامية المعروفة.

أما كيف انتشر التشيع في إيران وكيف أصبحت إيران من أمهات بلدان الشيعة في الوقت الحاضر فهي خارجة عن نطاق بحثنا. ونكتفي هنا بإيراد رأيين لكاتبين معاصرين وهما أحمد كسروي ودونالدس. يقول كسروي: «شاع الترفض في إيران ولكنه لم يتمكن إلا في بعض البلدان من قم وسيزوار وغيرهما فكان الغالب على الإيرانيين التسنن ولاسيما أيام السلجوقيين الذين كانوا ملوكا يتعصبون لأهل السنة»^(٣).

ويقول دونالدس: وعندما استولت الأسرة الصفوية في ابتداء القرن السادس عشر على الحكم جعلت بدورها المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة^(٤).

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (لندن، ١٩٠٦) ص: ٣٩، ١٣٦، ١٤٢..

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري آدم متر ترجمة أبو ريلة.

(٣) التشيع والشيعة (طهران، ١٣٦٤) ص ٥٢.

(٤) عقيدة الشيعة، ص ٢٩٠. وتاريخ الإمامية ومن سلف الشيعة ص ٧١.

ثورة الإمام زيد:

من أقوال معاوية ونقد الحسن البصري:

إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا. هكذا ملكنا، وحسبنا أن نورد هنا ما قاله الإمام الحسن البصري - رحمه الله - فى معاوية لقد قال: أربع خصال فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة وهى:

١ - خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها - يعنى الخلافة - بغير مشورة منهم.

٢ - استخلاف ابنه يزيد وهو سكير خمير يلبس الحرير ويضرب بالطناير.

٣ - ادعائه زيادا وقد قال النبى ﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر.

٤ - قتله حجر بن عدى.

وتسلم بعده يزيد الثانى بن عبد الملك حسب وصية سليمان، ولعدم^(١) حكمته، فقد عجز عن حفظ التوازن بين القبيلتين اليمنية والمضرية حسب السياسة الأموية المتبعة؛ لذا ثارت اليمانية عليه بقيادة يزيد بن المهلب، وظهرت الفتن فى كل أصقاع الدولة، ولما مات حزينا على جاريته حباة، تسلم الحكم بعده أخوه هشام بن عبد الملك، وبالرغم من قوته، ودعائه وحزمه، فقد تمكنت الدعوة العباسية المسترة بالدعوة العلوية من النمو والانتشار، وبالأخص بعد مقتل الإمام زيد بن علي الآتى ذكره - إن شاء الله.

كما قامت عدة ثورات أدت إلى الوهن، ثم الانحدار ثم إلى الزوال، ومن تلك الثورات ثورة عبادة الرعينى فى اليمن وثورة البربر والخوارج فى أفريقيا، وكان لها الأثر العظيم فى الأندلس، وأهم كل تلك الثورات لما خللته من أفكار هى ثورة الإمام زيد^(٢).

خروج زيد بن علي:

خرج فى الكوفة زيد بن علي (بن الحسين)، أحد حملة علي، مطالبا بحق بيته

(١) القضاء والقدر مونجمرى وات.

(٢) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٦٣ على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين

فى الخلافة . فبايعه الناس على أن يتخذ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هاديا وإماما، وعلى أن يقاتل الحكام الآثمين، ويحامى عن الضعيف، ويقيم العدل فى أمر أولئك الذين سلبوا أعطياتهم، ويوزع موارد الدولة بالتساوى، ويستدعى الجنود المقاتلين فى البلدان النائية . وعلى الرغم من أن أمير العراق، يوسف بن عمر الثقفى، استطاع أن يخدم الثورة، فى غير ما صعوبة، بعد أن قتل زيدا فى معركة دارت فى الشوارع، فالحق أن ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التى أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين . وفى القرن التاسع أسس أتباع زيد بن علي هذا دولة فى اليمن ثبتت على رعاى القرون المتطاولة، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التى لا تزال قائمة إلى اليوم .

ولقد ترك لنا أحد هؤلاء الحكام المحليين - وهو حسن الهمداني الذى توفى فى سجن صنعاء سنة ٩٤٥ بعد اشتباكات متلاحقة مع القوى السياسية المسيطرة على طبقته الأرستقراطية - صورة عن موطنه المستغرق فى الاقتتال بأمجاده الثقافية القديمة التى ليس لأى من الأقاليم الإسلامية ما يضارعها . وذلك فى كتابه «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب» . والحق أن الحكومة العباسية قد رأت من الخير، فترة من الزمان، أن تشجع نشوء القوى المحلية إلى جانب عمالها الرسميين . بذلك على ذلك أن المأمون، بعد أن أخفقت سياسته العلوية وجه إلى بلاد العرب الجنوبية قوات خراسانية تحت قيادة جندى مجرب اسمه محمد، وكان يدعى النسبة إلى زياد بن أبيه أخى معاوية لأبيه وأمير العراق، فوفق محمد هذا إلى إخضاع المقاطعات الساحلية حتى الشحر فى حضرموت ومشارف البلاد لسلطانه، فى حين ظلت الأراضى الجبلية خاضعة للحاكمين فى صنعاء^(١) . ومن مقره فى زيد استطاع هو وأعقابيه أن يحتفظوا بسلطتهم فى البلاد طوال مائة وخمسين عاما، وإن لم يستقر لهم الأمر دوما . ومهما يكن من شىء، فقد كبرت سلطة خلفه الثانى كبحا شديدا على يد يعفر بن عبد الرحمن أحد الأشراف المحليين الذين شقوا عصا الطاعة على عامل المعتصم . ولقد استطاع يعفر من مقره فى شبام أن ييسر سلطته فى اتجاى الجنوب، فى حين وفق ابنه إلى حمل الحكومة المركزية على الاعتراف به أميرا على صنعاء . ولم يلبث العلويون أن أدلوا دلوهم بين الدلاء؛ فقد ظهر دعاة القرامطة، فى المناطق الجبلية النائية، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بمركزهم طويلا، وإن لم ينقطعوا عن بث دعايتهم الدينية السياسية . هذا من ناحية ومن ناحية

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٢٦ كارل بروكلمان .

ثانية فقد نجح أحد أعقاب زيد بن علي في أن ينشئ لأسرته سلطة هناك استطاعت أن تصمد لعاديات الأجيال والقرون، ولا تزال إلى اليوم تؤلف عنصرا قويا في تاريخ بلاد العرب. فبعد أن أخفقت المغامرة التي نهض زيد بعبيها في العراق، ابتغاء القضاء على سلطة الخليفة الأموي هشام، انسحب أعقابه إلى المقاطعات الواقعة في أطراف الإمبراطورية، واتفق أن كان أشرف طبرستان ومازندران على الساحل الجنوبي من بحر قزوين يتلمسون رعيما يسندون إليه أمورهم تخلصا من جور الأمراء من آل طاهر، فوضع الحسن بن زيد، أحد حفلة زيد بن علي، نفسه في خدمتهم. وكان ينزل في مدينة الري، ويمتار عن أجداده بقوة العزم وبراعة السياسة.

ولقد وفق هو وأعقابه، إلى أن يثبتوا هناك مدة تزيد على نصف قرن (٨٦٤ - ٩٢٨) حفلت بالحروب المتطولة.

كذلك ظهر من أعقاب زيد، يحيى بن الحسين، حفيد القاسم بن إبراهيم، المعروف بالرسي نسبة إلى الرس، وعلقت عليه الآمال، بسبب علمه وورعه، في أن يبعث في أثناء إمامته أمجاد البيت (العلوي). حتى إذا تبين له، بعد زيارة قام بها لأبناء عمومته في طبرستان، أن من المتعذر عليه أن يمكن لنفسه هناك، وجه نظاره نحو بلاد العرب الجنوبية حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها^(١).

وكان خبر هذه الفوضى معروفا في المدينة. وفي ٦ آذار سنة ٨٩٧ ظهر خمسون رجلا ليس غير أمام أبواب صعلة وهي الموقف الرئيسي القائم على طريق الحاج بين مكة وصنعاء، والباعد عن الأخيرة مسيرة خمسة أيام فقط. ومن هناك دعا الناس، بوصفه الإمام الهادي إلى طاعة آل الرسول ﷺ وكما ساعدت الحزارات القبلية، التي دعا الرسول ﷺ إلى إزالتها، على تدعيم مركزه كزعيم للمدينة. فكذاك وفق الهادي إلى اكتساب عدد متزايد من الأتباع بسبب الحكومة التي أصلح بها ما بين المسلمين والنصارى في أسقفية نجران القديمة أولا، وما بين القبائل الضاربة في تلك المنطقة، في ما بعد. ولكن سلطته ظلت مقتصرة على صعلة وما جاورها؛ لأن القرامطة ورجال الدولة اليعفرية في جنوبي البلاد كانوا ينازعونه نفوذه هناك. ومهما يكن من أمر، فقد ترك الهادي لأبنائه، بعد أن توفي في ١٨ آب سنة ٩١١، مركزا مكينا لم يلبشوا أن انطلقوا منه ويسطوا سلطانهم على البلاد كلها. (٢).

(١) نفس المرجع ص ٢٢٧. (٢) تاريخ الأمم والشعوب ص ٣٥٠ بروكلمان.

الثورة على الظلم إصلاح:

إن الثورات الإسلامية التي قام بها الأئمة من أهل البيت النبوي الشريف ابتداءً بالحسين بن علي، وحفيده زيد بن علي، وابنه يحيى، وتحقيقاً لإرادة شعوبهم، وأممهم، ومتطلباتها من حق، وعدل، وحرية، ومساواة، ضمن العقيدة الإسلامية، وعلى أرضية المحبة الإنسانية، والأخوة الإسلامية.

ولذا فقد تزهت ثوراتهم عن العنصرية، والطائفية، والقومية، والإقليمية والمادية وغير ذلك من الأفكار الجاهلية، والمادية، التي يتصارع الناس عليها اليوم.

وكان الأئمة يبدؤون عند وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتكوين الأمة التي أمر الله بقوله: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...﴾ (١٠٤) [آل عمران]. فإذا أكملوا التكوين بدأوا في التنفيذ. وليس كما يقول ويزعم بعض المغرضين: بأن للإمام رغبة في الحكم، وحبا للتسلط، يخرج شاهراً سيفه لإرهاب الناس وإخضاعهم، بل لقد زعم هذا البعض بأن ما زعمه هو من شروط الإمامة في النظر الزيدي^(١).

لقد بدأ الإمام زيد هذه البداية في العراق، غير أن السلطة الأموية لم تتح له فرصة الاستكمال، فلذلك دفع إلى المعركة في الوقت الذي أراده الحاكم الأموي بعده، فاضطر إلى إعلان الثورة. والدخول فيها بجيش لا يماثل جيش أعدائه، ولا يقارب عددهم ولا عدتهم. أما كيف دفع إلى المعركة ولم دفع إليها؟

فذلك أن هشام بن عبد الملك قد كان من الذين يعرفون بدقة ما تكنه الأمة الإسلامية لهذا البيت النبوي الشريف وبالأخص بعد محنة الحسين - وخشى وجواسيسه أن تنقل إليه تمهكات الشيعة في العراق وخراسان - أن يكون زيد بن علي الذي يعرفه مكانة وكفاءة هو من تبحث عنه الشيعة لقيادتها، ومن تسعى إليه لهدايتها، وإذا فعلت فهو يندري بأنه لا قوة تقف أمامها ولا مال يفرق جموعها.

والجاء نحو العراق، فلقيت الشيعة فيه ضالهم المنشودة، وبغيتهم المقصودة، فالحوا عليه بالبقاء بينهم، وأظهروا له الاستعداد الكامل للجهاد معه في سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، هنا تحتم الوجوب عليه بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوافقهم

(١) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٣٥ .

على الرغم من أن من كان معه من أهله قد حذرته من الاستجابة لهم، ولكنه أثر الدين على الدنيا، والآخرة على الأولى. وشرع مستكثما في تكوين وتنظيم أمة الدعوة إلى الخير كما أمر الله وأصبح بالتالي تحت رقابة هشام بنفسه؛ لذا فلم يمهله إلا بضعة شهور، ثم أمر يوسف بن عمر بإعلان الحرب عليه، ودله على مكانه في الكوفة^(١).

فاضطر الإمام إلى إعلان الثورة في غير وقتها المطلوب، ومع عدم التكافؤ في القوة فقد كانت النتيجة معروفة لديه سلفا، وهذا هو بالفعل الذي دفع غلاة الشيعة للنكوص عنه، والنكت للبيعة، متعللين بما أثاروه من جدل حول موقف الإمام زيد من أبى بكر وعمر، لعدم تبريه منهما قالوا له: ولم تقاتل؟ فقال لهم: إنما أقاتل لإحياء السنن، وإماتة البدع، وإزالة الظلم عن المظلومين، فلم يستجيبوا، ورفضوا القتال معه، فقال لهم: اذهبوا فأنتم الروافض. فصارت هذه الكلمة علما لهم، ودخل زيد المعركة بما يقرب من ثلاثمائة مقاتل ففعل الأفاعيل في جيش هشام حتى رمى بسهم أصاب دماغه، فقتل به شهيدا - رضوان الله عليه -.

وحاول ابنه يحيى ومن بقى من أصحابه إخفاء قبره، فدفنوه في محل مجهول، وأجروا من فوقه الماء مبالغة في إخفائه، ولكن جواسيس هشام عرفته، فنبشه يوسف بن عمر، واحتز رأسه، وأرسله إلى هشام، ثم صلب الجسم الشريف في محل الكناسة، ويبقى مصلوبا أربعة أعوام، وأخيرا أمر الوليد بن يزيد بن عبد الملك خليفة هشام بإنزاله، وإحراقه وذر رماده في الفرات، انتقاما لنفسه المتأججة بالحقد على أن الثائر عليه يحيى ابن زيد في خراسان، وبالرغم من أن ثورة يحيى بن زيد قد انتهت بقتله في خراسان فقد كان لها ولثورة أبيه زيد الأثر البالغ في نجاح الثورة العباسية التي قضت على الدولة الأموية. وأما هشام بن عبد الملك فقد هلك بعد استشهاد زيد بثلاث سنين فقط.

آثار الثورة:

لقد استولت الأهداف والمبادئ الزيدية على مشاعر الجماهير الإسلامية في كل بلد إسلامي بلغته تلك الأهداف والمبادئ. أما في العراق والحجاز واليمن وخراسان فقد انتشرت فيها أفكار، وطبقت عملا، وكانت المشعل المنير لكل الحركات التحريرية في عهد بنى أمية وبنى العباس وما نحن أولاء ستتابعها ضمن السرد التاريخي لحكام الدولتين.

(١) نفس المرجع ص ١٣٦.

وأول بلد حمل مشعلها بعد العراق هو خراسان حيث انتقلت إليه مع الناصر الإمام يحيى بن زيد - رحمه الله - . وفى الحجاز اجتمع كبار أهل البيت وفيهم آل العباس وعلى رأسهم كبير بنى هاشم كلها فى عصره عبد الله الكامل بن الحسن بن علي بن أبى طالب - عليهم السلام - واتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله النفس الزكية، والعمل متوحدين ضد الظلم والطغيان الأموى، فعمل كل فى مجاله^(١).

وبعد قتل الإمام الحسين تفرق من بقى سالما من جيشه فى الآفاق، ومنهم إدريس ابن عبد الله بن الحسن، ويحيى بن عبد الله بن الحسن. فأما إدريس فلحق بالمغرب وتمكن من تأسيس دولة هناك. وبعد هذه المعركة لم تطل مدة موسى الهادى، فقد مات بعد بضعة أشهر منها سنة ١٧٠هـ. قتل بمرض القرحة فى بطنه، وقيل قتله أمه الخيزران بوساطة جوارىها. وتسلم الحكم بعده هارون الرشيد وبه ابتداء العصر الذهبى كما يقولون وبلغ الحكم القمة فى عهد ابنه المأمون، ولكن هذا العصر الذهبى لم يخل من المشاكل، فقد ثار فى الديلم يحيى بن عبد الله الذى نجا من مقتله فخرج - وأرسل هارون لإخضاعه جيشا بقيادة الفضل بن يحيى، وتمكن الفضل من أن يتجنب الحرب مع الإمام يحيى، بل وتمكن من استسلامه للمصالحة مع هارون الرشيد أمانا بخطة، ويشهد عليه العلماء والصلحاء والوجهاء لديه ففعل الرشيد ذلك كله، ولكنه بعد وصوله إليه حبسه بمئزر جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى مدة، ثم أنزله (المطبق) مكان مظلم فى السجن ومات به مسموما، وقيل جوعا وعطشا، وقيل بل: أطلقه جعفر فذهب فى الأرض متخفيا حتى مات، ومن يرى هذا القول يقول: إنه كان السبب الأهم فى قتل الرشيد جعفر البرمكى والقضاء على البرامكة.

ومهما يكن فالإمام يحيى قد انتهى، ولكن الثورات لم تنته، ففى اليمن ثار هيثم بن عبد الرحمن الهمداني، فأرسل إليه جيشا بقيادة حماد البربرى الذى نصحه الرشيد بالنصيحة المشهورة - وهى: أسمعنى أصوات أهل اليمن - وثارت الخرمية بقيادة بابك الخرمى وقد دعت هذه الثورة إلى الإباحية والاشتراكية المزدكية، ولا تزال هذه الفرقة باقية فى إيران حتى اليوم، ولكنها من الأقليات، وقد صعب على الرشيد القضاء عليها حتى مات سنة ١٩٣هـ. وتسلم الحكم ابنه الأمين ولم يكن قادرا على تحمل المسئولية لذلك فقد لعبت فى عهده السياسة الهدامة حتى أوقعت صريع أخيه المأمون^(٢).

(١) نفس المرجع ص ١٣٧.

(٢) نفس المرجع ص ١٤٠.

وفى أيام المستعين بالله ثار فى العراق الإمام يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين - رضوان الله عليهم - . وثار فى طبرستان الإمام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي - عليهم السلام جميعا - سنة ٢٥٠هـ .

أما الإمام يحيى بن عمر فقد انتهت بقتله بعد عدة معارك - رحمه الله - وأما الحسن بن زيد فقد قوى أمره، واشتد ساعده، حتى تمكن من تأسيس الدولة الزيدية فى طبرستان، وما إليها، وانفصلت عن الدولة العباسية نهائيا فى عهد أحمد بن المتوكل الملقب بالمعتمد، واستمرت أكثر من مائتى عام تنعم بالحكم الزيدى بقيادة الأئمة من أهل البيت النبوى الشريف - رضوان الله عليهم -^(١).

وكما تأسست الدولة الزيدية فى طبرستان برغبة أهلها واختيارهم، فقد تأسست فى اليمن كذلك برغبة أهلها واختيارهم.

سبق أن عرفنا أن المعتصم العباسى (ت ٢٢٧) أسس جيشا من الأتراك والمغاربة؛ ليهدد به القوى العسكرية العربية والفارسية، ولكن هذا الجيش ما لبث إلا قليلا بعد موت المعتصم.

وفى عهد المعتمد انفصلت طبرستان، وتحررت بقيادة الإمام الداعى الحسن بن زيد - رحمه الله - وهو مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان كما سلف ذكره.

وانفصلت عن الدولة العباسية فى عهد المعتمد الدولة السامانية، واستقل بملك مصر والشام أحمد بن طولون.

ويعد موت المعتمد سنة ٢٧٩، أقام الجيش المعتضد أحمد ت ٢٨٩. وفى أيامه ظهرت القرامطة فى العراق، والبحرين، واليمن، وعمت كل أنحاء الدولة العباسية الفوضى، وأصبحت مشخنة بالفتن، ومتخمة بالدويلات، والحكومات، والمشیخات.

ففى تهامة كان يحكمها إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن زياد بن أبيه، وكان مع والده محمد عامل المأمون ومؤسس الدولة الزيدية فى اليمن - كان مثالا للظلم والاضطهاد، وبالأخص لشيعه الإمام علي - كرم الله وجهه - تنفيذا لرغبة الحكام العباسيين الذين اختاروا والده محمدا؛ لكونه من رجال الأسرة الزيدية المعادية لأهل

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤١.

البيت النبوى الشريف، وشيعتهم وهى أسرة زياد بن أبيه الذى استلحقه معاوية بنسبه كما قال عمارة اليمنى فى تأريخه المفيد وغيره من المؤرخين.

أما الحكم فى جبال اليمن فكان موزعا بين حكومات، ومشيوخات كثيرة، فمنها حكومة أسعد بن أبى يعفر المتوفى سنة ٢٣١. وكانت بشبام وكوكبان، وصنعاء وما إليها، وفى حاشد مشيخة آل الضحاك، وفى أرحب وما إليها مشيخة آل الدعام، وفى خولان العالية مشيخة آل أبى الفتوح، وفى عدن لاعة، ومسور حجة حكومة حسن بن فرج بن حوشب بن راذان الكوفى بلدا الإسماعيلية مذهباً، وكان لقبه الإسماعيلية منصور اليمن^(١).

وفى يافع ثم المذبخرة وما إليها حكومة علي بن فضل بن جعدن الخنفرى الجيشانى، وكان هذا فى البداية محافظاً على الانتماء الإسماعيلية مذهباً، وعلى الانتماء السياسى لحفيد إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو عصره، وعبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٨٠ - ٣٢٢هـ.

ولكن ابن فضل انحرف بعد أن استقام أمره إلى المنهج الإسماعيلية القرمطى أتباع حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط أى المعلم، وهذا المنهج يخول لمتبعه الاستقلالية فى الحكم، ويخول للمتبعين من الحكم كل الحقوق التى يتمتع بها الإمام فى نظرهم، حتى حقوق التحليل والتحريم.

أما منصور اليمن حسن بن فرج بن حوشب فقد استقام على دعوته الإسماعيلية حتى مات، ثم تناقلها عنه الدعاة حتى تسلمها علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية فى اليمن ٤٣٩ - ٤٥٨هـ.

الإمام الهادى واستقرار الزيدية فى اليمن:

وللتخلص من هذه الأوضاع التى مزقت اليمن، وشئت شملها، وعمت بسببها الفتن والمحن، فكر اليمينيون المخلصون من شيعة أهل البيت النبوى وغيرهم فى إيجاد حل لكل تلك المشاكل، وأجمع رجال الحل والعقد فيهم على البحث عن رجل من أهل البيت، يوحد شمل اليمينين، ويقودهم إلى شاطئ الأمن والاستقرار فى ظل الحكم الإسلامى الصحيح القائم على الحق والعدل والشورى، ففتشوا الأرض فلم يجدوا قريبا

(١) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٤٣.

منهم لذلك إلا يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم - عليهم السلام - . وجدوه مع أهل بيته فى زاوية من زوايا الحجار، البعيدة عن أنظار الحكام العباسيين، فى قرية اسمها (القرع) بضم الفاء فى سفح من سفوح الرس، وتقع فيما بين المدينة المنورة وبين الجهة الشرقية من بدر، مكان الغزوة النبوية المشهورة، وتبعد عن المدينة جنوبا مسافة سبعين كيلو مترا تقريبا، ولا يزال إلى الآن أثرها قائما.

وجدوه هنالك ينشر العلم، ويدعو إلى الله، ويعد أن خبروه ودرسوه، وأعجبوا به عقيدة وسلوكا، دعوه للخروج معهم إلى اليمن للدعوة إلى الله، ولتوحيد شمل اليمنيين على منهج الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وبعد أن استخار الله لى دعوتهم، وسار معه بضعة ^(١) من أهله، ومريديه فوصل صعدة لسته أيام خلون من شهر صفر سنة ٢٨٤هـ. وهذه هى المرة الثانية التى يخرج فيها إلى اليمن تلبية لطلب أهلها، وكان قد خرج عام ٢٨٠هـ. وبدأ بالإصلاح ثم رجع إلى بلده الحجار لما وجدهم لا يطيعونه إذا أمرهم بمعروف أو نهاهم عن منكر.

أما هذه المرة فما بلغ الناس قدومه حتى خرجوا من صعدة لاستقباله، فبادر لإصلاح ذات شأنهم، فدعاهم إلى التطهير من الأحقاد والضغائن التى ولدتها الحروب بينهم، وذكرهم، وخوفهم فى خطبة وعظية طويلة، أبكاهم ما سمعوا من كلامه، وتذكيره فيها، ثم لم ينصرفوا إلا وقد أصلح شأنهم، واختلط الفريقان المتحاربين يقبل بعضهم بعضا، وبعدها بايعوه جميعا إماما شرعيا، وحلفوا له على الطاعة، والمناصرة، والقيام بأمر الله، وبالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم دخلوا جميعا صعدة، وكان هذا أول عهد الدولة الزيدية فى اليمن ٢٨٤هـ.

مبادئ دعوته:

وفىها خطب فى الناس، وأعلن فى خطابه دعوته، ووضح فيه منهجه السياسى فى الحكم، ودستوره الذى سوف يسير على نهجه، فقال - عليه السلام: أيها الناس أدعوكم إلى ما أمر الله أن أدعوكم إليه، إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فما جاءنا به الكتاب اتبعناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وإلى أن تأمر نحن وأنتم بالمعروف ونفعله، وننهى نحن وأنتم عن المنكر جاهدين ونتركه، ثم شرط على نفسه شروطا فقال:

(١) نفس المرجع ص ١٤٥.

أيها الناس وبعد فإنني أشتري لكم أربعا على نفسي:

١ - الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٢ - والأثرة لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم، أوثركم فلا أنفصل عليكم.

٣ - وأقدمكم عند العطاء قبلي.

٤ - وأتقدم أمامكم عند لقاء عدوي وعدوكم بنفسى.

وأشتري لنفسي عليكم اثنين:

١ - النصيحة لله سبحانه، ولى فى السر والعلانية.

٢ - الطاعة لأمرى على كل حالانكم ما أطعت الله، فإن خالفت طاعة الله فلا حجة لى عليكم.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾ [يوسف].

وتلقى الشعب اليمنى هذه الدعوة الإسلامية بالطاعة والانقياد؛ إذ وجدوا فيها الخلاص من الفتن والمحن، ومن دكتاتورية الدويلات المتناحرة فى أكثر مناطق اليمن.

ولذا فقد تمكن الإمام الهادى - عليه السلام - من السيطرة بالحق والعدل على اليمن ما عدا منطقة بنى زياد التهامية وذلك بوساطة القوى الشعبية المؤمنة، التى تلوقت حلالة السعادة فى ظل دولة الحق، والعدل، والحرية، والمساواة، وغير ذلك من القيم الإنسانية، التى استوعبها الفكر الإسلامى، الذى حملة إليهم الإمام الهادى - رحمه الله - وطبقه عقيدة وممارسة بينهم. وبدأ فى المناطق وكان واليه على عدن أبو عبد الله الرازى. أما الحجاز فقد استمر على ولائه سبع سنوات وخطب له فيها بمكة المكرمة.

ثم انقلب على الباطنية الإسماعيلية التى التزم بها مع ابن حوشب الكوفى ردحا من الزمن، وتحول إلى الباطنية القرمطية التى تعنى القيام مقام الإمام المستور فى الحكم أصلا لا نيابة، وحارب ابن حوشب زميله فى الدعوة، ورفيقه فى العهد الذى أخذه عليهما الإمام المستور (حسب التعبير الإسماعيلى) حسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبه دخلا اليمن سنة ٢٦٨هـ للدعوة

الإسماعيلية، والسمع والطاعة لابنه عبيد الله المهدي الذي أخبرهم بأنه سيظهر في المغرب، وربما أن علي بن فضل القرمطي قد اندفع إلى هذا التحول لما فيه من إرضاء لطموحاته، ومن حفاظ على ذاتيته اليمنية فأبى لذلك أن يخضع لعبيد الله المهدي، بل أقام نفسه إماما ينهج نهج الأصول الإمامية الباطنية القرمطية.

والحفاظ على الذاتية اليمنية هو الذي حمل فيما بعد باطنية اليمن على عدم الاعتراف برئاسة داود بن عجب شاه الهندي، واختاروا لهم رئيسا يمينا اسمه سليمان بن الحسن، وبذلك انقسمت المستعيلة الباطنية إلى قسمين: داودية، وسليمانية.

وفي هذه الفترة التي ظهرت فيها الباطنية في اليمن، وتغلبت على أكثر مناطقها وحكوماتها ومشيخاتها اضطروا أولئك الذين خالفوا الإمام الهادي، ونكثوا بيعته إلى الرجوع إليه. والاستناد إلى مذهبه الذي يشمل مبادئ وأهدافا إسلامية ترضى الفقراء، ولا تسخط الأغنياء وتلك هي مزية الإسلام على ما سواه من الملل والنحل.

وتحالفوا جميعا على الوقوف معه؛ ليحاربوا الباطنية بكل أشكالها وألوانها. ومن المهم الآن أن نتعرف على فكر الباطنية؛ لتكون على بينة من أمر أصحابها ومعتنقيها، ومن أمر أعاديها، ومحاربيها، على مدى التاريخ الإسلامي الطويل.

والذي يظهر أن الباطنية قد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كدعوة دينية، وسياسية ويتخطيط سرى دقيق.

وظهر من إنتاجها الفكري المبكر رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وهذه التسمية تدل بوضوح على أن وراءها جمعية سرية ذات مبادئ وأهداف، وهي تركز على فلسفة تتبع في حدوث الكائنات الفلسفية الأفلاطونية الجديدة.

وتتبع الفلسفة الفيثاغورية القديمة في تقديس العدد (٧) وجعل النظام الكوني والحوادث التاريخية مرتبة عليه، وقد أكد هذا ما ظهر من مؤلفاتهم، ورسائل دعائهم، ومن خلال الدراسات الفاحصة لممارساتهم في عهود الظهور - كما يسمونها - التي فيها حكموا اليمن من جملة ما حكموا من أقطار في منطقة الشرق الأوسط، ولكن لم يستطع أحد من الباحثين كما أعلم أن يحدد بالأدلة القاطعة رجال هذا الفكر والفلسفة للعقيدة الباطنية، ويرجع السبب في ذلك إلى ما عرفوا به من حرص شديد على السرية والتستر، حتى أنه أصبح أصلا من أصول الدعوة الباطنية التي يتمسكون بها حتى هذا

العصر، الذى انطلق فيه كل ذى عقيدة إلى الإفصاح عن عقيدته فى دول العالم - وسموه لذلك ونحوه عصر الحريات.

واستجاب الهادى - عليه السلام - لداعى الواجب وهب من جديد لتطهير صنعاء واليمن من ضلال القرامطة والباطنية بشكل عام. وعباً جيوشه وأشعلها حرباً على الباطنية، ومن بغى عليه من غيرهم ومكث على هذه الحال من سنة ٢٩٤هـ حتى سنة وفاته ٢٩٨هـ - رضوان الله عليه.

وفى خلالها طهر صنعاء من القرامطة مرتين، ومسحقهم مرات فى نجران، وغير نجران، ومن أراد الاطلاع على ذلك فعليه بسيرته المطبوعة وأمثالها من كتب التاريخ.

ويبقى علينا الآن أن نعرف الإمام الهادى - عليه السلام - نسباً وسلوكاً بعد أن عرفناه فيما تقدم عقيدة وإماماً، لتتمكن بعد ذلك من العلم بحسن اختيار أولئك اليمينين الذين تجمشوا الصعاب حتى اختاروا الإمام الهادى؛ ليكون لهم إماماً وقائداً، ومن العلم بخطأ الذين عارضوهم، أو انتقدوهم على ذلك. فمن هو الإمام الهادى؟.

الإمام الهادى:

هو: الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديتاج بن إبراهيم الشبه بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم.

مولده فى المدينة المنورة سنة ٢٤٥هـ دعوته الأولى ٢٨٠هـ دعوته الثانية ٢٨٤هـ موته رحمه الله ٢٩٨هـ.

صفته الشخصية: قال الإمام المنصور عبد الله بن حمزة - رضوان الله عليه: كان الإمام الهادى أسدياً - أى يشبه الأسد - أنجل العينين، غليظ الساعدين بعيد ما بين المنكبين والصدر. خفيف الساقين والعجز كالأسد.

سلوكه: هو باختصار أشبه فى سلوكه برسول الله ﷺ، وعلي - كرم الله وجهه، وقد كان يحلف أمام الجماهير بأنه لم يتجاوز فى سيرته كلها قبل الإمامة وبعدها حدود الورع والتقوى، والعدل والإنصاف.

وكان لا يفضل نفسه على غيره، سباقاً إلى الخير حيث كان ومهما كان، وكان يعالج الجرحى فى الحروب بنفسه، ويطعم الأيتام بيده. وكان يقرئ السلام على

الصغير، والكبير، ممن يعرف وممن لا يعرف. وكان يكره الظلم، والقهر، والغصب، والنهب، ولا يرضى بذلك. ومن أجل هذا فقد ترك اليمن وحكمه، ورجع إلى الحجاز بعد خروجه المرة الأولى؛ لما رأى من أصحابه عدم الطاعة لأوامره ونواهيته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال كلمته المشهورة: والله لن أكون فيكم كالمصباح يحرق نفسه ويضيء لغيره، ولكن أهل اليمن افتقدوه، ورجعوا إليه بعد سنتين، وطالبوه بالخروج، وتعهدوا له بالطاعة، فلبى النداء وخرج إليهم للمرة الثانية سنة ٣٨٤هـ.

الشهادة له وللائمة من بعده:

شهد له وللائمة الهداة من بعده كبار المؤرخين، والعلماء المحدثين في العالم وكلهم من غير أتباع المذهب الزيدي. فمن ذلك شهادة ابن حزم الظاهري فقال:

ليحيى هذا الملقب بالهادي رأى في أحكام الفقه قد رأيت، ولم يبعد فيه عن الجماعة. وقال يحيى بن أبي بكر العامري الشافعي في الرياض المستطابة بعد أن أثنى على الأئمة:

جاء - أي الإمام الهادي - إلى اليمن وقد عمَّ بها مذهب القرامطة، والباطنية فجاهدهم جهادا شديدا، وجرى له معهم نيف وثمانون وقعة لم ينهزم في شيء منها وكان له علم واسع، وشجاعة مفرطة. ثم قال العامري: وذكر ابن الجوزي وغيره: أن الأئمة المتبوعين في المذاهب الإسلامية بايع كل واحد منهم لإمام من أئمة أهل البيت النبوي الشريف، بايع أبو حنيفة - الإمام إبراهيم بن عبد الله. وبايع مالك - لأخيه محمد. وبايع الشافعي لأخيهما يحيى.

وقال ابن حجر في فتح الباري شرح البخاري في شرح حديث «لا يزال هذا الأمر في قریش ما بقى منهم طائفة» من بنى الحسن، ولا يتولى الإمامة فيهم إلا من يكون عالما متحريرا للعدل^(١).

(١) نفس المصدر ص ١٥٧.

الفصل الثالث

الزيدية والمعتزلة

١- القلقون من العلاقة:

أ- رأي رضا الحكيمى:

تلقى تلمذة الإمام زيد لواصل بن عطاء رأس المعتزلة من الشيعة ومن الزيدية جدلاً كبيراً.

ومن الذين ينكرون لقاء زيد بواصل لقاء التلميذ بأستاذه ومجلسه منه مجلس المتعلم؛ الشيخ محمد رضا الحكيمى فى كتابه «بداية الفرق ونهاية الملوك»^(١) وهو يعرض لتاريخ الإمام زيد نراه ينكره إنكاراً شديداً ويقسو على الذين يروجون لتلك القضية قسوة عظيمة ويأخذ على صاحب فوات الوفيات - ابن خلكان وصاحب الملل والنحل - الشهرستانى نقل تلك الواقعة وتقريرهما لها. وما كان ينبغى لهما نقل هذا الهذيان وفق قول الحكيمى وإليك قوله:

«ومن السخافة بمكان ما فى فوات الوفيات والملل والنحل عن ابن أبى الدم: القول أن زيدا وأصحابه كانوا معتزلة وأنه أخذ الاعتزال عن واصل بن عطاء وأن أخاه الباقر كان يعيب عليه قراءته على واصل مع كونه يجوز الخطأ على جده على بن أبى طالب فى حرب الجمل والنهروان؛ ولأن واصل كان يتكلم فى القضاء والقدر على خلاف مذهب أهل البيت إلى آخر ما تكلم به من هذا الهذيان، فإنه لم يرد شئ من

(١) نفس المرجع ص ٦٠.

هذا عن أئمة أهل البيت فى حق زيد بل ورد عنهم مدحه والثناء عليه ولو كان لشيء من ذلك أثر لحكاه عنهم أصحابهم وأتباعهم ولما خفى ذلك عنهم وظهر لابن أبى الدم. وإنما تكلم فيه من تكلم من حيث احتمال دعواه الإمامة والأكثر بل الجميع على أنه لم يدعها فلو كان فيه مغمز غير ذلك لما سكتوا عنه لكن واضح هذا الكلام عن لسانه له غرض غير خفى على المتأمل.

ب - رأى علي بن عبد الكريم:

أما المؤلف الزيدى الذى يقف معارضا للقول بأستاذية واصل رأس المعتزلة للإمام زيد بن على فهو الأستاذ علي بن عبد الكريم الفضل شرف الدين فى كتابه: (الزيدية: نظرية وتطبيق)^(١).

وهو كتاب يسير على منهج موضوعى لا يحمل بين ثناياه ما يصيب أهل العصية من المذاهب إلا شيئا قليلا كما نراه فى قضية المعتزلة والزيدية. وإذا ما تجاوزنا تلك القضية إلى قضايا الزيدية لرأيناها منصفًا عادلا فى موازناته.

أما قضية الاعتزال فإنه لا يقوى على إساعتها ولا على هضمها ولا يكاد يتمثلها تمثيلا. ويحمل على الشهرستانى بقوله: «ولعل الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨هـ هو أول من سجل تلك الغلطة فى كتابه «الملل والنحل» ثم تابعهم أكثر من بحث الاعتزال والمعتزلة إما لإهمالهم الفحص والتمحيص لما يروونه، وإما لأنه قد وافق ما يريدون قوله عن الزيدية والزيديين.». «.

أهم ما يشتمل عليه النص السابق ادعاؤه على الشهرستانى أنه أول من سجل تلك الغلطة. . بينما الأمر ليس كذلك، فالشهرستانى ليس أول من اختلق علاقة «زيد بواصل» اختلاقا أو ابتدعها من عند نفسه ابتدعا وإنما سبقه إليها:

- أبو القاسم البلخى ٣١٩هـ.

- القاضي عبد الجبار ٤١٥هـ.

- الحكم الجسمى ٤٩٤هـ.

(١) نفس المرجع ص ٢٠ و ١٩.

فى كتاب حققه فؤاد السيد «فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة» عثرت عليه اللجنة العلمية المصرية ضمن مخطوطات اليمن وتضمن:

النصوص الثلاث للبلخى، وعبد الجبار، والجشمى^(١).

ثم تداولها: الشهرستانى ٥٤٨هـ فى الملل والنحل

والصفدى فى فوات الوفيات.

وأحمد بن يحيى بن المرتضى - النية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل.

طبع منه: باب ذكر المعتزلة توماس أرنولد

فالقضية على حد علمنا ترجع إلى عجز القرن الثالث وصدر القرن الرابع. راجع البلخى؛ لذلك رأينا أنها تحتاج إلى توضيح.

ونقدم رأى علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين كما أثبتته فى كتابه: الزيدية:

حيث يقول: من الأغلاط الشائعة نسبة الزيدية إلى المعتزلة - فى أصول الدين والتوحيد - علم الكلام والقول بأن الإمام زيد بن علي قد تتلمذ على رئيس المعتزلة واصل بن عطاء.

ثم يقول: ولعل الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ هو أول من سجل هذه الغلطة فى كتابه (الملل والنحل) ثم تابعه أكثر من بحث الاعتزال والمعتزلة، إما لإهمالهم الفحص والتمحيص لما يروونه، وإما لأنه قد وافق ما يريدون قوله عن الزيدية والزيديين.

ولا أعتقد أن للشهرستانى أى دليل قوى على قوله، وربما أنه جعل من التوافق بين الزيدية والمعتزلة فى أكثر مسائل الأصول الدينية دليلا على قوله، ولكن هذا غير كاف قطعاً لإلحاق فرقة بأخرى؛ ولأنه لو اعتبر التوافق فى رأى ما دليلاً على توحيد فرقة مع أخرى لما تميزت فيما بينها كل المذاهب الإسلامية المعروفة اليوم وقبل اليوم؛ لأنها تتوافق فى كثير من المسائل وبالأخص الفقهية الفرعية منها.

أو لم يكن مستند الجميع الكتاب والسنة والإجماع والعقل السليم فى القياس ونحوه؟ ومع ذلك فقد تميزت المذاهب فى الفروع والأصول، وظهر على وجه الأرض

(١) الدار التونسية للنشر.

المذهب الزيدى، والحنفى، والمالكى، والشافعى، والحنبلى، والظاهرى، وظهر المذهب العدلى، والمعتزلى، والأشعرى، وغير ذلك من المذاهب التى تميز بعضها عن بعض نتيجة اختلاف أئمتها وعلمائها فى الفهم والإدراك والاستنباط من الدليل الذى يتمسكون به.

أما القول بأن الإمام زيدا قد تتلمذ لواصل بن عطاء، ومن أجل أن يحصل على علم الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم كما يقول الشهرستانى - فهو أغرب وأعجب؛ ذلك لأن المعلوم عند جميع المؤرخين والباحثين والعالمين - أن المدينة المنورة - وليس البصرة - هى معدن العلم ومدينته، كما قال الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - لمن سأله عن تلقى علمه فقال: كنت فى معدن العلم ولزمت فقيها من فقهاءهم. وهو يعنى الإمام جعفر الصادق - رحمه الله - حيث لازمه عامين وكان يقول: لولا الستان لهلك النعمان^(١).

فهل من المعقول أن يخرج الإمام زيد من معدن العلم وينبوعه ومدينته ليذهب إلى البصرة ليحصل على علم الفروع والأصول حتى يتحلى بالعلم كما قال الشهرستانى، إنه لأمر غريب وعجيب حقا، وهو مع ذلك قول مخالف لما أجمع عليه المؤرخون فقد قالوا: إن واصل بن عطاء كان مولى لآل محمد بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - أى آل محمد ابن الحنفية - وأخذ العلم عن ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية. وأنه بعد ٢١ عاما من عمره سافر إلى البصرة سنة ١٠١هـ حيث التقى فيها بالزاهد عمرو بن عبيد فزامله فى حلقة الحسن البصرى حتى حدث الخلاف بين واصل وأستاذه الحسن البصرى فى تسمية مرتكب الكبيرة من المسلمين حيث قالت الخوارج: هو كافر. وقالت المرجئة: هو مؤمن. فقال الحسن البصرى: هو منافق، فقال واصل: هو فاسق والفسق منزلة بين المنزلتين: منزلة الكفر والنفاق. ومنزلة الإيمان. وبعد أن رجع عمرو بن عبيد إلى قوله وفارق حلقة الحسن أطلق عليهما لاعتزالهما الحلقة (اسم المعتزلة) ثم صار اسما لمن تابعهما فى مسائل علم الكلام، بل لقد نص المحققون من المعتزلة والزيدية على أن مسألة المنزلة بين المنزلتين هذه قد أخذها واصل بن عطاء من أستاذه أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية^(٢).

وقد قال المستشرق الإيطالى (نلينو): إن اسم المعتزلة قد جاء فى الأصل عن اعتزل الصراع السياسى بين علي ومعاوية. وبين علي وأصحاب الجمل. وتابع هذا المستشرق

(١) أبو زهرة الإمام الصادق ص ٣٨.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ١٣٧، ١٣٨.

بعض المستغربين . وهذا القول غير صحيح قطعاً؛ لأن معتزلة الصراع السياسى كان ولاؤهم مع علي - كرم الله وجهه - فلم تكن لهم فكرة مستقلة يمتازون بها عن غيرهم كما كان لواصل ومن تابعه من المعتزلة، وقد فصلت كتب التاريخ سبب اعتزالهم، وفى (شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ١١٥) الكفاية لمن أراد الاطلاع . لما تقدم عن زيد وواصل فلم يكن زيد بن علي معتزلياً ولا أخذ العلم عن واصل وإنما أخذ العلم من معدنه وينبوعه ومدينته . أخذه عن أبيه زين العابدين، وعن أخيه محمد الباقر، وعن غيرهما من علماء أهل بيته وغيرهم . وإذا كان لا بد من نسبه إلى فرقة من الفرق فينسب إلى الفرقة (العدلية) والعدلية كلمة تطلق على كل من يقول بالعدل والتوحيد ونفى الجبر والتشبيه والتجسيم لله، تعالى الله عن ذلك، ولهذا صح للقاضى عبد الجبار بن أحمد المتوفى سنة ٣١٥هـ، وللإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى، أن يجعلوا من رجال الطبقة الأولى للعدلية كل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة ممن صرح بالعدل ونفى الجبر . وقد جعلوا الإمام زيد بن علي وأبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية أستاذ واصل من رجال الطبقة الثالثة وجعلوا واصل بن عطاء وعمر بن عبيد من رجال الطبقة الرابعة .

وقد توهم البعض من المتأخرين أن الطبقات التى أشرت إليها هى طبقات المعتزلة . والصحيح غيره؛ لأن البحث فى طبقات القاضى وفى الملل والنحل .

المهدي كان من العدلية وليس من المعتزلة، ولفظه فى الملل والنحل^(١) مسألة (له) أى قالت المعتزلة: وأجمعت العدلية على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً . حتى قال: وقد رتب القاضى - أى عبد الجبار - طبقاتهم ونحن نشير إلى جملتها . ثم أشار فى المسألة التى تلتها إلى طبقاتهم .

فالإمام المهدي حكى عن المعتزلة روايتهم لما أجمعت عليه العدلية . ثم رتب طبقاتهم كما فعل القاضى عبد الجبار مستنداً بأقوالهم فى العدل ونفى الجبر . وللشهرستانى غرائب أخرى عن الإمام زيد بن علي: فقد حكى مناظرة قال: إنها حدثت بين الإمام زيد بن علي والإمام جعفر الصادق حول الطريق إلى الإمامة وواجبات الإمام ومسئوليته ومنها الدعوة والخروج - الثورة - على الظالمين وقال: إن الإمام جعفر قال لزيد: على مقتضى مذهبك والدك ليس بإمام .

(١) البحر ج ١ - ص ٤٤ ، ٤٥ .

ولكن هذه المناظرة لم يروها حسب ما أعلم أحد من محققى الزيدية ولا من المعتزلة ولا يمكن وقوعها لاتفاق الإمامين على الطريق إلى الإمامة وواجبات الإمام ومسئوليته، ولهذا عرض الإمام جعفر بيعته لكبير بنى هاشم وعالمهم فى عصره عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب - عليهم السلام - فى الاجتماع الذى عقده بنو هاشم بالمدينة للنظر فىمن يصلح للإمامة وللخروج - والثورة على الظالمين - واتفقوا أخيراً على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله بن الحسن وهذا يعنى أن الإمام جعفراً لم يخالف سائر أهل البيت فى المسألة هذه. وربما أن ما حكاه الشهرستانى كان مما حدث فى مناظرات بين بعض المتأخرين من الإمامية والزيدية كما قال أبو زهرة^(١) ونفى ذلك على الشهرستانى.

٢ - المثبتون:

١- البلخى والقاضى عبد الجبار والجشمى:

لكننا نرى أن علاقة الإمام زيد بن علي بواصل بن عطاء أدخل فى التاريخ وأعمق من تاريخ الشهرستانى الذى اعتبره مؤرخو الزيدية مروجاً لها وغامزاً بها آل البيت ونقيصة استعملها خصوم الزيدية. وكانت من أهم الأسباب التى ألحقت به ما تبرأ منه وهو وصفه بالرافضى. يقول صاحب طبقات المعتزلة نصاً يفيد ضمناً أنه يرضى عن المعتزلة ويتبرأ من الإرجاء ومن المجبرة ومن الخوارج ومن الرافضة.

وقد حكى أبو الحسين الحياط: أن زيد بن علي - عليه السلام -، لما خرج على هشام بن عبد الملك بالكوفة، جاءه أبو الخطاب فقال: عرفنا ما تذهب إليه حتى نباعك، فقال له زيد: اتق الله، فليس هذا وقت محنة. فقال: لا أرضى إلا بها. فقال له زيد: فاسمع منى، إني أبرأ إلى الله من القدرة الذين حملوا ذنوبهم على الله تعالى، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله مع الإصرار، ومن الرافضة الذين رفضوا أبا بكر وعمر، ومن المارقة الذين كفروا أمير المؤمنين، فقال له: لست بصاحبنا، ثم توجه هو وأصحابه إلى المدينة. يقولون: لبيك جعفر، لبيك جعفر^(٢).

ولماذا يضيف صدر الزيدية بتلمذة الإمام زيد لواصل ويبلغ بهم الحرج مبلغه مع أن

(١) فى الإمام زيد ص ١٢٦.

(٢) طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال ص ٢٢٨. أبو القاسم الباقلانى - القاضى عبد الجبار، الحكم الجشمى.

العلم والتعلم فضيلة إسلامية، وفي الأثر «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها» فلا نرى منقصة تلحق بالمتعلم إن طلب العلم ولو في الصين أو في أفناء الأرض، والرحلة فريضة لطلب العلم ونبي الله موسى خرج هو وفتاه إلى مجمع البحرين للقاء العبد الصالح.

وإذا كان الإمام زيد سعى إلى واصل لتلك شهادة بورع واصل وتقواه.

وأورد نصاً آخر يفيد صراحة حب الإمام زيد لواصل بن عطاء واهتمامه بزيارته مع ابنه يحيى وإنكاره العنيف لرأى جعفر الصادق بقوله: ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا الذي يحمل معنى اعتزاز زيد بالمعتزلة (الحسد لنا) أى المدرسة الاعتزالية. ثم قوله: «ما منعك من اتباعه» يقول البلخي:

وروى أن واصل بن عطاء، نزل على إبراهيم بن أبي يحيى، فسارع إليه عبدالله ابن الحسن وإخوته، وزيد بن علي وابنه يحيى - عليهم السلام - ، ومحمد بن عجلان وأبو عباد اللهيبي، فقال جعفر بن محمد: قوموا بنا إليه فجاءه والقوم عنده فقال:

أما بعد، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق والبينات والآيات، أنزل عليه ﴿... وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال] فنحن عتره رسول الله ﷺ، ثم قال: وإنك يا واصل، أتيت بأمر تفرق به الكلمة، وتطعن به على الأئمة، وأنا أدعوك إلى التوبة، فقال واصل: الحمد لله العدل في قضائه الجواد بعطائه، المتعالى عن كل مذموم، العالم بكل خفى مكتوم، نهى عن القبيح ولم يرضه، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه، وإنك يا جعفر واني الهمة، شغلك هم الدنيا، فأصبحت بها كلفاً، وما أتيناك إلا بدين محمد صلى الله عليه (وعلى) صاحبيه وضجيعيه، ابن أبي قحافة، وابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب - عليهم السلام - وجميع أئمة الهدى فإن تقبل الحق تسعد به، وإن تصدف عنه تنوء بإثمه، وتكلم زيد بن علي وأغلظ لجعفر وقال: ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا، ثم تفرقوا^(١).

أما الرواية التي ذكر صاحب المنية والأمل فيما نشره (توماس أرنولد) فإنها تضيف إلى رواية البلخي متابعة زيد لأصول المعتزلة خلال القول بالمنزلة بين المتزتين وصححت

(١) طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال ص ٢٣٥.

خطأ يقول: إن الزيدية تنكر على المعتزلة القول بالعدل. يقول صاحب المنية والأمل: وهي رواية أخرى فيها إضافة على التي أوردناها سابقا.

وروى أن واصلا دخل المدينة ونزل على إبراهيم بن يحيى فسارع إليه زيد بن علي وابنه يحيى بن زيد وعبد الله بن الحسن وإخوته ومحمد بن عجلان وأبو عباد الليثي فقال جعفر بن محمد الصادق لأصحابه: قوموا بنا إليه فجاء والقوم عنده أعنى زيد بن علي وأصحابه فقال جعفر: أما بعد فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق والبينات والنذر والآيات وانزل عليه ﴿... وَأَوَّلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ...﴾ (٧٥) [الأنفال] فنحن عترة رسول الله ﷺ وأقرب الناس إليه وإنك يا واصل آتيت بأمر يفرق الكلمة وتطعن به إلى الأئمة وأنا أدعوكم للتوبة. فقال واصل: الحمد لله العدل في قضائه الجواد بعطائه، المتعالي عن كل مذموم والعالم بكل خفي مكتوم نهى عن القبيح ولم يقضه، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا فأصبحت بها كلفا وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وصاحبيه وضجيعيه ابن أبي قحافة وابن الخطاب وعثمان وعلي بن أبي طالب وجميع أئمة الهدى فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدق عنه تبوء بإثمك. فتكلم زيد بن علي فأغلظ لجعفر أي أنكر عليه ما قال، وقال: ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا ففترقوا. قلت: روى ذلك الحاكم وغيره والله أعلم بصحتها. قال ابن برد: إذا كان زيد ابن علي لا يخالف المعتزلة إلا في المنزلة بين المنزلتين. ومن كلام جعفر بن محمد الصادق، وقد سئل عن القدر ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو فعله وما لم تستطع فهو فعل الله يقول الله للعبد: لم كفرت ولا يقول لم مرضت فلا نقول: إن جعفر أنكر على واصل القول بالعدل بل المنزلة بين المنزلتين إن صحت الرواية^(١).

أما فضل الإمام زيد فمشهور وإمامته في الفضل والعلم والتقوى والورع فهي من المسلمات لدى كل مؤمن محب لآل البيت حتى مؤرخي الاعتزال ولا سيما أصحاب الطبقات فقد سلکوه في الطبقة الثالثة، يقول صاحب كتاب المنية والأمل:

(الطبقة الثالثة) منقسمة فمن العترة الطاهرة: الحسن بن الحسن وابنه عبد الله بن الحسن وأولاده النفس الزكية وغيره ومن أولاد علي - عليه السلام - أبو هاشم عبد الله

(١) ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل شرح كتاب الملل والنحل ص ٢٠ أحمد يحيى المرتضى تحقيق توماس أرنولد.

ابن محمد ابن الحنفية وهو الذى أخذ عنه واصل وكان معه فى المكتب فأخذ عنه وعن ابنه وكذلك أخوه الحسن بن محمد أستاذ غيلان ويميل إلى الإرجاء ولهذا قالت به الغيلانية من المعتزلة. ومن هذه الطبقة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو الخلفاء بعثه أبوه إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية. ومنها زيد بن علي حيث قال حين سأله أبو الخطاب عما يذهب إليه أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله، فهذا آخر الخبر ومن هذه الطبقة محمد ابن سيرين بن محمد وفضله فى فنون العلم مشهور^(١).

دخول كتب الاعتزال اليمن:

وقد حفظت لنا مكنتات اليمن الكثير من مؤلفات المعتزلة. ويرجع الفضل الأكبر فى احتفاظ اليمن بهذا التراث إلى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان المتوفى ٦١٩ هـ أحد أئمة الزيدية المجتهدين. وصاحب المصنفات المعتبرة فى فقه الزيدية وعقائدهم أرسل دعواته إلى خارج اليمن لاستجلاب الكتب والمصنفات التى توافق مذهب الزيدية وعقائدهم، وهو مشروع كان قد بدأه الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان المتوفى ٥٦٦ هـ الذى خرج فى عصره كتب المعتزلة من العراق إلى اليمن وهو القاضى ابن أحمد بن عبد السلام شيخ الزيدية. وقد كان فى أول أمره يرى رأى المطرفية فرقة من الزيدية الغلاة تنسب إلى شيخها مطرف بن شهاب ظهرت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى جاء بهم المنصور بالله عبد الله بن حمزة. وقد رجع القاضى جعفر عن مذهب المطرفية. وكان قدم إلى الإمام أحمد بن سليمان كتاب يعلمه بوصوله، فوصل إليه ومعه كتب غريبة حسنة، فسر به الإمام وتلقاه وأخلى له موضعا فى منزله، ولما أراد البيهقى الرجوع إلى العراق رحل معه القاضى جعفر بن عبد السلام لتمام القراءة، فمات البيهقى فى تهامة فنفذ القاضى إلى تلميذ البيهقى (فى العراق) وهو القاضى أبو الحسن أحمد بن أبى الحسن بن علي الكنى المتوفى فى حدود سنة ٥٦٠ هـ. فقرأ عليه كتب الأئمة ومصنفاتهم وعاد القاضى جعفر بعد ذلك إلى اليمن بالعلوم التى لم يصل بها سواه، من علم الأصول والفروع والمعقول والمسموع وعلوم القرآن العظيم^(٢).

(١) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل لأحمد بن يحيى المرتضى.

(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١١ مقدمة المحقق.

ثم هناك بعض النصوص التي تتحدث عن هوى الزيدية الذي كان يهزها شوقاً إلى فكر المعتزلة والاعتزال وكان ذلك من فضل الله على المعتزلة ليقى ذكرها على التاريخ مشهوداً بعدما أتت على آثارها ومآثرها يد الدهر العابثة. فكانت «الحكمة اليمانية» وفق قول الرسول ﷺ في وصف أهل اليمن هي سفينة نوح التي رست على الجودي لتحفظ تراث المعتزلة. وفي دخول كتب المعتزلة إلى اليمن يذكر صاحب أنباء الزمن كيف دخلت كتب المعتزلة وكيف أقبل عليها الزيدية وما سبب ذلك من الصراع بين المذاهب المختلفة في اليمن بقوله^(١):

«وفي أيام الإمام أحمد بن سليمان استوقف بدعة المطرفين ومذهبهم الرديء، وكان ذلك أول مدة الإمام، وخرجت كتب المعتزلة من العراق إلى اليمن على يد القاضي جعفر بن عبد السلام، لما سافر إلى تلك الجهة، فمن ذلك الوقت ظهر واشتهر مذهب المعتزلة وكتبهم في اليمن، وتمسك به أيضاً المطرفية، وتابعوا أبا القاسم البلخي، وسائر الزيدية المخترعة تابعوا أبا هاشم^(٢)، وكان قبل ذلك غير معروف في اليمن بين أئمة أهل البيت وغيرهم من سائر العرب، وإنما كانت معرفة علمائهم المعرفة الجميلة (كذا) من التمسك بالكتاب وصحيح السنة، وهو الذي كان عليه السلف الصالح».

ومن هذا يتضح أثر القاضي جعفر في نشر كتب المعتزلة في اليمن، وما قام به الإمام عبد الله بن حمزة من الهمة في استجلاب هذه المصنفات ونسخها والعناية بحفظها، وتوسعه في إرسال الدعاة إلى موطن آخر من مواطن المعتزلة في بلاد الجبل والديلم التي كانت في هذا الوقت تزخر بعلماء الزيدية ومصنفاتهم فعادوا ومعهم طائفة من مؤلفات القوم هناك في علوم الكلام والفقه والأصول.

ومن هذه المجموعات، تكون لدى هذا التراث القيم من مصنفات المعتزلة النادرة، وإن كنا لا ننسى أن المعتزلة في العالم الإسلامي بعد محتهم وإحراق مصنفاتهم واضطهادهم، لم يجدوا صدراً حانياً عليهم إلا بلاد اليمن التي تشاركهم في أفكارهم وعقائدهم، خاصة الزيدية.

(١) أنباء الزمان ورقة ٥٣.

(٢) هو أبو هشام عبد السلام بن أبي علي الجبائي من كبار مشايخ المعتزلة، توفي سنة ٣٢١هـ من رجال الطبقة التاسعة، ولعلي فهمي خشيم دراسة عن «الجبائين أبي علي وأبي هاشم».

العدلية:

أما جدل الزيديين حول تسمية الزيدية بالعدلية فهي نسبة إلى مصطلح اعتزالي النشأة، فقد عرفهم التاريخ بأهل العدل والتوحيد والجلد حول ذلك يباعد الحق ويداني الباطل، والتاريخ قاضى محكمة الأموات. وعلى أى حال قد عرضنا ما عرضناه وألفينا فيما ألفيناه أن النصوص التى تهاجم واصلا والمعتزلة تنحصر فى تعلم زيد على واصل وتلك قضية شأن كل القضايا لها خصوم ولها مناصرون وفيصلها التاريخ وقد أتينا على شواهد منه وهى أبعد تاريخا من الشهرستانى الذى وقفوا عنده وهى نصوص تاريخية تتجاوز الرؤية المذهبية وعصبية التحيز. أما موقفهم من المعتزلة - إن نحننا قضية زيد وواصل جانباً - فهو موقف يغبطهم التاريخ عليه فهم الذين أول من دون فى علم الكلام، وأول من وقف دون الزنادقة، وأول من وضع أصول علم الكلام، وأول من وضعوا إطار منهجه^(١).

ويرى مونتجمرى وات أن فكرة العدل حسب تسمية المعتنقين لها لم تقع إثارها لا فى عهد الرسول ﷺ ولا فى عهد الخلفاء الراشدين وإنما أثيرت عندما وقعت الفتنة الكبرى وما تلاها من أحداث؛ لأن الرعيل الأول من المسلمين كانوا يؤمنون بتوفيق الله لهم ويعيشون فى جو امتلاء بحرارة الإيمان وصدق اليقين.

- إن واصل بن عطاء كان له الفضل الأكبر فى بلورة نظرية التكليف وبيان حقيقتها والكشف عن عناصرها فتره المكلف عن الظلم والجور وحمل المكلف مسؤولية الفعل وبين أنواع الأفعال التى يتناولها التكليف ثم أبرر الغرض من التكليف وثمرته.

- إن قول واصل بالعدل معناه الإيمان بالحرية حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل.

- إن القائلين بالعدل هم أول من أدخل فى الإسلام عمل الفكر بل هم أول من احتكم إلى العقل واستخدموه فى تفسير النص القرآنى، ويظهر ذلك بصورة جلية فى الأدلة التى ساقها دعاة العدل وخاصة واصل بن عطاء ولذلك نقم عليهم السلف وشبهوا عملهم بعمل إبليس اللعين واتهموهم بالابتداع فى الدين والكفر المخرج من الإيمان^(٢).

(١) طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال ص ١٠. (٢) القضاء والقدر ص ٥٠ مونتجمرى وات ترجمة.

الباب السادس

.....

الإمامة بين حق الأمة والقول بالحق الإلهي

الفصل الأول

الزيدية والفكر السياسي

الفصل الثاني

طبقات رجال المذهب الزيدي

الفصل الثالث

الأصول العقلية عند الزيدية

الفصل الأول

الزيدية والفكر السياسي

لم يختلف المسلمون في مسألة خاصة بهم مثلما اختلفوا في مسألة الإمامة، مما أدى إلى وقوع الحروب بينهم. فيعتبر ابن تيمية^(١) الإمامة أهم مطالب الدين وأشرف مسائل المسلمين، أما الشهرستاني فيقول^(٢): إنه ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة، ويضيف الأشعري قوله^(٣): إن أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم ﷺ اختلافهم في الإمامة. ويعتقد الزيدية أن مسألة الإمامة من أعظم مسائل أصول الدين، وقد أوضحوا اختصاصات الإمام بأنها: النظر في مصالح المأمومين، وإحصاء الحكام بينهم، وإقامة الحدود فيهم، ومجاهدة الأعداء، وتولية القضاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٤)، ووضعوا أوصافا يجب اجتماعها في الإمام وهي: أن يكون ذكرا، بالغا عاقلا، مسلما، عالما بالأمور التي يحتاج فيها إلى الإمام، وأن يكون عدلا شجاعا، ضابطا غير خوار ولا جزوع، سخيا يبذل الأموال في مواضعها، وأن يكون أفضل الناس أو كأفضلهم، وأن يكون سليما من الآفات^(٥) وقد

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج ١ ص ٢٣.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٥.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩.

(٤) الصاحب بن عباد: نصره المذاهب الزيدية ص ١٢١ (تحقيق د. ناجي حسن، الطبعة الأولى ١٩٨١، الدار المتحدة للنشر، بيروت - لبنان).

(٥) الهاروني: كتاب في نصره المذاهب الزيدية ص ٥٥ (مخطوط)، الصاحب بن عباد: الزيدية ص ١٨١ وما بعدها (تحقيق: د. ناجي حسن، طبعة الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م).

ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم فيها، وأنها اختيار أهل الحل والعقد لا بالنص^(١).

أصول الإمامة عند الزيدية:

يختلف رأى الزيدية فى الإمامة عن بقية الشيعة وأول هذه الأصول هى:

١- إمامة المفضول مع وجود الأفضل^(٢):

يوضح لنا الجاحظ مقياس الفضل عند الزيدية بقوله^(٣): أما مقياس الفضل عندهم فهو العقل دون غيره، والفضل عندهم أربعة أقسام: أولها: القدم فى الإسلام، حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله وإليه، وثانيها: الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة، وثالثها: الفقه الذى به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم، ورابعها: المشى بالسيف، فمن وجدت فيه هذه الصفات وجب تفضيله وتقديمه.

غير أن إمامة المفضول لدى الزيدية ليست قاعدة عامة، وإلا لسقط مبرر الخروج، وإنما قال بها الإمام زيد لشرعية خلافة أبى بكر، ولإسقاط دعوى الطاعنين فيها^(٤).

٢- أن يكون الإمام من أولاد فاطمة:

يرى زيد بن علي حصر الإمامة فى أولاد فاطمة، ولا تجوز إمامة غيرهم^(٥).

(١) الباقلاني: التمهيد فى الرد على الملاحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ص ١٧٨ (تحقيق: محمود محمد الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧ م)، الأمدى: غاية المرام فى علم الكلام ص ٣٧٧ (تحقيق: محمود حسن عبد اللطيف الشافعى، القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م)، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٠٠، العبرج ١ ص ١٦٧. الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص ٥٠.

(٢) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ١٥١، الملطى: التنية والرد ص ٣٩، ابن حزم: الفصل ج ٤ ص ١٢٦، الأصول والفروع ج ٢ ص ١٢٧ (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م).

(٣) رسائل الجاحظ ج ٤ ص ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢.

(٤) كتاب فى نصرة المذاهب الزيدية ص ٢٩ (مخطوط) بمعهد المخطوطات تحت رقم (١٩٧) ملل.

(٥) يحيى بن الحسين: رسائل العلل والتوحيد ج ٢ ص ٧٦، ابن التديم: الفهرست ص ٢٥٣، العلوى: سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٧ (مخطوط)، ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٨٧.

وجوزوا أن يكون كل فاطمي عدلا زاهدا شجاعا سخيا، خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة. سواء كان من أولاد الحسن أو أولاد الحسين^(١)، وسار أكثر علماء الحديث والفقهاء على هذا المذهب، منهم سفيان بن عيينة والثوري^(٢).

وتعتقد الزيدية أن الإمامة لعللي بن أبي طالب ثم للحسن والحسين، وهي بعد ذلك في أولادهما من أي الفرعين الحسن والحسين^(٣).

ويرجع الإمام يحيى بن الحسين^(٤) السبب في اشتراط زيد بن علي كون الإمام فاطميا إلى أنه يرى أن أبناء فاطمة الزهراء سيقيمون أكثر من غيرهم عمود الدين وسنن الإسلام.

٢ - القول بعدم عصمة الأئمة،

أدى عدم فرض الإمام زيد للخلافة بالوراثة وبالإيصاء من النبي ﷺ إلى القول بعدم عصمة الأئمة^(٥)، وخالف بذلك قول الإمامية بعصمة الأئمة الذين يسمونهم الأوصياء^(٦). ولم يناد الأئمة أبدا بعصمتهم، ولكن أتباعهم في الكوفة والمدينة فعلوا ذلك رغم استنكار الأئمة لهم، وقد كان علي بن الحسين والد الإمام زيد يقول^(٧): يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام. فما برح بنا جبكم حتى صار علينا عارا، وحتى بغضتمونا إلى الناس.

وعلى كل حال لم يعد الإمام عند الزيدية ذلك الرجل المعصوم الذي بيده أسرار العلم الخفي ينقلها من إمام إلى إمام.

(١) الشهرستاني: المصدر السابق والجزء ص ١٦٠، المقرئ: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٢) ابن النديم: المصدر السابق والصفحة.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٢٣٢ - ٢٣٣، الشهرستاني: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن خلدون العبر ج ص ١٦٧.

(٤) يحيى بن الحسين: المصدر السابق والجزء ص ٧٧.

(٥) الأشعري: المصدر السابق والجزء ص ١٣٦، صاحب بن عباد: الزيدية ص ١٥٩، ١٨٥، نصره المذاهب الزيدية ص ١٢٩.

(٦) الأشعري: المصدر السابق والجزء ص ١٢١، صاحب بن عباد: المصدر السابق ص ١٥٩، ١٨٧.

(٧) الزبيرى: نسب قريش ج ٢ ص ٥٨، ابن تيمية: المصدر السابق والجزء ص ١٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ١٠٤.

٤ - شرط الخروج في صحة الإمامة:

اشترط الإمام زيد لاستحقاق الإمام من آل البيت أن يخرج داعيا لنفسه، ولم يقل بالتقية التي كان آل البيت قد التزموا بها بعد مقتل الحسين بن علي، وبهذا يتبين أن الفرق بين الإمام زيد وغيره من الشيعة الإمامية في عصره أنه يشترط خروج الإمام داعيا^(١)، ولم يشترط الإمامية الخروج؛ لأن تولى الإمامة عندهم بالإيضاء لا بالاختيار من أهل العقد^(٢).

٥ - جواز خروج إمامين في وقت واحد ووجوب طاعتهم:

قالت الزيدية بجواز خروج إمامين في وقت واحد في قطرين، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة^(٣) وقد احتج أنصار هذا الرأي على المنكر لهم بقولهم: إن النبوة أعظم قدرا من الإمامة وقد تعدد الأنبياء في الزمن الواحد^(٤).

ويرى القائلون بقيام إمامين في وقت واحد أن ينظر إلى الأفضل والأزهد، وإن تساوى ينظر إلى الأمتن رأيا والأحزم أمرا، وإن تساوى تقابلا فيقلب الإمام مأموما والأمير مأمورا، ولو كان في قطرين انفرد كل واحد منهما بقطره ويكون واجب الطاعة في قومه، ولو أفتى أحدهما بخلاف ما يفتي الآخر، كان كل واحد منهما مصيبا، وإن أفتى باستحلال دم الآخر^(٥)، وقد تهكم الشهرستاني على هذا الرأي بقوله^(٦): «وهذا خبط عظيم».

وفي الوقت نفسه يرفض بعض الزيدية القول بقيام إمامين في وقت واحد، ويرون ضرورة أن يكون الإمام واحدا في كل زمان^(٧).

(١) ابن تقي الدين: المعارف ص ٦٢٣، ابن حزم: الفصل ج ٤ ص ٧٧، الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٣١، ابن خلدون: العبر ج ١ ص ١٦٥، المقدمة ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) النوبختي: فرق الشيعة ص ٦٥.

(٣) المحلي: الحقائق الوردية ج ٢ ص ٣٤، ٣٥ (مخطوط) بدار الكتب، الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ١٦٠، ١٦٦، ج ٢ ص ٢، القديسي: الرد على الرافضة ص ٧٢.

(٤) أحمد عبد الله عارف: الصلة بين الزيدية والمعتزلة ص ٣٣٣ (دار آل، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

(٥) الشهرستاني: المصدر السابق والجزء ص ١٦٦، ج ٢ والصفحة.

(٦) الشهرستاني: المصدر السابق ج ١ ص ١٦٦.

(٧) الصاحب بن عباد: نصره مذاهب الزيدية ص ١٥٣ وما بعدها، الزيدية: ص ٢١٩ وما بعدها.

ويدو أن الذى قال بهذا رأى هم الزيدية الذين جاءوا بعد زيد بن علي، وذلك عندما خرج الناصر الأطروش فى بلاد الديلم وطبرستان، وقام يحيى الهادى فى اليمن^(١).

يقول صاحب بن عباد فيما يتعلق بخروج إمامين فى وقت واحد: «فأما ما يحكى عن الناصر للحق الحسن بن علي فى هذا الباب، فظاهره لا يقتضى القول بجواز كون إمامين فى وقت واحد؛ لأن المحكى عنه فى ذلك أن اثنين من أفاضل أهل البيت - عليهم السلام - إذا كانا فى طرفين متباعدين وادعيا، فعلى من قرب من كل واحد منهما من الناس أن ينصره إلى أن يتقاربا، فيتسلم أحدهما الأمر من صاحبه^(٢). لثلا يضيع القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا غير بعيد لأنه يمتنع أن يقوم كل واحد منهما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط داعيا إلى الرضا من آل بيت الرسول ﷺ، ثم يسلم الأمر من الأولى منهما^(٣). وصفوة القول فقد حاول زيد بن علي أن يرد المذهب الزيدى إلى أصوله فى عهد علي بن أبي طالب، فعلى لم يعتبر نفسه وارثا للخلافة، ورضى ما اختاره المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة، وأثنى على الإمامين أبي بكر وعمر، ورفض أن يذكرهما إلا بخير، وقتل زيد شهيدا فى سبيل تنفيذ هذه الآراء، وقد تخلى عنه الشيعة لهذا السبب، وسمى من تخلى عنه بالرافضة.

نصب الإمام^(٤):

ذهب جمهور الأمة إلى وجوب نصب الإمام فى كل وقت، وفيهم من قال: لا يجب نصبه، أما القائلون بالوجوب، فمنهم من جعل الطريق إليه العقل، وهم السبعية^(٥) والاثنا عشرية، أما السبعية فزعموا أن الحاجة إلى الإمام ليستفاد منه معرفة الله تعالى وما يجب له، وما يجوز ويستحيل، وأما الاثنا عشرية فزعموا أنه لا حاجة إليه فى معرفة الله تعالى، بل يكون لطفاً فى أداء الواجبات العقلية والشرعية،

(١) فضيلة الشام: تاريخ الفرقة الزيدية ص ٢٨٣.

(٢) الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص ٦٠.

(٣) الزيدية ص ٢٢٠.

(٤) المعالم الدينية فى العقائد الدينية (الإمام يحيى بن حمزة وأينا الرجوع إليه كاصل ومصدر مع كتب زيدية أخرى لضمان الثقة فى عرضى لموضوع الإمامة فهو النقطة الجوهرية فى الشقاق الشيعى وسيا فى ظهور (رافض وروافض).

(٥) السبعية هم الشيعة الإسماعيلية وقد سموا بالسبعية لتقدسهم للعدد (٧).

واجتناب المقبحات العقلية والشرعية، ومنهم من قال: طريق وجوبه السمع، وهم الأشعرية، وأكثر المعتزلة، ومنهم من قال: طريق وجوبه العقل والشرع وهم الجاحظ^(١) والكعبي^(٢) وأبو الحسن البصري^(٣)، وهؤلاء لا يجعلونه لطقاً في الدين كما زعمته الإمامية، ولهذا لا يقولون بوجوب نصبه على الله تعالى، بل يقولون: إن نصبه يندفع به ضرر كثير عن الخلق، فيجب عليهم نصبه لدفع الضرر، وأما القائلون بعدم الوجوب، فهم الأصم^(٤) وهشام^(٥) الغوطي والنجيدات من الخوارج، أما الأصم فقال:

لا يجب نصبه في كل وقت، وإنما يجب نصبه عند ظهور الظلم، وأما هشام فقد عكس الأمر، وقال: لا يجب نصبه عند ظهور الظلمة؛ لأنهم ربما قتلوه لاستنكافهم عن الدخول في طاعته، فيصير زيادة في الفتنة، ويجب نصبه عند الإنصاف لإظهار أحكام الشريعة، وأما النجيدات فإنهم لا يوجبون نصب الإمام في شيء من الأحوال، والمعتمد في إيجابه شرعاً وجهان:

أحدهما - أن نقول: أجمعت الأمة على أنه لا يتولى إقامة الحدود إلا الإمام أو من يتولى من قبله، والله قد أمر بإقامة الحدود كحد السارق والزاني والقاذف، وإذا لم يمكن إقامة الحدود إلا بواسطة الإمام كان الأمر بإقامة الحدود أمراً بنصب الإمام؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به كان مقدوراً للمكلف فإنه يكون واجباً.

وثانيهما - أن الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ أجمعوا على ذلك لما روى أنه ﷺ لما توفي خطب الناس أبو بكر وقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، لا بد لهذا الأمر من يقوم به، فانظروا وهاتوا آراءكم، رحمكم الله، فبادروا من كل جانب صدقت، ولم يقل أحد

(١) هو أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، مال الجاحظ إلى الاعتزال وتلمذ على يد النظام وتوفي عام ٢٥٥ هـ. معجم الأدباء لياقوت ١٦/ ٢٩٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) هو محمد بن علي الطيب المتكلم البصري، من أئمة شيوخ المعتزلة والمتصيرين للذهب، وقد صنف كتباً للدفاع عنهم، ولد بالبصرة واشتهر بنسبه إليها. توفي عام ٤٣٦ هـ. (معجم أعلام الفكر الإنساني، تصدير الدكتور إبراهيم مذكور، ص ٣٦٣).

(٤) هو أبو بكر بن عبد الرحمن كيسان الأصم المعتزلي توفي حوالي ٢٧٩ - ٨٩٢ م له مؤلفات كثيرة أهمها كتابه في التفسير. (معجم أعلام الفكر الإنساني، تصدير د. إبراهيم مذكور، ص ٣٤٠).

(٥) هو هشام بن عمر الغوطي أخذ الاعتزال عن معمر بن عباد السلمي، نشأ الفكر الفلسفي في الإسلام، د. النشار، ص ٢٦٦.

منهم لا حاجة إلى الإمام، ثم بكرروا إلى السقيفة للاشتوار، وتركوا أهم الأشياء وهو دفن رسول الله ﷺ، وكل ذلك يدل على وجوب نصب الإمام، وعلى الجملة، فجلهم واجتهادهم عقب موت كل إمام يدل على اعتقادهم وجوب نصب الإمام على الفور.

تولية الإمام:

اتفقت الأمة على أن الرجل لا يصير إماما بمجرد صلاحته للإمامة، واتفقوا على أنه لا مقتضى لثبوتها إلا أحد أمور ثلاثة: النص والاختيار والدعوة، وهي أن يبايع الغلبة من هو أهل للإمامة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى اتباعه، واتفقوا على كون النص من جهة الرسول ﷺ طريقا إلى إمامة المنصوص عليه، واختلفوا في الطريقين الآخرين، فالإمامية اتفقت على بطلانها، وذهبت المعتزلة والأشعرية والخوارج والزيدية الصالحية إلى أن الاختيار طريق إلى ثبوتها، وذهبت الزيدية غير الصالحية إلى أن الدعوة طريق الإمامة، ووافقهم عليه الجبائي من المعتزلة وأبو حامد الغزالي، أما النص فسيأتي تقديره ولم يبق إلا الاختيار أو الدعوة، فإذا بطل الاختيار ثبت ما نقوله من أن الدعوة طريق الإمامة والذي يدل على بطلان الاختيار، أن كون الاختيار طريقا إلى ثبوت الإمامة حكم يثبت بالشرع ولا دلالة من جهة الشرع عليه فوجب سقوطه، والذي يتصور فيه من الأدلة الإجماع، ومن أنصف عرف أن مثل هذا الإجماع الذي وقع الشجار والتفرق فيه والاختلاف لا يمكن أن يقضى بمثله في مسألة ظنية، فضلا عن أعظم الأشياء وأخطرها وهي الإمامة.

شرعية ولاية الإمام على:

بالطرق المنصوصة وهي ثلاثة: الطريقة الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥) [المائدة]، والاستدلال بها يبنى على أمور ثلاثة:

أولها: أن لفظة الولي محتملة للأولى بالتصرف.

وثانيها: أن هذه اللفظة في هذه الآية محتملة متعينة لهذا المعنى.

وثالثها: أنه يلزم من هذه المقدمات أن يكون على أولى بتدبير الأمة والتصرف فيها، وذلك معنى كونه إماما.

أما بيان الأول وهو أن لفظة الولي محتملة للأولى بالتصرف وللنقل والعرف، أما النقل فلإن المبرد قال فى معنى الولي: إنه الأولى الأحق، وقال الكمي (١):

ونعم الولي الأمر بعد وليه ومستجمع التقوى ونعم المؤدب

أراد القائم بالتصرف، وأما العرف فإنه يوصف أخو المرأة بأنه وليها لما ملك العقد عليها، ويقال: فلان ولي الدم إذا كان أحق بالتصرف فيه.

وأما بيان الثانى: وهو أن هذه اللفظة من هذه الآية متعينة لهذا المعنى، فهو أنها تطلق على ما ذكرنا من الأولى بالتصرف، وعلى الناصر أيضا، فإذا ثبت لنا تعذر حملها على الناصر تعين حملها على الأولى وهو الأحق، أما بيان تعذر حملها على الناصر فلوجهين:

أحدهما: أن الولاية بمعنى النصرة عامة فى حق المؤمنين لقوله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ (٧١) [التوبة: ٧١/٩]،

والولاية المذكورة فى هذه الآية خاصة؛ لأنه تعالى خص ذلك بأنها فى المؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة وليس كل المؤمنين موصوفين بتلك الصفات؛ لأن قوله تعالى: ﴿...وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (٥٥) [المائدة] إما أن يكون حالا أو استثناء، والاستثناء باطل؛ لأن القائل إذا قال: رأيت زيدا وهو راكب، تبادر إلى الفهم أنه رآه حال كونه راكبا وذلك يدل على أنه ليس حقيقة فى الاستثناء، فيجب أن يكون فى الحال، معنى الآية: إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا والذين من شأنهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم الآن راكعون، ومعلوم أن كل الأمة ما كانوا راكعين حال نزول الآية، فثبت ما ذكرناه من أن الولاية بمعنى النصرة عامة، وأن الولاية فى الآية غير عامة، وأحدهما مغاير للآخرى.

وثانيهما: هو أن كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بمعنى النصرة أمر ظاهر لا حاجة به إلى البيان، فحمل الآية على المعنى الآخر أولى، فثبت أنه لا يمكن حمل الولي المذكور فى الآية على الناصر، فوجب حملة على الأحق.

(١) هو أبو المستهل الكمي بن زيد الأسدي المصري الكوفي، كان من أعلم أهل زمانه باللغة، قال الشعر الجيد، تشيع لبنى هاشم وتكسب بالشعر، مدح كبار بنى هاشم والسادات من العلويين، وأصبح لهم ودافع عنهم. توفي عام ١٢٦ هـ.

تاريخ الأدب العربى للأستاذين: أحمد أمين، على الجارم، ص ٢١٥.

الزيدية نظرية وتطبيق، ص ٢٠٠ د. أحمد صبحي.

وأما بيان الثالث: وهو أنه يلزم مما ذكرناه إمامة أمير المؤمنين فله وجوه ثلاثة:

أولها: أنه لما ثبت أن المراد من هذه الآية إثبات كون بعضه متصرفاً^(١) في الأمة - ولا معنى للإمام إلا المتصرف - لزم دلالة هذه الآية على إمامة بعض الناس وقد أجمعت الأمة على أن هذه الآية لا تقتضي غير إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فلو لم تقتض أيضاً إمامته، لزم تعطيل الآية، وأنه غير جائز، فلا بد من الجزم بدلالة هذه الآية على إمامته.

وثانيها: أن الأمة مجمعة على أن علياً مراد بهذه الآية، وإنما اختلفوا في غيره، هل هو مراد بها أم لا؟ ومتى ثبت اقتضاء الآية الإمامة وثبت بالإجماع اندراج علي تحتها ثبت أنه إمام؛ لأن غيره لو اندرج تحت الآية لكان إماماً.

وثالثها: أن المفسرين اتفقوا على نزول هذه الآية في حق علي بن أبي طالب، فوجب أن يكون المراد بها إياه لا غير، فهذا تحرير وجه الاستدلال بهذه الآية.

الطريقة الثانية: التمسك بقوله - عليه الصلاة والسلام - يوم الغدير وقد أحضر الناس: أأست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى. فقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»^(٢) واخذل من خذله، وانصر من نصره». والاستدلال بهذا الحديث يبنى على أصليين أحدهما يصحح الحديث، والثاني دلالة على إمامته.

أما الأصل الأول فالشيعة من الإمامية تارة يدعون كونه متواتراً من كل المسلمين عامة، ومن^(٣) الشيعة خاصة، وتارة يصححونه بالحجة من وجهين:

أولهما: أن الأمة أجمعت على صحة هذا الحديث فيكون صحيحاً، وإنما قلنا: إن الأمة أجمعت على صحة هذا الحديث؛ لأن الشيعة يثبتون به إمامته وسائر الفرق يثبتون به فضله، وليس في الأمة أحد أنكره ورده، فإذا قبلته الأمة بأسرها وجب أن يكون صحيحاً.

(١) في الأصل (متصرف).

(٢) ورد هذا الحديث في الجامع الصغير للسيوطي ١٨٠/٢ - ١٨١، قال السيوطي، رواه الترمذي والنسائي وابن حنبل وابن ماجه. كما ورد الحديث في مجمع الزوائد للهيتمي ١٠٣/٩ - ١٠٩.

(٣) في الأصل: وأما من.

وثانيهما: أن عليا ذكره في الشورى عند مجادليه لذكر فضائله ولم ينكره أحد،
فعدم إنكارهم لذلك - مع علم من يتوفر الدواعي على القدح فيما يفتخر به الإنسان
على غيره - دليل على صحته.

وأما الأصل الثاني: من دلالة على الإمامة فهو مبنى على ثلاثة أمور:

أولها: أن لفظة المولى محتملة للأولى في الجملة.

وثانيها: أنها متعينة له ها هنا.

وثالثها: أنه يلزم من ذلك القول بإمامته.

أما بيان الأول: وهو أن لفظة المولى محتملة للأولى في الجملة فالكتاب والسنة
والشعر والنقل، أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿...مَأْوَاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ...﴾ (١٥) [الحديد].
قال أبو عبيدة: معناه أولى بكم، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي...﴾ (٣٢) [النساء].
ولاخلاف بين المفسرين، أن المراد به من كان أولى بالميراث وأحق به، وأما
السنة فقوله - عليه السلام: «أيما امرأة^(١) نكحت بغير إذن مولاهها»، في بعض
الروايات^(٢)، ولا يصح حمل المولى ها هنا على غير المالك لتدبير أمرها والعائد عليها،
وأما الشعر فقول الأخطل^(٣):

فأصبحت مولاها من الناس بعده

أى أولى بها وأحق، وقال غيره^(٤):

كانوا موالى حق يطلبون به فأدركوه وما كلوا^(٥) ولا تعبوا

(١) جاء في تيسير الوصول ص ٢٦٣ الجزء الرابع، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله
ﷺ: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فإن نكاحها باطل» ثلاث مرات.

(٢) وفي رواية أخرى: «بغير إذن وليها».

(٣) هو أبو مالك غياث الأخطل بن غوث التغلبي النصراني من عرب الجزيرة الفراتية، ولد في أوائل خلافة
عمر ونشأ شاعرا هجاء توفي عام ٩٥ هـ. (تاريخ الأدب العربي الأستاذين أحمد أمين، علي
الجارم، ص ٢٠٨).

(٤) رجعت إلى كثير من كتب الأدب واللغة فلم أجد فيها ذكر لهذا البيت. راجع على سبيل المثال لسان
العرب، الحيوان، البيان والتبيين، العقد الفريد.

(٥) في الأصل: (وماقلوا).

أى أولى به . وقال لبید^(١):

فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها^(٢)

أى أولى بالمخافة، وقال غيره^(٣):

لم يأمرؤا فيه أن كانوا موالیه

أى أولى به، وأما النقل فما ذكرناه عن أبى عبيدة، وقال الفراء^(٤): الوالى والمولى واحد، وقال المبرد^(٥): تأويل المولى الأولى، وصلة المولى واحد وهو المتولى للأمور، وقال ابن الأثير^(٦): الأولى المولى الأولى بالشئ، وقال أبو عمر فى بيت الحارث بن حلزة^(٧):

اعلموا أن (كل)^(٨) من ضرب العير مولى لنا وأنا الولاء^(٩)

(١) هو لبید بن مالك بن صعصعة العامرى الصحابى الجليل - رضى الله عنه - كان فى الجاهلية شريفا جوادا شجاعا شاعرا، أدرك الإسلام وأسلم، وأكثر شعره قاله قبل الإسلام فلما أسلم لم يقل إلا قليلا. وهو شاعر بدوى يصف فى شعره حياة بدوية صحراوية، وهو أحد شعراء المعلقة السبع الطوال الجاهليات. تاريخ الادب العربى للأستاذين أحمد أمين، على الجارم، ص ٩٧.

(٢) شرح المعلقة السبع لأبى عبد الله الزوزنى ص ١٢٦.

(٣) لم أجد ذكرا لهذا البيت فى كثير من كتب الادب التى رجعت إليها.

(٤) هو يحيى بن زياد الفراء فقيها شاعرا عالما بالطب والنجوم متكلم يميل إلى الاعتزال، وكان يتقلف فى كتبه مستعملا فيها ألفاظ الفلاسفة (معجم الأدباء لياقوت ٢٠ / ١٣).

(٥) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس النحوى المعروف بالمرزبانى، ص ٢٩٠.

(٦) هو أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأثير نسبة إلى الأثير، وهى مدينة على الفرات فى غربى بغداد، كان إماما فى اللغة والنحو والادب والقراءات والتفسير. وعنه الزيدى فى الطبقة السادسة من نحة الكوفة أصحاب ثعلب (أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠هـ - ٢٩١هـ) قيل عنه أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شعر فى القرآن بأسانيدها ويذكرون أنه كان يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها. (معجم الأدباء لياقوت ١٨ / ٣٠٦ - ٣١٣).

(٧) هو الحارث بن حلزة الشكرى من سادات بكر وشاعرها - وبكر وتغلب كانتا قبيلتين متحاربتين - وهو أحد شعراء المعلقة السبع الطوال الجاهليات أنشد هذا البيت فى قصيدته التى ارتجلها بين يدى عمرو بن هند ملك الحيرة فى صلح قام به عمرو بين بكر وتغلب. (تاريخ الادب العربى ج ٤ لب الأستاذين أحمد أمين، على الجارم).

(٨) أضيفت (كل) إلى الأصل.

(٩) المعلقة السبع لأبى عبد الله الزوزنى.

فتبين أن المولى ينقسم أقساما منها المولى، فثبت بهذه الوجوه احتمال لفظة المولى للأولى، أما بيان الثاني - وهو أن المراد بالمولى في هذا الحديث الأولى - وأنه متعين له فلوجهين:

أولهما: أن ينبئ ذلك على مقدمة الحديث، وهو قوله - عليه الصلاة والسلام: «الست أولى بكم من أنفسكم»؟ وإذا ثبت ذلك فنقول: إن عطف كلام محتمل للأشياء على كلام صريح في واحد مما يحتمله المعطوف عليه، فإنه لا بد من أن يريد بالمعطوف المعنى إذا قدم التصريح به، وإلا كان ملغزا غير مبين فإن الإنسان لو قال لجماعة: موالى^(١) عزة وعبيد وزيد وعمرو ويكر وخالد أستم تعرفون عبدى زيدا؟ أشهدكم أن عبدى حر، فإنه يفهم منه أنه أراد عبده زيدا دون غيره كذلك ها هنا، فلما قدم ذكر الأولى ثم أردف بذكر المولى المحتمل للأولى وجب أن يكون المراد بالمولى هو الأولى.

وثانيهما: ألا معنى للاستدلال^(٢) على هذه المقدمة بل نقول: إن لفظة المولى تفيد أحد أمور: المعتق والمعتق^(٣) وابن العم والجار والحليف والناصر والأولى بالتصرف، ولفظة المولى في هذا الحديث لا يمكن حملها على ما سوى الأولى بالتصرف فوجب حملها على الأولى، وإنما قلنا: إنه يمتنع حملها على سائر المعاني، أما المعتق فلم يكن ذلك من صفات النبي ﷺ، ولا من صفات علي، ولا أراد أيضا من كنت معتقه فعلي معتقه، ولا من كنت مالكا رقبته فعلي مالك رقبته؛ لأنه ﷺ ابن عمه عقيل وجعفر، وعلي لم يكن ابن عم لهما بل كان أخا لهما، ولا يعلم من دينه ضرورة وجوب تولي المؤمنين بعضهم لبعض على ما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾ (٧١) [التوبة] فجمع الناس لشرح هذا المعنى وبيانه لا يليق بالنبي ﷺ، وإذا بطلت هذه المعاني تعين حمل المولى على الأولى بالتصرف وهو المطلوب.

وأما بيان الثالث: وهو أنه لما كان المراد من لفظة المولى في الحديث الأولى كان ذلك دليلا على الإمامة من وجهين:

أحدهما: أن يدعى الأول مطلقا لا يفيد إلا معنى الأولى مقيدا بالتصرف والقيام (فذلك)^(٤)؛ لأن أهل اللغة لا يستعملون لفظة الأولى إلا فيمن يملك تدبير من وصف

(١) في الأصل: (ولو).

(٢) في الأصل: (الاستدلال).

(٣) بكسر التاء في الأولى وفتحها في الثانية.

(٤) أضيف - (فذلك) إلى الأصل.

أنه أولى بالتصرف عليه ونفاذ الأمر ألا تراهم يقولون: السلطان أولى بإقامة الحدود من الرعية، وولد الميت أولى بميراثه من أقاربه، والزوج أولى بامرأته، والسيد أولى بعبده، ومرادهم في جمع ذلك ما ذكرنا من ملك التصرف، ولا خلاف بين المفسرين في أن قوله تعالى: ﴿الْأَوَّلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ (٦) [الأحزاب] أن المراد به أولى بتدبيرهم والقيام بأمرهم، وإذا ثبت أن المراد بالمولى الأولى بالتصرف منهم تثبت كونه إماما.

وثانيهما: أنا نسلم^(١) على أن لفظة المولى غير متعينة للأولى بالتصرف لكننا ثبت أن المراد بالمولى في هذا الحديث هو الأولى بالتصرف؛ لأنه إذا وجب حمل قوله - عليه الصلاة والسلام -: «فعلي مولا» على الأولى لأجل المقدمة، وجب أن تحمل المولى على الأولى بالتصرف بالأمر والنهي لأجل المقدمة لأن قوله - عليه الصلاة والسلام -: «ألسن أولى منكم بكم من أنفسكم» معناه أولى منكم بالأمر والنهي، فيجب أن يكون قوله - عليه الصلاة والسلام -: «فعلي مولا» معناه أولى بهم من أنفسهم في التصرف بالأمر والنهي، وإذا تقرر ذلك ثبت أن المراد منه الإمامة.

الطريقة الثالثة: التمسك بقوله - عليه الصلاة والسلام -: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(٢) والاستدلال بهذا الحديث بيني على أصليين:

الأول: أن هذا الحديث يقتضي أن ثبت لعلي جميع المنازل التي كانت لهارون من موسى.

والثاني: أن من المنازل الثابتة لهارون استحقاقه للقيام مقامه بالخلافة بعد وفاته لو عاش بعده، فوجب أن ثبت ذلك لعلي، وهو المطلوب.

أما بيان الأول: فإنا نسلم على أنه ليس في الحديث صيغة عموم تدل على ذلك، لكننا ثبت ذلك من وجوه ثلاثة:

أولها: أن الحكيم إذا تكلم بكلام محتمل لأشياء ثم استثنى بعضا وهو يريد الإفهام، فإنه يكون مريدا لما عدا الأشياء، فيكون الاستثناء^(٣) قرينة دالة على أنه أراد

(١) في الأصل (نساعد).

(٢) ورد هذا الحديث في مجمع الزوائد للهيثمى ١٠٩/٩ برواية أبي سعيد الخدرى وقال الهيثمى: رواه أحمد والبخارى، وجاء في البخارى ١٩/٥ ما نصه أن الرسول ﷺ قال لعلي: «أما ترى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى». (٣) في الأصل: (الاستثنى).

ما عدا المستثنى مما يحتمل اللفظ، كما أن الإنسان إذا قال: من دخل دارى أكرمتها إلا زيدا، عرفنا أنه أراد إكرام من عداه إذا أراد الإفهام؛ لأنه لو لم يرد إكرام عمرو لاستثناه كما استثنى زيدا.

وثانيها: أن الحديث لو أفاد منزلة واحدة فقط لما جاز أن يستثنى منزلة النبوة؛ لأن الشيء الواحد لا يمكن أن يستثنى منه، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول القاتل: ضربت زيدا إلا عمرا، ويحسن أن يقال: ضربت عبدا إلا عمرا.

وثالثهما: بأن الأمة فى هذا الحديث على قولين: منهم من قصره على منزلة واحدة، وهى السبب الذى يدعونه من خروج الكلام عليه، وهو أنه - عليه الصلاة والسلام - لما لم يستصحه مع نفسه فى غزوة تبوك أرجف المنافقون بأنه إنما تركه بغضا له فشكا ذلك علي - عليه السلام - إلى النبي ﷺ، فذكر النبي ﷺ الحديث إزالة لذلك الوهم، ومنهم من يقول: بأنه يتناول كل المنازل إلا ما خرج بالدليل، والأول باطل لوجوه:

أما أولا: فلأن أكثر الروايات على أن الخبر لم يرد فى غزوة تبوك.

وأما ثانيا: فلأن المرجف بأن النبي ﷺ كان مبغضا لعلي - رضى الله عنه - إن لم يكن مسلما فلا معنى للتأذى منه والرد عليه، وإن كان مسلما فلا يجوز أن يتوهم ذلك مع علمه بأقواله فيه ومحله عنده واعتداده له.

وأما ثالثا: فلأن ما ذكره من الرواية غير ثابت إلا بالأحاد فلم يفد العلم، وليس فى لفظة الحديث ما يقتضى الاقتصار على هذه الواقعة فإذا امتنع الحكم بصحة هذا القول وإذا كان ذلك وجب صحة القسم الآخر، وإلا كان الحق خارجا عن أيدي الأمة.

وأما بيان الأصل الثانى: وهو أن المنازل لهارون هى استحقاقه للقيام مقامه بعد وفاته فلو جهين:

أحدهما: أنه كان خليفة لموسى فى حال حياته، فيجب بقاء هذه الخلافة بعد وفاته، أما أنه كان خليفة لموسى فى حال حياته فلقوله تعالى حكاية عن موسى لهارون: ﴿... اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ...﴾ (١٤٢) [الأعراف] وذلك يقتضى حصول الولاية لهارون بقول موسى على سبيل النيابة، وأما أنه يجب بقاء هذه المخالفة لهارون بعد وفاته، فهو أن خلافة موسى لهارون منزلة رفيعة، وإزالة المنازل الرفيعة من أصحابها يوم أنهم ما كانوا مستحقين لها أو كانوا خائنين فيها، وكلاهما يوجب التفسير وأنه غير جائز على الأنبياء.

والثاني: أنا لا نعرف خلافة هارون لموسى بل نقول: إن هارون كان شريكا لموسى فى الرسالة فلا شك أنه لو بقى بعد وفاة موسى لقام مقامه فى وجوب الطاعة، وهذا القدر كاف فى المقصود؛ لأنه لما دل الحديث على حال علي كحال هارون فى جميع المنازل، وكان من منازل هارون استحقاقه للقيام مقامه، وثبوت الطاعة وجب أن يكون علي أيضا كذلك، ولا معنى للإمامة إلا ذاك، لا يقال: إن الحديث لا يتناول المنازل المقدرة، وإنما يتناول المنازل الثابتة، وإمامة هارون بعد موسى ما كانت حاصلة بل مقدرة، فلا يتناولها الحديث، قلنا: معنى استحقاقها فى حق هارون القيام مقام موسى بعد وفاته، وهى منزلة ثابتة فى الحال؛ لأن الاستحقاق قد يكون حاصلا فى الحال، وإن كان المستحق متأخرا.

وقال الخوارجا نصير الدين الطوسى فى كتاب «قواعد العقائد»: قال الزيدية بإمامة على والحسن والحسين؛ ولم يقولوا بإمامة زين العابدين؛ لأنه لم يقم بالسيف، وقالوا بإمامة ولده زيد؛ لأنه ثار على الباطل، وهم لا يشترطون العصمة للإمام، ويجوز عندهم قيام إمامين فى بقعتين متباعدتين، وكل من جمع شروط فهو إمام: (١) أن يكون من ولد فاطمة بنت الرسول ﷺ من غير فرق بين ولد الحسن وولد الحسين: (٢) أن يكون عالما بالشريعة: (٣) أن يكون زاهدا: (٤) أن يدعو إلى دين الله بالسيف. وأكثرهم يأخذ بفقهِ أبى حنيفة إلا فى مسائل قليلة.

وقال السيد محبى الأمين فى «أعيان الشيعة» القسم الثانى من الجزء الأول ص ١٣ طبعة ١٩٦٠:

قالت الزيدية: «إن الإمامة تكون بالاختيار، فمن اختير صار إماما واجب الطاعة ولا يشترط أن يكون معصوما، ولا أفضل أهل زمانه، وإنما يشترط أن يكون من ولد فاطمة، وأن يكون شجاعا عالما خيرا بالسيف».

وبهذا يتبين أن الزيدية ليسوا من فرق الشيعة فى شىء، كما أنهم ليسوا من السنة ولا الخوارج، وأنهم طائفة مستقلة بين السنة والشيعة، ليسوا من السنة ولا من الخوارج؛ لأنهم حصروا الإمامة فى ولد فاطمة، وليسوا من الشيعة؛ لأنهم لا يوجبون النص على الخليفة، هذا إلى أنهم يأخذون بفقهِ أبى حنيفة، أو أن فقههم أقرب إلى الفقه الحنفى منه إلى الفقه الشيعى.

وقال أهل السنة: إن الزيدية أقرب إليهم من جميع فرق الإمامية؛ لأنهم يوجبون الإمامة بالانتخاب لا بالنص، ولا يقولون بعصمة الإمام، ويجيزون تقديم الفاضل على الأفضل، ويأخذ أكثرهم بالفقه الحنفى.

وقال الشيعة: إن الزيدية أقرب إليهم من المغالين؛ لأنهم لا يؤلهون أحدا من الأئمة، وأيضا أقرب إليهم من السنة؛ لأنهم يوجبون الإمامة فى ولد فاطمة، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الزيدية ليسوا من السنة ولا من الشيعة، وإنما هم فرقة مستقلة بذاتها^(١).

الغرض:

والغرض الأول من الإشارة إلى هذه الفرق أن نبين خطأ الذين نسبوا أهل الغلو وغيرهم كالزيدية إلى الشيعة، وأن نؤكد ونوضح أن الضابط الصحيح لتعدد فرق الشيعة وأقسامها ينحصر بالخلاف فى عدد الأئمة قلة وكثرة، وفى تعيين أسمائهم وأشخاصهم بعد الاتفاق على أن الإمام يعين بالنص لا بالانتخاب، وأنه إنسان كسائر الناس لا يختلف فى طبيعته، ولا فى صفاته الملازمة للإنسان بما هو إنسان... أجل هناك شروط لا بد من توافرها فى الإمام باتفاق المسلمين جميعا، وإن اختلفوا فيما بينهم فى نوعها وعددها، كما يظهر مما يلى:

١ - الإمام من أهل البيت:

يشترط فى الإمام شروط، أولها عند السنة أن يكون من بيوت قريش، حديث: «لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان» روى هذا الحديث البخارى فى صحيحه ج ٩ ص ١٩١ طبعة ١٣٤٨ هـ: أن النبى ﷺ قال: إن هذا الأمر لا ينقضى، حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش، ومثله فى صحيح البخارى ج ٩ كتاب «الأحكام»، ولحكمة ذكر لفظ «أمير» بدل «خليفة» وعليه تكون فكرة الاثنى عشرية إسلامية عامة للسنة والشيعة، ولا تختص بفريق دون فريق.

وقال العلامة الحلى فى «شرح التجريد» ص ٢٥٠ طبعة العرفان: إن المراد بالـ ١٢ هم أئمة الشيعة، حيث ثبت بالتواتر أن النبى ﷺ قال للحسين: ابنى هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة، تاسعهم قائمهم.

(١) تاريخ الإمامة واسلافهم من الشيعة ص ٣٦ د. فياض.

٢ - جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل^(١):

جادله من بايعوه من أهل الكوفة والبصرة وواسط وما حولها بصدد رأيه في الشيخين فأبى أن يذكرهما إلا بخير، قالوا: (فلم يكون قتالنا القوم أى الامويين)، قال: ليس هؤلاء كهؤلاء. فانفضوا عنه إلا من نفر قليل فقال لهم: لقد رفضتموني. وأطلق لفظ الرفضة من بعدها على الطاعنين في الشيخين.

كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة أفضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين الفتنة وتطبيب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا وسيف أمير المؤمنين علي عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ^(٢).

ولكن إذا جازت إمامة المفضول مع قيام الأفضل لتبرير شرعية خلافة أبي بكر مع أفضلية علي - فإن على الإمام المفضول أن يرجع إلى الأفضل في الأحكام التي يحكم في القضايا.

٣ - جواز خروج إمامين في قطرين متباعدين يستجمعان شروط الإمامة:

أجاز زيد خروج إمامين في قطرين يتعذر وصول دعوة الإمام الأول إلى القطر الثاني، على أن يستجمع كل منهما شروط الإمامة حتى إذا انتصرت الدعوة واتسعت الرقعة إلى الدعوة فإن لم يعرف أسبقتهما كان الأمر لأكفأهما.

(١) أما عثمان فقد سار في سنين خلافته الأولى سيرة صاحبه ولكنه مال بعد ذلك إلى الطلقاء أبناء الطلقاء حتى استنزله، وحين نصحه المهاجرون والأنصار أبى إلا تماديا فيما لا يوافق الكتاب ولا السنة فقتلوه... كان أول الناكثين على نفسه: آوى طريد رسول الله ﷺ مع نفيه أباذر وإنما ينفي عن مدينة رسول الله ﷺ الفساق والمختشون... اتفق المال على أقاربه). (من رسالة الإمام زيد إلى خالد بن صفوان مخطوط).

(٢) الشهرستاني: الملل النحل ج ١ ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

إمامة المفضول لدى الزيدية ليست قاعدة عامة ولا لسقط مبرر الخروج وإنما قال بها الإمام زيد تبريرا للحكم القائم على الغلبة، حتى أجازوا أن يكون الإمام غير مجتهد ولا خيرا بمواقع الاجتهاد واشتراطوا فقط أن يكون ذا بصر بالأحداث السياسية ذا رأى متين وأن يرجع إلى أهل الاجتهاد في الأحكام وأن يستفتيهم في الحلال والحرام. الزيدية ص ٢٥٠.

كانت الدولة الأموية تذيب في الناس أن وصولهم إلى الحكم بقضاء من الله قدر
لا حيلة للناس في دفعه، وادعى معاوية أنه احتكم هو وعلي إلى الله فنصره الله على
علي، وادعى خلفاؤه وولاتهم أن من قتلهم من الأئمة والمعارضين لقولهم بحرية إرادة
الإنسان - إنما قتلهم الله!!

ومن ثم كان الطبيعي أن يتبنى معارضوهم وعلى رأسهم الإمام زيد مبدأ حرية
إرادة الإنسان.

ومن جهة أخرى كانت المعتزلة ترى أن الإنسان محدث لأفعاله وفاعلها ولا
محدث لها سواء، فإن رأس المعتزلة واصل بن عطاء قد تتلمذ على أبي هاشم وأخذ هذا
عن أبيه محمد ابن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب الذي ينسب إليه القول بالتوحيد
والعدل فالتوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه.

آراء متعارضة مع الإمامية:

١ - إنكار القول بالبداء: يقصد بالبداء الظهور بعد الخفاء وهو عند الشيعة الاثنى
عشرية منزلة في التكوين كمنزلة النسخ في التشريع؛ ذلك أن القضاء على ضررين مبرم
ومعلق.

وقد نسب الشيعة الاثنا عشرية معرفة الغيب إلى أئمتهم وكذلك الكيسانية قبلهم،
فكان إذا تم الأمر حسب ما ينسبون إلى الأئمة من تنبؤات فذلك يدل على اطلاعهم
على الغيب، أما إذا خابت التنبؤات قالوا بالبداء، أي أن الله غير قضاءه لمصلحة ارتآها.
ولما كان الإمام زيد ينكر اطلاع أحد على الغيب فقد أنكر القول بالبداء.

٢ - إنكار التقية: كذلك قالت الإمامية بالتقية، إذ بايع علي زين العابدين الخليفة
يزيد تقية، وخطورة التقية أن لا يعرف للإمام رأى: هل إذا سئل أجاب ما يعتقد أنه حق
أم كان قوله تقية.

وعلى أي حال فإن التقية مبدأ القائلين بالقيود بينما إنكار التقية مبدأ القائلين
بالخروج، فإذا كان الإمام قد دعا إلى نفسه علنا وأثر الخروج فلا محل لمبدأ التقية.

٣ - وإنكار العصمة والعلم اللدني: خلع الشيعة الإمامية على أئمتهم العصمة عن
الصغائر فضلا عن الكبائر منذ ولادتهم بموجب نور إلهي يسرى من الأصلاب إلى
الأصلاب ومن الآباء إلى الأبناء بحفظهم عن ارتكاب المعاصي.

وكذلك لا يتلقى الإمام عندهم العلم اكتساباً، وإنما يشارك النبي ﷺ في العلم اللدني حتى يكون معصوماً عن الخطأ، إنه إذا وجب الرجوع إلى الإمام فقد وجب أن يكون معصوماً لأنه إن أخطأ فمن يردّه وهو المرجع في الأحكام^(١).

وقد خالف زيد - وتبعته الزيدية في ذلك - الإمامية في العصمة والعلم اللدني، أما العصمة فهي لأهل الكساء فقط: النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، دون سائر الأئمة، وإنما يكتسب الإمام العلم اكتساباً حتى يصل إلى درجة الاجتهاد التي تؤهله علمياً لأن يكون إماماً، هذا، وقد أخذ زيد العلم - حتى مما يجوز الخطأ على جده علي بن أبي طالب ألا وهو واصل بن عطاء، وأخذ عن المخالفين - فضلاً عن الموافقين - طبع التشيع الزيدي بطابع الانفتاح على المذاهب الأخرى على عكس الإمامية الأخرى الذين يرفضون الأخذ عن غير الإمام.

٤ - وإنكار المهديّة والرجعة: كل فاطمي عالم عدل سخي شجاع خرج داعياً إلى نفسه فهو إمام مهدي، ومن ثم لا تقتصر المهديّة على شخص معين كما هو الحال لدى الاثنى عشرية التي تجعله إماماً غائباً.

كذلك تؤمن الإمامية بالرجعة، يجعلها بعضهم رجعة الظالمين من قتلة الأئمة بأجسامهم وذلك عند قيام المهدي المنتظر ليقيم للأئمة، ويجعلها بعضهم الآخر رجعة لدولة العدل، وذلك كله ما لا محل له لدى زيد والزيدية.

وإنكار زيد لهذه الغيبات من القول بالبداء والعصمة والعلم اللدني والرجعة إنما جاءت نتيجة تأثره بالنزعة العقلية لدى المعتزلة، تلك النزعة التي تحصن صاحبها وتقف حائلاً دون تسرب الغيبات^(٢).

ولا يعنى زيد بذلك تقسيم الدولة الإسلامية وإنما أن تنتشر الثورات في البلدان وأن تتباعد حتى تعجز السلطات الغاشمة القائمة عن مواجهتها معاً وذلك أدعى إلى انتصارها.

(١) الزيدية ص ٢٥٥ أحمد محمود صبيح.

(٢) د / على سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٢ ص ١٥٦.

آراء الكلامية،

آراء متقاربة مع المعتزلة:

١ - المتزلة بين المتزلتين: فاعل الكبيرة في متزلة بين الإيمان والكفر، يسمى مؤمناً؛ لأن المؤمن قد وصف في كتاب الله بأنه ولي الله، ولا يمكن أن يكون مرتكب الكبيرة ولياً لله، ولا يسمى كافراً؛ لأن الكافرين هم المشركون، ولما كان فاعل الكبيرة يدفن في مقابر المسلمين ويصلى عليه ويرث قرابته المسلمون، وذلك غير جائز بالنسبة للكافرين فلا يسمى كافراً، وقد أجمعت الأمة على تسميته فاسقاً، إنه لا يعلو إلى الإيمان ولا يتحدر إلى الكفر، كذلك لا يعد منافقاً؛ لأن المنافقين كافرون.

٢ - حرية إرادة الإنسان: يذكر أحمد بن يحيى بن المرتضى أن مذهب الجبر قد حدث في دولة معاوية وملوك ابن مروان، وأن ابن عباس قد كتب إلى المجبرة من قراء الشام لمظاهرتهم العاصمين ولكونهم أعوان الظالمين الذين يحملون لإجرامهم على الله وينسبون شر فعالهم إليه^(١).

هذه الجامعة غير المفرقة، العادلة غير الجائرة، فأجاب دعوتنا وأتاب إلى سبيلنا وجاهد بنفسه ومن يليه من أهل الباطل ودعائم النفاق، فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن رد علينا دعوتنا وأبى إجابتنا، واختار الدنيا الزائلة الآفلة على الآخرة الباقية. فإله من أولئك برىء، وهو يحكم بيننا وبينكم، إذا لقيتم القوم فادعوههم إلى أمركم فلأن يستعجب لكم رجل واحد خير لكم مما طلعت عليه الشمس من ذهب وفضة، عليكم بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - بالبصرة والشام: لا تتبعوا مدبرين ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً، والله على ما أقول وكيل، عباد الله لا تقاتلوا على الشك فضلوا عن سبيل الله، لكن البصيرة ثم القتال، فإن الله يجازي عن اليقين أفضل جزاء يجزى به على الحق، إنه من قتل نفساً يشك في ضلالتها كمن قتل نفساً بغير حق، عباد الله: البصيرة، البصيرة، قال أبو الجارود: يا ابن رسول الله، يئذ الرجل نفسه عن غير بصيرة، قال: نعم، إن أكثر من ترى عشقت نفوسهم الدنيا فالطمع أرداهم إلا القليل الذين لا تحضر الدنيا على قلوبهم ولا لها يسعون فأولئك منى وأنا منهم.

(١) ابن المرتضى: النية والامل. ص ٨.

ثم يشير الإمام زيد إلى أنه لا عبرة بكثرة المخالفين ولا بقلة أتباعهم الزاهدين
فإنه لم يذكر «كثيراً» إلا ذمه ولم يذكر «قليلاً» إلا مدحه، والقليل فى الطاعة هم أهل
الجماعة والكثير فى المعصية هم أهل البدع^(١).

نظرية الخروج ومن خرج:

هذا ذكر من خرج من آل النبى ﷺ:

١ - مقتل الحسين بن علي ونظرية الخروج لدى الإمام زيد:

خرج «الحسين بن علي بن أبى طالب»^(٢) - رضى الله عنه - منكراً على يزيد بن
معاوية ما أظهر من ظلمه، فقتل بكريلاء - رضوان الله عليه! وحديثه مشهور، وقتله
عمر بن سعد، وكان الذى أنفذه لمحاربه عبيد الله بن زياد، وحمل رأس الحسين إلى
يزيد بن معاوية، فلما وضع بين يديه نكت ثناياه - التى كان النبى ﷺ يقبلها - بقضيه،
وحمل إليه بنو الحسين وبناته وسائر نسائه على الاقتاب، فهم بقتل الذكور، فكشف عن
عاناتهم ينظر إليهم: هل أنبتوا أم لا؟ ثم من عليهم.

وقتل مع الحسين من آل النبى ﷺ ابنه «على الأكبر» ومن ولد ولد أخيه الحسن
«عبد الله بن الحسن» و«القاسم بن الحسن» و«أبو بكر بن الحسن».

ومن إخوته «العباس بن علي» و«عبد الله بن علي» و«جعفر بن علي» و«عثمان
ابن علي» و«أبو بكر بن علي» و«محمد بن علي» وهو محمد الأصغر، ومن ولد جعفر
ابن أبى طالب «محمد بن عبد الله بن جعفر» و«عون بن عبد الله» ومن ولد عقيل
«عبد الله بن عقيل» وقتل «مسلم بن عقيل» بالكوفة و«عبد الرحمن بن عقيل» و«عبد الله
ابن مسلم بن عقيل».

وفى قتل الحسين يقول «ابن أبى رمح الخزاعى»^(٣).

(١) أشار زيد فى خطبته هذه إلى عدة مبادئ: ١ - أخلاقيات الحرب. ٢ - رأيه.

(٢) قد مضت ترجمته فى ص ٨٣ من هذا الجزء.

(٣) نسبها ياقوت (٦/ ٥٢) إلى أبى دهيل الجمحى، واسم أبى دهيل ذهب بن زمعة بن أسيد من بنى
جمح، وأمه من هذيل، ونسبها أبو الفرج الأصبهاني فى مقاتل الطالبين (١٢١) وابن عساكر فى
تاريخه (للختصر ٤/ ٣٤٢) والمسعودى (مروج الذهب ٣/ ٧٤) إلى سليمان بقتيته، نسبها ابن الأثير
(الكامل ٤/ ٤٠ بولاق) إلى التيمى تيم بن مرة.

وإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقابا من قریش فذلت
مررت على أبيات آل محمد فلم أرها أمثالها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها وإن أصبحت من أهلها قد تخلت^(١)
وكانوا وجاء ثم عادوا رزية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الأرض أمت مريضة لفقد حسين والبلاد اقشعرت
والقصيدة طويلة.

وفى ذلك قال «دعبل»^(٢):

قبور بكوفان، وأخرى بطيبة وأخرى بفخ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وأخرى بياخمرأ لدى الغربا
فأما الممضات التي لست واصفا مبالغها منى بكنه صفات
قبور لدى النهرين من أرض كربلا معرسهم منها بشط فرات

٢ - زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب:

ثم خرج «زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»^(٣) - رضوان الله عليهم - بالكوفة على هشام بن عبد الملك، وإلى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي. فقتل بالمعركة (ودفن) فلم به يوسف بن عمر، فنبشه، وصلبه، ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق، فأحرق، وسقى رماده في الفرات.

وقال في ذلك يحيى بن زيد:

لكل قتيل معشر يطلبونه وليس لزيد بالعراقيين طالب

(١) في المصادر التي ذكرناها وإن أصبحت منهم يرغمى تخلت.

(٢) هو أبو علي دعبل بن زين بن سليمان الخزازي، وقيل في نسبه غير ذلك، وقيل: إن اسمه الحسن، وقيل: عبد الرحمن، وقيل: محمد، وكان شاعرا مجيدا، إلا أنه كان بذي اللسان، مولعا بالهجو والخط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء فمن دونهم، وطال عمره فكان يقول: لى خمسون سنة أحمل خشيتي على كفى أدور على من يصليني عليها فلم أجد من يفعل ذلك، وكانت ولادة دعبل في سنة ثمان وأربعين ومائة، وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين (انظر الترجمة رقم ١٢٣ في ابن خلكان ٢/٣٤ بتحقيقنا) ثم انظر بعد ذلك (ص ١٣١ من هذا الجزء).

(٣) انظر الهامش رقم ١ في ص ١٢٩ من هذا الجزء.

٣ - يحيى بن زيد:

ثم خرج «يحيى بن زيد»^(١) بأرض الجورجان على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فوجه نصر بن سيار اللثي صاحب خراسان إلى يحيى بن زيد «سلم بن أحوذ المازني»، فحارب يحيى بن زيد، فقتل في المعركة ودفن في بعض الجبانات.

٤ - محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن:

ثم خرج «محمد بن عبد الله»^(٢) بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة، ويبيع له في الآفاق، فبعث إليه أبو جعفر المنصور بعيسى بن موسى وحميد بن قحطبة، فحارب محمد حتى قتل. ومات تحت الهدم أبوه «عبد الله بن الحسن بن الحسن» و«علي بن الحسن بن الحسن» وقتل بسببه رجال من أهل بيته، ووجه محمد بن عبد الله أخاه «إدريس بن عبد الله» إلى المغرب، ولولده هناك مملكة.

٥ - إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن:

ثم خرج بعده محمد بن عبد الله أخو «إبراهيم»^(٢) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالبصرة فغلب عليها وعلى هوازن وعلى فارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة إلى المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه «عيسى بن زيد بن علي»، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قتل، وقتلت المعتزلة بين يديه.

٦ - الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي:

ثم خرج «الحسين بن علي بن الحسن»^(٣) بن الحسن بن علي بن أبي طالب، والتقوا بفخ، وبايعة الناس، وعسكر بفخ على ستة أميال من مكة، فخرج إليه عيسى بن موسى في أربعة آلاف، فقتل الحسين وأكثر من معه، ولم يجسر أحد أن يدفنهم، حتى أكلت السباع بعضهم، وقتل مع الحسين صاحب فخ وبسببه رجال من أهل بيته، وفي قتيل فخ يقول صاحب البصرة:

هاج التذكر للفؤاد سقاما ونفى المنام فما أحسن مناما

منع الرقاد جفون عيني عصابة قتلوا بمنعوج الجحون كراما

(١) مقالات الإسلاميين، ج ٢، ص ١٣٠.

(٢) مقالات الإسلاميين، ج ٢، ص ٦٨.

(٣) مقالات الإسلاميين، ج ٢، ص ١٣٤. (٤) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٣٥.

٧ - يحيى بن عبد الله:

ثم خرج «يحيى بن عبد الله»^(١) بن الحسن بن الحسن بن علي «أبى جعفر» وصار إلى الديلم، ثم قتل.

٨ - محمد بن جعفر بن يحيى:

ثم خرج بتاهرت^(٢) السفلى «محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن»، فغلب عليها، صارت فى أيديهم^(٣).

٩ - محمد بن إبراهيم بن إسماعيل:

ثم خرج بالكوفة فى أيام المأمون (محمد بن^(٤) إبراهيم بن إسماعيل بن محمد

(١) هو الحسن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب - عليهم السلام - وأمه قرية بنت عبد الله، وكان حسن المذهب والهدى مقدما فى أهل بيته بعيدا عن جعفر بن محمد، روى عن أبيه وعن أخيه محمد، وعن أبان بن تغلب، وروى عنه بكار بن زياد ويحيى بن مساور وعمرو بن حماد، وكان قصيرا آدم، حسن الوجه والجسم تعرف سلالة الأتباء فى وجهه، وأوصى إليه جعفر بن حمد لما حضرته الوفاة، وقول المؤلف «خرج على أبى جعفر» ليس مستقيما، فإنه خرج على هارون الرشيد؛ وذلك أنه كان مع أصحاب فتح، فلما قتلوا استر ملة يجول فى البلدان ويطلب موضعا يلجأ إليه، وعلم الفضل بن يحيى بمكانه فى بعض النواحي، فأمره بالانتقال عنه، وقصد الديلم، وكتب له منشورا ألا يتعرض إليه أحد، فمضى متكررا حتى أتى الديلم، وبلغ الرشيد خبره وهو فى بعض الطريق، فولى الفضل بن يحيى نواحي المشرق وأمره بالخروج إلى يحيى، فذهب الفضل واحتال حتى قدم يحيى معه على الرشيد، ثم كان إطلاق سراحه على يد الفضل بعض أسباب نكبة الرشيد بالبرامكة (انظر مقاتل الطالبين ٤٦٣ وما بعدها).

(٢) تاهرت - بفتح الهاء وسكون الراء، وفى آخره تاء - اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لإحدهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثه، بينهما وبين المشيلة ست مراحل (معجم البلدان لياقوت ٣٥٤/٢).

(٣) الذى خرج إلى بلاد المغرب واستولى عليها هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبى طالب، وكان قد أفلت من وقعة فخة ومعه مولى له يقال له راشد، فخرج به فى جملة حاج مصر وأفريقية إلى أن تهيأت لهما فرصة دخلا فيها بلاد البربر عند فاس طنجة فأقاما بها واستجابت البربر لإدريس، ولما بلغ الرشيد أمره اغتم لذلك غما شديدا، فدبر له من ذهب إليه قسمه، فيقال: إن الذى سمه هو سليمان بن جرير أحد متكلمى الزيدية، يقال: بل الذى سمه الشماخ مولى المهدي، وكان طبيبا، ارجع إلى حديث المؤلف عن خروج محمد بن عبد الله بن الحسن من كتاب مقالات الإسلاميين، والزيدية نظرية وتطبيق.

(٤) كان سبب خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل - وهو ابن طباطبا - أن رجلا اسمه نصر بن شبيب كان قد قدم حاجا، كان متشيعا حسن المذهب، فلما ورد المدينة سأل عن بقايا أهل البيت، فدل على =

ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي (أبو السرايا)، والمأمون بخراسان، ابن إسماعيل وأنفلذ (زيد بن موسى بن جعفر بن محمد) داعية له إلى البصرة، ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه، ودفن بالكوفة.

١٠ - محمد بن محمد بن زيد بن علي:

فخرج بعده مع أبي السرايا (محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسن بن محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب)^(١) فهزم زهير بن المسيب وهزم عبدوس (بن محمد) بن [أبي] ابن زيد بن علي بن خالد، وقتله ثم توجه إليه هزيمة بن أعين فهزمه،

=محمد بن إبراهيم؛ لأنه كان يقارب الناس يكلمهم في هذا الشأن فاتاه نصر بن شبيب، وما زال به إلى أن أجابه إلى الخروج، وتواعدا على اللقاء بالجزيرة ولما اتصرف الحاج خرج محمد بن إبراهيم في نفر من شيعته أصحابه حتى قدموا على نصر بن شبيب للموعد فجمع نصر أهل عشيرته ثم أخبرهم وعرض عليهم معونته، فأجاب بعضهم وامتنع عليه بعض، ففترت عزيمة نصر وضعفت نيته، فمضى محمد ابن إبراهيم راجعا إلى الحجاز، فلقى في طريقه أبا السرايا وهو السري بن منصور أحد بنى ربيعة بن ذهل بن شيان، وكان أبو السرايا قد خالف السلطان ونابذه وعاث في نواحي السواد إلى تلك الناحية فأقام بها خوفا على نفسه، وكان علوى الراى ذا مله في التشيع، فدعاه محمد بن إبراهيم إلى نفسه، فأجابه وسر بذلك وقال له: انحدر إلى الفرات حتى أوافي على ظهر الكوفة، وما زال محمد بن إبراهيم يتأهب لأمره يدعو من يشق به إلى ما يواد حتى اجتمع له بشر كثير، وهم في ذلك يتظرون أبا السرايا وأقبل أبو السرايا لموعده، وخرج محمد بن إبراهيم وأظهر نفسه وبرز إلى ظهر الكوفة ثم دخل الكوفة وخطب الناس فأقبلوا على بيعته، ثم كان ما تكلفت كتب التاريخ ببيانه، ومات محمد بن إبراهيم وأوصى إلى أبي السرايا (انظر مقاتل الطالبين ص ٥١٨ - ٥٣٦).

(١) هو إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنهم أجمعين! وإبراهيم هذا أخوه على الرضا الذي كان المأمون العباسي بن هارون الرشيد قد جعله ولي عهده من بعده، وكتب بذلك إلى الأفاق. وسبب هذا ثارت ثورة العباسيين على المأمون وقرروا فيما بينهم خلعه، ولولا إبراهيم بن المهدي مكانه، فلم يتم أمره وهرب واختفى، وإبراهيم بن موسى الكاظم كان مع أبي السرايا، فعقد له أبو السرايا على اليمن بعد موت محمد بن إبراهيم فلما ذهب إبراهيم بن موسى إلى اليمن أذن له أهلها بالطاعة بعد وقعة كانت بينهم يسيرة المدة، وقال ابن الأثير في الكامل (٦ / ١١٤ بولاق): «وفى هذه السنة (سنة ٢٠٠) ظهر إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد وكان بمكة، فلما بلغه خبر أبي السرايا وما كان منه سار إلى اليمن ويها إسحاق بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله عاملا للمأمون، فلما بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار منها نحو مكة، فأتى المشاش: فعسكر بها، واجتمع بها إليه جماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، استولى إبراهيم على اليمن، وكان يسمى الجزار؛ لكثرة من قتل باليمن وسبى وأخذ الأموال» هـ، وانظر مع ذلك مقاتل الطالبين (٥٣٤)، وكامل ابن الأثير في غير ما تقدم ذكره (١٦٦/٦).

هرب مع أبي السرايا، فأخذنا في طريق خراسان، فوجه بهما إلى الحسن بن سهل، فقتل أبا السرايا، وأظهر بعد ذلك موت محمد، ويقال: إنه حمل إلى المأمون وهو بمرور، فمات هناك.

١١ - إبراهيم بن موسى بن جعفر:

وخرج باليمن والمأمون بخراسان إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل صاحب أبي السرايا، فوجه إليه المأمون جيشاً فهزمه، وصار إلى العراق، فأمنه المأمون.

١٢ - إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد:

وخرج بعد دخول المأمون بغداد أبو جعفر^(١) إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد؟ فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله، فصار إلى دينار في الأمان، وقر به على المأمون، فمات.

١٣ - محمد بن القاسم:

وخرج «محمد بن القاسم»^(٢) من ولد الحسين بن علي بخراسان، ببلدة يقال لها طالقان، في خلافة المعتصم، فوجه إليه عبد الله بن طاهر - وهو على خراسان - جيشاً، فانهزم محمد، ثم قدر عليه عبد الله بن طاهر، فحمله إلى المعتصم فحبسه معه في قصره، فاختلف الناس في أمره: فمن قائل يقول: هرب، ومن قائل يقول: مات، ومن الزيدية من يزعم أنه حي، وأنه سيخرج.

(١) هكذا في أصول هذا الكتاب، وليس بشيء، وقد عثرت في النجوم الزاهرة (٢/ ١٨٣) في حوادث سنة ٢٠٧ على ما يأتي: «وفي هذه السنة خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك من اليمن، يدعو إلى الرضا من آل محمد عليه السلام، وكان خروجه من سوء سيرة عامل اليمن، فبايعه خلق، فوجه المأمون لحره دينار بن عبد الله، وبعث إليه بأمانه، فحج دينار، ثم سار إلى اليمن حتى قرب من عبد الرحمن المذكور، وبعث إليه بأمانه فقبله، وعاد مع دينار إلى المأمون» اهـ، ويظهر أن ما وقع بأصل الكتاب من تحريف النساخ فإن إبراهيم بن جعفر قد تقدم الكلام على خروجه قبل هذا مباشرة، وانظر كامل ابن الأثير (٦/ ١٤٠).

(٢) هو أبو جعفر محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه صفية بنت موسى بن عمر بن علي بن الحسين بن علي وقد تقدم ذكره في (مقالات الإسلاميين) وانظر - مع ما عدنا هناك من المراجع - مقاتل الطالبين (٥٧٧) وكامل ابن الأثير (٦/ ١٦٢) وتاريخ الطبري في أحداث سنة ٢٢٩ من الهجرة، والنجوم الزاهرة (٢/ ٢٣٠).

١٤ - محمد بن جعفر بن محمد بن علي:

وخرج «محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي»^(١) بمكة وكان يلقب بدباجة؛ داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم فلما مات محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم دعا لنفسه، فوجه إليه المأمون عيسى الجالودي، فظفر به، فحمله إلى المأمون ببغداد، ثم أخرجه معه فمات ببجرجان.

١٥ - الأفتس:

وخرج «الأفتس»^(٢) بالمدينة داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، فلما مات محمد بن إبراهيم دعا إلى نفسه.

١٦ - علي بن محمد بن عيسى:

وخرج «علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب» بعده في خلافة المعتصم^(٣)، فقتله بنو مرة بن عامر.

(١) هو أبو جعفر محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأمه أم ولد، وكان شيخا ورعا محببا، مفارقا لما عليه من أهل بيته، وكان يروى العلم عن أبيه جعفر بن محمد، وكان الناس يكتبون عنه، وكان يظهر سمنا وزهدا، وأمر المأمون آل جعفر أبي طالب بخراسان أن يركبوا مع غيره من آل أبي طالب فأبوا أن يركبوا إلا معه، فلما رأى إصرارهم أقرهم، وكان سبب خروجه أن رجلا في أيام أبي السرايا قد كتب كتابا يسب فيه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وجميع أهل البيت، وكان محمد بن جعفر معتزلا تلك الأمور لم يدخل في شيء منها، فجاءه الطالبين فقرأوا عليه الكتاب، فلم يرد عليهم جوابا حتى دخل بيته فخرج عليهم وقد لبس الدرع وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه، وتسمى بالخلافة، وهو يتمثل:

لم أكن من جناتها علم الله، وإني بحرها اليوم صال
وانظر مقاتل الطالبين (٣٥٧ وما بعدها) وتاريخ بغداد (٢/ ١١٣ وما بعدها) وتاريخ الطبري في حوادث سنة ٢٠٠ وكامل ابن الأثير (٦/ ١١٥).

(٢) هو الحسين بن الحسن، وكان خروجه في سنة مائتين، وفي هذه السنة في المحرم نزع كسوة الكعبة وكساها كسوة أخرى أنقلها أبو السرايا من الكوفة من الخز، وتبع ودائع بني العباس وأتباعهم وأخذها وأخذ أموال الناس لسوء سيرة أصحابه؛ أتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلم يزل به حتى أجابه (انظر كامل ابن الأثير ٦/ ١١٥ وتاريخ الطبري ١٠/ ٣٣٢ مصر).

(٣) لم يذكر أبو الفرج في مقاتل الطالبين علي بن محمد (بن أحمد) بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب فيمن خرج من الطالبين في أيام المعتصم، ولا وجدته على هذا الوجه في مرجع من مراجع التاريخ التي بين يدي على كثرتها، وإنما ذكر فيمن خرج أيام المعتصم من الطالبين محمد=

١٧ - الحسن بن زيد بن الحسين بن علي:

ثم خرج «الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب» الحسن بن زيد بطبرستان، في سنة خمسين ومائتين^(١)، والعامل بها سليمان بن عبد الله بن طاهر، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة، ثم خلف من بعده «محمد بن زيد»^(٢). أخوه ثم قتل محمد بن زيد بعد محاربة كانت بينه وبين محمد بن هارون. ١٨ - الكواكبي:

وخرج بقزوين «الكواكبي»، وهو من ولد الأرقس، واسمه «الحسين»^(٣) بن أحمد

بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الحسن بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وذكر علي محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد فيمن خرج أيام المعتد، وقد سقط اسم «أحمد» هذا من أصل هذا الكتاب كما ترى.

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل (١٣/٧) أنه خرج في سنة خمسين ومائتين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسن ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكنيته أبو الحسين، وأمه فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقد ذكر سبب خروجه، وما حدث منه وله، وذكر أيضا أنه خرج في هذه السنة الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، بطبرستان، فانظره (٧/ ١٣ وما بعدها) ثم انظر تاريخ الطبري (١١ / ٨٧ و ٩٠) وما ذكرناه تترك أن جملة من الأسماء سقطت من هذا الكتاب في نسب الحسن بن زيد الخارج في عام ٢٥٠.

(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل (١٤٩/٧) في حوادث سنة سبعين ومائتين قال: «وفي هذه السنة توفي الحسن ابن زيد العلوي صاحب طبرستان في رجب، وكانت ولايته في تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام، وولى مكانه أخوه محمد بن زيد وكان الحسين جوادا، امتدحه رجل فاعطاه عشرة آلاف درهم، وكان متواضعا لله تعالى، حكى عنه أنه مدحه شاعر فقال: الله فرد وابن زيد فرد فقال: يكفيك الحجر يا كذاب، هلا قلت: الله فرد وابن زيد عبد ثم نزل عن مكانه ونحر ساجدا لله تعالى، والصق خده بالتراب، وحرم الشعر» اهـ وانظر بعد ذلك الكامل أيضا (٧ / ١٥١ و ١٥٦ و ١٧٩ و ١٨٤ و ١٨٨).

(٣) سمى أبو الفرج في مقاتل الطالبين الكواكبي «الحسين بن أحمد بن محمد بن الأرقط بن عبد الله بن علي بن الحسين، وقال: «قتله الحسن بن زيد، وكان قد بلغه أنه يريد الخلافة، وأنه قد اجتمع وعبيد الله بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فدعا بهما وأغلظ لهما، فردا عليه، فأمر بهما فديست بطونهما، ثم ألقاهما في بركة، فماتا جميعا، ثم أخرجا فألقيا في سرداب، فلم يزا فيهما حتى دخل الصقار البلد فأخذهما ودفنهما» اهـ.

وقد ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٢٥١ (٧/ ٥٨) قال ما نصه: «فيها ظهر الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن الحسين بن علي، المعروف بالكواكبي، بتاحية قزوين وزنجان، فطردا عمال طاهر منها» اهـ، ووقع في أصول الكتاب «واسمه الحسن بن أحمد».

ابن إسماعيل، من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، فغلب عليها، ثم هزمه بعض الأتراك.

١٩ - يحيى بن عمر بن يحيى:

وخرج بالكوفة أيام المستعين «أبو الحسين يحيى بن عمر (بن يحيى)»^(١) بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فوجه إليه الحسن بن إسماعيل بأمر محمد بن عبد الله بن طاهر، فقتل أبا الحسين.

٢٠ - الحمزى:

وخرج أيام المستعين أيضا «الحمزى (الحسين) بن محمد بن حمزة»^(٢) بن عبد الله من ولد الحسين بن علي، فظفر به، وأخذ، وحبس إلى أن أطلقه المعتمد.

٢١ - ابن الأفتس:

وخرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين ابن الأفتس.

٢٢ - إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم:

وخرج بسواد المدينة مدينة الرسول ﷺ سنة خمس ومائتين «إسماعيل بن يوسف ابن إبراهيم»^(٣)، من ولد الحسن بن علي، فغلب عليها، وتوفى لليلتين خلتا من ربيع

(١) وقد ذكرنا عن ابن الأثير والطبري أن يحيى بن عمر بن يحيى خرج سنة خمسين ومائتين.

(٢) وهو الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن أبي طالب، ويعرف بالحرون، خرج بالكوفة بعد يحيى بن عمر، فوجه إليه المستعين مزاحم بن خاقان في عسكر عظيم، فلما قارب الكوفة خرج الحسين الحرون عنها، وخالفه الطريق حتى صار إلى سر من رأى، وقد بوع المعتزلة، فبايع له، وانصرف مزاحم عن الكوفة، فمكث الحسين الحرون مدة ثم هرب، وأراد الخروج ثانية، فرد وحبس بضع عشرة سنة، فأطلقه المعتمد بعد ذلك في سنة ثمان وستين ومائتين، فخرج أيضا بسواد الكوفة، فعات وأفسد، فظفر به في آخر سنة سبع وستين أو إحدى وسبعين، ثم توفى، فأمر الموفق بدفنه والصلاة عليه؛ ولم يكن ممن يحمي مذهب في خروجه فتشوق خبره، ولقد رأيت جماعة من الكوفيين يعيرون من خرج معه بذلك ويسبون به، انظر مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصبهاني ٥٦٥.

(٣) قال ابن الأثير في الكامل في أثناء ذكر حوادث سنة إحدى وخمسين ومائتين (٧/ ٥٨) ما نصه: «وفيها ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب بمكة، فهرب جعفر، وانتهب إسماعيل منزلة ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ»

الأول سنة اثنين وخمسين ومائتين، خلف بعده «محمد بن يوسف» ففقط الميرة على أهل المدينة، وما زال على أمره إلى أن خرج أبو الساج إلى مكة والمدينة، فقتل خلقا كثيرا من أصحابه، وهرب محمد فمات في هربه.

٢٣ - عبد الله بن معاوية:

وخرج بالكوفة في آخر أيام بنى أمية «عبد الله»^(١) بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب «فحاربه عبد الله بن عمر، فهزمه، ومضى عبد الله بن معاوية إلى فارس فغلب عليها وعلى أصحابها، ثم مات بفارس.

٢٤ - صاحب البصرة:

وخرج «صاحب البصرة» وكان يدعى أنه «علي بن محمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن أبي طالب» وسمعت من يذكر أنه كان يدعى أنه «علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب» وأنصاره الزنج،

=ما كان حمل لإصلاح القبر من المال وما في الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحو من مائتي دينار، وخرج منها بعد أن نهبا وأحرق بعضها في ربيع الأول بعد خمسين يوما، وسار إلى المدينة، فتواري عاملها، ثم رجع إسماعيل إلى مكة في رجب، فحصرهم حتى تماوت أهلها جوعا وعطشا، وبلغ الحيز ثلاثة أواق بدوهم، واللحم رطل بأربعة دراهم، شربة ماء بثلاثة دراهم، ولقي أهل مكة منه كل بلاء، ثم سار إلى جده بعد عام ستة وخمسين يوما، فحبس عن الناس الطعام، وأخذ الأموال التي للتجار وأصحاب المراكب، ثم وافى عرفة وبه محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور الملقب بكعب البقر وعيسى بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة، كان المعتز وجههما إليها، فقاتلهما إسماعيل، وقتل من الحاج نحو ألف ومائة، وسلب الناس، وهربوا إلى مكة، ولم يبقوا بعرفة ليلا ولا نهارا، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جعدة فأنهت أموالها»
١ هـ.

كلامه بحروفه، وانظر النجوم الزاهرة (٢/ ٣٣٣ و ٣٣٥).

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل (٥/ ١٣٠ بولاق) في حوادث سنة سبع وعشرين ومائة خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة، ودعوته إلى نفسه، وكان سبب ذلك أنه قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وإلى الكوفة، فأكرمه وأجاره وأجرى عليه وعلى إخوانه كل يوم ثلثمائة درهم، فكانا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد ويعلمه عبدالعزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فلما بلغ خبر بيعتهما إلى الآفاق، فجاءته البيعة ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره إلى الشام، فحبس عبد الله بن معاوية عنده وزاده فيما كان يجري عليه، وذكر حدثا طويلا فأنظره في الموضوع الذي دللناك عليه، وانظر أيضا مروج الذهب للمسعودي (٣/ ٢٤٣ بتحقيقنا)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٠٩ و ٣١٠)، وتاريخ الطبري (٩/ ٤٨).

وغلب على البصرة سنة سبع وخمسين، وقتل سنة سبعين ومائتين، قتله أبو أحمد الموفق بالله بن المتوكل^(١) على الله.

٢٥ - المقتول على الدكة:

وخرج بأرض الشام «المقتول على الدكة» فظفر به المكفى بالله بعد حروب ووقائع كانت.

(١) فى عام ستة وخمسين ومائتين، وفى خلافة المعتمد على الله العباسى خرج بالكوفة علي بن زيد العلوى، واستولى على الكوفة، وأزال عنها نائب الخليفة، واستقر بها، فسير إليه الشاه ابن مكيال فى جيش كثيف، فالتقوا واقتتلوا فانهزم الشاه، وقتل جماعة كثيرة من أصحابه، ونجا الشاه، ثم وجه المعتمد إلى محاربه كيجور التركى، وأمره أن يدعو إلى الطاعة ويذل له الأمان، فطلب علي بن زيد أمورا لم يجبه إليها كيجور، فتنحى علي بن زيد عن الكوفة إلى القادسية، فعسكر بها ودخل كيجور إلى الكوفة ثالث شوال من السنة، ومضى علي بن زيد إلى خفان، ودخل بلاد بنى أسد، وقد كان صاهرهم وأقام هناك، ثم سار إلى جنبلاء، وبلغ كيجور خبره، فأسرى إليه من الكوفة سلع فنى الحجة من السنة فواقعه فانهزم علي بن زيد، وطلبه كيجور فقاتله، وقتل نفرا من أصحابه، وأسر آخرين، وعاد كيجور إلى الكوفة، فلما استقامت أمورها عاد إلى سر من رأى بغير أمر الخليفة فوجه إليه الخليفة نفرا من القواد فقتلوه بعكبرا فى ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومائتين (انظر كامل ابن الأثير ٧/ ٥٨) وذكر ابن الأثير فى حوادثه سنة خمس وخمسين ومائتين (٧٢/٧) مبدأ خروج صاحب الزنج حيث قال: «وفى شوال خرج فى قرات البصرة رجل، وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب - عليه السلام - وجعل الزنج الذين يسكنون السباخ، وغير دجلة، ثم ذكر حدثا طويلا، وانظر أيضا ٧/ ٨٤ و ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ و ٩٠ و ٩٢ و ١٠٤ و ١١١ و ١١٧ و ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٧ و ١٣٠ و ١٣٣ و ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٨ و ١٤٠ و ١٤٣) ثم انظر تاريخ الطبرى (١١/ ١٧٤).

الفصل الثاني

طبقات رجال المذهب الزيدى

وكما كان لكل مذهب من المذاهب الإسلامية أعلام فقد كان للمذهب الزيدى^(١) أعلام هداية لا تهدم، والسنة حجج لا تفحم، ومن أولئك من كان فى طبقة المؤسسين، وتساوى هذه الطبقة لإمام المذهب فى نظر المذاهب الأخرى ومن هذه:

الطبقة الأولى:

الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - مات شهيدا سنة ١٢٢ هـ. الإمام القاسم بن إبراهيم مات سنة ٢٤٢ هـ.

حفيدة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم وهو المؤسس للمذهب فى اليمن مات سنة ٢٩٨ هـ.

الإمام الناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضى الله عنهم - وهو المؤسس للمذهب الزيدى فى خراسان، مات سنة ١٠٤ هـ.

الطبقة الثانية:

طبقة المخرجين للمذهب وهم الذين استخرجوا من كلام الأئمة أو احتجاجاتهم بوساطة القياس أو المفهوم أحكاما لا تتعارض مع الكتاب والسنة لا جملة ولا تفصيلا ومن رجال هذه الطبقة:

(١) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٦ .

- العلامة محمد بن منصور الماردى، مات سنة ٢٠٠ ونيف وتسعين.
- العلامة أبو العباس أحمد بن إبراهيم، مات سنة ٣٥٣ هـ.
- العلامة الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحسنى، مات سنة ١٤١٦ هـ.
- العلامة الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون الحسنى، مات سنة ٤٢٤ هـ.
- العلامة علي بن بلال الأملى مولى الإمامين المؤيد بالله وأبى طالب.
- العلامة أحمد بن محمد الأزرقى الهدوى.

الطبقة الثالثة طبقة المحصلين:

- وهم الذين اهتموا بتحصيل أقوال الأئمة وما استخرج منها ونقلوها إلى تلامذتهم بطريق الرواية أو المناولة لمؤلفاتهم، ومن رجال هذه الطبقة:
- العلامة القاضى زيد بن محمد الكلارى الجلى الملقب بحافظ أقوال العترة وهو من أتباع المؤيد بالله.
- العلامة السيد علي بن العباس بن إبراهيم راوى إجماعات أهل البيت، مات سنة ٣٤٠ هـ تقريبا.
- العلامة القاضى الحسن بن محمد بن أبى طاهر الرصاص، مات سنة ٥٨٤ هـ.
- العلامة الحسين بن بدر الدين، مات سنة ٦٦٢ هـ.
- العلامة زيد بن علي بن الحسن بن علي البيهقى، مات فى تهامة فى عهد الإمام أحمد بن سليمان وهو فى طريقه إلى مكة المكرمة.
- العلامة القاضى جعفر بن أحمد بن عبد السلام البهلولى، مات سنة ٥٧٣ هـ.
- العلامة الإمام عبد الله بن حمزة، مات سنة ٦١٤ هـ.

الطبقة الرابعة طبقة المذاكرين:

- وهم الذين راجعوا أقوال من تقدمهم وبلغتهم بالرواية وفحصوها سنداً وممتناً وعرضوها على أصول المذاهب وقواعدها المستمدة من صرائح الكتاب والسنة ثم أقرروا ما

توافق معها واعتبروه هو المذهب، وما لم يوافقها لم يعتبروه مذهباً للفرقة الزيدية، وكان فى نظرهم رأياً خاصاً بصاحبه غير معاب عليه باعتبار أن كل مجتهد فى الفروع مصيب. ومن رجال هذه الطبقة:

العلامة القاضى محمد بن سليمان بن أبى الرجال الصعدى، مات سنة ٧٣ هـ.

العلامة القاضى عبد الله بن زيد العنسى، مات سنة ٦٦٧ هـ.

العلامة القاضى يحيى بن الحسن البحيح وقد عاصر الإمام يحيى بن حمزة.

العلامة الإمام يحيى بن حمزة، مات سنة ٧٤٩ هـ.

العلامة الإمام عز الدين بن الحسن المؤيد، مات سنة ٩٠٠ هـ.

العلامة القاضى محمد بن يحيى حنش مات سنة ٨٣٢ هـ.

العلامة القاضى يوسف بن أحمد بن عثمان الثلاثى، مات سنة ٨٣٢ هـ.

العلامة الإمام أحمد بن يحيى بن المرتضى، مات شهيداً بالطاعون سنة ٨٤٠ هـ^(١)

ومعظم رجال طبقات المذهب الزيدى من العلماء المجتهدين؛ ولذلك فلا يصدق عليهم القول بأنهم فى مستوى طبقة مجتهدى المذهب؛ لأن هذه الطبقة لا تظهر دائماً إلا بين رجال المذاهب التى لا توجب الاجتهاد على المتمكن منه وليس كذلك المذهب الزيدى. وبالتجور يمكن أن يوجد فى طبقات المذهب من هو فى درجة المجتهد المتسبب. أما الأكثرون فهم فى درجة المجتهد المطلق. وقد ظهر من هؤلاء بعد طبقة المذاكرين الكثير ومنهم:

الإمام يحيى شرف الدين مات سنة ٩٦٥ هـ والإمام القاسم بن محمد، مات سنة ١٢٩ هـ. والإمام محمد بن إسماعيل الأمير، مات سنة ١١٨٢ هـ والإمام عبدالقادر بن أحمد بن الناصر شرف الدين مات سنة ١٢٠٧ هـ وغيرهم.

وكانت كل المؤلفات الزيدية لا تقتصر على ذكر القول المختار لديها، وإنما تجمع كل الأقوال المشهورة للأئمة والعلماء، أى أنها مؤلفات أمينة وموسوعات لما تألف فيه.

لذلك فالقول المختار للمذهب إنما كان يؤخذ من أفواه المشايخ ويتناقل بالرواية حتى جاء القاضى حسين بن أحمد الشيبى - رحمه الله - مات سنة ١١٦٩ هـ فوضع

(١) نفس المرجع السابق ص ١٧.

كلمة (مذهب) في كتابه شرح الأزهار على القول المختار للمذهب تمييزاً له عن سائر أقوال الأئمة والعلماء الزاخر بها كتاب شرح الأزهار المعروف، واستحسن العلامة سائر العلماء في عصره. ولكانته في العلم والتقوى تلقفها عنه الطلاب، وصارت نسخته من أهم المراجع في ذلك عند الطلاب. كما ذكره المؤلف المؤرخ السيد محمد زياره - رحمه الله - في ملحق البدر الطالع ص ٦٨.

آثاره في الفقه والحديث:

يعد الإمام زيد أول من دون الفقه بين جميع المذاهب الإسلامية في وقت لم يكن التدوين قد بدأ، وقد أقام فقهه على الحديث وعلى الرأي، ولم يقتصر على أحاديث أهل البيت، بل كان يروى الحديث عن غيرهم كجابر الأنصاري ومحمد بن أسامة بن زيد^(١).

وتنسب إلى الإمام زيد عدة مؤلفات منها كتاب تفسير الغريب وكتاب الحقوق وكتاب المجموع في الحديث وكتاب المجموع في الفقه، والأخيران عمادا الحديث والفقه لدى الزيدية.

جمع كتابي المجموع أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي^(٢). وقد وثقه أئمة الزيدية، وعلماءها وبعض علماء الحديث لدى أهل السنة كابن ماجه والدارقطني، بينما جرحه علماء الأمامية وبعض علماء أهل السنة كابن حنبل وإسحاق بن راهويه، وتلخص الطعون فيه فيما يأتي:

* مبالغته في الثناء على آل البيت.

* أنه انفرد برواية «المجموع» ولو كان «المجموع» معروفاً عن الإمام زيد لاشتهر ولكثر روايته.

(١) نفس المرجع ص ١٨.

(٢) أبو خالد عمرو الواسطي ولد بالكوفة ثم انتقل إلى واسط وإليها انتسب، وقد لازم الإمام زيداً في المدينة وفي تنقلاته خارجها، وقد روى عنه كُتبه التي أثرت عنه وبخاصة كتابي المجموع.

الفصل الثالث

الأصول العقدية عند الزيدية

الوحي:

أما كيف كان يتلقى الرسول ﷺ الوحي بالقرآن فقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم﴾ [الشورى: ٥١].

ويدخل في الوحي: الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدئ به الوحي، والنفث في الروح: أي النفس، وهو يشبه ما يسمى بالإلهام، غير أن صاحب النفث في الروح يتيقن من مصدره من عند الله وليس كذلك الملهم، وأحياناً كان يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، وكان أشده على رسول الله ﷺ.

كتاب الله القرآن العظيم:

كتاب الله. هو هذا الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ المعروف المشهور في العالم. وهو أصل الأدلة السمعية ومرجعها في نظر الزيدية لحديث العرض وهو قوله ﷺ: سيكذب عليّ من بعدى كما كذب عليّ الأنبياء من قبلي. فما أناكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فهو منى وأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فليس منى ولا قلته.

القرآن:

معنى القرآن لغة: المجموع والمضموم بعضه إلى بعض، وسمى كذلك؛ لأنه قد

جمع أصول كل الشرائع السماوية، وأصول كل النظم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من متطلبات الإنسان في الحياة.

وقد نزل القرآن على الرسول ﷺ وهو في الأربعين من عمره الشريف واستمر نزوله عليه على حسب الدواعي والحاجات مدة ثلاثة وعشرين عاما هي مدة حياته في النبوة، وكان ذلك كذلك لطفا من الله بالعرب حتى لا تثقل عليهم تكاليفه، وليسهل عليهم حفظه؛ لأن الغالب في العرب هو الجاهل بالقراءة والكتابة، وليثبت به قلب الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان]، ومع طوله وكثرة سوره فقد سلم من التناقض، ومن رتابة الكلمة، وسلم من الأخطاء، ويحفظ الله له سلم من الزيادة والنقصان على مر العصور، رغم كثرة الحاقدين والكافرين والمكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر].

معاني القرآن:

كل معاني القرآن واضحة ومفهومة؛ لأن المقصود به هو التفهيم للناس ما لهم وما عليهم لله ولأنفسهم في الحياة وكل خطاب يقصد به التفهيم لا بد وأن يكون واضحا ومفهوما وإلا فهو لغز وتعمية، ولما تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة من مثله فعجزوا عن الإتيان بمثله، ولما عجزوا لجأوا إلى السيف وإعلان الحرب، فلو كان فيه ما لا يفهم معناه لا حتجوا على النبي ﷺ به، ولكان هذا أسهل وأخف من السيف والحرب، وكان أقوى حجة لهم على تكذيبه.

وقد اختلف الناس في فهم معانيه لاختلافهم في الفهم والعلم، وهذا غير معيب واختلفوا في تأويله: أي تفسيره وهذا غير معيب كذلك. واختلفوا في فهم وتفسير التشابه منه، فأما الذين ردوا متشابهه إلي محكمه فقد عملوا بتوجيه القرآن المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ... (٧)﴾ [آل عمران].

وأما الذين لم يسلكوا هذا المسلك ولم يتوجهوا بتوجيه القرآن، فعسى أن لا يكون أولئك من الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، وقد تقدم الكلام على المحكم والمتشابه في بحث الكلام عن الصفات. (التوحيد).

أما معانى فواتح السور مثل: ﴿ألم﴾، ﴿ص﴾، ﴿ن﴾، فأقول ما قيل فيها: إن الله أراد بها التنبيه للعرب بأن هذا القرآن الذى أعجزهم هو مؤلف من ألف بائهم، ونارل على لغتهم فى أساليب التعبير، فعجزهم دليل على أنه ليس من كلام البشر وإنما هو من كلام خالق البشر ويدل على صحة هذا القول ذكر القرآن بعدها مثل: ﴿آلَمَ﴾ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴿٢﴾ [البقرة]، ﴿يَسَّ﴾ (٣) وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ [يس].

القرآن ناسخ ومصدق

والقرآن بما اشتمل عليه من أحكام وقوانين وغير ذلك هو مصدق لما فى الكتب السماوية الأولى فيما جاء فيها من أصول الشرائع وأمّهات الأخلاق، هو ناسخ لما عدا ذلك من التفريعات التى قد انتهت مهمتها، وانقضت زمنها الذى كانت صالحة فيه بمجىء زمن العقل والعلم، زمن القرآن الذى صدرت آياته وسوره بالدعوة إلى العلم فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق]... وكانت هذه الآيات هى عنوان رسالة الإسلام للدا جعل الله القرآن مصدقا لما بين يديه من أصول شرائع وأمّهات أخلاق ومهيمنة على ما بين يديه فى التفريعات والتفصيلات (١) ثم قال الله لنبيه ﷺ: ﴿... فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ...﴾ (٤٨) [المائدة].

وإنما قصر الله الحكم على القرآن؛ لأن سائر الكتب المقدسة قد دخلها التحريف والتبديل والإخفاء والنسيان، قال تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...﴾ (١٦) [المائدة].

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...﴾ (١٤) [المائدة].

تدوين القرآن

كان رسول الله ﷺ يأمر بتدوين القرآن، ويحدد مواضع الآيات التى كانت تنزل

(١) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ...﴾ (٤٨) [المائدة].

عليه لمناسبة ما فيما قد نزل عليه من السور، لذلك فكل ما يوجد اليوم من آيات فى المصاحف الشريفة هو نفس ما سمع ونقل عن رسول الله ﷺ، سمعه جيل عن جيل، ونقله التابعون عن الصحابة، وهكذا حتى وصل إلينا متواترا، وسيكون أمره حتى آخر الدهر كذلك، ولا يضر اختلاف القراءات السبع فهى كذلك رويت متواترة عن رسول الله ﷺ وما عدا السبع القراءات فقد اختلف فيها.

وأول من جمعه فى مصحف واحد هو الإمام علي - كرم الله وجهه - بعد موت الرسول ﷺ، ثم جمع فى عهد عثمان ووزع على الأقطار الإسلامية فى حينه.

المحكم والمتشابه:

المحكم فى اللغة: هو المتقن. والمتشابه لغة: هو ما يشبه بعضه بعضا. وبهذا المعنى اللغوى يكون القرآن كله محكما؛ لإتقانه فى بلاغته وحسن نظمته، ويكون متشابها؛ لأنه يشبه بعضه بعضا فى البلاغة والإتقان.

أما المحكم فى اصطلاح المتكلمين: فهو ما اتضح معناه فلم يخف.

والمتشابه: هو ما خفى معناه فلم يتضح إلا غريته. وقد وضع القرآن الكريم سبب وجود التشابه بهذا المعنى الاصطلاحي فى القصة فقال جل وعلا: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ... ﴾ (٧) ﴿ [آل عمران] وذلك باتباع ما يظهر منه التناقض فى كلام الله لغرض الفتنة والتشكيك، وهو ما يتول إليه ذلك الاتباع كاتباع آية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴾ (١١) ﴿ [الشورى] وفى نفس الوقت يتبع آيات الجوارح فيشبه الله بالإنسان - جل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا -، وبهذا الاعتقاد المتناقض تكون الفتنة التى يريد بها الذين فى قلوبهم زيف. ولو أرجع هذا التشابه إلى أم الكتاب المحكم لما حدثت الفتنة ولما كان الزيف، فالمحكم فى القرآن الخاص بصفات الله تعالى مثل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴾ (١١) ﴿ [الشورى].

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٠٣) ﴿ [الأنعام]، فهاتان الآيتان ونحوهما واضحة معانيها كل توضوح. فآية: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴾ (١١) ﴿ [الشورى] تنص على أن الله لا يشب شيئا من مخلوقاته لاجسما ولاعرضا. وإذا علمنا أن كل شىء فى الوجود لا يخرج عن كونه جسما أو عرضا حتى على رأى الجاحدين الذين يقولون بأن أصل الوجود نفرة وأن العالم خلق بتفاعلها،

فالذرة جسم وفيها عرض والله - سبحانه وتعالى - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ (١١) [الشورى] فأى بحث عن الذرة المقدسة لا يؤدي إلا إلى الوهم والجهل والتقول على الله بغير الحق، وأى اعتقاد لا يكون على أساس رد التشابه إلى المحكم لا يؤدي إلا إلى الفتنة والضلال المبين بالتشبيه لله الخالق بالإنسان المخلوق أو بالنسبة للإنسان المخلوق بالله الخالق، أو بنحو ذلك أعاذنا الله منه وهدانا إلى ﴿...الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١) صراط الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) ﴿[الفاتحة].

الآيات المتشابهة:

الآيات المتشابهة فى القرآن كثيرة فمنها قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْبَنِيِّ تَجَادَلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾ (١) [المجادلة] - فهذه الآية وكثير من نحوها مثل ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى] تثبت فى الظاهر السمع كما تثبت الآية الثانية: السمع والبصر.

والسمع فى المخلوقات: هو ما به يعرف المسموع بوساطة آلة كالآذان فى الإنسان وما أشبهها فى غيره؛ لهذا فالآيات المتشابهة التى يجب ردها إلى المحكم كما قال الله تعالى؛ لذلك قالت الزيدية وسائر العدلية: إن المعنى السمع والبصر.

مقاصد الشريعة الإسلامية:

من المعلوم أن الله لم يشرع لعبا ولهوا، ولا وضعها عبثا واعتباطا - وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وإنما شرعها لمقاصد عظيمة تعود على عباد الله أفرادا أو جماعات بمصالح فى دنياهم وآخرتهم، بها يتحقق الخير، ويعم الرخاء ويسود الأمن والاستقرار كل القلوب وكل البيوت وكل الشعوب الخاضعة لشريعة الله.

ومصالح الدنيا على ضربين:

١ - مصالح ضرورية وهى أعلى المراتب للمقاصد الشرعية.

٢ - مصالح غير ضرورية ولكنها مهمة غير مستغنى عنها.

والضروريات المتفق عليها تنحصر فى خمسة أشياء هى:

١ - حفظ الدين وهو علة لوجوب الجهاد إذا ما استهدف من قبل الأعداء ونحوهم.

٢ - حفظ النفس وهو علة لوجوب القصاص، ومن المحافظة عليها حفظ كرامتها وحريتها.

٣ - حفظ العقل وهو علة لتحريم المسكرات ونحوها من المخدرات.

٤ - حفظ المال وهو علة لقطع يد السارق وتحريم الربا والرشوة ونحو ذلك.

٥ - حفظ النسل وهو علة لتحريم الزنا وتحريم القذف.

وقد نظم هذه الضروريات بعضهم فقال:

وروى فاعلم ذلك ملة مضت حفظ خمس في جميع الشرائع

هى الدين ثم النفس والعقل ثالث مع النسل مال فاحشها فى المسامح

والذرائع المخلة بهذه الضروريات أو المقربة لها تعتبر من مكملاتها أو المخلة بها وعملها أو اجتنابها واجب.

والضرب الثانى وهى المصالح التى لم تكن ضرورية على قسمين:

١ - حاجى: أى يحتاج إليه الناس لتيسير أعمالهم وتحسين معاشهم كالبيع والإجارة والمضاربة وغير ذلك من مكملاته، الذرائع المؤدية إليه مثل اعتبار الكفاءة ومهر المثل فى حق الصغيرة؛ لأنه يؤدى إلى دوام الزوجية وهو من المقاصد الشرعية.

٢ - تحسينى: وترجع الأمور التحسينية إلى الأخلاق والآداب وما يؤدى إلى المروءة والسير على أفضل منهاج وخير سبيل.

مصادر التشريع الإسلامى:

مصادر التشريع الإسلامى: هى فى نظر الزيدية ثمانية مصادر:

١ - أولها وأعلاها ومرجعها كتاب الله.

٢ - سنة رسول الله.

٣ - الإجماع.

٤ - القياس ومنه المصالح المرسلة.

٥ - الاستصحاب.

٦ - والاستحسان .

٧ - شرع من قبلنا .

٨ - العقل .

ولا يؤخذ بالاستصحاب والاستحسان وشرع من قبلنا والعقل إلا بشروط سنذكرها في مواضعها .

السنة النبوية الشريفة:

المصدر الثاني: السنة النبوية الشريفة وتشمل:

قول الرسول ﷺ وفعله، والتقرير منه لأحد على فعل أو ترك علم به ولم يتعارض مع شريعته. أما الفعل الواجب التأسى به فهو الذى يفعله لغرض التشريع والتأسى، وأما ما سوى ذلك من الأفعال كالضروريات أو كان مما علم اختصاصه به فليس من فروع السنة الواجب العمل بها، وما كان منها فيجب التأسى به على الصفة التى علم عليها من وجوب وندب وإباحة. وأفعاله لا تتعارض ومتى تعارض فعل وقول أو قولان، فإن علم التاريخ فالتأخر ناسخ إن تراخى وقتا يمكن العمل بالأول، أو مخصص إن لم يتراخ، فإن جهل فالترجيح بين القولين وإذا تعارض قول وفعل فالقول أرجح على الأصح.

وتنقسم السنة بحسب روايتها إلى متواتر وأحاد، فالمتواتر: هو خبر جماعة يتمتع عادة أن يتواطأ أفرادها على الكذب، ولا يشترط فى رواته الإسلام، والعدالة، والإمام المعصوم، وغير ذلك مما يشترط الآخرون، وهو قطعى الدلالة ويفيد العلم.

ومثله فى إفادة العلم الخبر الأحادى إذا أجمع على العمل بمقتضاه، ومثله المتلقى بالقبول بين الأمة والعترة النبوية لتضمنه الإجماع على الصحة. وقد يتواتر اللفظ والمعنى، وقد يتواتر المعنى دون اللفظ، وقد يتواتر اللفظ دون المعنى، والكل واجب العمل به فى الأصول والفروع.

والخبر الأحادى: هو ما لم يبلغ حد التواتر. وينقسم إلى:

مسند: وهو ما اتصل بسند رواته إلى الرسول ﷺ.

مرسل: وهو ما سقط فيه راو أو أكثر. وله أقسام يفصلها كلها علم مصطلح الحديث.

ودلالة الخبر الأحادي ظنية، ويجب العمل به في فروع المسائل، ولا يؤخذ به في مسائل أصول الدين، وأصول الفقه القطعية، وأصول الشرائع إلا إذا وافقت مدلولاتها القاطعة، أو كانت الأصول مشهورة فجاء الأحاد فأخبر بها كما جاء في حديث البدوي: وفيه أنه قال للنبي ﷺ: يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: صدق. ثم أخذ يسأل النبي ﷺ بما حدثهم من صلاة وزكاة وغير ذلك وهو يقول: مثل ذلك والنبي ﷺ يقول: صدق^(١).

شروط قبول خبر الأحاد:

يشترط في قبول الأخبار الأحادية: أن يكون راويها مكلفاً، وأن يكون عدلاً والعدالة هي:

محافظة دينية تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة - وأن يكون ضابطاً لما يرويه في الأغلب، وأن يكون الخبر الذي يرويه غير مصادم دليلاً قاطعاً على وجه يتعذر معه التأويل إلا بتعسف، وأن لا يستلزم متعلق الخبر الأحادي الشهرة، وتصح رواية الخبر بالمعنى من عدل عارف ضابط. ولا تفرق الزيدية في هذه الشروط بين الزيدى وغيره فمن لم يكن عدلاً ضابطاً لا تقبل روايته مهما كان ومن أى فئة أو طائفة كان.

الإجماع:

المصدر الثالث للإجماع: وهو في نظر الزيدية ومن وافقهم نوعان: عام وخاص. فالعام: هو اتفاق المجتهدين العدول من أمة محمد ﷺ بعده في عصر على أمر. والخاص: هو اتفاق العترة النبوية كذلك، لدليل آية التطهير وحديث التمسك وغيره، وهو مذهب الشيخ ابن تيمية كما جاء في فتاواه^(٢). وطريقنا إلى العلم به السماع أو المشاهدة أو النقل إلينا.

وقد خالف النظام وبعض الرافضة في وقوع الإجماع. والجمهور على خلافهم. أما في هذا العصر الذى توافرت فيه وسائل المواصلات السريعة فقد أصبح من السهل إجماع عقلاء البشر جميعاً على أمر من الأمور، غير أنه لا يصح شرعاً الإجماع على حكم بعد الإجماع على خلافه وإلا لزم بطلان الإجماع الأول ولا قائل به، ولا بد

(١) أخرجه الستة عن أنس. (٢) ج ٢٨، ص ٤٩٣.

للإجماع من مستند شرعى، غير أنه بعد الإجماع لا يلزمنا البحث عن مستنده. ولا يشترط فى انعقاده انقراض أهل العصر المجمعين. ولا يشترط أن لا يسبقه خلاف. ويجب العمل بالإجماع، ويفسق مخالفه؛ لقوله تعالى: ﴿...وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ (١١٥) [النساء].

القياس:

المصدر الرابع القياس: وهو إلحاق معلوم بمعلوم فى حكمه للاشتراك فى العلة، والجمهور يوجب العمل بالقياس إذا عدم النص فى الكتاب والسنة والإجماع. وخالف فى ذلك الإمامية والظاهرية وبعض الخوارج. وهم محجوجون بإجماع الصحابة إذ كانوا بين قاتل وساکت سكوت رضى والمسألة قطعية. وقد وقع فى عهده ﷺ كما جاء فى حديث معاذ بن جبل^(١): أجتهد رأى. وأقره الرسول ﷺ. وفى رواية: أقيس الأمر بالأمر.

ولا يجرى القياس فى جميع الأحكام الشرعية إذ فيها ما لا تعقل علة، والقياس فرع تعقل العلة. وهو يجرى فى العقلية كمسائل العدل والتوحيد.

أقسام القياس:

ينقسم القياس إلى جلى: وهو ما قطع فيه بنفى الفارق كالامة والعبد فى سرية العتق.

وخفى: وهو خلاف القياس الجلى.

وينقسم إلى قياس علة: وهو ما صرح الشارع فيه بالعلة كأن يقول: لأنه كذا، أو لأجل كذا، أو بانه، أو فإنه، وهذه هى حروف التعليل فى أصول الفقه.

وقياس دلالة: وهو ما جمع فيه بين الأصل والفرع بما يلازم العلة ويدل عليها لا بنفسها مثل قياس قطع أيدى الجماعة بقطع يد الواحد إذا اشتركوا فى قطع يده قياساً على قتله به للاشتراك فى وجوب الدية عليهم.

وقياس طرد: وهو إثبات مثل حكم الأصل فى الفرع لاشتراكهما فى العلة، وأكثر القياسات طردية.

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وقيل: إنه مما تلقى بالقبول.

وقياس عكس: وهو ما ثبت فيه نقيض حكم الأصل بنقيض علته كقول النبي ﷺ جوابا على من قال: آياتي أحدنا شهوته في الحلال وله فيها أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟» فكانهم قالوا: نعم. فقال: «فكذلك لو وضعها في الحلال لكان له أجر».

أركان القياس:

للقياس أربعة أركان هي:

الأصل، والفرع، والحكم، والعلة، ولكل منها شروط.

فشروط الأصل: أن لا يكون حكمه منسوخا، ولا معدلا به عن سنن القياس كالشفعة مثلا، ولا ثابتا بالقياس؛ لأنه يؤدي إلى التسلسل، وما أدى إليه باطل، وأن لا يثبت حكما مصادما لنص.

وشروط الفرع: مساواة أصله في العلة، وفي الحكم، وفي التخفيف، والتخليط، فلا يقاس التيمم على الوضوء في التثليث؛ لأن التيمم شرع لغرض التخفيف، وأن لا يتقدم شرعية حكمه على حكم الأصل. فلا يقاس الوضوء على التيمم في النية، وأن لا يرد فيه نص.

وشروط الحكم الثابت بالقياس الشرعي: أن يكون شرعيا لا عقليا ولا لغويا.

وشروط العلة: أن لا تصادم نصا ولا إجماعا، وأن لا يكون في أوصافها مالا تأثير له في الحكم كإثبات ضمان التالف من النورة مثلا بعلته كونه مثلى ويكونه ليس بلبن كلبن المصرة، فعلة كونه ليس بلبن المصرة لا تأثير لها في الحكم فلا تصح العلة، وأن تكون العلة مطردة، أى يثبت الحكم عند ثبوتها في كل موضع، وأن تنعكس، أى يعدم الحكم عند عدمها وهذا على رأى من منع التعليل بعلتين.

طرق معرفة العلة:

وتعرف العلة بطرق وهي: بالإجماع على تعليل الحكم بعلته معينة، وبالنص الصريح بها مثل العلة كذا، أو لأن، أو بأن، أو لأجل كذا، ونحو ذلك.

وغير الصريح ما فهم منه التعليل لا على وجه التصريح بالعلته: ويسمى تنبيه النص وإيماء النص مثل: عليك الكفارة. جوابا لمن قال: جمعت أهلى في نهار رمضان، أو وأنا صائم.

وبالسبر - أى الاختبار - والتقسيم ويسمى حجة الإجماع: وهو حصر الأوصاف فى الأصل ثم يطل التعليل بها، إلا واحدا منها فتعين:

مثل قياس الذرة على البر فى تحريم التفاضل، فالأوصاف فى الأصل هى الطعام، أو القوت، أو الكيل، وهذا ما يصح التعليل به فيبطل مع ذلك التعليل بالباقي وتعرف العلة بالمناسبة وتسمى الإجازة وتخريج المناط: وهى تعيين العلة من ذات الوصف مثل الإسكار فى تحريم الخمر، وكالجناية عمدا عدوانا فى وجوب القصاص.

أقسام المناسب:

والمناسب أربعة أقسام: مؤثر، وملائم، وغريب، ومرسل.

فالمؤثر: ما ثبت بنص أو إجماع أو غير ذلك، من طرق معرفة العلة اعتبار عينه فى عين الحكم مثل تعليل ولاية المال فى حق الصغير الثابت بالإجماع، وتعليل وجوب الوضوء بالحدث الخارج من السيلين.

والملائم: ما ثبت اعتباره بترتيب الحكم على وقفه فقط لكنه قد ثبت بنص أو إجماع اعتبار عينه فى جنس الحكم مثل ولاية الأب بنكاح ابنته الصغيرة قياسا على ولاية المال بجامع الصغر، أو ثبت كذلك اعتبار جنسه فى عين الحكم كجواز الجمع فى الحضر للمطر قياسا على السفر بجامع الحرج.

أو ثبت كذلك اعتبار جنسه فى جنس الحكم كإثبات القصاص بالثقل - أى غير الحاد - قياسا على المحدد بجامع كونهما جناية عمد عدوان.

والغريب: ما ثبت اعتباره بمجرد ترتب الحكم على وقفه كتعليل تحريم النبيذ بالإسكار قياسا على الخمر.

والمناسب المرسل: ما لم يثبت اعتباره بشئ مما سبق وهو ثلاثة أقسام: ملائم، وغريب، وملغى.

فالملائم المرسل: هو الذى لم يشهد له أصل معين بالاعتبار، لكنه مطابق لبعض مقاصد الشرع الجميلة كقتل المسلمين المتحرش بهم عند الضرورة. وتحريم النكاح على العاجز عن الوطء وهذا هو المعروف بالمصالح المرسل.

والمذهب الزيدى يعمل به وهو قول لمالك. واشتراط الغزالي للعمل به كون المصلحة ضرورية كلية. واعتبره المذهب الزيدى نوعا من القياس.

والغريب: هو ما لانظير له فى الشرع لكن العقل يستحسن الحكم لاجله كالحكم بالإرث لمن طلقها زوجها فى مرضه المخوف خشية أن ترث وذلك معارضة لقصده، وهو غير معمول به بالاتفاق.

الملغى: هو ما صادم النص، وإن كان لجنسه نظير فى الشرع، كإيجاب الصوم ابتداءً على القادر المظاهر لزوجه على العتق، ولمصادمته للنص ألغى العمل به بالاتفاق.

الاستصحاب:

المصدر الخامس الاستصحاب: وهو إثبات الحكم فى وقت لثبوتة فى وقت آخر قبله، لفقدان ما يصلح للتغيير استصحابا للحال الأولى، ولا يعمل بهذا المذهب الزيدى إلا بشرط مساواة الحال الأولى للحال الثانية، ولم يظن طروء معارض يزيل العمل به. مثل من شك فى حصول الزوجية ابتداء فإنه يحرم عليه الاستمتاع استصحابا للحال الأولى وهى عدم الزوجية، ولو شك فى دوام الزوجية جاز له الاستمتاع استصحابا للحال الأولى، وهو دوام الزوجية. بخلاف المتيمم لو وجد الماء فإنه لا يستمر على التيمم استصحابا للحال لعدم المساواة بين الحالين فى المقتضى للحكم عدما ووجودا.

الاستحسان:

المصدر السادس الاستحسان: وهو عبارة عن دليل يقابل القياس الواضح. ويثبت بالآثار كما فى خبر المصراة، وبالإجماع كأجرة دخول الحمام مثلا، وبالضرورة كمنافاة طهارة الحياض والآبار.

شرع من قبلنا:

المصدر السابع شرع من قبلنا: وهو معمول به إذا عدم الدليل، ولم يعارض ما جاء فى شريعتنا، ولا كان مما نسخ بها، لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا...﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَ...﴾ [الأنعام: ٩٠]. ونحو ذلك.

والمرجع فى صحة ما يستند إلى شرع من قبلنا هو القرآن أو السنة الصحيحة . ولا ثقة بما فى كتبهم المتداولة بينهم ؛ لأن الله قد أخبرنا بأنهم : أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد حرفوا وبدلوا وكذبوا على رسلهم ؛ ولذلك فما نعبده من شرع من قبلنا مشروط بما ذكر .

العقل،

المصدر الثامن العقل : ويعمل به فى حالة عدم وجود الدليل السمعى ، لإجماع العقلاء على كل ما يتفجع به من دون ضرر عاجل ولا أجل فحكمه الإباحة وسيأتى المزيد من الإيضاح فى مباحث العدل - إن شاء الله .

وقد بحث علماء أصول الفقه الزيدية كل ما يتعلق بالدليل السمعى - من حيث دلالة الكلمة ، ودلالة صيغتها ، ودلالة الأسلوب الذى صيغت به على المعنى المقصود للشارع ، ثم ما يجب العمل به حالة التعارض بينها ، فتفرع هذا البحث إلى عدة أبواب هى المنطوق والمفهوم ، والحقيقة والمجاز ، والأمر والنهى ، والعموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، والظاهر والمؤول ثم الترجيح فى حالة التعارض ، كما بحثوا النسخ وما يتعلق به فى ذلك ، أما من أراد سعة الاطلاع فعليه بمؤلفاتهم فى هذا الشأن : مثل الغاية وشرحها ، والمعيار ، وشرحه المنهاج ونحوهما .

المنطوق والمفهوم،

المنطوق : ما دل عليه من أحوال المذكور فيه . فإن كان المعنى لا يحتمل غيره فهو النص . ودلالته قطعية ، وإن أفاد معنى يحتمل المقصود برجحان ويحتمل غيره بلا رجحان ، فهو الظاهر ، ودلالته ظنية .

والمنطوق إما أن يكون صريحاً ، وهو ما وضع اللفظ له بخصوصه ، وإما أن يكون غير صريح ، وهو ما يدل عليه اللفظ بالالتزام ، فإن قصد وتوفق الصدق أو الصحة العقلية أو الشرعية عليه فدلالة اقتضاء مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ ...﴾ (٨٢) [يوسف] .

وإن لم يتوقف كذلك واقترب بحكم ، لو لم يكن لتعليله لكان بعيداً ، فيمضى تنبيه نص وإيماء نص مثل : عليك الكفارة : جواباً لمن قال . جامعاً أهلى فى نهار رمضان . إنها ليست بسبع : جواباً على من استنكر دخوله ﷺ بيتاً فيه هرة .

وإن لم يقصد ذلك اللازم فدلالة إشارة مثل: ﴿... وَحَمَلَهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...﴾ (١٥) [الأحقاف] مع قوله تعالى: ﴿... وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ...﴾ (١٤) [لقمان] فيشير بدلالة الالتزام على أن أقل الحمل ستة شهور.

المفهوم: وهو نوعان مفهوم موافقة، أى أن المسكوت عنه موافق فى الحكم للمذكور مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨) [الزلزلة]، فما فوق مِثْقَال الذرة موافق فى الحكم للمِثْقَال المذكور.

ومفهوم المخالفة: أى أن المسكوت عنه مخالف للمنطوق به، ويسمى دليل الخطاب وهو أقسام: مفهوم اللقب، ولا يؤخذ به عند الجمهور. ومفهوم الصفة، ومفهوم الشرط، ومفهوم الغاية، ومفهوم العدد، ويؤخذ بهذه المفاهيم بشروط خلاصتها: أنه لا يؤخذ بها إلا إذا لم تظهر فائدة للقيّد بشيء من الصفة، والشرط، والغاية، والعدّد سوى التخصّص المذكور بالحكم، وإلا فلا.

الحقيقة والمجاز:

اللفظ قبل الاستعمال ليس بحقيقة ولا مجاز، أما بعد الاستعمال فالحقيقة هى: اللفظ المستعمل فيما وضع له.

والمجاز هو: اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة. والمجاز واقع فى القرآن كوقوعه فى اللغة. ومن قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ...﴾ (٨٧) [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...﴾ (٢٤) [الإسراء].

والحقائق ثلاث:

لغوية: وهى ما استعمل فى الوضع الأصلى.

وشرعية: وهى ما نقله الشارع إلى معنى آخر وغلب عليه كالصلاة.

وعرفية: وهى ما نقله العرف وغلب عليه كلفظ الدابة والقارورة ونحوهما.

وقد تكون الحقيقة مشتركة بين معانى مختلفة كالجون: يطلق على السواد والبياض، والقرء: يطلق على الحيض والطمهر، يصح أن يريد المتكلم معنى منها أو كل معانيها.

الأمروالنهى:

الأمر: هو قول القائل لغيره: افعل، أو نحوه، على جهة الاستعلاء مریدا لما تناوله، ويدل على الوجوب لغة وشرعا، وقد يأتي مجازا للإباحة والتعجيز والتهديد وغير ذلك.

والأمر بالشئ ليس نهيا عن ضده، والأمر بأشياء تخيرا كآية الكفارة مثلا يوجبها جميعا على التخيير، ولا يقتضى مطلق الأمر التكرار إلا لقرينة، ولا يدل على الفور، ولا على التراخي، وإنما يرجع فى ذلك إلى القرائن، والأمر المعلق على علة يتكرر بتكررها، والمقيد بالتأييد: يقتضى الدوام إلا لقرينة، وما لا يتم الواجب إلا به ولم يرد الأمر مشروطا به وجب كوجوبه، وما منع الواجب من وجوده فهو قبيح.

والنهى: هو قول القائل لغيره: لا تفعل، أو نحوه، على جهة الاستعلاء مع كراهة النهى عنه، ويدل على التحريم حقيقة، وقد يأتي مجازا للكرهية، والتحقير، والتهديد. وغير ذلك، ومطلق النهى يقتضى الدوام لا التقييد، ويدل على قبح النهى عنه لا فساده.

العموم والتخصيص:

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصح له من دون تعيين مدلوله ولا عدده، والخاص بخلافه.

والتخصيص: هو إخراج ما يتناوله العام.

والفاظ العموم هى. من - للعاقل، ما - لغير العاقل، إى - لهما، أين ونحوها فى المكان متى يراد به الجنس، والمعروف بلام الجنس مفردا أو جمعا والتكلم يدخل فى عموم خطابه أمرا ونهيا وخبرا ومجىء العام للمدح أو الذم لا يطل عمومه، ويحرم العمل بالعام قبل البحث، وظن عدم وجود مخصصه، ولا يدخل فى الخطاب الخاص بالذكر النساء ودخولهن فى نحو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بنقل الشرع. أو بالتغليب وذكر الحكم لجملة لا يخصه ذكره مرة ثانية لبعضها، مثل قوله ﷺ: ﴿أَيُّمَا إِهَابٍ دَبِغَ فَقَدْ طَهَرَ﴾ وقوله ﷺ فى شاة: «دباغها طهورها» فتعم الطهارة كل إهاب ولا يخص الشاة. وكذا عود الضمير إلى بعض أفراد العام مثل قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ (٢٢٨) [البقرة] - وهذا عام للرجعيات والبوائن ثم قال: ﴿...وَبِعَوْلُنَّهُنَّ﴾

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ... ﴿٢٢٨﴾ [البقرة] وهذا الضمير يعود إلى الرجعيات فقط، فبقى الأول على عمومته ولا يخصه عود الضمير إلى بعضهن؛ إذ لا تنافي بين ذلك.

المخصص:

المخصص قسمان: متصل، ومنفصل. فالمتصل خمسة أقسام: الاستثناء، والشرط، والصفة والغاية: مثل ﴿... ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...﴾ (١٨٧) [البقرة]، وبدل البعض على رأى: مثل أكرم الناس قريشا، والمختار أنه لا يصح تراخي الاستثناء بل لابد من الاتصال لفظا إلا قدر تنفس أو بلع ريق ونحوهما، عما لا يعد معه منفصلا في العرف، ويصح استثناء الأكثر مثل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٦) [الحجر] وهم: أكثر من غيرهم، والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، والاستثناء بعد الجمل المتعاطفة يعود إلى جميعها إلا لقرينة مثل ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ... ﴿٥﴾ [النور].

أما المخصص المنفصل فهو الكتاب والسنة، والإجماع والقياس والعقل والفهوم على القول به، ويجوز تخصيص كل من الكتاب والسنة بمثله ويسائر تلك المخصصات بالتفصيل المذكور في الكتب المطولات، ولا يقصر العموم على سببه ولا يخصه مذهب رواية، ولا يخص بالعادة، والعام بعد تخصيصه يصير مجازا فيما بقي على الأصح ويصح تخصيص الخبر كما يصح تخصيص الأمر والنهي، ولا تعارض عموميات في حكم قطعي، وإذا تعارض العام والخاص فالعمل بالمتأخر منهما. وإن جهل التاريخ قيل أطرحا معا، وقيل يعمل بالخاص فيما تناوله وبالعام فيما بقي.

وقد نظم السيد العلامة عبد الله بن علي الوزير صور بناء العام على الخاص فقال:

ينى العموم على الخصوص بأربع	صور على القول الأجل فقل أنجل
مع جهل تأريخ وعند تقارن	وتفارق زمنا يضيق عن العمل
وكذا بمتسع يكون عمومه	متأخرا والعكس نسخ لم يزل

المجمل والمبين:

المجمل: ما لا يفهم المراد به تفصيلا.

والمبين: مقابله. ويصح البيان بكل واحد من الأدلة السمعية، ولا يلزم شهرة البيان كشهرة المبين. ولا إجمال في الجمع المنكر، مثل رجال؛ إذ يحمل على الأقل ولا في تحريم الأعيان مثل ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾ (٢٣) ﴿النساء﴾؛ إذ يحمل على المعتاد، ولا في نحو العام المخصص، ولا في نحو «لا صلاة إلا بطهور» ولا في نحو الأعمال بالنيات.

ويجوز تأخير التبليغ إلى وقت الحاجة؛ إذ القصد المصلحة، ولا يجوز تأخير البيان ولا التخصيص عن وقت الحاجة فأما عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة فجائز في الأمر والنهي، وعلى السامع البحث ولا يجوز ذلك في الأخبار؛ لأنه مخالف لفائدة الإخبار وهو التفهيم.

الظاهر والمؤول

قد يطلق الظاهر على ما يقابل النص وحقيقته بهذا المعنى ما أفاد معنى يحتمل غير المقصود بلا رجحان، وقد تقدم، وقد يطلق على ما يقابل المجل، وحقيقته بهذا المعنى ما يفهم المراد به تفصيلاً، وهذا هو المبين وقد تقدم.

والمؤول ما يراد به خلاف ظاهره، والتأويل صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، أو قصره على بعض مدلولاته لقربة اقتضتهما.

والتأويل ثلاثة أقسام. قريب فيكفي فيه أدنى مرجح لقربه، بعيد فيحتاج إلى مرجح أقوى، ومعتسف لا يحتمله اللفظ، وهذا القسم وحده هو الذي لا يقبل وهو الذي يجب رده كتأويل الباطنية ثعبان موسى بحجته. ونحو ذلك.

النسخ

النسخ: هو إزالة الحكم الشرعي بطريق شرعي مع تراخ بينهما. وقد وقع بالإجماع إلا عن اليهود. ويجوز نسخ ما قيد بتأييده مثل ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا...﴾ (٩٥) [البقرة]، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ...﴾ (٧٧) [الزخرف]

ويجوز النسخ إلى غير بدل لجواز انقضاء مصلحة الحكم الأول: كنسخ وجوب الإمساك بعد الإفطار، وقوله تعالى: ﴿... نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا...﴾ (١٠٦) [البقرة]: متأول بأن المراد نأت بلفظ آية خير منها لا بحكم، ويجوز نسخ الأخف

بالأشق كالعكس، ويجوز النسخ في الأخبار كالأوامر والنواهي، ويجوز نسخ التلاوة دون الحكم، والحكم دون التلاوة كنسخ آية السيف لآيات كثيرة، ولا يجوز نسخ الشيء قبل إمكان فعله وإلا لزم البطل، ويجوز نسخ الكتاب بالكتاب لقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا...﴾ (١٠٦) [البقرة]. ويجوز نسخ السنة بالسنة إجماعاً، ولا ينسخ الإجماع بالقياس إجماعاً. وينسخ الكتاب بالسنة المتواترة لقوله تعالى: ﴿لَتَبَيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ (٤٤) [النحل]، والنسخ نوع من البيان ويجوز نسخ السنة بالكتاب لأنه الأقوى، ولا ينسخ متواتر بآحادى، ولا يصح النسخ بالقياس، ولا بالإجماع، ولا يقلد الصحابي بأن الحكم منسوخ إلا بدليل من رواية أو غيرها.

والطريق إلى معرفة النسخ: إما النص منه ﷺ، أو من العترة النبوية.

إما صريحاً نحو نسخ هذا بهذا، أو معنوياً نحو: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، أو أمانة نحو تعارض الخبرين من كل وجه وعلم المتأخر بنقل صحابي، أو قرينة كنسبة إلى غزاة أو حالة متقدمة، ونقيضه في المتأخرية فيعمل بذلك في المظنون.

الترجيح:

من المتفق عليه أن الأدلة القطعية لا تتعارض، ولا يتعارض القطعى مع الظنى؛ لأن الرجوع إلى القطعى هو الأوجب. وإنما تتعارض الظنيات العقلية أو العقلية، وفي هذا الحال يرجع إلى الترجيح.

والترجيح هو: اقتران الدليل الثقلى أو العقلى بما يترجح به على معارضه، والترجيح فى الدليل الثقلى قد يكون من جهة سنده، أو متنه - أو مدلوله - أى معناه - أو من جهة أمر خارج عنه.

فترجيح السند: بكثرة رواته العدول، أو بكون روايه ثقة، أو بكونه أعلم، أو أكثر ضبطاً، وإذا كان الحديث مرسلًا. فبكون روايه معروفًا بأنه لا يرسل إلا عن عدل، وبكون الراوى هو المباشر لما رواه، أو صاحب قصته، أو كان مشافهاً، أو بكونه أقرب مكاناً أو كان من أكابر الصحابة، أو متقدم الإسلام. إلى غير ذلك من المرجحات المذكورة فى المطولات.

ومن جهة متن الحديث ولفظه: فيترجح النهى على الأمر، والأمر على الإباحة بلفظها على النهى والأقل احتمالاً على الأكثر، الحقيقة على المجاز، والمجاز الأقرب

على خلافه - إما لكثرتة أو قوته أو رجحان دليله أوشهرة استعماله. ويرجح المجاز أيضا على المشترك في الأصح ويرجح مفهوم الموافقة على مفهوم المخالفة، وتخصيص العام على تأويل الخاص لكثرتة، والخاص على العام ولو من وجه، والعام الذي لم يخصص على الذي خصص وغير ذلك.

ومن جهة مدلول الحديث ومعناه: يرجح الحظر على الإباحة وعلى النذب؛ لأن دفع المفسدة أهم من جلب المنفعة، ويرجح الوجوب على النذب، والمثبت على النافي، والدارئ للحد على الموجب، وغير ذلك.

وأما الترجيح بأمر خارج عن الدليل: فلموافقتة لدليل غيره، أو لأهل المدينة أو للخلفاء أو للأعلم، ويتفسير الراوى، وبذكر السبب، وبقرينة أخرى كتأخر الإسلام، وغير ذلك.

والترجيح بين الأدلة العقلية: فإن كان قياسا رجح بأصله، أو فرعه، أو بمدلوله، أو بأمر خارج عنه. فيرجح الأصل بكونه قطعيا، أو دليله أقوى أو لم ينسخ باتفاق، أو بأنه جار على سنن القياس، وغير ذلك.

وترجح الضروريات على غيرها من المصالح، والمصالح الحاجيات على المصالح التحسينية، ويرجح الفرع بكونه ثابتا بالنص في الجملة إلى غير ذلك من المرجحات المذكورة في كتب الأصول.

ذلك المتقدم هو الفكر الزيدى فى أصول الفقه ومصادر التشريع فى الإسلام. وهو أكبر شاهد على دقة فهم الزيدية لمقاصد الشريعة وأهدافها، وعلى نزاهة المقصد فيما أصبوا وقعدوا، وأخيرا على صحة ما استنبطوه من أحكام. وعلى حسن مآقروه منها فى كل مجالات الفقه الإسلامى العظيم.

أما الفكر الزيدى فى أصول الدين فسوف تعرفه - إن شاء الله - فيما يلى:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

هذا هو الأصل الخامس من الأصول الخمسة فى نظر الزيدية ومعظم العدلية. وقد اهتمت الزيدية بهذا الأصل أكثر من غيرها؛ لأنه من أهم الواجبات التى تركز عليها قواعد الأمن والسلام للفرد وللجماعة فى الأسرة وفى المجتمع، وتبنى عليها دولة الأمن والإيمان والعلم والسلام، والحق، والعدل، والحرية، والمساواة، بكل معانيها الإنسانية

السليمة؛ لذلك فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعنى نظريا: التصديق بالقلب واللسان والجارحة بالمعروف، والإذعان له، والأمر به، والدعوة إليه، لكونه معروفا، والتجنب والابتعاد عما نهانا الله عنه، والدعوة إلى تجنبه والابتعاد عنه لكونه منكرا.

ومن لازم هذا معرفة المعروف والمنكر ليتمكن الأمر والنهي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون لبس ولا خلط؛ ليميز بذلك الحق من الباطل، ولتعلو كلمة الله، وليتم نوره ولو كره الكافرون.

أما ما يعنيه هذا الأصل من الجانب التطبيقى فهو الإيمان بوجوب نصرة الحق وخذلان الباطل، والعمل على تحقيق العزة لله ولرسوله وللمؤمنين بالقول أو الفعل، أو القلب وهو أضعف الإيمان، ويعنى بالتالى الإيمان بوجوب حرية القول والتزيه، والنقد البانى، والنصيحة الخالصة لحكام المسلمين وعامتهم، ولا فرق فى هذا الواجب بين الفرد وبين الجماعة، ولا فرق فى أدائه بالكلمة المسموعة أو المقروءة، أو الفعل الحازم والحاسم من أهله إذا لزم الحال لذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا... (٩)﴾ [الحجرات] - وهذا هو دور الكلمة التزيهية - البانية ﴿...فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ... (٩)﴾ [الحجرات] - هذا هو دور الفعل الحازم والحاسم، أو كما تسميه الزيدية الخروج - الثورة - على الظالمين.

ولذلك يشترط للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خمسة شروط هى.

- ١ - أن يعلم الأمر والنهى حسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه.
- ٢ - أن يعلم أو يظن أن لأمره أو نهيه تأثيرا.
- ٣ - أن يعلم أو يظن إذ لم يأمر أو لم ينه وقع المنكر.
- ٤ - أن يكون أمره ونهيه بالحكمة والموعظة الحسنة.
- ٥ - أن لا يخشى على نفسه أو عضو منه أو ماله المجحف إلا أن يعلم أن فى أمره أو نهيه إعازا للدين وتقوية لشوكة المسلمين، فحينذاك يجب عليه الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر بالقول أو بالفعل وإن أدى ذلك إلى الإضرار بنفسه أو ماله (١) أخذا بعزيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى: ﴿...وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ... (١٧)﴾ [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) كما فعل أبو الأحرار والثوار السبط الإمام الحسين بن علي - عليهما السلام.

مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨)
كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ... (٧٩) [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... (١٠٤)﴾ [آل عمران]،
وقوله ﷺ: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرهم على أن يغيروا
عليه ولا يغيرون إلا أصابهم الله منه بعذاب قبل أن يموتوا». أخرجه أبو داود عن جرير
ابن عبد الله.

ومن هذه ونحوها أخذت الزيدية مبدأ الخروج - الثورة - على الظالمين ولا خلاف
في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إجمالاً بين جميع المسلمين. ولكنهم
اختلفوا في كيفية أداء هذا الواجب، فممنهم من قال بالطرق السلمية مطلقاً^(١)، ومنهم
من قال بالطرق الحازمة والحاسمة مطلقاً^(٢)، ومنهم من قال بالطرق السلمية أولاً، فإن لم
تنجح ووجد من ينصره على الظالمين لسيادة الحق والعدل بين الناس فبطريقة الفعل
الحارم والحاسم أى الخروج - الثورة - على الظالمين، وهذا هو رأى الزيدية لقوله تعالى:
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... (١٢٥)﴾ [النحل] فإن لم تنفع
ووجد الناصر عملت بالحزم وأوجبت الثورة^(٣) ونحاول الآن أن نفهم ماذا تعنى الثورة؟
وماذا يعنى التمرد والانقلاب؟ لكثرة استعمال هذه الأسماء اليوم بين الناس، وأكثرهم لا
يعرفون ما تعنى على الوجه الصحيح.

الثورة أو الحركة الإصلاحية هى التى تقوم على مبادئ ترتكز عليها ضمن عقيدة
أو كما يقال أيديولوجية توحد الصفوف وتجمع الشمل وتدفع إلى العمل وتشمل فى
نفس الوقت إرادة الشعب فى أهدافها ومبادئها. فإن خلت الثورة أو الحركة من مثل تلك
المبادئ والأهداف الممثلة لإرادة شعوبها فهى فى العرف السياسى لا تسمى ثورة وإنما
تسمى تمرداً وانقلاباً.

والتاريخ البشرى مفعم بأخبار الثورات والانقلابات، وفى التاريخ الإسلامى
الكثير منها، غير أن الثورات والحركات الإصلاحية التى قام بها دعاة الإسلام وحملت
رسالته فى كل عصور الإسلام وفى معظم أقطار المسلمين - قد تميزت بأن باعشها هو

(١) وهو رأى المرجئة لحديث عبادة بن الصامت وفيه: «أن لا تنازعوا الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً
عندكم فيه من الله برهان، متفق عليه.

(٢) وهو رأى الخليفة عمر بن الخطاب.

(٣) لنحو حديث ثوبان الأثرى فى بحث واجبات الإمام ومسئوليته.

الإيمان بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نصرة للمظلومين وإنقاذاً للمستضعفين، وتحقيقاً لإرادة شعوبها ومتطلبات أممهم، من حق، وعدل، وحرية، ومساواة ضمن العقيدة الإسلامية المباركة، وعلى أرضية من المحبة الإنسانية، والأخوة الإسلامية. لذلك ثوراتهم هي الثورة بمفهومها السياسى المعاصر، وأهدافها ومبادئها، محددة وواضحة فى إطار هذا الأصل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولذلك فقد تنزهت ثوراتهم عن الأهواء والأحقاد، وعن العنصرية والعرقية، والطائفية، والقومية، والإقليمية، وغير ذلك من الشعارات الجاهلية والنعرات الترابية.

الوعد والوعيد:

الوعد فى اصطلاح المتكلمين: هو الخير الذى يفيد إيصال النفع أو نحوه من جهة الواعد إلى الموعود فى المستقبل على جهة الاستحقاق. وهو من الله إخبار بالثواب.

والوعيد: هو الخير الذى يفيد إيصال الضرر أو نحوه من المتوعد إلى المتوعد فى المستقبل على جهة الاستحقاق. وهو من الله إخبار بالعقاب. ويقال للمبلغ بالوعد بشير وبالوعد نذير والمقصود بهذا الأصل من الجانب النظرى هو الإيمان بأن الله سوف يجازى المحسن على إحسانه كما وعد، وسوف يعاقب المسيء على إساءته كما أوعد، مالم يمت المحسن عاصياً لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ويموت المسيء تائباً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾ [١١٤].

[هود]، والله لا يخلف الميعاد فى كل ذلك.

هذه هي نظرية الثواب والعقاب من الجانب النظرى، أما من الجانب التطبيقى فهي تعنى الإيمان بوجوب المساواة أمام القضاء بين الناس بدون تفريق لا من جهة الجنس ولا اللون ولا المكانة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية أو غير ذلك فكل آت الرحمن عبداً، وكذلك يجب أن يكون أمام القضاء الشرعى فى الحياة، وكذلك فهمه الرسول ﷺ يوم قال فى حديث المخزومية: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»^(١) وتعنى المساواة كذلك فى حق الأجر والجزاء، على حسب العمل والجهد والإنتاج؛ لأن الله تعالى قد جعل بعلمه وبحكمته وعدله ما وعد به المؤمنين وما وعد به الكافرين، مبنياً على حسب أعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) ومن

(١) رواه البخارى ومسلم والبيهقى وأبو داود والنسائى.

يَعْمَلُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٢٨﴾ [الزلزلة]. فى حين أنه لم يكلف أحدا إلا على حسب طاقته وكفاءته العقلية والبدنية وأحيانا المالية معهما، ومن أجل هذا رفع عن الصبيان والمجانين ونحوهم أعباء التكاليف، وأعفى الفقير من تكاليف الحج والزكاة، ولم يكلف بالصلاة المرأة الحائض أو النفساء، وأسقط عن المريض الأحكام التى تضاعف من مرضه، إلّا غير ذلك من المسؤوليات المعفوة عمن لا تتوافر فيه الطاقة والكفاءة فى القيام بها، ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (٢٨٦) [البقرة].

ومن هذا التشريع الإلهى وأمثاله يستوحى المسلم المفهوم الإسلامى لمبدأ المساواة فى الحياة الحرة الكريمة، وفى حق العمل وفى غير ذلك من المجالات المشروعة.

والمفهوم الإسلامى لمبدأ المساواة هو مفهوم يتماشى مع واقع الحياة ولا يتعارض مع قوانينها الأولية فى الإنسان؛ لذلك فالمساواة الإسلامية قد بنت فى الإنسان القيم وشيدت فى مجتمعه الأخلاق وأسعدت من استظل بظلالها، وملأت كل أرجاء حياته أمنا وسلاما ورخاء، وليس كذلك ما فى الحضارتين الغربية والشرقية كما هو مشاهد وملحوس بداية الخلاف فى هذا الأصل.

عندما فقدت نظرية الوعد والوعيد أو الثواب والعقاب جانبها التطبيقى فى العهد الأموى، ساد الظلم أنحاء المعمورة الإسلامية، وانتشر الفساد بين الناس، وتحكم فى مشاعرهم ومصائرهم الهوى وحب المال. وحينذاك بدأ الحكماء والعلماء يتناقشون حول أعمال الظالمين ومرتكبى الكبائر، ليتبينوا أدواءهم فيعالجوها مستمدين الرشد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأدرك الحكماء وأتباعهم ما يعنيه النقاش حول أعمالهم بل وتجسدت لهم النهاية التى انتهت إليها الخليفة عثمان بن عفان على الرغم من بعد الشقة التى بينه وبينهم رشدًا وصلاحًا، فهبوا لإثارة الشبه المبررة لأعمالهم عند الناس، وتبرع بالتالى المبررون لكل ظلم وفاسد بأدلة التبرير من عمومات الكتاب والسنة وهبوا لشرحها وفلسفتها، هناك ظهر الخلاف جليا بين علماء الحق وبين غيرهم فى مسألة الظلم وحقوق الله عليه كترك الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج، أو غير ذلك مما أوجب الله قضاءه أو فرض له كفارة ككفارة اليمين أو كفارة الظهار مثلا، فالتوبة منه تكون بقضاء الواجب المؤقت إن كان معلوما فبحسبه وإن كان غير معلوم فحتى يغلب عليه ظنه بأنه قد أداه، وفيما له كفارة تكون التوبة بأدائها أو الإيصاء بها من تركته. وفى كتب الفقه الإسلامى التفصيل الكافى لكل ما تقدم فمن تاب من ذنوبه كما تقدم تاب الله عليه، ولو كانت كفرا أو شركا، وكان الله غفورا رحيما.

وقد اتفق الجمهور من العلماء على أن التوبة تمحو المعصية وتمحو عقابها، واختلفوا في المعصية هل تمحو الطاعة؟ أو تمحو ثوابها؟ فلو فرض أن رجلاً عمل صالحاً وآخر سيئاً ثم تاب، فهل بتوبته يعود له ثواب طاعته يوم تنصب الموازين في يوم الحساب أولاً؟

ف قيل: لا يعود له من ثوابها شيء بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (٢٣) [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿... لَكِنَّ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ...﴾ (٦٥) [الزمر] ونحوها. وهذا رأى على الجبائى من العدلية وجمهور البصريين والإمام القاسم بن محمد.

وقيل يعود له الثواب كله؛ لأن المعصية لا تمحو الطاعة وإنما تحبطها، وهذا هو رأى بشر بن المعتصم وأبى البلخى والبخارى من البهشية.

وقيل: لا يعود له ما منعت الكبيرة، ويعود له ما يتجدد من ثواب الطاعة المتقدمة فى المستقبل، وهذا هو قول البهشية والإمام المهدي وغيره. وهذا هو الموافق لعدل الله وحكمته. وإلا لزم التساوى بين من قطع عمره فى طاعة الله وعبادته ثم فعل كبيرة وتاب عنها قبل موته، وبين من قطع عمره فى عصيان الله والكفر به ثم تاب قبل موته والفرق بينهما بلا شك كبير.

المنزلة بين المنزلتين؛

هذا أصل من الأصول الخمسة عند المعتزلة وحدهم. أما الزيدية فيدخله أكثرها فى أصل الوعد والوعيد لتعلقه بمرتكب الكبيرة. والخلاف بين العلماء فيه من حيث التسمية: فالخوارج قالوا: يسمى كافراً. والإباضية منها تقول بأنه كفر نعمة لا غير. والحسن البصرى سماه منافقاً بحجة قوله تعالى: ﴿... إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) [التوبة]. وقالت المرجئة يسمى مؤمناً.

وقالت الزيدية يسمى فاسقاً: للإجماع على تسميته بفاسق، وليس بكافر؛ لقوله تعالى: ﴿... وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ...﴾ (٧) [الحجرات]، والعطف يقتضى التغاير، وليس بمنافق لأن الله قال: إن المنافقين هم الفاسقون، ولم يقل إن الفاسقين هم المنافقون، وليس بمؤمن لخروجه من حدود الإيمان فهو فاسق بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا

تَقَبَّلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأَوَّلَتْكُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ [النور]. وقيس عليه كل مرتكب كبيرة غير الكفر والشرك بالله والنفاق.

النبوات:

هذا الأصل من الأصول الخمسة عند الزيدية. وهو من أبحاث الأصل الثانى عند المعتزلة وهو يعنى الإيمان والتصديق بمن اصطفاه الله من خلقه، وكرمه برسائه لهداية البشر وإنقاذهم من الضلال بشرية أوحاها إليه وأيده بالمعجزة لتصديق نبوته.

هذا ما يعنيه هذا الأصل من الجانب النظرى. أما ما يعنيه من الجانب التطبيقى فهو إيماننا بأن كل ما ينفعنا أو يضرنا مما لم تدركه عقولنا ولم تهتد إليه أفكارنا فى كل مجالات حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما يقوله المخير الصادق الخاتم للأنبياء محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم - عليه وعليه أله أفضل الصلاة والسلام - مصداقا لقوله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا... ﴾ [المائدة]، ومن أجل هذا فدستورنا وقوانيننا هذا ما جاءت به شريعة الله أو ما يستمد من شريعة الله، ووجب علينا لذلك أن نخضع كل القوانين والدساتير التى يتعارف عليها البشر لتنظيم مجالات حياتهم إلى موازين شريعة الله فما وافقها قبل، وما خالفها رُفض، ذلك حكم الله، ومن أحسن من الله حكما. ومن المعلوم أن الدساتير والقوانين المعروفة اليوم فى الغرب والشرق إنما كانت نتيجة صراع دام بين الحكام والشعوب. واستمر أواره فى أوروبا وأمريكا وفى فرنسا بالذات فى القرن الخامس عشر الميلادى واستمر حتى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادى حيث شمل روسيا القيصرية.

واستهدف هذا الصراع القضاء على دكتاتورية الحكام للتخلص من استبدادهم وللحد من سلطانهم المطلق على شعوبهم، وبعد معاناة طويلة وتضحيات جسيمة توصلوا إلى تلك الدساتير والقوانين التى يحكمون بها اليوم فى ظل النظام الملكى أو النظام الجمهورى، بقيادة ملك كما يحكمون فى بريطانيا مثلا، أو اتحاد دول كما فى أمريكا، أو هيئات ومجالس كما فى فرنسا، أو حزب واحد كما فى روسيا. والواضح لتلك الدساتير والقوانين إما هيئة مختارة من أعضاء الدولة كما هو الحال فى أكثر الدول، وإما بوضع العرف العام المقرر من قبل الحكام أو أوامره أو تصريحاتهم، أو موافقتهم السياسية، واستمر العمل عليها بعد ذلك كما هو الحال فى بريطانيا، ويسمى

مثل هذا الدستور البريطاني الدستور العرفي؛ لأنه لم يوضع بوساطة هيئة ولم يكتب في كتيب كما كتبت الدساتير المعروفة في الشرق والغرب.

وعلى الرغم من تلك الفترة الطويلة والشاقة فلم تكتمل تلك الدساتير والقوانين، ولا تزال لذلك عرضة للتغيير والتبديل، وليس ذلك إلا لكونها من وضع البشر الضعيف.

أما دستورنا الإسلامي وشريعتنا الربانية فقد جاء كاملا وكافيا من بداية نزوله على نبينا ﷺ حتى اليوم، وحتى آخر الدهر - إن شاء الله -، ذلك لأنه تنزيل وتشريع من العليم الحكيم الخلاق - سبحانه وتعالى -، ولهذه المميزات قلنا: إنه يجب إخضاع كل القوانين والدساتير الوضعية لموازين شريعة الله فما وافقها قبل وما خالفها رُفِضَ.

بعثة الأنبياء:

من لطف الله بعباده أن بعث إليهم رسلا من أنفسهم؛ لينقذوهم من الضلال وليهدوهم إلى الرشاد وحتى لا يكون للناس حجة على الله يوم الحساب.

والبعث للأنبياء مستحسن عند كل عقلاء البشرية ولم يخالف في ذلك إلا الشيوعية لجحودهم بالله: وإلا البراهمة، والباطنية، والمطرقية.

فالبراهمة تقول: إن العقل كاف لمعرفة القبيح والحسن فلا حاجة لذلك إلى الرسل، والعقل الذي اعتمدوا عليه يكذبهم بنفسه؛ لأن العقل يؤمن بأن دفع الضرر واجب عقلا. فلو منع الطبيب أحدا عن أكل البيض مثلا لوجب عقلا الامتناع عن أكله دفعا للضرر مع أنه مما لا يقبح العقل أكله إلا لنحو هذا السبب المعروف من قبل الطبيب وحده، فإذا جاز ذلك عقلا امثالا للطبيب فالأنبياء أكثر خبرة وأوسع علما، واحتياج البشر إليهم أكثر من احتياجهم للأطباء بلا شك ولا ريب.

وأما الباطنية فتقول: إن الحياة مقسمة إلى أدوار سبعة، وكل دور يتبدى بما يسمى: بالإمام المقيم وهو في الدور السابع أبو طالب بن عبد المطلب، وهو كما يزعمون الذي يقيم الرسول ﷺ ويربيه، ثم الرسول ﷺ الناطق: وهو الرسول ﷺ ثم الإمام الأساس: وهو علي - كرم الله وجهه - مرافق الناطق ومساعدته وأمين سره إلى غير ذلك من الخرافات، وسوف تأتي على شيء منها عند الكلام على الإمام الهادي إلى الحق رضوان الله عليه بحول الله.

وأما المطرفية فتقول: إن النبوة ليست من عند الله وإنما هي نتيجة جهد الإنسان نفسه في العلم والصلاح ومنهم من قال: هي جزء على العمل. ومنهم من قال: هي حكم وتسمية. وكلا المطرفية والباطنية قد نهلا من منهل واحد كما سيأتي بيانه عند الكلام عليهم - إن شاء الله.

والعقل في نظر الزيدية هو الذى جوز بعثة الأنبياء؛ لأن في شئون الحياة وأمرها ما لا يدرك بالعقل ولا يتوصل إليها بالبراهين كعالم البرزخ وما فيه من أحوال، ويوم القيامة وما فيه من أهوال، ثم الجنة وما فيها من النعيم، والجحيم وما فيه من العذاب العظيم، وأقرب إلينا من كل ذلك هذه النفس البشرية التى نحملها ما هي؟ وكيف هي؟ مع ما هي عليه من أحوال مختلفة ونزعات متباينة، وعليها تركز كل مجريات حياتنا، ومنها تشع الآمال فنسعد بها حيناً، ثم تتركس فنشقى بها حيناً آخر. وقيل كذلك فى أمثالها التى اعترف العقل بجزءه أمامها، واعترف بأنه لا بد من هداية غير هدايته: إنها هداية الأنبياء وهدمهم؛ لأنها القادرة على تنظيم الحياة وعلى هداية الناس فيها، ولذلك فما من أمة إلا خلا فيها نذير، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

العصمة:

العصمة على أصح الأقوال، هي اللطف الذى تترك لأجله المعصية بلا محالة^(١) ولهذا لا يوصف بها إلا الأنبياء أو من يجرى مجراهم.

وكل رسول يوحى إليه بشريعة جديدة أو مجددة لما قبلها من الشرائع لا بد أن يكون معصوماً بتوفيق الله ولطفه عن ارتكاب الكبائر والفواحش من المعاصي قبل البعثة وبعدها، ومعصوماً كذلك من الصغائر التى تسيء إلى مقام النبوة وتثير الشبه حولها، وهذا هو رأى الزيدية ومن وافقهم.

أما الخشوية فترى جواز أن الأنبياء يعصون الله قبل النبوة عند بعضهم، وقبلها وبعدها عند بعضهم الآخر، وكلا الرأيين غير صحيح؛ لأن الأنبياء قدوة للأمم إلى مكارم الأخلاق وشيمها فتولى الله لذلك تربيته وتأديبه على حب المكارم ورفيع الأخلاق وأسمى الآداب؛ ليكونوا خير قدوة وأفضل أسوة، ولو لم يكونوا كذلك لبطلت حجة الاتباع لهم، ولا التبس الصادق بالكاذب فى دعوى النبوة، والله أرحم بعباده من أن يوقعهم فى اللبس ويركسهم فى الحيرة. وصدق الله القائل: ﴿...اللَّهُ

(١) زاد بعضهم: مع التمكن من الفعل ولم يبلغ حد الإلجام.

أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ... ﴿١٢٤﴾ [الأنعام] ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) ﴿[الحج].

المعجزة:

المعجز هي الفعل الخارق للعادة الذي يدل على صدق المدعى للنبوّة. ولا بد لكل رسول من معجزة. ولا بد وأن يكون المعجز من أمر الله ويتعذر علينا فعله، ولو دخل في جنس مقدورنا، وأن يكون واقعا عقب دعوى المدعى للنبوّة، وأن يكون مطابقا لدعواه، أما ما يتقدم الدعوى من أفعال خارقة فهي من باب الإرهاسات، منها قصة الفيل، وتظليل الرسول ﷺ بالغمامة في سفره إلى الشام قبل البعثة.

معجزات الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم:

للرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - معجزات كثيرة وأجلها معجزة القرآن، ووجه إعجازه فصاحته وبلاغته؛ لأن العرب في حينه كانوا قد بلغوا القمة في فصاحة الكلمة وبلاغة التعبير، فأيده الله بمعجزة الكلمة من حيث الفصاحة والبلاغة لكونها من جنس مقدور العرب، وكلماتها مؤلفة من ألف باء العرب، تصديقا لدعواه النبوّة والرسولية.

ولذا تحداهم على الإتيان بمثله، ثم بعشر سور من مثله، ثم بسورة واحدة من مثله.

وهذا يعنى أنه قد تحداهم أن يأتوا بثلاث آيات أو أربع آيات مماثلة للقرآن في الفصاحة والبلاغة، ولما عجزوا حكموا السيف والقوة ليطفئوا نور الله، ﴿... وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢٢) ﴿[التوبة].

وإعجاز القرآن خالد بخلوده؛ ولذا فهو في كل عصر معجزة وهو الآن معجز بفصاحته وبلاغته، ومعجز بما اشتمل عليه من حقائق العلوم التي يفسر العلم الحديث بعض أسرارها، وسوف يستمر إعجازه وإن بلغ العلم ما بلغ من تقدم؛ لأنه كلام الله العليم بكل شيء ولا يحيطون به علما بعضهم بدليل السمع، وبعضهم بدليل العقل، وقالوا: النظام واقع ولا يتم دفعه إلا برئيس ودفع النظام واجب عقلا فوجب إقامة رئيس لذلك.

وَمِنْ أَوْجِبِهَا بِالشَّرَفِ اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿...إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة]، فأوجبها في الصالح من ذريته ونفاها عن الظالمين منهم، وبقوله ﷺ: «الأئمة من قریش»، ونحو ذلك مما سيأتى ضمن خبر السقيفة مما يدل على أن هذه السلطة كانت تشريعا إسلاميا، وقد ظهر أخيرا القول بأنها ليست كذلك كما يقوله المستشرقون ومن تابعهم، ووجب لذلك الرجوع إلى العهد النبوى المبارك لنعرف منه وحده الحقيقة فى هذا الموضوع.

الزيدية والفرقة الناجية

من الطبيعى أن نتوقع من أحمد بن سليمان أن يصرح بأن «الزيدية هم الفرقة الناجية»^(١)، إلا أنه لا يبين لنا أية فرقة من فرق الزيدية الثلاث ينطبق عليها هذا الوصف؛ إذ لا يتصور أن الفرقة الناجية تنطبق على الزيدية بطوائفها الثلاث، لما بينها من خلافات تصل إلى حد أن يعلن بعضها تكفير بعض^(٢).

ويستند أحمد بن سليمان إلى ما روى عن الرسول ﷺ من أنه قال فى خطبة الوداع: «أيها الناس إني امرؤ مقبوض، وقد نعت إلى نفسى، ألا وإنه سيكذب على كما كذب على الأنبياء من قبلى، فما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو منى وأنا قلته، وما خالفه فليس منى ولم أقله». ثم قال: «أمة أختى موسى افتقرت على إحدى وسبعين فرقة، وافتقرت أمة أختى عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى من بعدى على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا فرقة واحدة». فلما سمع منه ذلك ضاق به المسلمون ذرعا، وضجوا بالبكاء وأقبلوا عليه، وقالوا: يا رسول الله: كيف لنا بعدك بطريق النجاة؟ وكيف لنا بمعرفة الفرقة الناجية حتى نعهد عليها؟ فقال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبدا: كتاب الله وعترتى أهل بيتى. إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض». والأمة مجمعة على صحة هذا الخبر^(٣)، وكل فرقة من فرق الإسلام تلقت بالقبول، وتزعم أنها الناجية.

(١) حقائق، ص ١٠٣، الحكمة الدرية ص ١٤٠.

(٢) الإمام الزيدى أحمد بن سليمان وآراؤه الكلامية ص ١٤٦ - ١٤٨. دكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد.

(٣) لا يقر أهل السنة الرواية على النحو المذكور، وعندهم أن الباطل فيها قد اختلط بالحق.

قلت المحفوظ هو: «وستى» رواه أحمد والترمذى وغيرهما.

وهذا الخبر يروى بروايات متعددة مختلفة، ومن الروايات التي يوردها أحمد بن سليمان في كتابه الحكمة الدرية أن رسول الله ﷺ قال: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا فرقة واحدة» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم معتزلة الشيعة وشيعة المعتزلة». وهكذا يستند أحمد بن سليمان إلى هذه الرواية الموضوعة في إثبات أن الفرقة الناجية هي الزيدية، وقد سبق أن رأينا أن الزيدية عندهم معتزلة الشيعة وشيعة المعتزلة.

ويستند في كتابه حقائق المعرفة في إثبات أن الزيدية ينطبق عليهم الوصف بأنهم الفرقة الناجية، إلى أنه قد اجتمعت فيهم الشروط؛ وذلك أنهم تمسكوا بالكتاب، ويعتبر رسول الله ﷺ، وهم الذين وقع عليهم الإجماع أنهم آل رسول الله ﷺ، كما أن الزيدية هم الذين اتبعوا المحكم من القرآن، وتركوا المتشابه، وعملوا بالناسخ وتركوا المنسوخ، وأخذوا بالإجماع، وتركوا المختلف فيه، فثبت أنهم على الحق، ومن خالفهم على الباطل^(١).

وخلاصة القول: أن الزيدية هم الفرقة الناجية؛ لأنهم لم يفارقوا الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ولا العقل، بل لزموا بهذه الحجج الأربع^(٢).

الزيدية المنشقة في اليمن:

يشير أحمد بن سليمان إلى الضعف الذي أصاب الزيدية بعد مقتل مؤسسها، فكانت هذه الفرقة قليلة في البلاد، بسبب (اضطهاد) بني أمية وبني العباس، وكانوا قد حرصوا في قتلهم وتشريدهم وتضعيف دينهم، فكانوا كذلك إلى أن ظهر الهادي إلى الحق^(٣) - عليه السلام - وظهر الناصر الكبير^(٤) وهو الحسن بن علي - عليه السلام -، بأرض الديلم، وكان ظهورهما في وقت واحد^(٥).

(١) حقائق ص ١٩٧ ب - ١٩٩ أ، الحكمة الدرية، ص ١٤٦.

(٢) حقائق، ص ٢٠٢.

(٣) الهادي إلى الحق: يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، ولد بالمدينة المنورة سنة ٢٤٥، وكان خروجه الأول من الحجاز إلى اليمن في سنة ٢٨٠ ثم رجع إلى الحجاز، ولكنه خرج ثانياً إلى اليمن وكان وصوله الثاني في صفر سنة ٢٨٤، وتوفي سنة ٢٩٨ (زيارة: أئمة اليمن: ١/١٠ وما بعدها).

(٤) الناصر للحق الحسن الأطروش، ولد سنة ٢٣٠، وقام بدعوته في طبرستان ببلاد الديلم سنة ٢٨٤، وتوفي سنة ٣٠٤ (د. صبحي: الزيدية، ص ٢١٤ وما بعدها).

(٥) حقائق، ص ٢٠١ أ، الحكمة الدرية، ص ١٤٦ - ١٤٧.

ظهر الهادى إلى الحق بأرض اليمن وكان أكثر أهل اليمن مجبرة، فجاهدهم - عليه السلام - جهادا عظيما، وقتلهم قتالا جسيما، حتى ظهر الحق بأرض اليمن، وبين شريعة جده محمد ﷺ وأظهرها، ثم كذلك أولاده - عليه السلام - من بعده، حتى كثر شيعتهم وأتباعهم.

وكانت الزيدية باليمن فرقة واحدة، حتى دخل عليهم الشيطان بسحره، فمزق منهم فرقان^(١): المطفية والحسينية^(٢).

المطفية:

ذكرنا فى مصنفات أحمد بن سليمان أنه كتب بعض الرسائل فى الرد على المطفية أو من يطلق عليهم اسم مذهب الزيدية المخترعة، ويذكر الزحيف فى مآثر الأبرار أن الإمام أحمد بن سليمان استعان فى الرد على المطفية بالقاضى جعفر بن أحمد بن عبد السلام (ت سنة ٥٧٣) الذى كان عالم الزيدية المخترعة (أى المطفية) وإمامها، وذلك بعد رحلته إلى العراق، ورجوعه عن التطويف، حيث عاد إلى اليمن يحمل الكثير من العلوم التى لم يصل إليها أحد سواه، وأصبح من أنصار الإمام أحمد ابن سليمان الذى طلب منه القيام بالرد على المطفية فقال له القاضى جعفر: «قد عرفت ما تقول، ولكن القوم (المطفية) كثير، وقد صاروا ملء يمتنا هذا، فلو أنكرت عليهم لرمونى من قوس واحدة، وأنت يا مولانا تبعد وتقرب، وإنى أخافهم، ولا طاقة لى بهم...»، و أخيرا اضطر إلى مناقشتهم وتفنيد دعاوهم^(٣). وبدل هذا النص على مدى تغلغل مذهب المطفية فى اليمن وانتشاره، فى عهد الإمام أحمد بن سليمان، وظلت شوكتهم قوية حتى قام الإمام عبد الله بن حمزة بقتل الآلاف منهم وتخريب ديارهم ومساجدهم فى بعض مناطق اليمن وبخاصة أهم مراكز لهم فى سناح إحدى ضواحي صنعاء الجنوبية^(٤).

والمعلومات عن فرقة المطفية شحيحة، نظرا لما تعرضت له من التشييت والإبادة، وما توافر من معلومات لا يعطى فكرة كاملة عن نشأتها، ولا عن عقائدها، ولا عن

(١) الحكمة الدرية، ص ١٣٣.

(٢) الإمام الزيدى أحمد بن سليمان ص ١٤٩ د. عبد الفتاح أحمد فؤاد.

(٣) مآثر الأبرار، ص ١١٦ أ - ب.

(٤) زيارة: أئمة اليمن: ١٣٢/١ - ١٣٦.

نهايتها. ويذهب الدكتور عبد العزيز المقالح إلى أن القدر اليسير من المعلومات التي وصلتنا عن هذه الفرقة تكشف عن أنها كانت حركة فكرية اعتزالية، حاولت بسط نفوذها الفكرى على جميع المناطق اليمنية، وتمكنت فى وقت قصير من إقامة مجموعة من «الهجر» الدينية أو مراكز الدعوة، وقد حال بينها وبين أن تحقق انتصارا باهرا مجموعة أسباب وعوامل، منها أنها ركزت فى حركتها على الجانب الفكرى ولم تهتم بالحكم، ولا ما يرتبط به من جوانب سياسية وعلمية، والعامل الآخر أنها وقعت بين خصمين فكريين قويين يتنافسان فى حكم اليمن، وهما الزيدية والإسماعيلية، وقد ساعدت كل من القوتين الآخرين على زعزعة الفكر الجديد وتمزيقه ثم الإجهار عليه.

وقد استطاع مطرف بن شهاب، مؤسس الفرقة أن يجعل من هجرة سنعا المركز الذى أطلق منه دعائه إلى صنعاء وبقية المناطق اليمنية، وقد حقق الدعاة انتصارا ساحقا، وصار للدعوة الجديدة أكثر من مركز، من بينها هجرة «قاعة» فى البون، وهجرة «وقش»، وهجرة «مدر» فى همدان وغيرها، وقد كانت هجرة وقش أشهر هذه المراكز وأهمها، وربما كانت المركز الرئيسى للمطرفية بعد أن تضعض مركزهم الأول فى سناع بسبب قربيه من صنعاء ويسبب الغارات المتوالية عليه من أتباع النظام الإمامى.

ويبدو أن من بين الأسباب التى أدت إلى ظهور معتزلة المطرفية، ونشر دعوتهم ما كانوا قد عرفوه عن قرب غروب الدولة الإسماعيلية، وعن تحول الإمامة نحو الملكية المطلقة؛ إذ لم تعد قضايا الفكر تهم الأئمة بمقدار ما يهمهم توطيد نظام الحكم واتساع سيطرتهم على أكبر رقعة من البلاد، فكان لابد أن ينفصلوا عن الزيدية، ويعتقوا أفكار المعتزلة بعيدا عما علق بها من فكر الزيدية^(١).

إلا أن المعلومات التى يمدنا بها أحمد بن سليمان عن المطرفية لا تثبت لنا أن هذه الفرقة هى إحدى الفرق المعتزلية الخالصة على نحو ما ذهب إليه الدكتور المقالح، بل ينسب صاحب حقائق المعرفة للمطرفية أفكارا مناقضة تماما لفكر المعتزلة مثل مذهب الجبرية، والقول بقدّم القرآن، ونفى خلقه، وأنه كلام نفسى ومن المعلوم أن هذه العقائد الأشعرية مخالفة لمذهب المعتزلة، كما أن الشذرات التى حفظها لنا أحمد بن سليمان عن المطرفية. تدل على تأثرهم بمذاهب فلاسفة اليونان ومن حذا حذوهم من فلاسفة الإسلام، مثال ذلك نظرية آتباد وقليس فى العناصر الأربعة، وآراء الطبيعيين الذين

(١) د. المقالح: قراءة فى فكر الزيدية والمعتزلة، ص ٨٤ - ٨٥.

أعلنوا أن العالم يتأثر بعوامل طبيعية بحتة؛ إذ ينسب أحمد بن سليمان للمطرية القول بأن «العالم يحل ويستحيل»، وأنهم «أوجبوا الأفعال للجملادات»، ويذكر أن الإمام عندهم مكتسبة، وأنها فعل العبد مما يدل على خروج المطرية على أهم أصل من أصول الزيدية وهو أن الإمامة تقتصر على أولاد الحسنين فقط، وإبطال هذا الشرط يعد تقويضا للأساس الذي يقوم عليه نظام الإمامة في اليمن، وهو الذي يستند إليه أحمد بن سليمان نفسه من حيث هو إمام زيدى، وهذا يفسر لنا الخصومة الشديدة التي نشأت بينه وبين هذه الفرقة المنشقة، وكذلك يفسر لنا لماذا قاتلهم بعد ذلك الإمام عبد الله بن حمزة بعد أن حكم بتكفيرهم؟

والروايات التي يرويها أحمد بن سليمان عن المطرية مقتضبة ومبتورة وغامضة بل ومتناقضة، ولا يدل هذا على فهمهم لمذاهبهم وآرائهم، وإنما كان الإمام في الغالب يتعمد تشويه آراء خصومه، وإظهار ما فيها من مروق من الدين، وخروج على قواعد الفكر الأساسية، ووقوع في التناقض الصريح، فهم من ناحية مجبرة «نسبوا أفعال الأديين إلى الله تعالى»، ومن ناحية أخرى أثبتوا الفعل للجملاد. تارة يقول على مذهبهم إنه «مذهب المجبرة بعينه» وتارة أخرى ينسب لهم القول: «إن جميع الأرزاق ليست من الله، ولكنها تحصل بالاكتساب والضرب في الأرض والتحصيل» وأغلب الظن أن الإمام المتوكل كان يلزم المطرية - الذين قاموا بثورة على نظام حكمه - بآراء لم تصدر عنهم، فإذا دعوا الناس إلى العمل وزيادة الإنتاج، وقالوا: إن الأرزاق تحصل بالاكتساب والضرب في الأرض والتحصيل، ألزمهم الإمام ابن سليمان القول: إن جميع الأرزاق ليست من الله.

إنه تشويه متعمد ونحو شديد على الخصوم، فضلا عن تشويه مذهبهم تارة بالنصارى، وطورا باليهود، مع التأكيد على أن رعيم الثوار مطرف بن شهاب كان تلميذا لأحد الباطنية، ومن ثم فإن جذور المطرية تستمد حياتها من أرض غير صالحة، وإنما من بيئة تضم عناصر الكفر والإلحاد والفجور.

يعرف الإمام المتوكل على الله المطرية بأنهم أتباع رجل يقال له مطرف بن شهاب، وكان قد درس هو وصاحبان له على رجل من الباطنية يقال له حسين بن عامر، ثم إنهم عمدوا موضعا يقال له سناع بأرض صنعاء، وبنا فيه هجرة (أى قرية أقاموا فيها)، كما بنوا فيه مسجدا، وأظهروا فيه العبادة والزهد، واستدعوا الناس إلى الدراسة، وعلموا أن الناس لا يتبعونهم إلا بهذه الفراسة.

وجعلوا قواعد دينهم وأساسه، أن قالوا: إن العالم يحيل ويستحيل وقالوا: إن الله تعالى ساوى بين الخلق فى ست: فى الخلق والرزق والموت والحياة والتعبد والمجازاة، ونفوا جميع الأفعال عن الله ذى الجلال، وأوجبوا الأفعال للجمادات.

وأما نفيتهم الأفعال عن الله فإنهم قالوا: إن الله تعالى ما قصد خلق شيء من الأشياء غير الأصول الأربعة، ومنهم من زاد أوائل الأشياء، فإذا سألتهم عن القصد ما هو؟ قالوا: الخلق، وكأنهم إذا قالوا: ما قصد، فقد قالوا: ما خلق، فمن هاهنا نفوا الخلق عن الله - سبحانه - وأثبتوا الفعل من الجمادات، مصرحين بذلك، ونفوا الأفعال عن جميع الحيوانات أيضا، وعن المتعبدين؛ لأن أفعال الحيوان أعراض، ووصفوا الأعراض، بأن كونها فناؤها، فكأنها لم تكن...

ثم قالوا: إن البهائم لا تقدر على فعل شيء، فلا تفعل شيئا؛ لأن أفعالها فعل الله تعالى. قالوا: من طريق الطفرة، لا من طريق القصد.

ثم نسبوا أفعال الآدميين إلى الله تعالى، من حيث قالوا: ما للإنسان من فعله إلا حركة يده... ودخلوا مع المجبرة فى هذا الباب.

ونسبوا ضربة ابن ملجم - لعنه الله تعالى - لأمر المؤمنين - عليه رضوان الله - إلى الله تعالى؛ لأنهم قالوا: ما لابن ملجم فيها إلا حركة يده، وخلق الجلد واللحم والعظم فعل الله تعالى، وهذا مذهب المجبرة بعينه، وكذلك سائر الأفعال عندهم.

فأما قولهم فى أفعال البهائم: إنها أفعال الله تعالى، ففى أفعال البهائم المليح والقييح، فقد نسبوا القبيح إلى الله تعالى كما قالت المجبرة.

وأما قولهم: إن الله ساوى بين الناس فى ست: فى الخلق والرزق والموت والحياة والتعبد والمجازاة، فالاختلاف فى ذلك ظاهر فى كل واحدة منهن، وإنما غرضهم التوصل إلى أنه لم يخلق الست التى رعموا أنه ساوى بين الخلق فيها.

وتكلموا فى القرآن بأن قالوا: إنه صفة ضرورية لقلب الملك^(١) الأعلى لا تفارقه. وهذا دليل من قولهم على أنه عندهم لم يزل.

(١) يروى أيضا القاسم بن محمد عن المطرفية قولهم فى كلام الله أنه «فى نفس الملك» (كتاب الأساس، ص ١٤٨).

ويواصل أحمد بن سليمان عرض آراء المطرفية، فيحكي عنهم أنهم قالوا: إن النبوة والإمامة فعل العبد، فليسا بفعل الله تعالى، وهذا خلاف العقل والكتاب والإجماع.

ومما يدل على أنهم أنكروا نزول القرآن (أنهم) لا يلتزمون بحجة القرآن، ولا بما جاء به محمد ﷺ من البيان، وأنهم يرجعون في جميع أقوالهم إلى عقولهم الفاسدة، وإلى مشايخهم المرتدة المعاندة.

ومما قالوا به: إن أسماء الله تعالى هي هو وليست غيره، وهي قديمة، وقد وافقوا في هذا القول قول النصارى؛ لأنهم (أى النصارى) قالوا: إن الله ثلاث ثلاثة أشياء وهي شيء واحد؛ لأنهم عبروا^(١) بالأشياء والأصول أنها الأقسام، والآقسام عندهم هي الأصول، وقالوا: الله تعالى ثلاثة أقانيم: أب وابن وروح قدس، وقالوا: هذه الثلاثة أشياء ذات واحدة. . (وكذلك) قالت المطرفية: إن أسماء الله هي هو، وهي كثيرة فجعلوه ذاتا واحدة، فلا فرق بين قولهم وبين قول النصارى، إلا أنهم زادوا عليهم فجعلوها أكثر مما قالت النصارى.

ومما قالت المطرفية: أنهم قالوا: إن جميع الأرزاق ليست من الله، ولكنها تحصل بالاكْتِسَاب والضرب في الأرض والتحصيل. وسائر الأسباب نفوها عن الله الخالق الوهاب، وقد خرجوا بذلك عن الحدود، ووافقوا قول اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ...﴾ [المائدة: ٦٤]. وهذا القول لم يقل به مسلم ولا كافر إلا من قال بمقالة حسين بن عامر^(٢).

وقد احتججنا عليهم، ووضعنا كتبنا^(٣)، فيها من الاحتجاج عليهم ما فيه كفاية، وكذلك قد ألف القاضي لأجل شمس الدين جعفر بن محمد بن أبي يحيى^(٤) - أيده الله تعالى - كتباً كثيرة، واحتج عليهم احتجاجاً واسعاً، استغنينا بذلك عن إعادة الاحتجاج ها هنا، واكتفينا أيضاً بأن جميع ما يعتقدونه - مما خالفوا به جميع الإسلام - منكر ظاهر، يعرفه البار والمفاجر^(٥).

(١) كذا في المخطوطة، ويمكن أن تقرأ: «عدوا» أو «عنوا».

(٢) سبقت الإشارة إلى أنه أحد رجال الباطنية الذين تلمذ عليهم مطرف بن شهاب.

(٣) مثل الرسالة الهاشمية لأئمة الضلال من مذاهب المطرفية الجاهل، وكذلك الرسالة الصادقة في بيان ارتداد الفرقة المارقة. راجع مصنفات أحمد بن سليمان.

(٤) المتوفى سنة ٥٧٣ وقد سبقت الإشارة إليه.

(٥) الحكمة الدرية، ص ١٣٣ - ١٣٦.

الحسينية:

انشق على زيدية اليمن في عصر المتوكل أو قبله، أى في القرنين الرابع والخامس للهجرة، فرقتان إحداهما المطرفية التى عرفنا أنها سادت مناطق عديدة فى اليمن، وأمست خطرا يهدد كيان النظام الإمامى. أما الفرقة الأخرى المنشقة على العقيدة الرسمية للدولة فى ذلك العصر، فيبدو أنها كانت أقل خطورة من المطرفية، هذه الفرقة الثانية هى الحسينية، ويذهب أحمد بن سليمان إلى أنه قد ظهر لهذه الفرقة إمام يقال له الحسين بن القاسم^(١)، دعا إلى الإمامة، وألف فى التوحيد كتابا سماه «كتاب المعجز»، وهذا أول الخطأ فى تسمية الكتاب بالمعجز لأن المعجز كتاب الله تعالى.

وكان أكثر ما فيه أن احتج على عباد الأهوية^(٢). ثم قال (الحسين بن القاسم) بعد ذلك: إن العرش هو الله، فبينما هو يحتج على عباد الأهوية حتى جاء بمثل ما قالوا، ولم يسمع قول الله عز من قائل: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ [التوبة]، فكيف يكون الله تعالى رب نفسه؟ ولم يسمع قول الله تعالى: ﴿... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)﴾ [الحاقة] فكيف يكون الله محمولا؟

وفى كتاب المعجز أيضا قال: إن أسماء الله تعالى هى الله، والأسماء هى الأشياء الكثيرة على ما ورد فى الخبر عن النبى ﷺ أنه قال «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة» فجعل الله أشياء كثيرة، وقد قال عز من قائل ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا... (١٨٠)﴾ [الأعراف] ودخل عليها الجمع والتأنيث ولام التملك، فكيف الله تعالى يدخل عليه الجمع والتأنيث ولام التملك؟

ثم انتهى أمر الحسين بن القاسم إلى أن قال: إنه أفضل من رسول الله ﷺ، وأن كلامه أبهر من كتاب الله، ثم كتب إلى إمام مسجد الهادى إلى الحق بصيغته، وكان عالما عابدا عقيفا ورعا زاهدا، من بنى الهادى إلى الحق - عليه السلام -، وهو المحسن

(١) هو المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن على العياني (ت. سنة ٤٠٤ هـ) برآه عبد الله بن حمزة وحميد بن يحيى من تهمة المروق من المذهب الزيدى وأن ما نسب إليه من أقوال إنما هى مفتراة عليه من أعدائه وبخاصة المطرفية، وذلك لغزارة علمه مع صغر سنه؛ إذ قتل وستة نيف وعشرون عاما، ألف فيها ثلاثا وسبعين مؤلفا (د. صبحى، ص ٧٤٦).

(٢) احتج عليهم صاحب حقائق المعرفة فى الباب الثانى على نحو ما رأينا.

ابن محمد المختار بن الناصر بن الهادي ولي الحق. كتب إليه الحسين بن القاسم كتابا يقول فيه:

«أما بعد أيها الفاسق المنافق النجس الرجس البغيض، فإنه بلغني أنك تهجوني، تزعم أنني لست بالمهدي، أنا وأنت ومن معك بكل علم أنزل الله والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وبكل علم أنزله الرحمن؟ فما يكون في علمي إلا كالمحجة في البحر. ومن أنت يا مسكين؟ وما الفرق بيني وبين الأنبياء الأخيار، والأئمة الأطهار، إلا كفرق ما بين الليل والنهار».

فرد عليه المحسن بن محمد - رحمه الله - جواب عاقل عالم، فذم الرفث والقول الشنيع، ردا طويلا، وعد كلام الحسين بن القاسم هذا ضربا من ادعاء الربوبية^(١).

إن ظهور أقوال مثل هؤلاء المفسدين - يبرر في نظر أحمد بن سليمان - الاشتغال بالرد عليهم، فهذا دور العلماء عامة، وأهل البيت خاصة، لقول الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلُ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وقول رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع بعدى فليظهر العالم علمه، فإن لم يفعل لعنه الله تعالى»^(٢).

وهكذا وجب الرد على أصحاب الفرق الضالة جميعا، والتمييز بينها وبين الفرقة الناجية، وهي بطبيعة الحال - فيما يؤكد أحمد بن سليمان - فرقة الزيدية. وقد اختتم بها كتابه الحكمة الدرية، حيث كان عنوان الفصل الأخير «في ذكر الفرقة الناجية الزيدية».

(١) الحكمة الدرية، ص ٣٧، ١٣٨.

(٢) الحكمة الدرية، ص ١٣٩.



المحتويات



الصفحة	الموضوع
٣	تقديم
٧	تقديم بقلم/ سيد هادي خسرو شاهي
١٧	مقدمة
	الباب الأول
	المشكلة السياسية العظمى
	الفصل الأول
٢٧	الخلافة والقوى المضادة
٣١	قوى العصبية القبلية المضادة «المرتدون»
٣١	أ - المرتدون
٣٤	ب - المتنبيون
٣٧	ج - قبائل الردة، قبائل الخوارج ومن غدروا بالحسين
	الفصل الثاني
٤١	الخروج على الشيعة
٤١	روح الاستياء العام
٤٢	السيدة عائشة والدعوة الظالمية: الثار لعثمان
٤٥	طلحة والزبير يتغيرون على الإمام علي

الصفحة	الموضوع
٤٨	وكانت موقعة الجمل صدعا لا يلتئم
	الفصل الثالث
	قوى الشام المضادة
٤٩	معاوية وعمرو بن العاص
٤٩	غفلة أهل الشام
٥٢	معاوية وبيعة الإمام علي
٥٥	معاوية يخطط للصراع المسلح
٥٧	فكرة رفع المصاحف: التحكيم
٥٩	كتاب التحكيم ما له وما عليه
٦٣	قراء المعسكر العراقي
٦٦	الخوارج أو المحكمة
٦٧	ليس كل ما من اعترض على التحكيم خارجيا
	الباب الثاني
٦٩	فقه النص على إمامة الإمام علي
	الفصل الأول
٧١	الإمام علي
٧٣	التآمر على قتل الإمام علي
	الفصل الثاني
٧٧	الفكر السبئي
٨٠	هل عمار هو ابن السوداء؟
٨٥	رأى الوردى فى الميزان

الصفحة	الموضوع
٨٦	عمار بن ياسر وابن سبأ
٨٧	عبد الله بن سبأ
٩٨	أصول مبادئ السبئية
	الفصل الثالث
١٠٣	علي والحق الإلهي
١٠٥	صحيفة الجفر
١٠٨	الإمام علي والحق النصي
١١٠	تصحيح الطبري لرواية غدير خم
١١٣	حديث الصحيفة
١١٧	أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة
١٢٠	التشيع السياسي والروحي
١٢١	الإمامية من أولاد فاطمة
١٢٣	الشيعة تحدد نفسها
١٢٣	الشيعة بين النشأة العربية والفارسية
١٢٤	السبئية وكبرى المختار
١٢٥	حزب علي هو شيعته
١٢٦	سبب تشيع إيران
١٢٨	ظهور بواكير مصطلح الشيعة
١٢٩	وثيقة التحكم وظهور مصطلح الشيعة السياسي
	الفصل الرابع
١٣٥	القبائل المنتصرة للإمام علي
١٣٦	مع النشأة النصبية

الصفحة	الموضوع
١٣٨	غدير خم والوصية
١٣٩	من أدلة الشيعة
١٤٠	أصل التشيع النصي
١٤٢	لفظة الشيعة
١٤٦	علي يعاتب أبا بكر
١٤٧	علي ينفي الحق الشرعي
١٤٨	علي وأبو سفيان وأحقية أبي بكر
	الباب الثالث
	الشيعة العربية
١٥٥	الحسن والحسين
	الفصل الأول
١٥٧	نشأة الشيعة وأصولها
١٥٧	عروبة الفرق والطموح السياسي
١٥٩	نشأة الشيعة في الوضع اللغوي والتاريخي والاصطلاحي
١٦٠	مع السقيفة وظهور فكرة التشيع
	الفصل الثاني
١٦٥	شيعة الحسن والحسين
١٦٥	الحسن بن علي وحق التنازل عن البيعة
١٦٦	معاوية بن يزيد يتحسر على أهل الشورى
١٦٧	بيعة الحسن بن علي
١٦٨	الحسن بين البيعة وادعاء النور الإلهي

الصفحة

الموضوع

- ١٧٠ مآخذ المستشرقين على الحسن في الميزان
- ١٨١ رأى الحسين بن علي في بيعة الحسن لمعاوية
- ١٨٨ وفاة الحسن بن علي - عليهما السلام
- الفصل الثالث
- الشهيد الإمام الحسين
- ١٨٩ وحق العدل السياسي
- ١٨٩ الحسين والحق السياسي
- ١٩٦ القائد مسلم بن عقيل يفتقر إلى السياسة
- ٢٠٣ استشهاد الحسين نقطة تحول في التاريخ
- ٢٠٠ عمر بن سعد بن أبي وقاص يحاصر الحسين في كربلاء

الباب الرابع

الصراع السياسي بين الشيعة العربية

بعد الحسن والحسين

الفصل الأول

سليمان بن صرد

- ٢١١ واضح ميثاق حركة الشيعة المعتدلة
- ٢١١ الزعيم السياسي الأول للشيعة
- ٢١٢ ميثاق الشيعة العربية بعد الحسين
- ٢١٥ الصراع القبلي في الكوفة يميز الأشراف والشيعة والموالي
- ٢١٧ ال البيت والتاريخ المظلم
- ٢٢٠ حركة التواوين الشيعية الكوفية والتخطيط السري

الصفحة	الموضوع
٢٢٢	الشيعة ترفع شعار الثار للحسين
	الفصل الثاني
	المختار الثقفي
٢٢٩	واضع مبادئ الشيعة الغالبة
٢٣٠	حوار المختار مع ابن الزبير
٢٣١	نهاية زعيم حركة التوايين
٢٣٥	ابن الزبير يعادى بنى هاشم
٢٣٨	بوادى ظهور أفكار الشيعة الغالبة
٢٣٥	المختار بضربه حليفه
٢٤٤	نهاية المختار وصحوة الموالي
٢٥٦	مبادئ عبد الله بن سبأ
٢٦٧	تفجير الصراع بين آل بيت علي والخليفة هشام
	الباب الخامس
	الإمام زيد والزيدية
٢٧٥	مقدمة
	الفصل الأول
٢٧٧	فرق الشيعة الثلاث
٢٧٧	الجو العام لتاريخ الشيعة
٢٨١	التعريف بالإمام زيد بن علي

الصفحة	الموضوع
٢٨٤	صفات الإمام زيد
٢٨٧	أساتذته وشيوخه
٢٨٩	خروج زيد وأسبابه
٢٩٥	نهاية زيد بن علي واستشهاده
	الفصل الثاني
٢٩٩	الدولة الزيدية
٣٠٣	بنو بويه والزيدية
٣٠٧	الزيدية في نظر الشهرستاني
٣٠٩	الزيدية بعد الإمام زيد
٣١٠	فرق الزيدية
٣١٦	أهل البيت والزيدية
٣١٨	الزيدية ليست رافضة
٣١٩	الزيدية فكر ومنهج الاثمة
٣٣٠	خروج زيد بن علي
	الفصل الثالث
٣٤٣	الزيدية والمعتزلة
٣٤٣	١ - القلقون من العلاقة
٣٤٨	٢ - المثبتون
٣٥١	دخول كتب الاعتزال اليمن

الصفحة

الموضوع

الباب السادس الإمامة بين حق الأئمة والقول بالحق الإلهي الفصل الأول

٣٥٧	الزيدية والفكر السياسي
٣٥٨	أصول الإمامة عند الزيدية
٣٦١	نصب الإمام
٣٦٣	شرعية ولاية الإمام علي
٣٧٧	نظرية الخروج ومن خرج

الفصل الثاني

٣٨٩	طبقات رجال المذهب الزيدي
٣٨٩	الطبقة الأولى
٣٨٩	الطبقة الثانية
٣٩٠	الطبقة الثالثة
٣٩٠	الطبقة الرابعة
٣٩٢	آثاره في الفقه والحديث

الفصل الثالث

٣٩٣	الأصول العقدية عند الزيدية
٣٩٣	الوحي
٣٩٤	معاني القرآن
٣٩٧	مقاصد الشريعة الإسلامية
٣٩٨	مصادر التشريع الإسلامي
٤٣١	المحتويات

دار الفكر العربى

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

مؤسسها : محمد محمود الخضرى

الإدارة

وإدارة التسويق

٩٤ شارع عباس العقاد مدينة نصر القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - ٢٧٥٢٧٩٤ فاكس ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

الإدارة المالية:

١١ ش جواد حسنى - القاهرة
ص. ب : ١٣٠ - الرمز البريدى ١١٥١١
فاكس : ٣٩١٧٧٢٣ (٠٠٢٠٢)
ت : ٣٩٢٥٥٢٣ - ٣٩٢٠٩٥٦

نشاط

المؤسسة

- ١ - طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية فى شتى مجالات المعرفة والعلوم
- ٢ - استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية.

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية :

فرع مدينة نصر: ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر القاهرة

ت ٢٧٥٢٧٩٤ - ٢٧٥٢٩٨٤ فاكس ٢٧٥٢٧٣٥

فرع جواد حسنى: ١٦ شارع جواد حسنى - القاهرة

ت ٣٩٣ ١٦٧

فرع الدقى : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المتفرع من شارع محمد شاهين

- العجوزة ت ٣٣٥٧٤٩٨

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر

مؤسسة دار الكتاب الحديث



الدكتور
محمد إبراهيم الفيثومي

* من مواليد قرية أوليلة - ميت غمر - دقهلية في

١٩٣٨ / ١ / ٢٧ م

* حصل على ماجستير الفلسفة الإسلامية من كلية أصول الدين - جامعة الأزهر في عام ١٩٦٨ م.

* سافر إلى فرنسا عضواً في بعثة الأزهر للدراسة

الفلسفة الإسلامية « بالسريون » - جامعة

باريس وحصل على دبلوم عال في الفلسفة

الإسلامية في ١٩٧١ م - ١٩٧٣ م.

* حصل على دكتوراه الفلسفة الإسلامية من كلية

أصول الدين - جامعة الأزهر في سنة ١٩٧٤ م.

* عين مدرسا للفلسفة بكلية أصول الدين

بالقاهرة.

* أعير إلى كلية التربية - جامعة قطر وساهم في

إنشاء كلية الشريعة والدراسات الإسلامية .

* عين أستاذاً للفلسفة الإسلامية وعميدا لكلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنين - جامعة

الأزهر ١٩٨١ م.

* أعير إلى سلطنة عمان

مشروع جامعة السلطنة

* عضو مجلس إدارة

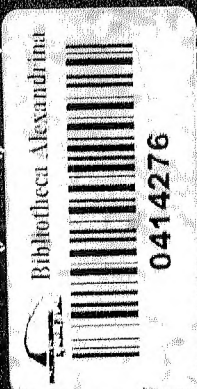
* عضو المجالس القومية

* انتدب سنة ١٩٩٣ م

للشئون الإسلامية

* انتخب عضواً بمجمع

٢٠٠٠ م.



« تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني »

دراسة تساليج موضوع الفرق الإسلامية بحثاً عن

أسبابها : السياسية والدينية والاجتماعية ، وعن العلل

التي أصابت المجتمع الإسلامي بالانحلال السياسي

والاجتماعي .

وبالرغم من أن موضوع الافتراق قد أشار إليه

الرسول ﷺ في حديثه : « ستفترق أمتي ... » . لقد احتار

العلماء في شرحه ، وتكلفوا في تصنيف الفرق حتى يبلغ

تفرقها إلى اثنتين وسبعين أو ثلاث وسبعين ، وكان

تكلفهم شديداً يحمل عسر التأويل ومخالفاً لقانون

النشوء والارتقاء والسنن الطبيعية لتطور الأشياء ، إذ من

الصعب أن يحصل عصر واحد مخاض ولادة جميع

الفرق الإسلامية التي أشار إليها الحديث . وكأن قانون

التطور وقف عند القرون الأولى . بينما الحديث ورد في

ذم التفرق ومادحا الوحدة الواحدة .

فالدراسة تقويم وتقييم وتحليل ومقارنة وتحليلة

رؤية ، ترصد من خلالها مستقبل نهضة المجتمع الإسلامي

وبعنه من خلال أحداث التاريخ الإسلامي . فهي دراسة

للتاريخ الإسلامي قبل أن تكون دراسة عقائد الفرق ،

على ضوء ما أراه : إن كل تغيير يلم بالمجتمع وراءه فكر .

وقد تضمنت الموسوعة الكتب التالية :

* الحوار والمرجئة .

* الشيعة العربية والزيدية .

* الشيعة الشعبية والإثنا عشرية .

* المعتزلة - تكوين العقل العربي .

* شيخ أهل السنة والجماعة « أبو الحسن

الأشعري » - جدل نقدي لعلم الكلام .

* شيخ أهل السنة والجماعة « أبو منصور

الماتريدي » - وحدة أصول علم الكلام .

I.S.B.N. 977-10-1629-6

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر

دار الكتاب الحديث